

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا ﴾ أى : إنما جازيتكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرى تسخرون وتستهنئون بها ﴿ وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : خدعتكم فاطمأنتم إليها فأصبحتم من الخاسرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ﴾ أى : من النار ، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى : لا يطلب منهم العتبي بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب كما قال سبحانه : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَهُمْ مِنَ الْمُتَعْتَبِينَ ﴾^(١)

قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ . رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : لله الحمد على أياده على خلقه ، فأياه فاحمدوا ، وله فاعبدوا ، فكل ما بكم من نعمة فهو مصدرها سبحانه وهو مالك السموات السبع ، ومالك الأرضين السبع ومالك جميع ما فيهن ﴿ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : وله الجلال والعظمة والسلطان فكل شيء خاضع له فقير إليه وفي الحديث القدسي يقول رب العزة : « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منهما أسكتته نارى »^(٢) أخرجه أحمد ومسلم ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : وهو العزيز الذى لا يمانع ولا يغالب ، لحكيم فى أفعاله وأقواله . تقدس ربنا جلت قدرته ، وعظمت آلاؤه . فله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٣) .

اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أنت ربنا وإليك المصير ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، أنت إلهى لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك «

(١) سورة فصلت الآية : ٢٤

(٢) مسلم — كتاب البر — باب تحريم الكبر ٢٠٢٣/ ٤ رقم ٢٦٢٠ ، ومسنند أحمد ٢٤٨/ ٢ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٧٢ ، وسنن داود — كتاب الناس — باب ما جاء فى الكبر ٣٥٠/ ٤ رقم ٤٠٩٠ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب البراءة من الكبر ،

١٣٩٧/ ٢ رقم ٤١٧

(٣) سورة القصص الآية : ٧٠

تفسير سورة الأحقاف

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، آياتها خمس وثلاثون ، كلماتها : ثلاثمائة وأربع وأربعون . وحروفها : ألفان وخمسمائة وخمس وتسعون .

فواصل آياتها : (من)

وسميت بسورة الأحقاف ، لقوله فيها : ﴿ إذ أنذر قومه بالأحقاف ﴾

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : إلزام الحجة على عبادة الأصنام ، والأجفاء عن تناقض كلام المتكبرين ، وبيان نبوة سيد المرسلين ، وتأكيده ذلك بحديث موسى ، والوصية بتعظيم الوالدين ، وتهديد المتنعمين والمترفين ، والإشارة بأهلاك عاد العادين ، والإشارة إلى الدعوة ، وإسلام الجن ، وإتيان يوم القيامة فجأة ، واستقلال لبث اللا بئين في قوله : ﴿ كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾

المتشابهات :

ما في هذه السورة من التشابه سبق ذكره
وجه اتصالها بما قبلها :

ووجه اتصالها بما قبلها : أنه — تعالى — ختم السورة السالفة بالتوحيد وذم أهل الشرك وقوعدهم عليه ، وافتتح هذه بالتوحيد وتوبيخ المشركين على شركهم أيضاً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
 وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا
 خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٣﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ
 دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٥﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
 عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ
 افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ
 الرَّحِيمُ ﴿٧﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعَاةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا
 نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ۚ فَقَامَ
 وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا نَسَبُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا
 مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ۚ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١٠﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ ۚ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا
 وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا
 رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا
 جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

معاني المفردات

(أجل مسمى) هو يوم القيامة ، (أنذروا) أى : خوفوا ، (معرضون) لاهون ، (تدعون) أى :
 تعبدون ، (شرك) أى : نصيب ، (أثرة) أى : بقية ، (كافرين) مكذبين ، (للحق) المراد بالحق
 هنا : آيات القرآن ، (افتراه) كذب عليه عمداً ، (فلا تملكون لى من الله شيئاً) أى : لا تغنون عنى
 من الله شيئاً إن أراد عقابى ، (تفيضون فيه) أى : تخوضون فيه من تكذيب القرآن (بدعاً) البدع والبدع
 من كل شيء : المتبدع المحدث دون سابقة له ، (أرايتم) أخبروني ماذا هالكم ، (إفك قديم) كذب متقدم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ حم • تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ * يخبر — تعالى — أنه أنزل الكتاب على عبده محمد — ﷺ — ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام ، والحكمة في الأقوال والأفعال ، وبعد ما وصف — سبحانه — ذاته العلية بالعزة والحكمة ^١ين — سبحانه — أنه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق فقال تعالى : ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ .. أى : ما خلقناهما إلا خلقاً ملتبساً بالعدل ، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ، إليه ينتهى بقاؤه فى هذه الحياة الدنيا ، وهذا يستدعى أن يكون خلقه لحكمة وغاية ، وأن يكون هناك يوم معلوم للحساب والجزاء ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ^(١) .

ثم بين بعد ذلك غفلة المشركين وإعراضهم عما أنذروا به فقال تعالى : ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ أى : مع ما نصبنا من الأدلة ، وأرسلنا من الرسل ، وأنزلنا من الكتب — بقى هؤلاء الكفار معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، فلا هم بما أنزل الله من الكتب اتعظوا ، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا ، وأنى لهم ذلك ؟ فهم صم بكم عمى لا يعقلون ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ ^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ قل أرايتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ أى : (قل) يا محمد هؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿ أرايتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض ﴾ ؟

كقوله تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تُميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ ^(٣) ، ﴿ أم لهم شرك فى السموات ﴾ ؟ أى : ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض وما يملكون من قطمير ، إن الملك والتصرف كله إلا لله — عز وجل — فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به ؟ من أرشدكم إلى هذا ؟ من دعاكم إليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ ائتونى بكتاب من قبل هذا ﴾ أى : هاتوا كتاباً

(١) سورة الجاثية الآية ٢٤

(٢) سورة الفرقان من الآية ٤٤

(٣) سورة لقمان الآيتان ١٠ — ١١

من كتب الله المنزلة على الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — يأمركم بعبادة هذه الأصنام ، ﴿ أو أثارة من علم ﴾ أى : دليل بين على هذا المسلك الذى سلكتموه ، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى : لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم ، أم تبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول ، بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴾ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

﴿ ومن أضل ﴾ أى : لا أحد أضل وأجهل ، ﴿ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾ وهى الأصنام والأنداد ، ﴿ وهم عن دعائهم غافلون ﴾ يعنى لا يسمعون ولا يفهمون ، ﴿ وإذا حشر الناس ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ كانوا لهم أعداء ﴾ أى : هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة . قال القرطبى : فالملائكة أعداء الكفار ، والجن والشياطين يتبرءون غداً من عبدتهم ، ويلعن بعضهم بعضاً . ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء ، على تقدير خلق الحياة لها ، دليلاً قوله تعالى : ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ (٢) وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم ، ومجد المعبودون عبادتهم وهو قوله : ﴿ وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ﴾ . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ (٣) أى سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم . وقال تعالى وهو يحكى قصة الخليل إبراهيم وهو يقول لقومه : ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴾ ام يقولون افتراه ، قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم . قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ .

(١) سورة الرعد الآية ٣٣

(٢) سورة القصص من الآية ٢٥

(٣) سورة مريم الآيتان ٨١ — ٨٢

(٤) سورة العنكبوت الآية ٢٥

أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين حججنا التى أودعناها كتابنا الذى أنزلناه عليك قالوا : هذا خداع وتمويه يفعل فعل السحر فى قلب من سمعه . ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ما هو أشنع منها فقال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أى : دع هذا وأسمع القول المنكر العجيب ، إنهم يقولون : إن محمداً افتراه على الله عمراً ، واختلقه عليه اختلاقاً ، وقد أمر الله رسوله أن يبطل شبهتهم بقوله تعالى : ﴿ قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً ﴾ أى : قل لهم : لو كذبت على الله ، وزعمت أنه أرسلنى إليكم ، ولم يكن الأمر كذلك لعاقبنى أشد العقاب ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرنى منه ، فكيف أقدم على هذه الفرية وأعرض نفسى لعقابه ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ﴾ ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴿ (١) 》 .

ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله تعالى : ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ أى : هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه ، من التكذيب بالقرآن ، والطعن فى آياته ، وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى ثم أكد صدق ما يقول بنسبة علم ذلك إلى الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴾ فهو يشهد بالصدق فى البلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود ، كقوله تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ (٢) ، وكقوله : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسل ﴾ ، قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴿ (٣) 》 . وقوله : ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة ، فإن تابوا وأنبأوا إلى ربهم وصح عزمهم على الرجوع عما هم عليه ، تاب الله عليهم وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم . وقوله تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : أى لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلى فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستكرونى وتستبعدون بعثتى إليكم ، فإنه قد أرسل الله — جل وعلا — قبلى جميع الأنبياء إلى أمهم . ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ أى : لا أدرى أيخف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ قاله ابن كثير ثم قال وهذا القول هو الذى عول عليه ابن جرير وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به — ﷺ — فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا ؟ أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم .

(١) سورة الحاقة الآيات ٤٤ — ٤٧

(٢) سورة النساء الآية ١٦٦

(٣) سورة الرعد الآية ٤٢

وقوله : ﴿ إِن أَتَّبِع إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أى : إنما أنا منذر وما على إلا البلاغ والاتباع ، ﴿ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، قال مالك عن أبى النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام — رضى الله عنه — قال وفيه نزلت (وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله)^(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى . وقال ابن كثير وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام — رضى الله عنه — وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾^(٢) ، وكقوله : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾^(٣) ثم ذكر أن فى استكبارهم عن الإيمان ظلماً لأنفسهم وكفراً بآيات ربهم فقال : إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴿ أى : إن الله لا يوفق لإصابة الحق وهدى الصراط المستقيم عن من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم سخط الله لكفرهم به بعد قيام الحجة الظاهرة عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٍ ﴾ .

أى : قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيراً ما سبقونا هؤلاء إليه يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً — رضى الله عنهم — وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية . وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشاً وأخطأوا خطأ بينا كما قال — تبارك وتعالى — ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾^(٤) . وقوله : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ أى : بالقرآن ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٍ ﴾ أى : كذب قديم ، أى : فأتوا عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذى يدخل صاحبه النار ، قال رسول الله — ﴿ — « الكبر بطل الحق وغمط الناس »^(٥) .

(١) انظر صحيح البخارى « باب مناقب الأنصار » باب مناقب عبد الله بن سلام — رضى الله عنه — ص ٥ ، ص ٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه .

(٢) سورة القصص من الآية ٥٣

(٣) سورة الرعد من الآية ٤٣

(٤) سورة الأنعام الآية ٥٣

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب تحريم الكبر وبيان « ص ١ ، ص ٩٣ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لعبد الله بن مسعود برقم ١٤٧ / ٩١

وانظر سنن أبى داود « كتاب اللباس » باب ما جاء فى الكبرى ص ٤ ، ص ٣٥٢ حديث رقم ٤٠٩٢ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبى هريرة .

قوله تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ .

أى : وما يدل على صحة القرآن أنكم لا تنازعون فى أن الله أنزل التوراة على موسى وجعلها إماماً لبنى إسرائيل ورحمة لهم ، وهى قد اشتملت على البشارة بمقدم محمد ﷺ — فلا بد أن يكون محمد صادقاً فى رسالته ، وأن يكون القرآن من عند الله وقد جاء بلسان عربى لينذر الذين ظلموا أنفسهم وهو مشركو مكة ، وهو بشرى لمن أحسن عملاً كقوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هو أقوم ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ (١) ، وكقوله تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾ . أى : إن الذين قالوا ربنا الله ، لا إله غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم بذلك ، ولم يخلطوه بشرك ولم يخالفوا الله فى أمر ولا نهى — فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم كقوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم ﴾ (٣) وهنا يقول - جل وعلا - : ﴿ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أى : هؤلاء الذين قالوا هذا القول ، واستقاموا ، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبداً ثواباً من عند الله كفاء ما قدموا من صالح الأعمال فى الدنيا .

عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال — ﷺ — : « قل آمنت بالله ثم استقم » (٤) .

(١) سورة الإسراء الآيتان : ٩ — ١٠

(٢) سورة الأنبياء الآيات : ٤٨ — ٥٠

(٣) سورة فصلت الآيات : ٣٠ — ٣١

(٤) انظر صحيح مسلم — كتاب الايمان — باب جامع أوصاف الاسلام ، ص ١ ، ص ٦٥ فقد ورد الحديث بلفظ من حديث طويل عن سفيان بن عبد الله الثقفى برقم ٦٢ / ٣٨

الإحسان إلى الوالدين وأحكام أخرى

قال تعالى :

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا اتَّعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْفِيَانِ اللَّهُ وَبَلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِبُوفِئِهِمْ أَعْمَلُ لَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

معاني المفردات

﴿ ووصينا ﴾ الإيضاء والوصية : بيان الطريق القويم لغيرك ليسلكه . ﴿ إحساناً ﴾ الإحسان : خلاف الإساءة ، والحسن خلاف القبح ، والمراد أن يفعل معهما فعلاً ذا حسن . ﴿ كُرْهًا ﴾ الكره (بالضم والفتح) المشقة ﴿ حملة ﴾ أى : مدة حملة ، ﴿ فصالة ﴾ فطامه ، والمراد به : الرضاع التام المنتهى بالعظام ﴿ أشده ﴾ الأشد : القوة والعقل ﴿ أوزعنى ﴾ أى : رغبتى ووفقتى ، ﴿ فى أصحاب الجنة ﴾ أى : منتظمين فى سلوكهم ﴿ أف ﴾ صوت يصدر من الإنسان حين تضجره . ﴿ أخرج ﴾ أى : أبعث من القبر للحساب ، ﴿ خلت القرون من قبلى ﴾ أى : مضت ولم يخرج منها أحد ﴿ يستغيثان الله ﴾ أى : يقولان الغياث بالله منك ، يقال : استغاث الله واستغاث بالله ، والمراد : أنهما يستغيثان بالله من كفره ، إنكاراً واستعظماً له حتى لجأ إلى الله فى دفعه . ﴿ ويلك ﴾ دعاء عليه بالشبور والهلل ، يراد به الحث

على الفعل أو تركه إشعاراً بأن مرتكبه حقيق بأن يهلك ، فإذا سمع ذلك ارعوى عن غيه ، وترك ما هو فيه ، وأخذ بما ينجيه ، ﴿ أساطير الأولين ﴾ أى : أباطيلهم التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة . ﴿ حق عليهم القول ﴾ أى : وجب عليهم . ﴿ من الخاسرين ﴾ أى : من الذين ضيعوا نظرهم الشبيه برعوس الأموال باتباعهم همزات الشياطين . ﴿ درجات ﴾ الدرجات : المنازل واحدها درجة ، وهى المنزلة . ﴿ طياتكم ﴾ أى : شبابكم وقوتكم يقولون : ذهب أطيباه ، أى : شبابه وقوته . ﴿ الهون ﴾ أى : الهوان والذل ﴿ تفسقون ﴾ أى : تخرجون عن طاعة الله .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات توحيده — سبحانه — وإخلاص العبادة له ، والاستقامة فى العمل ، أردف هذه الوصية بالوالدين ، وقد فعل هذا فى غير موضع من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾^(١) ثم ذكر حال السعداء البررة بهما وما أعد لهما من الفوز والنجاة فى الدار الآخرة ، وأيضاً حال الأشقياء العاقين للوالدين المنكرين للبعث والحساب ، المحتجين بأن القرون الخوالى لم تبعث ، ثم رد الآباء عليهم بأن هذا اليوم حق لا شك فيه ، ثم بإجابة الأبناء لهم بأن هذه أساطير الأولين ، ثم بين أن أمثال هؤلاء ممن حق عليهم القول بأن مصيرهم إلى النار . ويقال لهم حين عرضهم على النار : أنتم قد تمتعتم فى الحياة الدنيا واستكبرتم عن اتباع الحق ، وتعاطيتم الفسوق والمعاصى ، فجازاكم الله بالإهانة والحزى والآلام الموجبة للحسرات المتابعة فى دركات النار .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذرىتى إلى تبت إليك وإنى من المسلمين . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾ . لما ذكر — سبحانه — فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن الكريم وقوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ أى : أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما كقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين

احساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً
واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً^(١) .

وقوله تعالى ﴿ حملته أمه كرها ووضعته كرها ﴾ أى : قاست بسببه فى حال حمله مشقة وتعباً من
وصم وغشيان وثقل وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ﴿ ووضعته كرها ﴾ أى :
بمشقة أيضاً من الطلق والشدة والعسر ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ أى : ومدة حمله وفصاله ثلاثون
شهراً تكابد الأم فيها الآلام الجسمية والنفسية فتسهر الليالى ذوات العدد إذا مرض ، وتقوم بغذائه وتنظيفه ،
وكل شئونه بلا ضجر ولا ملل ، وتحزن إذا اعتل جسمه أو ناله مكروه يؤثر فى نموه وحسن صحته ،
فسبحان من عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة ، حتى تكون فى أهنأ ما
يكون من شأنها وراحتها ومقيلها ، فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها
على عدد الأنفس منقادة إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان ، تود لو أن كل ما يؤلمك
بجسمها وأنه لم يطرقك منه شئ ، وأن حياتها تزداد فى حياتك فسبحان الرحمن الرحيم .

وهذه الآية قد استدل على — رضى الله عنه — بها مع اتى فى لقمان ﴿ وفصاله فى عامين ﴾ وقوله
تبارك وتعالى : ﴿ والولادات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾^(٢) على أن أقل
مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوى صحيح ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة — رضى الله
عنهم أجمعين — .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت
على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ أى : حتى إذا قوى وشب وإرتجل وتناهى عقله وبلغ فهمه
وحلمه ، وقد قيل لمسردق متى يؤخذ الرجل بذنوبه قال إذا بلغت الأربعين فخذ حذرَكَ . ورد عن ابن
عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : من أتى عليه الأربعون ولم يغلب خيره شره فليتهجهز إلى النار .

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن له دون ما يهوى حياء ولا ستر
فدعه فلا تنفس عليه الذى مضى وإن جرّ أسباب الحياة له العمر

﴿ قال رب أوزعنى ﴾ أى : ألهمنى ﴿ أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل
صالحاً ترضاه ﴾ أى : فى المستقبل أجعل عملى وفق رضاك لأنال مثوبتك .

(١) سورة الإسراء الايتان ٢٣ — ٢٤

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٣٣

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَح لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى : واجعل الصلاح سارياً في ذرئتي ، متمكناً من نفوسهم ، راسخاً في قلوبهم كما دعا إبراهيم الخليل : ﴿ رَب اجْعَلْنِي مَقِيمَ الصَّلَاةِ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾^(١)

وكما دعا النبي سليمان : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى : إني تبت إليك من ذنوبي التي فرطت مني في أيامي الخوالي ، وإني من الخاضعين لك بالطاعة ، المستسلمين لأمرك ونهيك ، المنقادين لحكمك ، وفيه أرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله — عز وجل — ثم ذكر جزاء أصحاب هذه الأوصاف الجليلة فقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ ﴾ أى : هؤلاء المتصفون بما ذكرنا التائبون إلى الله ، المنيبون إليه ، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل ونتقبل منهم اليسير من العمل ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أى : هم في جملة أصحاب الجنة ، وهذا حكمهم عند الله الغفور الرحيم كما وعد الله — عز وجل — من تاب إليه وأناب ولهذا قال تعالى : ﴿ وَعَدَ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لُؤَالِدِيهِ أَفْ لَكُمْمَا أُتْعَدَانِي أَنْ أَخْرِجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما ، وما لهم عنده من الفوز والنجاة ، عطف مجال الأشقياء العاقين للوالدين فقال : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لُؤَالِدِيهِ أَفْ لَكُمْمَا أُتْعَدَانِي أَنْ أَخْرِجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِي ﴾ أى : والذي قال لوالديه أن دعواه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله خلقه من قبورهم ومجازاته إياهم بعمالهم : أف لكم ، إني لضجّر منكما ، أتقولان إني أبعث من قبري حياً بعد موتي ، إن هذا لعجب عجب فما هي ذى قرون مضت ، وأتم قد خلت من قبلي كعاد وثمود ولم يبعث منهم أحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : ووالداه يستصرفان الله عليه ، ويستغيثانه أن يوفقه إلى الإيمان بالبعث ، ويقولان له حثاً وتحريضاً : هلاكاً لك ، صدق بوعد الله ، إنك

(١) سورة إبراهيم الآيتان ٤٠ — ٤١

(٢) سورة النمل من الآية ١٩

مبعوث بعد وفاتك ، إن وعد الله حق ﴿ فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى : ما هذا الذى تقولان لى ، وتدعوان إليه ، إلا ما سطره الأولون من الأباطيل .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ قال الحسن وقتادة فى هذه الآية : هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث ، فهؤلاء الذين هذه أوصافهم هم الذين وجب عليهم عذاب الله ، وحلت عليهم عقوبته وسخطه فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مضوا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذبوا الرسل وعقوا عن أمر ربهم ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ أنفسهم وأهلهم يوم القيامة قوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ أى : ولكل من الأبرار والفجار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة بحسب أعمالهم من خير أو شر فى الدنيا ، الأبرار فى عليين ، والفجار فى سجين ، وليوفيهم أجور أعمالهم ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء منهم بإساءته ، وهم لا يظلمون شيئاً ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾^(١) .

بر الوالدين ، وتحريم عقوقهما فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة

١ - القرآن الكريم يوصى بالوالدين

قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ۖ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ۚ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ۖ إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾^(٢) .

فمن هذه الآية نفهم أن الإسلام جعل للوالدين حق البر واللطف والرعاية والرحمة ، وأكد هذا الحق بأن قرنه بحق الله لما له من الإجلال والوفاء . وقال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم

(١) سورة الأنبياء من الآية ٤٧

(٢) سورة الإسراء الآيات ٢٣ - ٢٥

بما كنتم تعملون ﴿١﴾ أمر الله عباده بالإحسان إلى الوالدين وإن حرصا عليك كل الحرص ، على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فلا تقبل منهما ذلك — لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق — ولا يمنحك ذلك أن تصاحبهما في الدنيا بعمل المعروف والإحسان إليهما .

وقال تعالى : ﴿ يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ (٢) .

ففى هذه الآية يقدم الله — سبحانه وتعالى — الوالدين على الأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل فى صدقة التطوع ، ويؤيد ذلك حديث الرسول ﷺ « أمك ، وأباك ، وأختك ، وأخاك ، وأدناك أدناك » (٣)

٢ — بر الوالدين صفة بارزة للأنبياء

يقول الله — تعالى — عن سيدنا عيسى بن مريم — عليه الصلاة والسلام —
﴿ قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبراً بوالدتي ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى ابن مريم ﴾ (٤) أى : ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي فأشقى بذلك . قال بعض السلف : لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً .

وقوله على لسان الخليل إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — :
﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا تغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ (٥) .

وقوله تعالى عن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام :
﴿ حتى إذا أتوا على واد الثمل قالت غملة يا أيها الثمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده

(١) سورة لقمان الآيتان ١٤ — ١٥

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٥

(٣) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم كتاب معرفة الصحابة ص ٣ ، ص ٦١١ باب ذكر صعصعة ابن ناجثة المجاشعي فقد ورد الحديث بلفظه عن صعصعة .

(٤) سورة مريم الآيات ٣٠ — ٣٣ ومن الآية ٣٤

(٥) سور إبراهيم الآيتان ٤٠ — ٤١

وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴿١﴾ .

وقال تعالى عن سيدنا نوح — عليه الصلاة والسلام — :

﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ (٢) .

وقال تعالى عن سيدنا اسماعيل — عليه الصلاة والسلام — :

﴿ فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفدينا بذبح عظيم ﴾ (٣) .

ففى قول اسماعيل : ﴿ يا أبت أفعل ما تؤمر ﴾ أى : امض لما أمرك الله من ذبحى ، تظهر طاعة الابن لأبيه .

وقوله تعالى عن سيدنا يحيى — عليه الصلاة والسلام —

﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً . وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ (٤) .

فبعد أن وصف الله — سبحانه وتعالى — يحيى بالأوصاف السابقة من العلم والفهم والجد والعزم والإقبال على الخير وهو حدث صغير ، وصفه أيضاً بأنه كان مطيعاً لوالديه وباراً بهما ، ومجانباً عقوقهما قولاً وفعللاً أمراً ، ونهياً .

٣ — الإحسان للوالدين وبرهما بعد عبادة الله مباشرة

لقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾ (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً ﴾ (٧) .

(٥) سورة الاسراء من الآية ٢٣

(٦) سورة النساء من الآية ٣٦

(٧) سورة البقرة من الآية ٨٣

(١) سورة النمل الآيات ١٨ — ١٩

(٢) سورة نوح الآية ٢٨

(٣) سورة الصافات الآيات ١٠١ — ١٠٧

(٤) سورة مريم الآيات ١٢ — ١٥

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ^(١) .
والحديث الذى يرويه عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : « سألت رسول الله — ﷺ —
أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى ؟ قال : بر الوالدين ، قلت ثم أى ؟ قال
الجهاد فى سبيل الله » ^(٢) (متفق عليه) .
فقد جعل منزلة بر الوالدين بعد الصلاة مباشرة وقبل الجهاد فى سبيل الله .

٤ — بر الوالدين يدخل الجنة وعقوقهما يدخل النار

— عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « رَغِمَ أَنْفُهُ ، ثم رَغِمَ أَنْفُهُ ، ثم رَغِمَ أَنْفُهُ »
« قيل : من يا رسول الله ؟ قال : « من أدراك والداه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل
الجنة » ^(٣) مختصر صحيح مسلم (١٧٥٨) .

ومعنى رَغِمَ أَنْفُهُ : أى لصق بالرغام وهو التراب . من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل
النار .

— وعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : ارتقى النبى ﷺ على المنبر درجة فقال : آمين ، ثم
ارتقى الثانية فقال : آمين ، ثم ارتقى الثالثة فقال : آمين ، ثم استوى فجلس ، فقال أصحابه : على ما أُمِّنت ؟
قال : « أتانى جبريل فقال : رَغِمَ أَنْفُ امرئ ذُكِّرَتْ عنده فلم يصل عليك ، فقلت : آمين ، فقال :
رَغِمَ أَنْفُ امرئ أدرك أبويه فلم يدخل الجنة ، فقلت : آمين ، فقال : رَغِمَ أَنْفُ امرئ أدرك رمضان
فلم يغفر له ، فقلت آمين » ^(٤) (حديث صححه الشيخ الألبانى فى رسالة « فضل الصلاة على النبى ») .

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٥١

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان — باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال » ص ١ ، ص ٩٠ فقد ورد الحديث بلفظ
« أى الأعمال أحب إلى الله .. » من رواية عن الوليد بن العيزار برقم ١٣٩ / ٨٥ .

وأما رواية عبد الله بن مسعود فجاءت بلفظ : (أى العمل أفضل ...) حديث رقم ١٣٧ / ٨٥ .

(٣) انظر مختصر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة » باب « رَغِمَ أَنْفُ من أدرك أبويه .. » ص ٢ ، ص ٢٢٩ من رواية لأبى هريرة فقد
ورد الحديث بلفظه تحت رقم ١٧٥٨ .

وانظر الترغيب والترهيد « كتاب البر والصلة وغيرها » باب « الترغيب فى بر الوالدين .. الخ » ص ٣ ، ص ٥٢٨ حديث رقم ٢٢
من رواية لأبى هريرة .

(٤) انظر مجمع الزوائد « كتاب البر والصلة » باب « ما جاء فى البر وحق الوالدين » ص ٨ ، ص ١٣٩ ، فقد ورد الحديث عن جابر بن
أنس بلفظه قال : صدور النبى ﷺ المنبر فقال : آمين آمين آمين ، قال : أتانى جبريل — عليه السلام — فقال : يا محمد ، من أدرك
أحد والديه فمات فدخل النار فأبعده الله فعل : آمين ، فقلت : آمين ، قال : يا محمد ، من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له فأدخل
النار فأبعده الله قل : آمين ، فقلت : آمين ، قال : ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله قل : آمين ، فقلت :
آمين ، رواه الطبرانى بأسانيد وأحداها حسن ، ولهذا الحديث طرق فى الأدعية فى الصلاة على النبى ﷺ .

— وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة . العاق لوالديه والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال ، والديوث . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى »^(١) . (صحيح الجامع (٣٠٦٦) والسلسلة الصحيحة للألبانى (« ٦٧٤ ») .

والعاق : اسم فاعل من عاق . والعقوق : أشد العصيان للوالدين . والديوث : بتشديد الياء ، هو الذى يُقر أهله على الزنا مع علمه بهم . والمنان : الذى يمن على الناس بعطيته لهم .
وعن أن الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنة عاق ، ولا مدمن خمر ، ولا مكذب بقدر »^(٢) . (السلسلة الصحيحة « ٦٧٥ ») .

قال : « لا يدخل حظيرة القدس ، سكير ، ولا عاق ، ولا منان »^(٣) وحظيرة القدس : الجنة . (السلسلة الصحيحة « ٦٧٣ ») .

وعن عمرو بن مرة الجهنى — رضى الله عنه — قال : « جاء رجل إلى النبى — ﷺ — فقال : يا رسول الله ، شهدت أنه لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى ، وصمت رمضان ، فقال النبى ﷺ : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا ، ونصب أصبعيه ما لم يعق والديه »^(٤) . (صحيح الترغيب والترهيب ، فبين هذا الحديث أن عقوق الوالدين يمنع دخول الجنة .

٥ — رضى الله فى رضى الوالدين وسخطه فى سخطهما

عن عبد الله بن عمرو بن العاصى — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال « رضى الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد »^(٥) (السلسلة الصحيحة « ٥١٦ ») .
وفى رواية « رضا الرب فى رضا الوالدين ، وسخطه فى سخطهما »^(٦) (صحيح الجامع برقم ٣٥٠١) .

-
- (١) انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ص ٣ ، ص ٣٣١ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمر حديث ص ٣٥٤٢ .
(٢) انظر مسند الإمام أحمد ص ٦ ، ص ٤٤١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى الدرداء .
(٣) انظر صحيح ابن حبان ص ٥ ، ص ١٦٣ فقد ورد الحديث رقم ٣٣٧٥ من رواية لعبد الله بن عمرو ولفظه « لا يدخل الجنة عاق ، ولا منان ، ولا مدمن خمر » .
(٤) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب الزهيد من عقوق الوالدين .. ص ٣ ، ص ٥٤٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن عمرو بن مرة الجهنى .
وانظر كنز العمال ص ١ ، ص ٨٣ فقد ورد الحديث برواية عن عمرو بن مرة الجهنى حديثه ص ٣٤٢ .
(٥) انظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب « الفضل فى رضا الوالدين » ص ٣ ، ص ٢٠٧ فقد ورد الحديث رقم ١٩٦٢ برواية عن عبد الله بن عمرو بلفظه .
(٦) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب « الزهيد عن عقوق الوالدين » ص ٣ ، ص ٥٣٥ حديث ص ٣٠ فقد ورد الحديث فى ص ٥٣٥ بلفظ « رضا الرب تبارك وتعالى فى رضا الوالدين وسخط — الله تبارك وتعالى — فى سخط الوالدين » .

٦ - تحريم عقوق الوالدين وأمنه من الكبائر

عن أبي بكرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإِشراك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور فمزال يكررها حتى قلنا ليته سكت »^(١) .

ومعنى « حتى قلنا ليته سكت » : إشفافاً عليه ، لما رأينا أثر أنزعاجه في ذلك . وعن أنسى رضى الله عنه قال : ذكر عند رسول الله ﷺ الكبائر فقال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين »^(٢) (رواه البخارى ومسلم) .

٧ - ترك الجهاد لبر الوالدين وصحتهما فالجنة تحت أقدامهما

عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : جاء رجل إلى نبي الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد ، فقال : أحى والداك ؟ قال : نعم قال : ففيهما فجاهد »^(٣) . (رواه البخارى ومسلم) .
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « جئت أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوى يبكيان ، فقال : ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما »^(٤) . (رواه أبو داود / صحيح الترغيب والترهيب) .

ومعنى (فأضحكهما) أى : أدخل إليهما السرور واجلب لهما الفرح .
وعن طلحة بن معاوية السلمى - رضى الله عنه - قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إني أريد الجهاد في سبيل الله ؟ قال : أملك حية ؟ قلت : نعم ، قال النبي ﷺ : الزم رجلها فثم الجنة »^(٥) . (رواه الطبرانى وحسنه الألبانى « صحيح الترغيب والترهيب ») .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٨ ، ص ٤ ، ٥ « كتاب الأدب » فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عبد الرحمن ابن أبى بكرة عن أبيه .
(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » ج ٨ ص ٤ ، ٥ فقد ورد الحديث من رواية أنس بلفظ : « قال ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر فقال : الشرك بالله وقتل النفس ، وعقوق الوالدين .. الخ » .
(٣) وانظر صحيح البخارى من « كتاب الجهاد » ج ٤ ص ٧١ باب الجهاد بإذن الأبوين فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .
وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب بر الوالدين وإنهما أحق به ج ٤ ، ص ٧٥ ، ١٩ حديث رقم ٢٥٤٩/٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمرو .
(٤) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم « كتاب البر والصلة » ج ٤ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص فقد ورد الحديث بلفظه .
انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الرجل يغزو وأبواه كارهان ج ٣ ص ٣٨ حديث رقم ٢٥٢٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو .
(٥) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٨ ، ص ٣٧٢ باب ما روى عن كلمة بن معاوية السلمى فقد ورد الحديث ٨١٦٢ من رواية طلحة عن أبيه ، ولفظه .
وانظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرها » باب الترغيب فى بر الوالدين وصلتهما ج ٣ ، ص ٤ ، ٥ فقد ورد الحديث بلفظه تحت رقم ٩ من رواية طلحة بن معاوية السلمى .

ومعنى « الزم رجلها » : اخضع لها واقرب منها وراعها واخدمها ، فهناك الجنة ، وبسبب رضاها تحظى بنعيم الله .

وعن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أردت أن أغزو ، وقد جئت استشيرك ؟ فقال : « هل لك من أم ؟ قال : نعم ، قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها . (رواه ابن ماجه والنسائي وحسنه الألباني / صحيح الترغيب والترهيب) (١) »

وعن أبي سعيد - رضى الله عنه - « أن رجلاً هاجر إلى رسول الله ﷺ من اليمن ، فقال : « هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواى ، قال : أذن لك ؟ قال : لا ، قال : ارجع اليها فاستأذنها فإن أذن لك فجاهد ، وإلا فبرهما » (٢) . (صحيح الجامع (٩٠٥) ، وإدواء الغليل (١١٩٩) ، للألباني) .

٨ - بر الوالدين من الأعمال الصالحة التي يدعو الإنسان بها الله :

عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « بينا ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر ، فأووا إلى غار في جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله ، فادعوا بها لعله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران وامرأتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم فإذا أرحت عليهم حلبت ، فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى ، وإنى نأى بى ذات يوم الشجر ، فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب ، فقمت عند رؤوسهما ، اكره أن أوقظهما من نومهما ، واکره أن أسقى الصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرح الله منها فرجة فأروا منها السماء .

وجعلك

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيا بمائة دينار فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجلها ، قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمت عنها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة ، ففرج لهم فرجة .

(١) انظر سنن النسائي « كتاب الجهاد » الرخصة في التخلف لمن له والده ج ٦ ، ص ١١ فقد ورد الحديث من رواية عن معاوية بن جاهمة السلمى .

(٢) انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الرجل يغزو وأبواه كارهان ، ج ٣ ، ص ٤٩ حديث رقم ٢٥٣٠ فقد ورد بلفظه من رواية لأبى سعيد الخدرى .

وقال الآخر : اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز فلما قضى عمله . قال لي ، أعطني حقي ، فعرضت عليه فرقه ، فرغب عنه ، فلم أزل أزرع حتى جمعت منه بقرأ ورعاءها ، فجاءني فقال اتق الله ولا تظلمني حقي ، قلت : اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها ، فقال : اتق الله ولا تستهزئ بي ، فقلت : إني لا استهزئ بـ بل ، خذ ذلك البقر ورعاءها ، فأخذه وذهب به ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج ما بقى ففرج الله ما بقى «^(١) . (رواه البخاري ومسلم) صحيح الترغيب والترهيب .

٩ — رضى الوالدين مقدم على رضى الزوجة :

عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : كان تحتى امرأة أحبها ، وكان عمر يكرهها ، فقال لي : طلقها ، فأبيت ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فقال لي رسول الله ﷺ : « طلقها »^(٢) . (صحيح الترغيب والترهيب تحقيق للألباني) .

١٠ — تقديم بر الوالدة على الوالد :

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال أمك ، قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال أبوك^(٣) . (رواه البخاري ومسلم صحيح الترغيب والترهيب) . وهذا الحديث مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر ، وكان ذلك لصعوبة الحمل ، ثم الوضع ، ثم الرضاع ، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ، ثم تشارك الأب في التربية وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين ﴾^(٤) .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب قصة أصحاب الغر الثلاثة ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ فحديث رقم ١٠٠ / ٢٧٤٣ فقد ورد بلفظه من رواية لابن عمر .

وانظر صحيح البخاري « كتاب بدر الخلق » باب حديث الغار ج ٤ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب في بر الوالدين وصلتهما .. الخ ج ٣ ص ٥٢٦ حديث رقم ١٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

وانظر سنن أبي داود « كتاب الأدب » باب في بر الوالدين ج ٥ ، ص ٣٥٠ حديث / ٥١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر . (٣) انظر صحيح البخاري « كتاب الادب » باب من أحق الناس بحسن الصحبة ج ٨ ص ٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة » باب بر الوالدين وأنها أحق به ج ٤ ، ص ١٩٧٤ حديث رقم ١ / ٢٥٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٤) سورة لقمان من الآية ١٤

١١ - دعوات الوالدين مستجابة :

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث دعوات مستجابات » لا شك فيهن : دعوة الوالد لولده ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم »^(١). (صحيح الجامع « ٣٠٢٨ ») وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث دعوات لا ترد : دعوة الوالد لولده ، ودعوة الصائم ، ودعوة المسافر »^(٢) (صحيح الجامع « ٣٠٢٩ ») .

١٢ - من بر الوالدين الدعاء لهما والحرص على نصحتهما وهدايتهما حتى لو كانا كافرين .

عن أن هريرة - رضى الله عنه - قال : كنت أدعو أُمى إلى الإسلام ، وهى مشركة ، فدعوته يوماً فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره . فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى قلت : يا رسول الله ، إني كنت أدعو أُمى إلى الإسلام ، فتأبى على ، فدعوته اليوم ، فأسمعتنى فيك ما أكره ، فأدع الله أن يهدى أم أبى هريرة ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم أهد أم أبى هريرة ، فخرجت مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ ، فلما جئت قصدت إلى الباب ، فإذا هو مجاف (أى مغلق) فسمعت أُمى خشف قدمى ، فقالت : مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة الماء ، قال : فاغتسلت ، ولبست درعها ، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ، ثم قالت : يا أبا هريرة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فأتيته وأنا أبكى من الفرح ، قال : قلت : يا رسول الله ، أبشر ، قد استجاب الله دعوتك ، وهدى أم أبى هريرة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال خيراً . قال : قلت : يا رسول الله ، ادع الله أن يحببنى أنا وأُمى إلى عبادك المؤمنين ويحببهم إلينا . قال : فقال رسول الله ﷺ : « اللهم حبب عبيدك هذا (يعنى أبا هريرة) وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهم المؤمنين » فما خلق مؤمن يسمع بى ولا يرانى إلا أحببني »^(٣) (رواه مسلم « ١٦٥ / ٧ ») فضائل أبى هريرة .

(١) مسند الامام أحمد ج ٢ ، ص ٢٥٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة مع تقديم وتأخير فى بعض جملة .
(٢) السنة الكبرى للبيهقى « كتاب صلاة الاستسقاء » باب « استحباب الصيام .. الخ » ج ٣ ، ص ٣٤٥ من رواية لأنس بلفظ : « ثلاث دعوات لا ترد : دعوة الوالد ، ودعوة الصائم ، ودعوة المسافر .
(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب فضائل الصحابة » باب من فضائل أبى هريرة الدوس ج ٤ ، ص ١٩٣٨ حديث رقم ١٥٨ / ٢٤٩١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

١٣ — سب ولعن الوالدين من الكبائر :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل، والديه . قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه »^(١) . (رواه البخارى ومسلم وأبو داود / صحيح الترغيب والترهيب) . وعن عامر بن واثلة قال :

كنت عند على بن أبى طالب ، فأتاه رجل ، فقال : ما كان النبی ﷺ يُسرُّ إليك ؟ قال : فغضب ، وقال : ما كان النبی ﷺ يسرُّ إلى شيئاً يكتمه الناس ، غير أنه قد حدثني بكلمات أربع قال : فقال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : قال « لعن الله من لعن والده ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض »^(٢) . (مختصر صحيح مسلم « ١٢٦١ ») ومعنى « آوى محدثاً » ، أى : مبتدعاً ، وإيوأؤه الرضا عنه ، وحمايته عن التعرض له « غير منار الأرض » أى : نقل حدودها ، وتغيير حدودها أن يدخلها في أرضه فيكون في معنى الغاصب لها .

١٤ — الولد من كسب أبيه

عن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — : « أن أعرابياً أتى النبی ﷺ فقال : إن لى مالا وولداً ، وإن والدى يريد أن يجتاح مالى ، قال : أنت ومالك لوالدك ، إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من كسب أولادكم »^(٣) . (ارواء الغليل « ٨٣٨ » للشيخ الألبانى) .

وعن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — أن رجلاً أتى النبی ﷺ فقال : يا رسول الله ، والدى أكل مالى فقضى رسول الله ﷺ إنك ومالك لأبيك »^(٤) . (ارواء الغليل « ٨٣٨ ») . وفى رواية أخرى « الولد من كسب الوالد » (ارواء الغليل « ٨٣٨ ») .

(١) انظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب ما جاء فى عقوب الوالدين ج ٣ ، ص ٢٠٨ حديث رقم ١٩٦٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .

وانظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب لا يسب الرجل والديه ج ٨ ، ص ٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) انظر مختصر صحيح مسلم « كتاب الأضاحى » باب فيمن ذبح لغير الله ج ٢ ، ص ١٠١ حديث / ١٢٦١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عامر بن واثلة .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ، ص ٢١٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (عبد الله بن عمرو بن العاص) .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ، ص ٢٠٤ فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن عمرو بلفظ « أن رجلاً أتى النبی ﷺ يخاصم أباه فقال : يا رسول الله ، إن هذا قد احتاج إلى مالى ، فقال رسول الله ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » .

١٥ — بر الوالدين بعد موتهما :

فبرهما بعد الممات الدعاء لهما والاستغفار قال تعالى : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾^(٢) .
وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة (أشياء) إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »^(٣) . (أخرجه مسلم) .

وعن أبي بردة قال : قدمت المدينة فأتاني عبد الله بن عمر : فقال : أتدرى لم أتيتك ؟ قال : قلت : لا ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه بعده ، وإنه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك »^(٤) . (حديث حسن حسنة الألباني في صحيح الترغيب والترهيب) .

وعن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : « من البر أن تصل صديق أبيك »^(٥) . (صحيح الجامع « ٥٧٧٧ ») .

قصة للاعتبار

عن العوام بن حوشب - رضى الله عنه - قال : نزلت مرة حياً وإلى جانب ذلك الحى مقبرة ، فلما كان بعد العصر انشق منها قبر فخرج رجل رأسه رأس الحمار وجسده جسد الإنسان ، فنهق ثلاث نهقات ، ثم انطبق عليه القبر ، فإذا عجوز تغزل شعراً أو صوفاً ، فقالت امرأة : ترى تلك العجوز ؟ قلت : ما لها ؟ قالت : تلك أم هذا ، قلت ، وما كان قصته ؟ قالت : كان يشرب الخمر فإذا راح تقول له أمه : يا بني اتق الله إلى متى تشرب هذه الخمر ؟ فيقول لها : إنما أنت تنهقين كما ينهق الحمار ، قال : فمات بعد العصر ، قالت : فهو ينشق عنه القبر بعد العصر كل يوم ، فينهق ثلاث نهقات ، ثم ينطبق عليه القبر .

(١) سورة الاسراء من الآية ٢٣

(٢) سورة ابراهيم الآية ٤١

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ج ٣ ، ص ١٢٥٥ حديث رقم ١٤ / ١٦٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي هريرة .

(٤) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرهما » ج ٣ ، ص ٥٣٧ فقد ورد الحديث رقم ٣٤ من رواية لأبي بردة والحديث بلفظه

(٥) انظر مجمع الزوائد « كتاب البر والصلة » باب صديق الأب ج ٨ ، ص ١٤٧ فقد ورد الحديث برواية عن أنس وبلفظه . وقال رواه الطبراني في الأوسط وفيه عتبة بن عبد الرحمن القرشي وهو متروك وفي رواية عن ابن عمر « احفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفيء الله نورك » رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن .

رواه الأصبهاني وغيره ، وقال الأصبهاني : حدث به أبو العباس الأصم اختلاء بنيسابور بمشهد من الحفاظ فلم ينكروه ^(١) . (وقد حسن الشيخ الألباني هذه الرواية / صحيح الترغيب والترهيب) .
فسبحان الله ، جعل صورة هذا الرجل صورة حمار له صوت منكر مرتفع لماذا ؟ لأنه خالف نصيحة أمه ، وصعد عن قولها ورمها بالوقاحة وقلة الأدب ، وألفاظ البذاءة « أنت تهقين » فلو سمع نصيحها وصغى إلى قولها ، واسترشد بنور إيمانها لنعم وفاز بالجنة لكن عصاها فاستحق كل إهانة وازدراء .
وأخيراً : على الوالدين أن يحسنوا تربية أولادهم ليكون لهم الولد البار الصالح الذي ينفعهم بعد موتهم .
عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة (أشياء) إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » ^(٢) . (أخرجه مسلم) .

وعن ابن عباس — رضى الله عنه — أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها ، فقال : يا رسول الله ، إن أمي توفيت ، وأنا غائب عنها فهل ينفعها أن تصدقت بشيء عنها ؟ قال : نعم ، (قال) : فإني أشهدك أن حائط المخراف صدقة عليها ^(٣) . (أخرجه البخاري) .

(والمخراف : أى المثمر مسمى بذلك لما يخرف منه أى يجنى من الثمر) .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — : « أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إن أبى مات وترك مالا ولم يوص فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه ؟ قال : نعم » ^(٤) . (أخرجه مسلم وغيره) .

أ . هـ (من كتاب بر الوالدين فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة للشيخ نظام سكجها) .
قوله تعالى : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ .
أى : ذكرهم يا محمد ، يوم يعرض ﴿ الذين كفروا على النار ﴾ أى : يكشف الغطاء فيقربون من النار وينظرون إليها ﴿ أذهبتم طياتكم ﴾ فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴿ يقال لهم — على وجه التقريع — تمتعتم بالطيات فى الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات ، يعنى المعاصى . ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أى : عذاب الخزي والفضيحة . قال مجاهد : الهون : الهوان .

(١) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرهما » باب الترهيب عن عقوب الوالدين .. ج ٣ ص ٥٤٧ — ٥٤٨ حديث رقم ١٧ عن العوام بن حوشب — رضى الله عنه — فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب العصية » باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ج ٣ ، ص ١٢٥٥ حديث رقم ١٤ / ١٦٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب الوصايا » باب الاشهاد فى الوقف والصدقة » ج ٤ ص ١٠ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب وصول ثواب الصدقات إلى الحديث ج ٣ ص ١٢٥٤ حديث ١١ / ١٦٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

﴿ بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أى : تستعلون على أهلها بغير استحقاق . ﴿ وبما كنتم تفسقون ﴾ في أفعالكم بغيًا وظلمًا .

وقيل : ﴿ اذهبتم طيباتكم ﴾ أى : أفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي . قال ابن بحر : الطيبات : الشباب والقوة ، مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه ، أى : شبابه وقوته . قال القرطبي : والقول الأول أظهر . قال قتادة : ذكر لنا أن عمر — رضى الله عنه — قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسا ، ولكنى استبقى طيباتي للآخرة .

وفي صحيح مسلم وغيره أن عمر — رضى الله عنه — دخل على النبي ﷺ وهو في مشربته حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئا يرد البصر إلا أهبا جلوداً معطوفة قد سطع ريحها ، فقلت : يا رسول الله ، أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كسرى وقيصر في الديباج والحرير؟ قال : فاستوى جالسا وقال : « أفى شك أنت يا ابن الخطاب . أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا » فقلت استغفر لى ، فقال : « اللهم اغفر له »^(١) .

وقال حفص بن أبى العاص : كنت أتغدى عند عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الخبز والزيت ، والخبز والخل ، والخبز واللبن والخبز والقديد ، وأقل ذلك اللحم الغريض (الطرى) . وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كله ، فجىء بخبز متفلع (مشقق) غليظ ، فجعل يأكل ويقول : كلوا فجعلنا لا تأكل ، فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله يا أمير المؤمنين ، ترجع إلى طعام أين من طعامك هذا ، فقال : يا بن أبى العاص أما ترى بأنى عالم أنى لو أمرت بعناق سميته فيلقى عنها شعرها ثم تخرج مصلية (مشوية) كأنها كذا وكذا ، أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله في سقاء ثم أشن عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجل ما تنعت العيش ، قال : أجل ! والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركتكم في العيش ، ولكنى سمعت الله تعالى يقول لأقوام : ﴿ اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها .. ﴾ الآية .

وقال جابر : اشتهى أهلى لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقال : ما هذا يا جابر ؟ فأخبرته ، فقال : أو كلما اشتهى أحدكم شيئا جعله في بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : ﴿ اذهبتم طيباتكم .. ﴾ الآية قال ابن العربى : وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياح اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء ، فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع ، وتستمرؤها العادة

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الطلاق » باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن .. الخ ج ٢ ص ١١١١ حديث رقم ١٤٧٩ / ٣٤
فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل من رواية لابن عباس .

فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء ، فأخذ عمر الأمر من أوله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله .

قال العلاقة القرطبي . والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيباً كان أو قفاراً (الطعام بلا آدم) ، ولا يتكلف الطيب ويتخذ عادة ، وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذ تيسر ، ولا يعتمد أصلاً ولا يجعله ديدناً . ومعيشة النبي ﷺ معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة ، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهب الإخلاص ، ويعين على الخلاص برحمته .

. وقيل : إن التويخ واقع على ترك الشكر ، لا على تناول الطيبات المحللة وهو حسن ، فإن تناول الطيب الحلال مآذون فيه — بشرط عدم الأسراف — قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ ^(١) ، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل له فقد أذهب الله أعلم قاله القرطبي .

طرف من قصة هود

* وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِآلِ أَحْقَافٍ وَقَدْ خَلَتْ النُّجُومُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعْبُدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّا فِيهِ مَكَنًا وَإِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْعِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا ابْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

معانى المفردات

﴿أخا عاد﴾ هود عليه السلام ، ﴿الأحقاف﴾ واحدها حقف — بالكسر والسكون — وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، سمى به واد بين عمان ومهرة كانت تسكنه عاد ، ﴿النذر﴾ واحدهم نذير أى : منذر ، ﴿من بين يديه﴾ أى : من قبله ، ﴿ومن خلفه﴾ أى : من بعده ، ﴿لتأفكنا﴾ لتصرفنا ، ﴿عن آلهتنا﴾ عن عبادتها ، ﴿بما تعدنا﴾ أى : من معاجلة العذاب على الشرك ، ﴿إنما العلم عند الله﴾ أى : العلم بوقت نزوله عند الله ، ﴿عارض﴾ العارض السحاب الذى يعرض فى أفق السماء ، ﴿مستقبل أوديتهم﴾ أى : متجها إليها . ﴿تدمر﴾ تهلك ، ﴿حاق﴾ أى : نزل ، ﴿صرفنا﴾ أى : بينا ونوعنا ، ﴿الآيات﴾ الحجج والصبر ، ﴿فلولا﴾ أى : فهلا ، ﴿نصرهم﴾ أى : منعهم ، ﴿قربانا﴾ أى : متقرباً بهم إلى الله ، ﴿ضلوا عنهم﴾ أى : غابوا عنهم ، ﴿إفكهم﴾ أى : أثر إفكهم وصرفهم عن الحق ، ﴿وما كانوا يفترون﴾ أى : وأثر افتراءهم وكذبهم .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن أورد — سبحانه — الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة التى أعرض عنها أهل مكة ولم يلتفتوا إليها ولم تجدهم فتىلاً ، ولا قطميراً ، لاستغراقهم فى الدنيا واشتغالهم بطلبها — أردف هذا ذكر قصص عاد وما حدث منهم مع نبيهم هود — عليه السلام — وضرب لهم به المثل ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ، ويقبلوا على طاعة الله فقد كانوا أكثر منهم أموالاً وأقوى منهم جنداً ، فسلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم وعنادهم ، ولم يغنى عنهم ما لهم من الله شيئاً .

التفسير

قوله تعالى : ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ . أى وأذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ما جئتهم به من الحق — هوداً أخا عاد ، فقد كذبه قومه بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه ، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها ألا تشركوا مع الله شيئاً فى عبادتكم إياه ، بل أخلصوا له العبادة وأفردوا له الألوهية وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، فقال لهم ناصحاً : إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول . ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾^(١) .

وحين نصحبهم بذلك أجابوه :

(قالوا أجبنا لتأفكنا عن آلهتنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى : قال قومه له : أجبنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعوننا إليه ، وإلى اتباعك فيما تقول ، هلم فهات ما تعدنا به من العذاب على عبادة ما نعبد من الآلهة إن كنت صادقاً في قولك وعِدَّتِكَ .

فرد هود عليهم مقالهم :

(قال إنما العلم عند الله) أى : قال : إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لا عندي ، فلا أستطيع تعجيله ، ولا أقدر عليه ، ثم بين وظيفته فقال : (وأبلغكم ما أرسلت به) من الإنذار والإعذار ، لا أن أتى بالعذاب فلست عليكم بمسيطر ، فليس ذلك من مقدورى ، بل هو من مقدورات ربي . ثم بين لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل فقال : (ولكنى أراكم قوماً تجهلون) أى : وإني لأعتقد فيكم الجهل ، ومن ثم بقيتم مصرين على كفركم ولم تهتدوا بما جئتكم به بل اقترحتم على ما ليس من شأن الرسل ، وهو الإتيان بالعذاب .

ثم ذكر مجيء العذاب إليهم وانتقامه منهم واستئصال شأفتهم فقال تعالى : ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ .

أى : فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ، فرأوا سحاباً يعرض فى أفق السماء متجهاً إلى أوديتهم (قالوا هذا عارض ممطرنا) ظناً منهم أن غيثاً قد أتاهم وفيه حياتهم .

روى أنه قد حبس عنهم المطر أياماً ، فساق الله إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له : المعتب ، فلما رأوها تستقبل أوديتهم استبشروا بها خيراً . قال تعالى : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ أى : بل هو ريح فيها عذاب يهلككم ويجعلكم كأمس الدابر . ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ أى : تهلك كل شيء مرت به من نفوس عاد وأموالها بإذن ربها ، كقوله تعالى : ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾^(١) أى : كالشيء البالى الخلق ، ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ أى : فجاءتهم الريح فدمرتهم ، فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم ، ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ أى : كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب فى الدنيا فأهلكناهم بذنوبهم ، كذلك نجزي كل مجرم كافر بالله متماد فى غيه . ولا يخفى ما فى هذا من التهديد والوعيد الشديد .

أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : « ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكاً حتى أرى منه لهواته ، وإنما كان يتسم ، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عُرف ذلك فى

وجهه ، قلت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ، قال : « يا عائشة ، وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا »^(١) .

لذا كان ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به »^(٢) .. الحديث رواه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلناهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

أى : لقد مكنا عاداً — الذين أهلكناهم بكفرهم — فيما لم يتمكنكم فيه من الدنيا وأعطيناهم منها ما لم نعظكم مثله من الأموال الكثيرة ، وبسطة الأجسام وقوة الأبدان . كقوله تعالى : ﴿ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض ﴾^(٣) .

﴿ وجعلناهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ أى : إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا ، فأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الأدلة والحجج ليعتبروا ويتذكروا ، وأعطيناهم أبصاراً ليرَوْا ما نصباه من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها ، وأعطيناهم قلوباً تفقه حكم الله في خلق الأكوان فما استفادوا منها ما يفيدهم في آخرتهم ويقربهم من جوار ربهم ، بل صرفوها في طلب الدنيا والملذات والمنكرات . ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ﴾ لا جرم لم ينفعهم ما أعطيناهم من السمع والأبصار والأفئدة ، ثم بين سبحانه العلة في عدم اغناء ذلك عنهم فقال : ﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ أى : لأنهم كانوا يكذبون رسل الله ، وينكرون معجزاتهم . ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى : ونزل بهم ما سخرنا به فاستعجلوه من العذاب .

وفي هذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله ، ويخافوا عقابه فإن عاداً لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قول الحق — نزل بهم العذاب ، ولم تغن عنهم قوتهم ولاكثرتهم شيئاً — فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة الاستسقاء » باب التعوذ عند رؤية الريح والقيم والفرح بالمطر ج ٢ ص ٦١٦ ، ٦١٧ حديث ١٦ / ٨٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عائشة .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة الاستسقاء » باب التعوذ عند رؤية الريح والقيم والفرح بالمطر ج ٢ ص ٦١٦ حديث رقم ١٥ / ٨٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٣) سورة غافر من الآية ٨٢

لما أخبر — سبحانه — بهلاك قوم عاد على ما لهم من المكانة العظيمة ، ليتعظ بهم من سماع أمرهم ، اتبعه بذكر من كان مشاركاً لهم في التكذيب فأدركه سوء العذاب كما أدركهم فقال ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ أى : ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حول قريبتكم من القرى المكذبة للرسل كعاد ، وثمود وسبأ ومدين وقرى لوط ، ﴿ وإنكم تمرون عليهم مصحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾ ^(١) ، وقوله ﴿ وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ أى : وبيننا لهم دلائل قدرتنا ، وبديع حججنا ليرجعوا عن غيرهم فلم يرجعوا .

وقوله : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباباً آلهة ﴾ أى : فهلا نصرهم أوثانهم وآلهتهم التى اتخذوا عبادتهم قرباباً يتقربون به إلى ربهم فيما زعموا حيث قالوا : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ^(٢) ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أى : هلكوا عنهم ، وقيل : ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أى : ضلت عنهم آلهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم . إذ هى جماد . وقيل : ﴿ ضلوا عنهم ﴾ أى : تركوا الأصنام وتبرءوا منها ﴿ وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ أى : والآلهة التى ضلت عنهم هى إفكهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زلفى ﴿ وما كانوا يفترون ﴾ أى : يكذبون . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنيب ﴾ ^(٣) .

الجن يستمعون القرآن

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ۖ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٣٩﴾ قَالُوا يَتَّبِعُونَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٠﴾ يَتَّبِعُونَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِۦ ۖ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنۢ عَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٤١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِۦ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَٰؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٥﴾

معانى المفردات

﴿ صرفنا ﴾ أى : وجهنا ، ﴿ نفرا ﴾ والنفر ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال ، ﴿ أنصتوا ﴾ أى : اسكتوا ، ﴿ قضى ﴾ أى : فرغ من تلاوته ، ﴿ ولوا ﴾ أى : رجعوا ، ﴿ منذرين ﴾ أى : مخوفين لهم عواقب الضلال ، ﴿ يجرم ﴾ أجاره من كذا : أنقذه منه ، ﴿ داعى الله ﴾ هو الرسول ﷺ ، ﴿ فليس بمعجز ﴾ أى : لا ينجو منه هارب ، ولا يسبق قضاءه سابق . ﴿ لم يعى ﴾ أى : لم يعجز ﴿ أولو العزم ﴾ أى : ذووا الحزم والصبر ، قال مجاهد : هم خمسة نظمهم الشاعر في قوله :
أولو العزم نوح والخليل المجد موسى وعيسى والحبيب محمد
﴿ بلاغ ﴾ أى : كفاية في الموعظة

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر — سبحانه — أن في الإنس من آمن ومنهم من كفر — أعقب هذا ببيان أن الجن كذلك ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرض للثواب ، وكافرهم معرض للعقاب ، وأن الرسول ﷺ كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجن . وفي هذا البيان توبيخ لمشركي قريش ، لأن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به ، وعلموا أنه من عند الله وأهل مكة معرضون مصرون على الكفر ، ثم ختم السورة بإثبات البعث وأقام الدليل عليه ، فذكر أن من خلق السموات والأرض على عظمهن فهو قادر على أن يحيى الموتى ، وأعقب هذا بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لرسوله ﷺ بالصبر على أذى قومه كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل ، وبعدم استعجال العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر ، وحين نزوله بهم سيقترضون على مدة بعثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار لهول ما عاينوا . ثم بين بأن في هذه العظات كفاية أيما كفاية ، وما يهلك إلا من خرج عن طاعة ربه ولم ينقد لأمره ونهيه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ .

أى : وأذكر أيها الرسول لقومك — موبخاً لهم على كفرهم — بما آمنت به الجن ، لعلهم يتنبهون لجهلهم ، ويرجعون عن غيهم وقبح ما هم فيه من كفر بالقرآن وإعراض عنه ، مع أنهم أهل اللسان الذى به نزل ، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عند الله وآمنوا به ، وليسوا من أهل لسانه ولا من جنس رسوله — في ذلك الوقت الذى وجه الله إليه جماعة من الجن ليستمعوا القرآن ويتعظوا بما فيه من عبر وعظات ، فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض : أنصتوا مستمعين ، فلما فرغ من

تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهdy إلى الرشد فأما به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا * وأنه كان يقول سفيها على الله شططا وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا * وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * وأنهم ظنوا كما ظننم أن لن يبعث الله أحدا * وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً * وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً * وأنا منا الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قددا * وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً * وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً * وآلو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً * ١٧ ﴾ .

اخرج الامام أحمد فى سنده عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شئ حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء فانصرف أولئك نفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهناك حين رجعوا إلى قومهم قالوا يا قومنا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهdy إلى الرشد فأما به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن ^(١) رواه البخارى عن مسدد بنحوه ، واخرجه مسلم عن أبى عوانه به ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير من حديث أبى عوانه . وهكذا قال الحسن البصرى إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بنحبرهم .

(١) سورة الجن الآيات ١ — ١٧

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب وجوب القراءة للإمام والمأموم فى الصلوات كلها فى الحضر السفر وما يجهر وما يخاف ج ١ ، ص ١٩٥ « باب الجهر فى قراءة الفجر » فقد ورد الحديث يلفظ عن ابن عباس .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب الجهر بالقراءة ج ١ ، ص ٣٣١ حديث ١٤٩ / ٤٤٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

وانظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٢٥٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن رواية لابن عباس .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذى حكاه ابن عباس — رضى الله عنهما — إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليه القرآن ودعاهم إلى الله — عز وجل — كما رواه عبد الله بن سعود رضى الله عنه قال الامام أحمد بسنده عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال ما صاحبه منا أحد ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما كان فى وجه الصبح أو قال فى السحر إذا نحن به يجيئ من قبل حراء فقلنا : يا رسول الله ، فذكروا له الذى كانوا فيه فقال : « إنه أتانى داعى الجن فأتيتهم فقرأت عليهم ، قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم قال : قال الشعبى سألوه الزاد . قال عامر سألوه بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم قال فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد اخوانكم من الجن »^(١) وهكذا رواه مسلم فى صحيحه .

وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرة بعد مرة ، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا ﴾ أى : استمعوه وهذا أدب منهم ، وقد قال الحافظ البيهقي عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — قال : قرأ رسول الله ﷺ — سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : ما لى أراكم سكوناً ؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلا قالوا : « ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »^(٢) ورواه أيضا الترمذى ثم قال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد عن زهير .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ أى : فرغ من تلاوته ، ﴿ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ أى : رجعوا إليهم لعلهم يحذرون .

وقد استدلل بهذه الآية على أنه فى الجن نذر وليس فيهم رسل ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾^(٣) ،
وقوله :

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ج ١ ص ٣٣٢ حديث رقم ١٥٠ / ٤٥٠ من رواية لابن مسعود .

(٢) انظر سنن الترمذى « كتاب التفسير » تفسير سورة « الرحمن » ج ٥ ص ٧٣ — ١٤ حديث رقم ٣٣٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد .

(٣) سورة يوسف من الآية ١٠٩

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾^(١).

ثم فسر سبحانه إنذار الجن لقومهم مخبراً عنهم بقوله تعالى : ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ .

أى : قالوا لهم : يا قومنا من الجن ، إنا سمعنا كتاباً أنزله الله من بعد تواراة موسى يصدق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله ، ويرشد إلى سبيل الحق وإلى ما فيه الله رضا ، وإلى الطريق الذي لا عوج فيه . وخصوا التوراة بالذكر لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين .

وقوله تعالى : ﴿ يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويمحرم من عذاب أليم ﴾ .
أى : يا قومنا أجيئوا رسول الله محمدًا ﷺ إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله ، وصدقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه — وهذا يدل على أنه — ﷺ — كان مبعوثاً إلى الجن والإنس . قال مقاتل : ولم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ .

روى مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى كان نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحر وأسود ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً مسجداً فأما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة إني قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجن والإنس .
وفي رواية من حديث أبي هريرة « وبعثت إلى الخلق كافة وختم بي النبوة »^(٢).

وقوله تعالى ﴿ وآمنوا به ﴾ أى : بالداعي ، وهو محمد ﷺ وقيل : « به » أى : بالله لقوله : ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ ، قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلاً ، فرجعوا إلى النبي ﷺ فوافقوه بالبطحاء ، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم . وقوله : ﴿ ويمحرم من عذاب أليم ﴾ أى : ويقيكم من عذابه الأليم قال القرطبي : هذه الآية تدل على أن الجن كالإنس في الأمر والنهي والثواب والعقاب وإليه ذهب مالك والشافعي وابن أبي ليلى .

قوله تعالى : ﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ﴾ أى : ومن لا يجب رسول الله محمدًا ﷺ إلى ما دعا إليه من التوحيد والعمل بطاعته ، فلا يفوت ربه ولا يسبقه هرباً إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه ، ولا يجد له نصراء ينصرونه ويدفعون

(١) سورة الاسراء الآية ٧٠

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » ج ١ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ حديث رقم ٣ / ٥٢١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لجابر بن عبد الله الأنصاري .

عنه عذابه ، وأولئك الذين يفعلون ذلك يكونون في ضلال بين وجور عن قصد السبيل ، لأن طريق الحق واضحة وأعلامه منصوبة ، والوصول إليه ميسور ، فمن جانفه وأعرض عنه فقد أجرم واستحق الجزاء الذى هو له أهل .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ . أى : أو لم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم ، وبعثة إياهم من قبورهم بعد بلاهم ، فيعلموا أن الذى خلق السموات السبع والأرض فابتدعهن من غير شيء ، ولم يعى فى إنشائهن — بقادر على أن يحيى الموتى فيخرجهم من بعد بلاهم فى قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم ؟ كقوله تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ^(١) .

ثم أجاب عن ذلك مقررًا للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود فقال تعالى : ﴿ بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ ذو قدرة على كل شيء أراد خلقه ، ولا يعجزه شيء أراد فعله .

ولما أثبت البعث — سبحانه — بما أقام من الأدلة ذكر ما يحدث حينئذ من الأحوال فقال تعالى : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

أى : يقال لهم يوم القيامة — على سبيل التأنيب والتوبيخ : أليس هذا العذاب الذى تعذبون اليوم وقد كنتم تكذبون به فى الدنيا ، بالحق الذى لا شك فيه ؟ قالوا من فورهم : بلى وربنا ، انه الحق ﴾ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ . أى : بسبب كفركم . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾ ^(٢) .

قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ .

(١) سورة غافر الآية ٥٧

(٢) سورة الأنعام الآيتان ٣٠ — ٣١

أى : فاصبر أيها الرسول ﴿ وما صبرك إلا بالله ﴾ على ما أصابك في الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم منذراً ، كما صبر أولو العزم من الرسل على القيام بأمر الله والانتهاز إلى طاعته . ولما أمره بالصبر ، وهو أعلى الفضائل ، نهاه عن العجلة فقال تعالى : ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أى : لا تعجل بمسألة ربك العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لا محالة كقوله تعالى : ﴿ وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ ^(١) ، وكقوله تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ أى : كأنهم حين يرون عذاب الله الذى أوعدهم بأنه نازل بهم — لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار — لأن شدة ما ينزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا في الدنيا من السنين والأعوام ، فيظنونها ساعة من نهار كقوله تعالى : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾ ^(٣) ، وكقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ بلاغ ﴾ أى : هذا القرآن بلاغ للناس ، وكفاية إن فكروا واعتبروا كقوله تعالى : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به ﴾ ^(٥) ، وقوله ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ ^(٦) ثم أوعد وأنذر فقال جل في علاه : ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ أى : وما يهلك بالعذاب إلا الخارجون عن طاعة الله ، المخالفون لأمره ونهيه .

قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك شرك ، وهذه الآية أقوى آية في الرجاء ، ومن ثم قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون .

« اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار اللهم لا تدع لى ذنباً إلا غفرته ، ولا همماً إلا فرجته ، ولا ديناً إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين . »

(١) سورة المزمل الآية ١١

(٢) سورة الطارق الآية ١٧

(٣) سورة المؤمنون الآيتان ١١٢ — ١١٣

(٤) سورة النازعات الآية ٤٦

(٥) سورة إبراهيم من الآية ٥٢

(٦) سورة الأنبياء الآية ١٠٦

تفسير سورة محمد

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق

عدد آياتها : ثمان وثلاثون .

كلماتها : خمسمائة وتسع وثلاثون

وحروفها : ألفان وثلثمائة وتسع وأربعون

ولها اسمان : سورة محمد ، لقوله : ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق ﴾

وسورة القتال ، لقوله : ﴿ وذكر فيها القتال ﴾

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : الشكاية من الكفار في إعراضهم عن الحق ، وذكر آداب الحرب والأسرى وحكمهم ، والأمر بالنصرة والإيمان وابتلاء الكفار في العذاب ، وذكر أنهار الجنة : من ماء ، ولبن ، وخمر ، وعسل ، وذكر طعام الكفار وشرابهم ، وظهور علامة القيامة ، وتخصيص الرسول ﷺ بأمره بالخوض في بحر التوحيد والشكاية من المنافقين ، وتفصيل ذمات خصالهم ، وأمر المؤمنين بالطاعة والإحسان ، وذم البخلاء في الانفاق ، وبيان استغناء الحق — تعالى — وفقر الخلق في قوله : ﴿ والله الغنى وأنتم الفقراء ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة ﴾ نزل وأنزل كلاهما متعد . وقيل : نزل للتعدي والمبالغة ، وأنزل للتعدي . وقيل : نزل . دفعة مجموعا وأنزل متفرقا ، وخص الأولى بنزلت ، لأنه من كلام المؤمنين ، وذكر بلفظ المبالغة ، وكانوا يأنسون لنزول الوحي ، ويستوحشون لإبطائه . والثاني من كلام الله — تعالى — ولأن في أول السورة ﴿ نزل على محمد ﴾ وبعده ﴿ أنزل الله ﴾ ، وكذلك في هذه الآية قال ﴿ نزلت ﴾ ثم ﴿ أنزلت ﴾ .

قوله : ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم ﴾ نزلت في اليهود ، وبعده : ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا ﴾ نزلت في قوم ارتدوا . وليس بتكرار .

مناسبتها لما قبلها

ولا تخفى قوة ارتباطها بما قبلها ، فإن أولها متلاحم بآخر السورة السابقة ، بحيث أنه لو أسقطت البسملة منه ، لكان متصلاً اتصالاً واحداً لا تنافر فيه ، كآية الواحدة ، آخذاً بعضه بعنق بعض . فالأحقاف فيها الحديث عن إعراض الكافرين في مختلف العصور ، وقد استنفدت السورة وسائل الإقناع العقلي ، وأثبتت عتو أهل الكفر وجحودهم فكانت سورة القتال بما فيها من جهاد ، وقواعد الحرب ، وتشريعاته متفقة تماماً مع نسخ وسائل الدعوة السلمية بآية السيف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنصَرُوهَا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

معانى المفردات

﴿ صدوا عن سبيل الله ﴾ أى : صرفوا الناس عن الدخول في الإسلام ، وذلك يستلزم أنهم منعوا أنفسهم عن الدخول فيه . ﴿ أضل أعمالهم ﴾ أى : أبطلها ، ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ أى : وهو الحق الثابت الذى لا مرية فيه . ﴿ بالهم ﴾ أى : حالهم في الدين الدنيا بالتوفيق لصالح الأعمال ، وأصل البال : الحال التى يكثر بها . ﴿ يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ أى : يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه في معادهم .

﴿ فإذا لقيتم ﴾ لقيتم من اللقاء : وهو الحرب ، ﴿ فضرب الرقاب ﴾ أى : فالقتل وعبر به عنه تصويراً له بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وأوجه الأعضاء ومجمع حواسه ، وبقاء البدن ملقى على هيئة مستبشعة ، وفى ذلك من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل ،

﴿ أثخنموهم ﴾ أى : أكثرتم القتل فيهم ، ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ أى : فأسروهم ، والوثاق (بالفتح والكسر) ما يوثق به ، ﴿ منا أى : إطلاقاً من الأسر بالجنان . ﴾ فداء ﴾ أى : إطلاقاً فى مقابلة مال أو غيره ، ﴿ أوزارها ﴾ الأوزار فى الأصل : الأحمال ويراد بها : آلات الحرب وأنفالها من السلاح والكراع .

﴿ لانتصر ﴾ أى : انتقم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق ، ﴿ ليلو ﴾ أى : ليختبر . ﴿ يضل ﴾ أى : يضيع ، ﴿ بالهم ﴾ أى شأنهم وحالهم ، ﴿ عرفها ﴾ أى : بينها وأعلمها . ﴿ تنصروا الله ﴾ أى : تنصروا دينه ، ﴿ فتعسأ لهم ﴾ أى : سقوطاً على الوجه وسقوطاً على الرأس ، ﴿ أحبط أعمالهم ﴾ أبطلها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله ، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه . وهذا هو الكفر المزدوج أو الضلال المضاعف أو تحول الكفر من حيوان عادى إلى حيوان شرس فاتك قاتل ، هذا الكفر المزدوج المقرون بالصد عن سبيل الله هو ما شكوا المؤمنون منه قديماً وحديثاً هو ما أعلن القرآن عليه حرباً شعواء قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً ﴾ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ^(١) وبين سبحانه أنهم ينفقون أموالهم للصد عن الإسلام فقال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ ^(٢) فقد أخبر — تعالى — أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أى : ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزي لهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدى والعذاب السرمدى .

وقوله تعالى : ﴿ أضل أعمالهم ﴾ أى : أبطل كيدهم ومكرهم وجعل الدائرة عليهم — وقيل : أبطل ما عملوه فى كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم أخلاق ، من صلة أرحام وفك الأسارى وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام ونحو ذلك حكم الله ببطلانه ، فلا يرون له فى الآخرة ثواباً ، كقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ ^(٣) .

ولما ذكر — سبحانه — جزاء أهل الكفر ، أتبعهم بثواب أهل الإيمان فقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ أى : آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ، ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته — ﷺ — قاله ابن كثير ، ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ جملة معترضة حسنة . ﴿ ولهذا قال — جل جلاله — : ﴾ غفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ أى : فامضى من سيئاتهم وأصلح شأنهم فى الدنيا بتوفيقهم لسبل السعادة ، وأصلح شأنهم فى الآخرة ، بأن يورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم فى جناته قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ .

« ذلك » فى موضع رفع ، أى : الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا ، فالكافر اتبع الباطل ، والمؤمن اتبع الحق . والباطل : الشرك . والحق : التوحيد والإيمان . ﴿ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ أى : كهذا البيان الذى يبين الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير فى « أمثالهم » يرجع إلى الذين كفروا ، والذين آمنوا .

قوله تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يغفر الله لهم ﴾ .

يقول تعالى : مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين ، ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ أى : إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ، ﴿ حتى إذا أثختموهم ﴾ : أى : أهلكتموهم قتلاً ، ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ الأسارى الذين تأسروهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أسراهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ قال قتادة : حتى لا يبقى شرك وهذا كقوله تعالى ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾^(١) .

قال ابن كثير : وقال بعضهم : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ أى : أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله — عز وجل — ، وقيل أوزار أهلها بأن يذلوا الوسع فى طاعة الله — تعالى — وقيل معناه : حتى تضع الحرب ، أى : الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو المصادعة .

وقوله تعالى : ﴿ ذلک ولو يشاء الله لا نتصر منهم ﴾ ، « ذلک » فى موضع رفع ، أى : الأمر ذلک الذى ذكرت وبينت وقيل : هو مقصور على معنى افعلوا ذلک . ويجوز أن يكون مبتدأ ، والمعنى ذلک حکم الکفار وهى کلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من کلام إلى کلام . قاله القرطبى . ومعنى : ﴿ لا نتصر منهم ﴾ أى : أهاکهم بغير فقال : قال ابن عباس : لأهلکهم بجند من الملائكة ، ﴿ ولكن ليلو بعضکم بعض ﴾ أى : أمرکم بالحرب ليلو ويختبر بعضکم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين كما بين — سبحانه — فى آخر السورة نفسها ﴿ ولنبلوکم حتى نعلم المجاهدين منکم والصابرين ونبلو أخبارکم ﴾

وكقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾^(١) وكقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتکم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾^(٢) وكقوله جل علاه : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولم يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون ﴾^(٣)

وقوله تعالى : ﴿ والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يصل أعمالهم سيديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ . لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال — سبحانه — مبيناً — أن الذين قتلوا فى سبيله فلن يذهب أعمالهم بل يكثرها وينميها ويضاعفها : منهم من يجرى عليه عمله طول برزخه كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الامام أحمد فى مسنده عن كثير من مرة عن قيس الجذامى — رجل كانت له صحبة — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « يعطى للشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه : تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفرع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان »^(٤) تفرد به أحمد رحمه الله . ذكره ابن كثير .

وفى صحيح مسلم عن أبى قتادة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر للشهيد كل شئ إلا الدين »^(٥) وذكر ابن كثير فى تفسيره حديثاً لأبى الدرداء — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته »^(٦) وأرواه أبو داود .

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٢

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٤

(٣) سورة التوبة الآية ١٦

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٢٠٠ حديث قيس الجامى — رضى الله عنه — فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن قيس الجزامى (رحل كانت له صحبة) .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الاماره » باب « من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياہ ، إلا الدين » ج ٣ ص ١٥٠٢ حديث رقم ١١٩ / ١٨٨٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٦) انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الشهيد يشفع ج ٣ ص ٢٤٤ حديث رقم ٢٥٢٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى الدرداء .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاداً في سبيل ، وإيماناً بى ، وتصديقاً برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده : ما من كُلم يكُلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلم لونه لون دم ، وريحه مسك والذى نفس محمد بيده ، لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزوا في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزوا فأقتل ثم أغزوا فأقتل »^(١) متفق عليه .

(ومعنى الكُلم — بفتح الكاف وسكون اللام — هو الجرح) .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض »^(٢) رواه البخارى .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قيل : يارسول الله ، ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « لا تستطيعونه » فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول « لا تستطيعونه » ثم قال « مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله »^(٣) متفق عليه .

وقوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أى : يهديهم إلى الجنة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾^(٤) . وقوله : ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أى : أمرهم وحالهم ، ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴾ أى : عرفهم بها وهداهم إليها . وقال محمد بن كعب القرظى : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذى كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشى بين يديه في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله — تعالى — في الجنة فإذا انتهى

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الامارة » باب « فضل الجهاد والخروج في سبيل الله » ج ٣ ص ١٤٩٥ ، ١٤٩٦ حديث رقم ١٠٣ / ١٨٧٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب فضل الجهاد والسير » باب ج ٤ ص ١٩ ، ٢٠ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي هريرة .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الامارة » باب فضل الشهادة في سبيل الله » ج ٣ ص ١٤٩٨ حديث رقم ١١٠ / ١٨٧٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٤) سورة يونس الآية ٩

إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه . ذكره ابن أبي حاتم رحمه الله . قال ابن كثير وقد ورد الحديث الصحيح بذلك — أيضا — رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسى بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدي منه بمنزله الذى كان في الدنيا » ^(١) .

ونحن الآن في سبيلنا إلى تفسير هذا النص الكريم : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ .. الْآيَات ﴾ وذلك كما جاء في كتاب روائع البيان تفسير آيات الأحكام للشيخ العبابوني . فقد جاء ما نصه .

الحرب في الإسلام

قوله تعالى : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مِّنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴿١٩٠﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿١٩١﴾ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿١٩٢﴾

التحليل اللفظي

﴿ أَثْخَنْتُمُوهُمْ ﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح . يقال : أثخن العدو : إذا أكثر فيه الجراح . قال في اللسان : والإثخان من كل شيء قوته وشدته ، يقال ، قد أثخنه المرض : إذا اشتدت قوته عليه ووهنه . وأثخنه الجراحة : أوهنته ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٢) معناه : حتى يبالغ في قتل أعدائه ، ﴿ الْوَتَاق ﴾ في الأصل مصدر كالأخلاص ، وأريد به هنا : ما يوثق به أى : ما يربط به كالحبل وغيره . قال الجوهرى : وأوثقه في الوثاق ، أى : شده ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَشُدُّوا الْوَتَاق ﴾ والوثاق بكسر الواو لغة فيه .

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب المظالم والغصب » باب « قصاص المظالم » ج ٣ ص ١٦٧ ، ١٦٨ فقد ورد الحديث من روايه لابي سعيد الخدري بلفظ : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا ، أذن لهم بدخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ، لأحدهم بمسكنه في الجنة أذل بمنزله كان في الدنيا » .

(٢) سورة الأنفال من الآية ٦٧

﴿ مناً ﴾ مصدر من ، ومعناه : أن يطلق سراح الأسير بدون فداء وبدون مقابل .

﴿ فداء ﴾ مصدر فادى ، والفداء : أن يطلق الأسير مقابل مال يأخذه منه . قال في اللسان : الفداء بالكسر : فكاك الأسير والعرب تقول : فاديت الأسير ، وتقول : فديته بمالى . وفديته بأبى وأمى ، إذا لم يكن أسيراً .

﴿ أوزارها ﴾ الأوزار : جمع وزر . وهو فى الأصل : الإثم والذنب ، ويطلق على الحمل الثقيل ، والمراد به : آلات الحرب وأثقالها من السلاح والخيل والعتاد . وسمى السلاح ﴿ أوزارا ﴾ لأنه يحمل لثقله . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا

وإنما جاء الضمير مؤنثاً ﴿ أوزارها ﴾ لأن الحرب مؤنثة .

ومعنى الآن : حتى تنتهى الحرب ، وتضع سلاحها ، فلا يكون قتال مع المشركين لضعف شوكتهم .

﴿ ذلك ﴾ اسم الإشارة « ذلك » جىء للفصل بين كلامين ، وقد كثر فى لغة العرب إستعمال اسم الإشارة عند الفصل بين كلامين والانتقال من الكلام الأول إلى الثانى كأنه قيل : ذلك ما كنا نريد أن نقوله فى هذا الشأن ونقول بعده كذا — وكذا .

﴿ لا انتصر منهم ﴾ أى : انتصر منهم بدون أن يكلفكم بحرب أو قتال فالله — سبحانه — قادر على إهلاك الكفار بدون حرب المسلمين لهم . ولكنه ابتلاء من الله — سبحانه — ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ .

قال الألوسى : قوله تعالى : ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ أى : لانتقم منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف : أو رجفة ، أو غرق أو موت جارف . ﴿ ليلو بعضكم بعض ﴾ أى : أمرهم — سبحانه — بالحرب ، ﴿ ليلو بعضكم بعض ﴾ فيشيب المؤمن ويكرمه بالشهادة . ويخزي الكافر بالقتل والعذاب .

والابتلاء فى اللغة : الامتحان والاختبار .

﴿ يضل أعمالهم ﴾ أى : فلن يضيع أعمالهم ، بل ستحفظ وتخلد لهم ، ويجزون عليها الجزاء الأوفى يوم الدين .

﴿ عرّفها لهم ﴾ أى : بينها لهم وأعلمهم منازلهم فيها فلا يخطئونها ، أو عرّفها لهم فى الدنيا بذكر أوصافها كما قال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن .. الآية ﴾ من سورة محمد .

المعنى الجملى

يأمر سبحانه المؤمنين عند لقاء الكفار فى الحرب ، ألا تأخذهم شفقة عليهم ، بل ينبغى أن يحكموا السلاح فى رقابهم ، ويحصدوهم بسيوفهم حصدا ، حتى إذا غلبوهم ، وقهروهم . وكسروا شوكتهم عند ذلك عليهم أن يشدوا الوثاق وهو كناية عن وقوعهم أسرى فى أيدي المؤمنين ، فإذا انتهت الحرب فالمؤمنون عند ذلك بالخيار : إما أن يمينوا على الأسرى فيطلقوا سراحهم بدون عوض ، وإما أن يأخذوا منهم الفداء ليستعين به المسلمون على مصالحهم ، بعد أن تضعف عزائم المشركين وتكسر شوكتهم .

ثم بين الله — سبحانه — الحكمة من مشروعية القتال مع قدرته — تعالى — أن ينتصر من أعدائه من غير أن تكون حرب بين المؤمنين والكافرين ، وتلك الحكمة هى امتحان الناس واختبار صبرهم على المكاره واحتمالهم للشدائد فى سبيل الله ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (١) .

ثم بين الله — تعالى — بعد ذلك أن الذين أكرمهم الله بالشهادة فى سبيله . ستحفظ أعمالهم ، وتخلد لهم ، ثم هم بعد ذلك فى روضات الجنات يحبرون ، وفى ذلك حض على الجهاد ، وترغيب للخروج فى سبيل الله ، لينال المؤمن إحدى الحسينين : إما النصر والعزة فى الدنيا ، وإما الشهادة فى سبيل الله .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : عبر القرآن الكريم عن القتل بقوله — تعالى — : ﴿ فضرِب الرقاب ﴾ والسر فى ذلك : أن فى هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ (القتل) لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة العضو ملقى على هيئة منكرة — والعياذ بالله — ولو قال : (فاقتلوهم) لما كان هذا المعنى الدقيق .

والتعبير — أيضا — يوحى بشجاعة المؤمنين ، وأنهم من الكفار كأنهم متمكنون من رقابهم ، يعملون فيهم سيوفهم بضرِب الأعناق . وهو (مجاز مرسل) علاقته السينية لأن حز الرقبة سبب الموت .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ فشَدُوا الوثاق ﴾ كناية عن الأسر أى : اجعلوهم أسرى واحفظوهم رهائن تحت أيديكم ، حتى تروا فيهم رأيكم .

ولما كانت العادة أن يربط الأسير لثلا يهرب جاء التعبير بقوله : ﴿ فشَدُوا الوثاق ﴾ وفيه الإشارة إلى الكف عن القتل والاكتفاء بالأسر ، لأن الشريعة الغراء تنهى عن الإجهاز على الجريح ، وذلك من آداب الإسلام وتعاليمه الإنسانية الرشيدة .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ ذكر — تعالى — ﴿ المن والفداء ﴾ ولم يذكر القتل والاسترقاق . وفي ذلك إرشاد من الله — تعالى — إلى أن الغرض من الحرب كسر (شوكة المشركين) . لا إراقة الدماء والتشفى بإزهاق الأرواح ، فإذا ضعفت شوكة المشركين ووهنت قواهم فلا حاجة إلى القتل ، وتقديم (المن) على (الفداء) في الآية الكريمة للإشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ، فالمجاهد في سبيل الله يقاتل لاعلاء كلمة الله ، لا للمغنم المادى والكسب الدنيوى .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ حتى نضع الحرب أوزارها ﴾ في الآية الكريمة إشارة إلى أن الاسلام يكره الحرب ويمقتها ، لأنها مخربة مدمرة ، والتعبير بـ ﴿ أوزارها ﴾ للإشارة إلى أن ما فيها من آثام إنما ترجع على الذين أشعلوها وهم الكفار ، المحاربون لله ورسوله ، فلولا كفرهم وإفسادهم في الأرض لما كانت هناك حرب .

قال الإمام الفخر : « والمقصود من وضع الحرب أوزارها ، انقراض الحرب بالكلية بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفر ، يحارب حزباً من أحزاب الإسلام ، وإنما قال : ﴿ حتى نضع الحرب أوزارها ﴾ ولم يقل : حتى لا يبقى حرب ، لأن التفاوت بين العبارتين كالتفاوت بين قولك انقرضت دولة بنى أمية ، وقولك : لم يبق من دولتهم أثر ، ولا شك أن الثانى أبلغ ، فكذا ههنا » .

اللطيفة الخامسة : فإن قيل : لماذا لم يهلك الله الكافرين مع قدرته عليهم ، وأمر المؤمنين بالجهاد ؟ . فالجواب : أن الله — عز وجل — أراد بذلك أن يختبر عباده ، فابتلى المؤمنين بالكافرين ، ليختبر صبرهم على المكاره ، واحتمالهم للشدائد وابتلى الكافرين بالمؤمنين ، ليظهر الأرض من رجسهم ، وينيل المؤمنين الشهادة في سبيله بسببهم ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ ولكن ليلو بعضكم بعض ﴾ .

فإن قيل : إن الله يعلم المؤمن من الكافر ، والبر من الفاجر ، والمطيع من العاصي ، فما هي الفائدة من هذا الابتلاء ؟ فالجواب : أن الابتلاء من الله — تعالى — ليس بقصد العلم والمعرفة ، وإنما هو بقصد إثابة المؤمن ، وتعذيب الكافر بعد إقامة الحجة عليه ، حتى يقطع العذر على الإنسان ، أو نقول : إن الابتلاء غرضه الكشف للناس أو للملائكة ، ليظهر لهم الصادق من المنافق ، والتقوى من الشقى ، وليس بالنسبة له — تعالى — ، لأنه بكل شىء عليم .

اللطيفة السادسة : أمر الله — تعالى — بالمن أو الفداء ، وهذا من مكارم الأخلاق التى أرشد إليها الإسلام . روى أن الحجاج حين أسر أصحاب (عبد الرحمن بن الأشعث) وكانوا قريباً من خمسة آلاف رجل قتل منهم ثلاثة آلاف فجاءه رجل من (كيدة) فقال : يا حجاج ، لا جزاك الله عن السنة والكرم خيراً ! قال : ولم ذاك ؟ قال : لأن الله — تعالى — يقول : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء ﴾ في حق الذين كفروا .. فو الله ما مننت ، ولا فديت ؟ وقد قال شاعرهم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق .

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

فقال الحجاج : أف لهذه الجيف ! أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام ! ؟ خلوا سبيل من بقى فخلى يومئذ عن بقية الأسرى وهم زهاء ألفين ، يقول ذلك الرجل .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما المراد بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ في الآية الكريمة ؟ اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا ﴾ على قولين :

(١) **القول الأول :** أن المراد بهم المشركون الكفار عبدة الأوثان . وهذا مروي عن ابن عباس — رضى الله عنهما .

(٢) **القول الثاني :** أن المراد بهم كل من خالف دين الإسلام من مشرك ، أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة ، فيدخل فيه كل الكفار بدون استثناء وهو ظاهر الآية . واختيار جمهور المفسرين . قال ابن العربى : وهو الصحيح لعموم الآية فيه ، والتخصيص لا دليل عليه .

الحكم الثانى : ما المراد من قوله — تعالى — : ﴿ فضرِب الرقاب ﴾ في الآية الكريمة ؟ ذهب (السدى) وجمهور المفسرين إلى أن المراد منه القتل .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد منه (قتل الأسير صبراً) .

والراجح هو الأول ، لأن الآية الكريمة وهى قوله — تعالى — : ﴿ فضرِب الرقاب حتى إذا أثخنموهم فشدوا الوثاق ﴾ قد جعلت ﴿ الإثخان ﴾ وهو الإضعاف لشوكة العدو فما اية لضرِب الرقاب ، فأين هو قتل الأسير صبراً ؟ مع العلم بأنه إنما يقع فى الأسر بعد إثخانه وضعفه ، فيكون قول جمهور المفسرين هو الأرجح ، بل هو الصحيح .

الحكم الثالث : ما المراد من الفداء ، وما هى أنواعه ؟

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من المفادة العتق أى : عتق الأسير . وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد إطلاق سراح الأسير فى مقابل ما يأخذه المسلمون منهم . وقد يكون المقابل (أسرى) من المسلمين عند الكفار بطريق التبادل .

وقد يكون المقابل (مالاً) أو عتادا يأخذه المسلمون فى نظير إطلاق الأسرى .

وقد يكون العوض (منفعة) كما كان فى غزوة بدر ، فقد كان من ليس عنده مال يفدى به نفسه أمره — عليه الصلاة والسلام — أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة .

فالمراد من الفداء : كل ما يأخذه المسلمون من أعدائهم من مال ، أو عتاد ، أو منفعة ، أو مبادلة أسرى بأسرى وغير ذلك .

الحكم الرابع : ما معنى قوله — تعالى — : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ ؟ اختلف المفسرون في معنى الآية الكريمة على عدة أقوال :

أ — قال ابن عباس : حتى لا يبقى أحد من المشركين يقاتل .

ب — وقال مجاهد : حتى لا يكون دين إلا دين الاسلام .

ج — وقال سعيد بن جبير : حتى ينزل المسيح ابن مريم وحينئذ ينتهى القتال .

والقول الأخير ضعيف — لأن نزول عيسى ابن مريم ليس فى الآية ما يدل عليه . وإنما يؤخذ من الأحاديث الشريفة ، فنزوله يدخل الناس فى الإسلام ولا يبقى على ظهر الأرض كافر ، كما دلت عليه السنة المطهرة ، ولكن الآية ليس فيها ما يشير إلى هذا المراد من قريب أو بعيد .

ومما يدل على أن المراد بالآية الكريمة ظهور الإيمان ، واندحار الكفر بحيث تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى قوله تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ (١) .

الحكم الخامس : هل يجوز قتل الأسير ؟

اتفق الفقهاء على جواز قتل الأسير . حتى قال « الجصاص » : لا نعلم فى ذلك خلافا فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبى ﷺ فى قتله لبعض الأسرى .

- ١ — ما روى أن النبى ﷺ — قتل (أبا عزة) الشاعر يوم أحد .
- ٢ — وقتل (عُقبة بن أبى مُعَيْط) صبراً ، (والنضر بن الحارث) بعد الأسر فى بدر .
- ٣ — وقتل (بنى قريظة) بعد نزولهم على حكم (سعد بن معاذ) الذى حكم فيهم بالقتل ، وسبى الذرية
- ٤ — وفتح — ﷺ — خيبر بعضها صلحا ، وبعضها عنوة وشرط على (ابن ابى الحقيق) ألا يكتم شيئا ، فلما ظهر على خيانتة وكتماه قتله — ﷺ — .
- ٥ — وفتح مكة وأمر بقتل (هلال بن حنظل) و (عبد الله بن أبى سرح) و (مقيس بن حبابه) وقال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة .

فكل هذه الأخبار تدل على جواز قتل الأسير ، ولأن فى قتله حسم مادة الفساد فى الأرض . قال الألوسى : « وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيرا بنفسه فإن فعل كان للإمام أن يعزره . ولكن لا يضمن شيئا ، وإن أسلم الأسارى بعد الأسر لا يقتلهم ، لاندفاع شرهم بالإسلام ، ولكن يجوز استرقاقهم . فإن الإسلام لا ينافى الرق جزاء على الكفر الأصلى ، بخلاف ما لو أسلموا من قبل الأخذ فإنهم يكونون أحرارا . لأنه إسلام قبل انعقاد سبب الملك فيهم .. » .

وقال القرطبي : « وقيل : ليس للإمام أن يقتل الأسير . وقد روى عن الحجاج : أنه دفع أسيراً إلى (عبد الله بن عمر) ليقتله ، فأبى وقال ليس بهذا أمرنا الله ، وقرأ : ﴿ حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق ﴾ .

قلنا : قد قاله رسول الله ﷺ وفعله ، وليس في تفسير الله للامن والفداء منع من غيره ، ولعل ابن لحر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال وربك أعلم .. قاله القرطبي .

الحكم السادس : هل يجوز أخذ الفداء من الأسير ؟

اختلف الفقهاء في أخذ الفداء من الأسير على أقوال :

أولاً : مذهب الحنفية : أن الأسير لا يفادى بالمال ، ولا يباع لأهل الحرب ، لأنه يرجع حرباً علينا ، أما فداؤه بأسرى من المسلمين فجائز عند الصحابين (أبى يوسف ومحمد) ، وقال (أبو حنيفة) : لا يفادون بأسرى المسلمين أيضاً .

ثانياً : مذهب الجمهور : (الشافعي ومالك وأحمد) جواز أخذ الفداء من الأسرى .

دليل الحنفية : استدلال الحنفية على عدم جواز الفداء بما يلي :

١ — قالوا : إن الآية الكريمة ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾^(١) ، ويقولون تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾^(٢) فقل ذلك عن مجاهد وروى عن (قتادة) انه قال : نسختها آية الأنفال ﴿ فإما تتقنهم في الحرب فشردهم من خلفهم ﴾^(٣) .

ووجه الاستدلال :

أن سورة براءة من آخر ما نزل ، فوجب ان يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء ، والصبيان ، ومن يؤخذ منه الجزية ، والمتأخر ينسخ المتقدم كما هو المعلوم من أصول الشريعة الغراء .

٢ — وقالوا : لا يجوز المن ولا الفداء . لأن فيه تقوية لأهل الشرك على أهل الإسلام ، حيث يرجعون حرباً علينا ، وقد أمرنا بتطهير الأرض من الكفرومن رجس المشركين .

٣ — وقالوا : إن ما روى في (أسرى بدر) منسوخ أيضاً بما تلونا ، سيما وأنه قد نزل العتاب في قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾^(٤) .

(١) سورة التوبة من الآية ٥

(٢) سورة التوبة من الآية ٣٠

(٣) سورة الأنفال من الآية ٥٧

(٤) سورة الأنفال من الآية ٦٧

فلا يجوز الاستدلال به على جواز أخذ الفداء .

٤ — وقالوا : إن ما كان من النبي ﷺ — في صلح الحديبية « أن من جاء منهم رددناه عليهم » إنما كان في بدء الدعوة ، وقد نسخ ذلك ، ونهى النبي ﷺ عن الإقامة بين أظهر المشركين وقال : « من أقام بين أظهر المشركين فقد برئت منه الذمة »^(١) .

أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على جواز فداء الأسير بعدة أدلة . نوجزها فيما يلي :

١ — قوله تعالى : ﴿ فشدوا الوثاق فإمنا بعد وإما فداء ﴾ فقد أجازت الآية الكريمة الفداء مطلقاً بدون قيد ولا شرط ، فلإمام أن يمن أو يفدى ، أو يسترق ، عملاً بالآية الكريمة .

٢ — وقالوا : إن الآية محكمة ولا نسخ فيها ، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ ، والجمع ممكن فإن آية براءة وهى قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ أمر لنا بقتل المشركين عند اللقاء . فإذا وقعوا في الأسر كففنا عن القتل إلى المن أو الفداء عملاً بقوله تعالى : ﴿ فإمنا بعد وإما فداء ﴾ .

٣ — واستدلوا — أيضاً — بأن النبي ﷺ فادى أسرى بدر بالمال . ومن لم يكن عنده مال منهم أمره — عليه السلام — بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . وهذا قد ثبت بفعله — عليه الصلاة والسلام — .

٤ — واستدلوا بما روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال : « أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي ﷺ — وأسر أصحاب النبي ﷺ — رجلاً من بنى عامر بن صعصعة فمر به النبي ﷺ — وهو في الأسر فقال الأسير : علام أحبس ، فقال : بجريرة حلفائك ، فقال إني مسلم ، فقال النبي ﷺ — لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح ، ثم مضى رسول الله ﷺ — فناداه الأسير ، فقال إني جائع فأطعمني ، فقال النبي ﷺ — نعم هذه حاجتك ثم فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما » .

قالوا : فهذا دليل على جواز فداء المسلم بغيره من المشركين .

٥ — واستدلوا بما رواه مسلم عن عمران بن الحصين أن رسول الله ﷺ — فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين .

(١) انظر سنن الترمذى « أبواب السير » باب « ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين » ج ٣ ص ٨٠ - حديث رقم ١٦٥٤ فقد ورد الحديث عن جرير بن عبد الله بلفظ « أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل ، فبلغ ذلك النبي ﷺ — فأمر لهم بنصف العقل وقال : « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا : يا رسول الله ، ولم ؟ قال : لا تراءى ناراهما » .

٦ — واستدلوا بالمعقول وهو أن تخلص المسلم أدلى من قتل الكافر للانتفاع بالمسلم لأن حرمة عظيمة ، وأما الضرر الذى يعود إلينا بدفعه إلى المشركين ، فيدفعه نفع المسلم الذى يتخلص من فتنهم وعذابهم ، وضرر واحد يقوم بدفعه واحد مثله فيتكافئان وتبقى فضيلة تخلص المسلم وتمكينه من عبادة الله — تعالى — ، وفيها زيادة ترجيح .

هذه خلاصة أدلة الجمهور بالنسبة (للفداء) سواء كان بالمال أو بالرجال على ما عرفت .
وأما (المن) على الأسارى وهو أن يطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز (عند أبى حنيفة ، ومالك ، وأحمد) وأجاره الامام الشافعى لما ثبت ان النبي ﷺ من على (ثمامة بن أثال) سيد أهل اليمامة ثم أسلم وحسن أسلامه ، وقال — ﷺ — : لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى من هؤلاء النتنى — يعنى أسارى بدر — لتركته له ^(١) رواه البخارى ، فقوله ﷺ ذلك دليل على جواز المن على الأسرى .

الترجيح :

وبعد استعراض هذه الأدلة من الفريقين نرى أن الأرجح : أن يفوز أمر الحرب لأهل الاختصاص من ذوى رأى والبصر ، يفعلون ما تقضى به المصلحة العامة ، فإن رأوا قتل الأسرى قتلهم ، وإن رأوا أخذ الفداء بالمال أو بالأسرى ، فادوهم ، وإن رأوا إبقاءهم فى الأسر تركوهم تحت أيدي مسلمين ، فيترك لهم تقدير المصلحة حسب الظروف التى هم فيها . وهذه من (السياسة الحكيمة) التى ينبغى ان تتوفر فى قادة المسلمين .

والرسول ﷺ قد فعل ذلك كله ، فأسر من أسر . وقتل من قتل . وفادى من فادى منهم ، وأطلق سراح من أطلق دون مال ولا فداء . وما نزل من آيات العقاب فى سورة الأنفال فإنما كان بتوجيه إلهى حكيم — حسب المصلحة أيضاً — حيث نزلت هذه الآيات الكريمة فى (غزوة بدر) وهى أول حرب يخوضها المسلمون مع أعدائهم فكانت المصلحة تقضى بترجيح جانب الشدة على جانب الرحمة . بالقتل والإثخان وإراقة الدماء ، حتى لا يطمع المشركون بالاقدام على حرب المسلمين مرة أخرى ، وحتى تقلّم أظافر الكفر منذ اللحظة الأولى ، فإذا علم المشركون أن لا رحمة فى قلوب المسلمين عليهم ، هابوهم وتخوفوا من الإقدام على حربهم ، وهذا ما كان قد أشار به الفاروق عمر — رضى الله عنه — على رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن موافقاً لرأيه ولما كثر عدد المسلمين ، وقويت شوكتهم ، وأصبحت الدولة بأيديهم نزل القرآن

(١) انظر صحيح البخارى يشرح الكرماني « كتاب الجهاد والسر » باب « ما من به النبي — ﷺ — على الأمارى من غير أن يخمس » ج ١٣ ص ١١٠ حديث ٢٩٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لجبره ، وانظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٨٠ فقد ورد الحديث من رواية جبير بن مطعم عن أبيه بلفظ « لو كان المطعم ابن عدى حياً فكلمنى فى هؤلاء النتنى أطلقهم » يعنى أسارى بدر .

الكريم بالمن والفداء على الأسرى ، بعد أن توطدت دعائم الدولة الإسلامية ، وأصبح صرح الإسلام شامخاً عتيداً ، فكان المن عن قوة ، لا عن ضعف ، وعن عزة ، لا عن ذلة واستكانة .
فالمصلحة العامة هي التي ينبغي أن تراعى في مثل هذه الحالات : والحرب مكر وخديعة ، ولا عزة للضعفاء المستكينين .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : المؤمن يقاوم في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، فينبغي أن يكون شجاعاً مقداماً .
ثانياً : إيثان العدو بكثرة القتل فيهم والجروح ، من أجل إضعاف شوكتهم وتوهين قوتهم .
ثالثاً : الحرب في الإسلام حرب مقدسة ، غرضها تطهير الأرض من رجس الكفرة المشركين .
رابعاً : الاكتفاء بالأسر بعد إيثان العدو مظهر من مظاهر رحمة الاسلام بأعدائه .
خامساً : إطلاق سراح الأسرى بدون عوض ، أو أخذ الفداء منهم فينبغي أن تراعى فيه مصلحة المسلمين .
سادساً : الجهاد في سبيل الله ماض في هذه الأمة حتى لا يبقى على وجه الأرض شرك .
سابعاً : الله — جل ثناؤه — قادر على أن ينتقم من المشركين ، ولكنه أراد أن ينيل المؤمنين أجر الاستشهاد في سبيله .
ثامناً : الحياة ابتلاء للمؤمن والكافر ، يبتلى بعضهم ببعض ليعذب الكافر ويثيب المؤمن .

حكمة التشريع

أقر الاسلام الحرب — مع علمه بما تجره على البلاد من ويلات ونكبات — لضرورة وقائية . وعلاج اضطرارى . لا مناص منه لمجابهة الطغيان ، ودفع الظلم والعدوان ، وتطهير الأرض من رجس المشركين الغادرين ، على حد قول القائل :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها

ولكن الإسلام في الوقت الذي يدعو فيه إلى الجهاد ، ويحض على القتال ، ويبيح الحرب كضرورة من الضرورات ، تجده يأمر بالرحمة والشفقة في (معاملة الأسرى) الواقعين في أسر العبودية ، فيحرم تعذيبهم أو إيذائهم كما يحرم التمثيل بالقتلى ، أو الإجهاز على الجرحى ، أو تقتيل النساء والصبيان .
إن الغرض من الجهاد ليس إراقة الدماء ، وسلب الأموال ، وتخريب الديار ، ولكنه غرض إنساني نبيل . هو حماية المستضعفين في الأرض . ودفع عدوان الظالمين ، وتأمين الدعوة ، والوقوف في وجه الاستعلاء والطغيان كما قال — جل ثناؤه : ﴿ ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات

ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴿١﴾ .
ولقد كان من وصايا النبي الأكرم — ﷺ — ، للجند والجيش المجاهدين في سبيل الله ، أن يأمرهم بطاعة الله ، وعدم الغدر والخيانة حتى بالأعداء . فقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله — ﷺ — كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية ، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : « أغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً » ﴿٢﴾ .

وكذلك فعل الخلفاء الراشدون ، ففي وصية أبي بكر الصديق — رضى الله عنه — لأسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام « لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كُله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع — يريد الرهبان — فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وهكذا كانت رحمة الإسلام في الحرب ممثلة بمبادئه الإنسانية الرحيمة . فالإسلام حين يبيح الحرب يجعلها مقدرة بقدرها فلا يقتل إلا من يقاتل في المعركة ، وأما من تجنب الحرب فلا يحل قتله أو الاعتداء عليه : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ ﴿٣﴾ ، ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ ﴿٤﴾ .

لقد حرم الإسلام قتل النساء ، والشيوخ ، والأطفال ، وقتل المرضى والرهبان .
وحرم (المثلة) والإجهاز على الجريح ، وتبعية الفار ، وتحريق البيوت والأشجار ، وذلك تمشياً مع نظريته الإنسانية المثلى في حماية المستضعفين ، ودفع الظلم والعدوان ، ولأن الحرب كعملية جراحية ، يجب ألا تتجاوز موضع المرض من جسم الإنسان . فلا عجب أن نرى هذه الرحمة ممثلة في تعاليم القرآن ، تدعو إلى الإحسان إلى الأسرى ثم إلى المن عليهم والفداء ، حتى تنتهى المعركة لما فيه خير الإنسانية بانتصار الحق واندحار الباطل ، وصدق الله العظيم : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ ﴿٥﴾ فله ما أرحم الاسلام ! وما أسمى مبادئه وأحكامه !! أهـ .

(١) سورة الحج من الآية ٤٠

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الجهاد والسير » باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث .. الخ حديث ٣ / ١٧٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل عن سليمان بن بريدة عن أبيه .

(٣) سورة البقرة من الآية ١٩٤

(٤) سورة البقرة من الآية ١٩٠

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ أى : إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار : كقوله تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ^(١) ، فأقسم سبحانه أنه سينصر من ينصر دينه ورسوله فهو القادر لا يعجزه شيء ، العزيز الذى لا يقهر ولا يغلب ثم ذكر — سبحانه — عوامل النصر والذين يستمعون نصرة الله وهم الذين أقاموا للصلاة وآتوا الزكاة ، ودعوا إلى الخير ، ونهوا عن الشر ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وقوله تعالى : ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ أى : عند القتال ، وقيل : على الاسلام وقيل : المراد تثبيت القلوب بالأمن ، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمغونة فى موطن الحرب كقوله تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ ^(٢) .

وبين — ﷺ — أن الله يخذل من خذل دينه وركن إلى الدنيا فعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله — ﷺ — : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » قال قائل : يا رسول الله ، ومن قلة يومئذ ؟ قال : « لا ، بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ولتعرفن فى قلوبكم الوهن قال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكرهية الموت ^(٣) ذكره النبوى فى شرح السنة ، ورواه ابو داود بلفظ « وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن » ، وفى مسند أحمد « ينزع المهابة من قلوبكم ويجعل فى قلوبكم الوهن » .. وسنده قوى .

عوامل البناء ومعاول الهدم

جاء فى كتابنا « خذوا من أحداث التاريخ عبرة » ما نصه :
الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبينا محمد رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليك يا علم الهدى .
ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمام
فيا حماة الاسلام وحراس العقيدة .
فإن الدهر مدرسة أساتذته الأيام والليالى ، والعاقل من يأخذ من أحداث التاريخ عبرة قال جل شأنه :

(١) سورة الحج من الآية ٤٠ والآية ٤١

(٢) سورة الأنفال الآية ١٢

(٣) انظر شرح السنة للفيوى ج ١٥ ص ١٦ فقد ورد الحديث رقم ٤٢٢٤ من رواية عن ثوبان فقد روى الحديث بلفظه .

﴿ وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾
وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم
ويلعلم الصابرين ﴾^(١) .

وهذا الكتاب « خذوا من أحداث التاريخ عبرة » يعرض لدراسة قرنين من الزمان تعرض فيهما العالم
الاسلامى للهجمات الصليبية الحاقدة إلى أن قيض الله للأمة البطل المسلم (صلاح الدين الأيوبي) الذى
كان يستعين على أعدائه بصلاة الليل ، والذى قال لأصدقائه ذات يوم وقد دارت بينهم طرفة فضحكوا
ولم يتسم ، ف قيل له : لماذا لا تشاركنا ضحكنا أيها القائد ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أستحى
من الله أن يرانى مبتسماً والمسجد الأقصى فى أيدي الصليبيين ، إنه البطل الذى جعل من جهوده جواده
داراً ومستقراً وقيل له : لما لا تبنى لك داراً فقال بلسان يتفاطر يقينا وجلالاً ومهاباً : وماذا يصنع بالدار
من ينتظر الشهادة بين عشية أوضحاها ليست هذه دارنا بأن دارنا هناك لها نجمع وإليها نرجع .
لقد أجرى الله النصر على يديه بعد ما قضى على معاول الهدم من تفسخ أخلاقى ، وانحلال اجتماعى ،
وضعف للوازع الدينى ، وشيد عوامل البناء من عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وقوة للوازع الدينى ،
ونحن إذ نثمد هذه الدراسة بين يدي الأمة الاسلامية نرى أن التاريخ يعيد نفسه ، منها نحن أولاء قد تداعت
علينا الأمم من الشرق والغرب ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فلنتخذ من أحداث التاريخ عبرة ، ولمثل
هذا فليعمل العاملون ، وفيما كان عليه (صلاح الدين) فليتنافس المتنافسون وعلى الله فليتوكل المؤمنون
وربنا الرحمن المستعان على ما يصفون . ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾^(٢) .

حالة العالم الإسلامى قبل الحروب الصليبية

إن من الواجب على كل من أراد أن يدرس هذه الحقبة من تاريخ العالم الاسلامى التى خاض فيها الشرق
الاسلامى هذا الصراع الدامى الرهيب مع جيوش أوروبا التى نزحت إليه تحاول أن تحتج جذوره وتقضى
على مقدساته ، من الواجب على الدارس لهذه الحقبة أن يلقي نظرة على خريطة الشرق الاسلامى والمغرب
الاسلامى ليرى كيف انتهز هؤلاء الأعداء تلك الفرص السانحة ، واستغلوا مراكز الضعف فى العالم الإسلامى
حينذاك ، ثم انقضوا على الفريسة انقضاضاً وحشياً لا يعرف الرحمة ولا الهوادة ، ولا يقيم للقيم والمبادئ
والمثل والعقائد وزناً ، وليعلم الدارس للتاريخ أن النكبة إذا كانت قد حلت بالمسلمين فى تلك الحقبة كان
ذلك لثلاث أسباب كما قال علماء التاريخ ومؤرخو العلوم ، وهذه الأسباب الثلاثة تنحصر فيما يلى :

(١) سورة آل عمران من الآية ١٤٠ والآيتان ١٤١ - ١٤٢

(٢) سورة النازعات الآية ٢٦

أولاً : ضعف الوازع الدينى

ثانياً : التفسخ الأخلاقى

ثالثاً : الانحلال الاجتماعى

وكفى بهذه الأسباب من عوامل للتدمير والهدم ، فإذا ضعف وازع الدين فى النفوس انحلت أكبر عروة وثقى يقوم عليها بناء النفس الإنسانية وإذا ما ضعف وازع الدين فمضا الضمير وقست العاطفة وبين غفوة الضمير وقسوة العاطفة تنام النفوس على هدهدة الشهوات ، وتنزرو على الملذات ، ولا تكثرت بعظائم الأمور ، ولذلك كانت الرسالة التى جاء الأنبياء من أجلها بناء العقائد فى النفوس وإقامة النفوس على العقائد ، وتشديد الصروح العالية فى مجال الإصلاح الاجتماعى ، وتزكية النفوس وتطهيرها ، وربط القلوب بخالقها ومبدعها .

ومن ثم فإن التعريف الجامع لكلمة الدين : أنه هو مجموعة العقائد والشرائع التى تنظم علاقة العبد بخالقه ، وعلاقته بمخلوقات الله ، أجل ! تنظيم علاقته بربه . فيعرف واجبه عليه ، ويستشعر هيمنة سلطانه الأعلى على نفسه ، ولقد أطلق الرسول — ﷺ — على الإحسان هذا المعنى الواسع الرفيع العظيم القدر الجليل الأثر فقال : « إن الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١) . وهذا هو الذى ركز عليه الكتاب الكريم فى قوله : ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾^(٢) .

وفى قوله جل شأنه : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شىء عليم ﴾^(٣) .

ما ثمة أدنى شك فى أن قوة الوازع الدينى هى محور الارتكاز ، ومركز الدائرة ، وحجر الزاوية ، والعنصر الفعال ، والركن الركين ، والحصن المتين ، الذى تبنى عليه سعادة الأمة وتشيد فوقه صروحها .

أما خطر التفسخ الأخلاقى على الأمة فشده مستطير ، إذ هو أحد النتائج المترتبة على ضعف الوازع الدينى وإنما تنفسخ الأخلاق إذا ضعفت رقابة العبد لأوامر ربه ، قال الله — جل فى علاه — ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجيناهم من يهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون ﴾^(٤) .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب « سؤال جبريل عن الايمان والاسلام » ج ١ ص ١٩ — ٢٠ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لأبى هريرة .

(٢) سورة الحديد الآية ٤

(٣) سورة المجالة الآية ٧

(٤) سورة الأعراف الآية ١٦٥

ولعل الشهادة العليا والحقيقة الكبرى التي نطق بها القرآن الكريم لنبي الرحمة وباعث النهضة الأخلاقية هي قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

سئلت عائشة — رضى الله عنها — عن خلقه — ﷺ — فقالت « كان خلقه القرآن » (٢) ، وما أجل قول الرسول ﷺ وهو يلخص رسالته في قوله « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٣) .
وان من أهم الأسباب التي تباد بها الأمم ويرسل الله بسببها الجوائح هو كثرة ذنوبها ومخالفتها ربها وتلك كلها صور من صور التفسخ الأخلاقي .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (٤) .
هذه الآية الكريمة بجلالها وقوتها تلخص إهلاك الله للقرون على قدر قوتها وعتوها وسلطانها وجبروتها ، تلخص كل هذا في قوله « بذنوبهم » وليست كلمة الذنوب الكلمة الرسلة بل إنها صواعق ورعود ، إنها العاصفة بكل بروقها ورياحها الهوجاء .

ومن هنا يتضح لنا قيمة التمسك بالقيم والمبادئ والمثل .

يا رسول الله

بنيت من الأخلاق ركنا فخافوا الركن فانهدم اضطرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نورا وكان من النحوس لهم حجابا

فإذا ما تفسخت الأخلاق تربت على ذلك انحلال المجتمع وهذه ثلاثة الأتافي وداهية الدواهي إذ انحلال المجتمع مرضى من أخطر الأمراض فما انحلت أمة إلا كان الذل رائدها والخذلان حليفها وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

والقرآن العظيم يضرب الأمثلة بأقوام انحلت مجتمعاتهم بعد ما ضعف وازع الدين فيهم ، وتفسخت الأخلاق بينهم فكان مصيرهم الهلاك والدمار والوبال والعار .. إليك ما قاله الله — جل شأنه — في مجتمع كان كل همه كسب المال من الحرام ، ولو أدى ذلك إلى أن يبخس الناس أشياءهم ، وينقص المكيال ، والميزان قال تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شَعِيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ

(١) سورة القلم الآية ٤

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لسعد بن هشام بن عامر .

(٣) انظر السنن الكبرى للبيهقي « كتاب الشهادات » باب بيان مكارم الأخلاق ج ١٠ ص ١٩١ ، ١٩٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٤) سورة الأنعام الآية ٦

بألقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴿١﴾ .

ولكنهم وقفوا من هذه التعاليم السامية والتوجيهات الربانية الغالية الرفيعة العالية موقف الجحود والتهكم والاستهزاء ، ﴿ قالوا يا شعيب أصلو تك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد ﴾ (٢) . قالوا ذلك على سبيل السخرية لأن لغة المادة إذا سيطرت على النفس أعمتها عن كل الحقائق وسدت أمامها أبواب الرشد والهدى .

فماذا كانت عافية هؤلاء الذين انحلت مجتمعاتهم وفسدت أخلاقهم ؟ قال تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ (٣) .

وهذا نموذج من نماذج عديدة لمجتمعات عديدة وصورة لقوم لم يكن عندهم وازع من الدين ولا بقية من خلق ولا أثارة من إصلاح اجتماعي وهكذا نتبين أن أوروبا انتهزت تفكك المجتمع الاسلامي واستبعاد الفرقة فيه فأرسلت جيوشها لتضرب ضربتها وليلق القاريء نظرة على هذا المجتمع قبل أن تنزع إليه جيوش أوروبا . فقد كان المجتمع الاسلامي قبيل الحروب الصليبية على حالة من الاضطراب والتفكك تسمح لأعدائه بمهاجمته والنيل منه .

فمصر كانت نهياً للمجاعة والثورات والانقلابات وعدم الاستقرار ، وبلاد العراق والخلافة العباسية ما ان شملها نفوذ السلاجقة حتى عادا إلى ما كانا عليه زمان بنى أمية من الخلافات والحوادث والبلاد الشامية كانت مسرحاً لحروب بين الفاطميين والسلاجقة وبين السلاجقة أنفسهم .

ولم تكن حالة المغرب الاسلامي أحسن حظاً من المشرق ، فتونس عمتها الفوضى والاضطرابات وناها التقسيم وفقدان الوحدة السياسية ، وصقلية انتهت منها آخر مقاومة إسلامية واستولى عليها الرومان سنة ٤٨٤ هـ ، أما الأندلس فقد بدأ فيها عهد التراجع ورجحان كفة الصليبيين ، وبدأوا يحتلون المدن الاسلامية الواحدة بعد الأخرى .

ولم تكن نجدة ابن تاشفين إلا إيقافاً وقتياً لعهد التفوق الصليبي بالأندلس . وهكذا كان العالم الاسلامي قبيل الحروب الصليبيين في حالة مهينة على مهاجمته واكتساحه .

ما هي الحروب الصليبية ؟

— حروب الصليبيين عبارة عن الحملات العسكرية التي قامت بها أوروبا الصليبية خلال قرنين من

(١) سورة هود الآيات ٨٤ — ٨٦

(٢) سورة هود الآية ٨٧

(٣) سورة هود الآيتان ٩٤ — ٩٥

الزمن (٤٩٠ هـ — ٦٩٠ هـ) بقصد استخلاص بيت المقدس من يد المسلمين أو للمحافظة على امارات الصليبيين التي تكونت في البلاد الشامية .

والحروب الصليبية تمثل دوراً هاماً من أدوار الصراع المستمر من الزمن القديم ما بين الشرق والغرب .
فما هي الأسباب التي أدت إلى هذه الحروب ؟

يكاد المؤرخون يجمعون على أن أهم الأسباب التي دعت إلى هذا الصراع الدموي العنيف تنحصر فيما يلي :

- ١ — ما يحمله الأوروبيون من الأحقاد للمسلمين نتيجة وجود بيت المقدس في يد المسلمين
- ٢ — لما كانت القسطنطينية على وشك ان يستولى عليها المسلمون استنجد الامبراطور الكسيس كومنين بالعالم الأوروبي ضد المسلمين .
- ٣ — وكان من الأسباب التي دعت إلى ذلك تلك الحالة الاجتماعية بأوروبا وسوء نظام الطبقات والظلم والاضطهاد المسلط على عامة الشعب كان يدفع به إلى الانعتاق والحرية كما كانت طبقات الأمراء والإقطاعيين يدفعها حب تكوين الممالك والإمارات .
- ٤ — وكان من أهم الأسباب وأقواها في نفوس الصليبيين هو انتزاع بيت المقدس من يد المسلمين .
كيف بدأت .. ؟

وكان في الأسباب السابقة ما يحفز أهل أوروبا ويدفعهم بقوة إلى أن ينسابوا على الشرق كما تنساب الثلوج من قمم الجبال وأن يتحركوا بسرعة ليحققوا بسفك الدماء وقتل الأبرياء وتشريد الآباء والأبناء دون أن تأخذهم في ذلك دوافع من رحمة أو بقية من إنسانية ، وليحولوا منطقة الشرق ومهبط الوحي وأرض الرسالات وجنة الأرض وربوع السلام — تحركوا — ليحولوها إلى دماء تجري وأرض تضطرم نارا وتضطلي سعيراً ، — تحركوا — ليحولوها إلى جحيم يستعرد نارا تلظى .

واعتمدوا أولاً بجمع بليزانس بشمالى إيطاليا ، ثم مؤتمر كليرمون بفرنسا وهو الذى قررت فيه الحرب ، واتفقوا فيما بينهم على أن يكون لقاءهم بمدينة القسطنطينية ، وكانت الحملة الأولى في غاية الفوضى والاضطراب استطاع قليج أرسلان السلجوقي أن يقضى عليها قرب مدينة نيقية ثم تبعها جيوش أخرى نظمها الإقطاعيون والاسراء جاءت من جنوبى فرنسا وشمالها ومن بدجيكا ومن جنوب إيطاليا واجتمعوا كلهم في القسطنطينية ولما عبروا إلى آسيا الصغرى اعترضهم قليج أرسلان فدارت بينهما معارك كبرى ثم تقدموا إلى انطاكية وفرضوا عليها حصارا استمر ثمانية أشهر سقطت بعدها في أيديهم وبعد سقوطها توجهوا بجيوشهم يقصدون بيت المقدس المدينة المقدسة التي فتحها المسلمون أيام الفاروق عمر — رضى الله عنه — .

أرادت جيوش أوروبا بجبروتها وطغيانها أن تنتزع هذه الأرض المقدسة من يد المسلمين بعد ما رأت فيهم عوامل الفرقة والضعف وقد كانت المأساة بل الملهاة وكانت الكارثة بل الطامة الكبرى أن حاصروا

بيت المقدس شهرا وقع بعده في أيديهم وكان ذلك في عام ٤٩٢ هـ — ١٠٩٩ م . وناهيك بما جرى في هذه المدينة من جرائم تقشعر منها الأبدان وتشيب من هولها الولدان . سقطت مدينة القدس في شهر شعبان بعد سفك للدماء بصورة وحشية قدرها المؤرخون بسبعين ألفاً من المسلمين .

وإليك ما قاله ابن الأثير عن ابتلاء المجتمع الإسلامي بهذه الكارثة :

« وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهروي فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وذكروا ما دهم المسلمين من قتل الرجال وسبي الحرير والأولاد ونهب الأموال فلشدة ما أصابهم أفطروا .. ولم يكن الخليفة العباسي في هذا الوقت يملك من الأمر شيئاً فالضعف والفرقة عاملان خطيران دبا في صفوف المسلمين ، فتعدد ما كان الصليبيون في نشوة وفرح بالغلبة والنصر كان ملوك المسلمين وأمراؤهم في شغل شاغل عما يدور على أرضهم من أخطار جسام ، وأهوال عظام ، شغلتهم الدنيا ، وبددتهم الفرقة . وأضعفتهم الخلافات ، إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

أما الصليبيون فقد استمر رأيهم على أن يقيموا مملكة لاثنين ببيت المقدس واختير لرئاستها قواد فروا ، وهكذا حققت أوروبا حلمها الذي كان يراودها عبر السنين الماضية فمنذ أن استقر لها الأمر أخذت الأمدادات تتوارد عليها لتقوية حاميتها ولكي يتم لها احتلال بقية السواحل الشامية .

ولقد قام لها بعد ذلك إمارات عرفت بالإمارات اللاتينية أو الممالك الصليبية وهي :

١ — إمارة الرها : وتم الاستيلاء عليها سنة ٤٩٢ هـ

٢ — إمارة انطاكية : وظلت في أيديهم إلى سنة ٦٦٧ هـ .

٣ — مملكة بيت المقدس : وكانت من أعظم الإمارات الصليبية ولهذا متوليها يلقب بملك وكانت هذه المملكة أعظمها شأنًا وأوسعها رقعة ، إذ امتدت حدودها إلى أقصى اتساعها من شمال بيروت إلى جنوب عسقلان . وكذلك كانت تشمل الأراضي الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط وامتد نفوذ هذه المملكة إلى الضفة تشمل الأراضي الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط وامتد نفوذ هذه المملكة إلى الضفة الشرقية للأردن والبحر الميت ووصلت إلى خليج العقبة .

٤ — إمارة طرابلس : تكونت سنة ٤٩٦ هـ واستمرت إلى سنة ٦٨٨ هـ :

ولا يهولنك أن قامت للصليبيين إمارات فإنها لم تكن مستقرة في أوضاعها ولا هي بالتي يستعصى النصر فيها على المسلمين ، لولا أن الأمراء لمسوا جوانب الضعف والفرقة في صفوف المسلمين وما كان لهذه الإمارات أن تدوم وما كان للحق أن يرى الباطل يزأر في عرضات الدنيا ويعربد في رحابها دون أن يتصدى له بضربة يهوى لها صريعا فقد شاءت حكمة العلي الأعلى والحاكم الأعظم — جل في علاه — أن يقيض لهؤلاء الطغاة بيتين كريمين هما (آل رنكى ، وآل أيوب) ومن ثم بدأ رد الفعل الإسلامي يتجلى بقوة وبدأ الذين كانوا

يدخلون الرعب في قلوب المسلمين يرتد كيدهم في نحورهم ويهتزون من أعماقهم بعد ما أتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .
وهذه سنة الله في خلقه عندما يلجأ المسلمون إلى ربهم ويعرفون الطريق إلى رضاه ويأخذون في الأسباب إلى طاعته لن تستطيع قوة على وجه الأرض أن تقف في سبيلهم هذا قانون الله الذي لا يتغير : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾^(١) .

وعندما يتفرقون ويختلفون يحل بهم من البلاء ويسلط عليهم من يبعث الرعب في قلوبهم فلا ينزع إلا إذا عادوا إلى الله .

« يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا . أو من قلة يومئذ يا رسول الله ، قال : لا ، إنكم لكثر ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ينزع الله الرعب من قلوب أعدائكم ويلقى الوهن في قلوبكم . قالوا : وما الوهن يا رسول الله : قال : حب الدنيا وكراهية الموت »^(٢) .

وكأنى ألقى فباظري إلى مملكة بيت المقدس التي قامت على يد الصليبيين في شعبان ٤٩٢ هـ حتى قىض الله للأمة البطل المفوار والمجاهد المسلم (صلاح الدين الأيوبي الذي استرد المسجد الأقصى في رجب ٥٨٣ هـ كأنى انظر الآن إلى مدينة القدس ومسجدها المبارك وهي تقع أسيرة تحت يد الصهيونيين شذاذ الآفاق وبغاة البشر كأنى بالتاريخ يندى جبينه حياء وخجلا عندما ينظر إلى هذه الراية البيضاء ذات النجمة الزرقاء المسدسة الأضلاع ترفرف على أرض السلام على أرض الاسلام ، على أرض النبوة ، على أرض الوحي ، على أرض مواكب النور والعرفان ، على أرض الهدى ، على أرض الضياء ، على ربوع فلسطين التي صارت وطناً بلا شعب لشعب بلا وطن . عندما دخلتها اسرائيل ، بيت الصهيونية البكر لتجعلها ركيزة تقيم عليها دولة تسمى اسرائيل الكبرى تمتد من النيل إلى الفرات ، والمسلمون يملأون الدنيا مشرقاً ومغرباً ولكن فرقة وخلاف وشتات فما أشبه الليلة بالبارحة . إنها المأساة ، لقد سقطت صقلية وكانت الشهيدة الأولى ، وجاءت بعدها الأندلس فخرت شهيدة على أرض الإسلام .

وتبعها فلسطين التي سالت دماؤها الذكية بعد ما ذبحها العدو الفاشيستي ، لأنه سرطان يمتد ويسرى إن لم يهب المسلمون ويجروا عملية استئصال له ، فالله وحده هو الذي يعلم العواقب وهو الذي يجري عاقبة الأمور وهو الذي إليه تعيد مقتضياتها وإليه يرجع الأمر كله .

(١) سورة محمد الآية ٧

(٢) انظر شرح السنة للبغوي ج ١٥ - ص ١٦ حديث ٤٢٢٤ من رواية لثوبان (سبق تخريجه في ص ٦٦) .

نهضة مباركة

إذا ما ألقينا نظرة فاحصة على ما مضى من الأحداث رأينا أن سنة الله الواقعة في كونه شاءت للمسلمين بالنصر إذا كان الله غايتهم الكبرى ، وإذا كانت تعاليم رسوله هدفهم الأسمى .

« ما زلتُم منتصرين على عدوكم مادتم متمسكين بسنتي » .

والقرآن يؤكد المعنى في أكثر من موضوع حيث يقول الحق :

﴿ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ﴾^(١) .

وحيث يقول : ﴿ كتب الله لأغلبن انا ورسلي ان الله قوى عزيز ﴾^(٢) .

وحيث يقول : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾^(٣) .

وطريق النجاة هو الإيمان هذا حكم الله القاطع الذي لا يتخلف ولا يغيب .

﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾^(٤) .

فإذا ما تخلف المسلمون عن اتباع كتابهم والسير وراء هدى نبيهم كانت النتيجة : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾^(٥) .

« فإن خرجتم عن سنتي سلط الله عليكم من يبعث الرعب في قلوبكم » .

وهكذا تجلت الأمور وانكشف الحقائق ، فما كان لجيوش أوروبا ان تستولى على بيت المقدس وما وقع في أيديها من الامارات إلا عندما انتهزت فرصة الضعف السياسي والاجتماعي في المشرق الإسلامي ولكن العناية العليا ، والإرادة العظمى لها في هذا حكمة فلعل الشدائد هي التي تمحص الرجال ، ولعل المحن هي البوتقة التي تنصهر فيها النفوس ، لينض خبثها وينصع طيبها .

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾^(٦) .

إن العقيدة هي التي تخلق البطولة وإن الشدائد هي التي تمحص النفوس وتزكيها وإن المحن هي التي تلخص معادنها .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس ﴾^(٧) .

(١) سورة الحج من الآية ٤٠

(٢) سورة المجادلة الآية ٢١

(٣) سورة غافر الآية ٥١

(٤) سورة يونس الآية ١٠٣

(٥) سورة النور من الآية ٦٣

(٦) سورة آل عمران الآية ١٤٢

(٧) سورة آل عمران من الآية ١٤٠

هذه حقائق قرآنية عليها خمس نتائج :

الأولى : وليعلم الله الذين آمنوا .

الثانية : ويتخذ منكم شهداء .

الثالثة : والله لا يحب الظالمين

الرابعة : ولیمحص الله الذين آمنوا

الخامسة : ويمحق الكافرين .

في وسط هذا الظلام المدهم والخطوب المحتدمة وأعماء الليل الحالكة وقد جلل المشرق الاسلامي عار الاحتلال الأوروبي والضعف السياسي والاجتماعي ضارباً أطنابه أوجد الله من الشدة فرجاً ومن الضيق مخرجاً ومن الليل فجراً .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه	لا تيأسن فإن الكافي الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعن فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد	فحسبك الله في كل لك الله

بيت آل زنكى

شاء الله ولا راد لمشيئته ، أن يقوم أبطال يحملون عقيدة التوحيد ، يزلزلون الأرض تحت أقدام الصليبية الأولى ، التي استولت على بيت المقدس والإمارات ، فكان هذا الفجر الذي أشرق أمله ، وانتشر جنوده في بيت آل زنكى ، ومن حق هؤلاء الناس علينا ، أن نسلط على بيتهم الأصيل بعض الأضواء الكاشفة ، حتى تكون صورتهم في الأذهان جليلة ، فال زنكى هم هؤلاء الأبطال ، الذين وضعوا المسمار الأول في نعش الصليبيين الأوربية ، عائلة عرف أول أفرادها زمن السلطان (ملكشاه) السلجوقي وهو قسيم الدولة آقسنقر ، وقد عرفه صاحب كتاب وفيات الأعيان بقوله : هو أبو سعيد آقسنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحنجب ، جر البيت الأتابكى أصحاب الموصل ، وقد كان من الممالك وأصحاب « ملكشاه » وترى معه منذ الصغر .

وعندما تولى ملكشاه المملكة اتخذه من قواده ، وذلك لأنه لمح فيه أمارات الاستقامة الخلقية ، والكفاءة النادرة ، والشجاعة والقيادة والحكمة ، وهكذا تكون صفات القائد والأمير ، وبهذا يكون ملكشاه قد وضع الأمور في نصابها ، وأعطى القوس باريتها .

ولقد تولى آقسنقر إمارة حلب من قبل ملكشاه ، وكانت وفاته سنة ٤٨٧ هـ ولم يترك إلا ولداً صغيراً له من العمر عشر سنوات ، وهو عماد الدين زنكى .

ويطيب لنا الحديث عن هذا البطل ، الذى طبقت شهرته الآفاق وذاع صيته ، فاهتزت له أعواد المنابر ، ووصل رنينه إلى أعماق القلوب المؤمنة ، لقد قام بتربية هذا الطفل الأوصياء من أصدقاء أبيه ، ولما بلغ أشده واستوى عوده ، جاهد مع المجاهدين جند الإمارات الصليبية ، فبدت منه آيات النجاة ودلائل الشجاعة ، وإمارات الصديق مما استرعى أنظار الخليفة العباسى والسلاجقة ، فولوه حكم مدينتى « واسط — والبصرة سنة ٥١٦ هـ » وفى سنة ٥٢١ هـ نال الولاية على الموصل .

وهكذا انفسح المجال أمام هذا الأمير الموفق والزعيم الملهم ، فكرس إهتمامه ، وركز هدفه فى إقامة أمة إسلامية موحدة ، لحمتها العدل ، وسداها الرحمة ، وهدفها الجهاد من أجل تحقيق غزاة الإسلام ، لئمة ترفرف فوقها راية السلام والإسلام ، ويحدد لها العمل الصالح من أجل رضا الواحد الديان ، ويهتف بها قول الحق جل جلاله :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾^(١) .

وقد تركزت سياسته الداخلية على أمرين فى غاية الأهمية ، هما : بث الأمن ، والعدالة الاجتماعية داخلياً ، وتركزت سياسته الخارجية على تنظيم الأمة الإسلامية ، وجمع شملها ، وتطهير الأرض من أرجاس المحتل الأثيم .

وكأنه يردد قول القائل :

ومن تكن العليا همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبب .

فذاع صيته ، مما جعل أهل المدن يستنجدون به ضد ظلم حكامهم ، ووجد الاستنجاد قلباً مؤمناً ، فلبى نداء أهل المدن والحصون والقرى بالجزيرة الفراتية ، وديار بكر ، وغربى الفرات ، وما هى إلا فترة وجيزة ، حتى كان عماد الدين تحت إمرته ، حمص وحماه وحلب وبعبك ومعرة النعمان ، ومن ثم فإن دولته أصبحت تهدد الإمارات الصليبية ، حيث كانت تتآخها ولم يكن خارجاً عن حكمه فى بلاد الشام سوى دمشق وما جاورها من البلاد .

فجر جديد :

إن التاريخ يشهد ، والوقائع تثبت ، والحقائق تؤكد ، أن العدل والحزم والرحمة ، إذا توافرت في إنسان يحكم ، كانت مفاتيح يضعها الله ليجرى بها الخير على يديه ، وأن الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذا أخذت مكانها في قلبه ، أته الأمور منقادة إليه تجر أذيالها ، وهي طيعة ، فلقد رأيت عماد الدين ، وقد هياأ الله له السبيل إلى توحيد الأمة المتفرقة ، فنشر العدل وركز دعائم الأمن ، وأقام صروح الإصلاح الاجتماعي ، حتى أصبح الرجل الذي يستنجد به لدفع الظلم ، وما أجل هذا العمل ، وما أروعته وفي هذا يقول : ربنا في الحديث القدسي : « يا عبادي لقد حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً »^(١) .

عماد الدين رجل أشرب قلبه بحب الجهاد ، ووجد في ذلك الغاية الكبرى ، وأراد أن يبدأ حملاته العسكرية ضد الصليبيين ، بفتح مدينة الرها ، وما أدراك ما مدينة الرها ، إنها مدينة ذات قداسة عند الصليبيين ، وفي ذات الوقت لها مكانتها في قلوب المسلمين ، لما احتوته من المعالم الإسلامية ، والآثار التاريخية ، فيوجد بها جامع ينسب للخليل عليه السلام ، ومقام الأيوب الصديق ، واضرحة لجابر الأنصاري وأبي عبيدة بن الجراح — بديع الزمان الهمزاني .

فقد جيش عماد الدين الجيوش ، وعبأهم بالعقيدة ، التي تكاد تجعل المستحيل ممكناً ، والتقى بالصليبيين ، ودارت بينهما رحى الحرب ، وحمى وطيسها وأشدت القتال ، وكان النصر المبين لعماد الدين ، وقد هزم في هذه المعركة قائد الصليبيين جوسلين الثاني ، وكان ذلك سنة ٣٥٩ هـ وكان للانتصار الباهر الذي حققه في هذه الموقعة آثار كبيرة ، وأهداف عليا ، فلقد علمت المدينة الرها في نفوس الصليبيين ، فضلاً عن أنها كانت أول المدن تكويناً وامتداداً في الشرق الإسلامي ، وأكبر من هذا كله أن النصر في هذه المدينة ، جاء عقب ليل شديد الظلمة ، قارس البرودة ، عندما أوشك اليأس أن ينسج خيوطه على النفوس ، جاء النصر ليبدد هذه الخيوط ويقيم في القلوب صروح الأمل باذخة عالية ، لا يعرف اليأس إليها سبيلاً ، فكان هذا النصر من أجل ما حققه ذلك الأمير المسلم .

وظل هذا البطل المجاهد يواصل الإصلاح ويطبق آيات الجهاد ، ويرفع رايات الشرف في ساحة الحق ، إلى أن وقع ضحية اغتيال أثيم ، فلقى ربه راضياً مرضياً واستقر به المطاف في جوار الله صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، وكانت وفاة هذا البطل سنة ٥٤١ هـ .

ماذا بعد وفاة عماد الدين ؟

لما استشهد عماد الدين ، خلفه من بعده ولداه سيف الدين غازي ، ونور الدين محمود ، وكان طبيعياً أن يقتسم الأخوان هذه المملكة ، فكان القسم الشرقي لسيف الدين غازي وعاصمته الموصل ، والقسم

(١) — أخرجه الامام مسلم في كتاب البر والصلة ح ٤ ص ١٩٩٤ ، ص ١٩٩٥ برقم ٥٥/ ٢٥٧٧

الغربي لنور الدين محمود وعاصمته حلب ، وبهذا كانت مملكة نور الدين محمود ، وهى المتاخمة للممالك الصليبية قائما ، بصفة عنيفة ، مما جعل التاريخ يمد يديه مصافحا ذلك البطل بدخوله من أوسع الأبواب ، مسجلا له آيات من الفخر والرجولة النادرة ، والبطولة الكريمة .

وما هو جدير بالذكر أن بعض النفوس قد يتسرب إليها الضعف ، فيثير فيها روح الشقاق والفرقة والخلاف ، لكن الأيام شهدت ، والوقائع أكدت ، أن هذين الأخوين ، لم يستطع الشيطان أن ينعز بينهما ، ولم تستطع الدنيا أن تثير الخلاف فى نفوسهما ، فلقد كانا فى غاية الوفاق والمحبة ، ولعل هذا العامل له أثره الكبير ، ومكانته التى لا تسامى فى تحقيق الآمال .

ولقد تغيرت الأمور بعد موت عماد الدين زنكى ، وهذه سنة الحياة فليس موت البطل بالأمر العادى ، إنما الأبطال رجال لهم الأثر الكريم فى حياتهم ، ولهم ما يلفت الأنظار بعد مماتهم ، لقد إستغل الأعداء موت عماد الدين فانقض الصليبيون على مدينة الرها ، فاستردها الأمير المنهزم جوسلين الثانى ، وعاث فيها فسادا ..

نور الدين ومدينة الرها :

لما ترامت الأنباء إلى نور الدين ، بما حدث فى مدينة الرها ، انتفض انتفاضة القائد الذى اعتدى على كرامته ، فأراد أن يغسل هذا العار ، ويسيل على جوانبه الدم ، وزأر زئير الأسود إذا ديس عرينها ، وزجر زجيرة الضياغم فى بطون الغاب ، واستشار المسلمين ، حتى استطاع أن يكون جيشاً ، بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، توجه بهم إلى مدينة الرها ، وكان النصر حليفه ، فقد هزم أميرها الذى هزمه أبوه من قبل ذلك ، وأسقط كثيرا من الحصون الصليبية ، التى وقعت صريعة تحت ضرباته القاضية القاصمة ، ولقن الذين انتقضوا حكمه فى الرها لقنهم درساً لا ينسونه مدى الدهر .

وهكذا تكون الرجولة إذا كانت حازمة صارمة ، لا تعرف التوانى أو التخاذل ، ولا ترض عيشة الذل والهوان ، إما أن تعيش عيشة الكرماء ، وإما أن تموت ميتة الشرف والشهادة فى سبيل توطيد أركان الحق .

﴿ والله العزة والرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾^(١)

الحملة الصليبية الثانية :

تحركت الأحداث بسرعة ، لم يكن أهل أوروبا يتوقعونها ، فلقد ظن الصليبيون أنهم سيصفو لهم الجو فى المشرق الإسلامى ، ونسوا أو تناسوا أن الله هو صاحب الإرادة العليا ، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، فالوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته ، قوله الحق وله الملك ، خالق الانسان ، ومبدع الأكوان .

لعل المنقب في بطون التاريخ ، اذا عجم عود الأحداث ونخل مخزونها ، وقدح زنادها ، يعلم أن من أهم الأسباب التي دفعت أوروبا إلى تكوين الحملة الصليبية الثانية :

١ — اليقظة الإسلامية ، التي قواها وأخرجها إلى حيز الوجود ، الشهيد البطل عماد الدين زنكى ، فالإسلام ذلك العملاق الكبير ، الذى تتضاءل أمامه كل مظاهر الحياة وزخارفها ، والإسلام يحمل من عوامل القوة الذاتية ، ما يجعله كفيلاً بأن ينشر نفسه بنفسه ، فهو الحقيقة الثابتة التى قال الله فى شأنها :

﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾^(١)

أجل أنه الحقيقة ، لأنه وحى الله وإرشاده وتوجيهه .

﴿ فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾^(٢) .

٢ — ويأتى السبب الثانى للحملة الصليبية الثانية ، وهو إنتصار عماد الدين زنكى فى مدينة الرها ، لما لها فى قلب الصليبيين من قداسة ، واسترجاع ابنه نور الدين لها من يد أميرها المنهزم جوسلين الثانى ، الذى فر منها بعد أسبوع واحد ، كل أولئك الأسباب دعت إلى تكوين هذه الحملة ، التى دعا إليها المحرض لها سان برنارد ، وقد عقد مجمع فى مدينة فيزولاي (مارس ١١٤٦ — ٥٤٠ هـ) واستجاب لذلك ملك فرنسا لويس السابع ، وامبراطور ألمانيا كونراد الثالث ، فماذا كان مصير هذه الحملة الثانية ؟

لقد تحركت جيوشها إلى القسطنطينية ، ومنها إلى آسيا الصغرى ، ولقد التقى لويس السابع بأمير انطاكيت « ريموند » وكان من رأى هذا الأجنبى لويس أن تقع محاربة نور الدين محمود ، لأنه يمثل الخطر الحقيقى ضد الإمارات الصليبية ، ولكن لويس السابع امتنع عن ذلك ، مفضلاً زيارة بيت المقدس قبل كل شيء ، واحتدم الخلاف بينهما ، حتى خرج لويس السابع مغاضباً متجهاً إلى بيت المقدس ، ومعهما امبراطور ألمانيا ، واستقر رأى الثلاثة على أن يتوجهوا إلى مدينة دمشق . ويحتلوها ، وأراد الله أن يكون هذا القرار ، الذى استقروا عليه مخيباً لآمالهم ، فلقد تحركت الجيوش فعلاً ، وحاصرت دمشق ، ولكن لم يدم حصارها أكثر من خمسة أيام فقد دب الخلاف بين القادة الصليبيين ، وترامت الأنباء بتحريك البطلين نور الدين محمود ، وشقيقه سيف الدين غازى ، ورجعت الحملة التى كانت تريد بالإسلام شراً ، رجعت تجر وراءها أذيال الندامة ، رجعت بخف حنين .

(١) للرعدي آية : ١٤

(٢) يونس آية : ٣٢

﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾^(١) .

ولا تسأل عن الآثار الطيبة ، التي كان لها الدافع القوى في مواصلة الجهاد ، بالنسبة للمسلمين ، فبعد فشل هذه الحملة ، ورجوع جيوشها خائبة ، ارتفعت معنويات المسلمين ، وازدادت نفوسهم حماساً للجهاد ، وقويت أرواحهم لمواصلة الكفاح .

أهداف لمواصلة الكفاح .

إن الإسلام بعقيدته ، يقيم مكلفيه النفوس على مبادئ قوية من الحق والعدل والرحمة والحزم ، تواضع في غير ذل ، ورفعة في غير تكبر ، وهذا هو السر في عظمة الإسلام ، يقيم النفس على حب الخير ، دون أن يكون ذلك أدنى تسرب للأناية ، وقيمتها نفساً قوية عزيزة ، دون أن يكون في ذلك عنف أو ظلم ، وقيمتها صافية طاهرة زاكية ، دون أن يكون للحقد والبغضاء والحسد والشحناء أى سلطان عليها ، ومن الأبطال الذين صقلهم الإسلام بروحه ، ورباهم على عقيدته سليل بيت البطولة نور الدين زنكى ، الذى ورث عن أبيه علو همته ، وسمو فكرته ، وشرف غايته ، ونبيل هدفه ، فلقد جمع كل أغراضه الشريفة في إقامة أمة إسلامية واحدة ، تقوى وحدتها عقيدة الإسلام الصافية ، وتاريخها المشرف وأرضه ، التى تفيض بالخيرات ، وتثمر البركات ، وآماله العريضة ، وآلامه المشتركة ، ولقد علم الله صدق نيته فحقق له هدفه ، فقد استعاد مدينة الرها ، ثم زحف إلى انطاكية وقتل أميرها ريموند سنة ٥٤٤ هـ كما تغلب على جوسلين الثانى ، واحتل الكثير من الحصون والقلاع الواقعة شمالى حلب منها عين تاب — عزاز — حصن البارة — تل خالد — كفر لاثا — كمر سوب — دلوک — مرعشى — نهر الجوز — برج الرصاص .

وهكذا لم يمض إلا وقت قليل ، حتى أصبحت أملاك إمارة الرها وغالب أملاك انطاكية ، خصوصاً ما كان منها شرق نهر العاص ، خاضعة لسيادة نور الدين محمود ، ورأى نور الدين بثاقب فكره ، أن يفتح دمشق حتى يقوى بها الوحدة الإسلامية ، فسار بجيوشه اليها ، وهياً الله له أسباب فتحها ، فاستسلمت له ، وألقت إليها قيادها ، وبفتح دمشق ، يكون قد استولى على البلاد الشامية ، وكانت هذه خطوة مباركة ، خطاها نور الدين على طريق الهداية والنصر .

وبعد أن استولى على البلاد الشامية ، كان لابد أن يلقي بنظرة على مصر ، فإن لمصر مكانتها الخالدة ، وموقعها الممتاز ، فكيف كان حالها في هذه الحقبة ؟

كانت مصر تحت الخلافة الفاطمية ، وقد دبّت فيها الفوضى والنزاع ، وفي نفس الوقت كانت مطمئناً

لملك بيت المقدس الرجل الصليبي ، ولذلك قام الصراع بينه وبين نور الدين على مصر ، فالصليبيون يريدون ضمها إلى مملكتهم ، ونور الدين محمود لا يرى بدا من فتح مصر ، ليكون عقدا فريدا ، ويقيم وحدة اسلامية خالدة .

ولقد جرت بين الطرفين معارك على ثلاث دفعات ، كانت الجولة الأخيرة لنور الدين محمود سنة ٥٦٤ هـ بتغلب قائده أسدالدين شيركوه على الصليبيين ، وانتصابه وزيرا للخليفة الفاطمي ، وبذلك أصبحت السيادة على مصر لنور الدين محمود ، بواسطة قائده أسد الدين شيريكوة ولكن هذا القائد لم يطل به الأمد فقد توفي بعد شهرين من تولية الوزارة .

لله درك نور الدين — من ملك	بالعزم مفتتح ، بالنصر مختتم .
آثار عزمك في الإسلام واضحة	وسره ذلك باد غير مكتم .
بما من العدل والإحسان تنشره	تخاف ربك خوف المذنب الأثم .
أوردت مصر خيول النصر عازمة	ثنى الأعنة إقداماً على اللجم .
قأقلت في سحاب من ذوابها	وقضيتها بدماء الهام منسجم .
تمكن الرعب في قلب العدو بها	تمكن النار بالإحراق في الفحم
لله درك نور الدين من ملك	عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
فملك مصر وملك الشام قد نظما	في عقد عز من الإسلام منتظم .

صلاح الدين الأيوبي والحملة الصليبية الثالثة

الكلام عن صلاح الدين ، إنما هو عن رجل مسلم ، صفا قلبه ، وزكت نفسه ، وطهر وجدانه ، نعم كان صلاح الدين رجلاً ذا عقيدة قوية ، وثقة في الله مطلقة ، كان اذا صلى يطيل الركوع والسجود ، ويطمئن في صلاته بخشوع ، وكان يستعين على أعدائه بالدعاء وقت السحر ، كان من الذين يقول الله فيهم : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾^(١) ولقد أثر عنه القول .

« إني استحي أن يراني الله ناقضاً للعهد ، كاذباً في القول » وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم »^(٢) .

يقف صلاح الدين الأيوبي على قمة من قمم الإسلام ، وجهاده العربي في سبيل الحرية والكرامة ، ومقاومة الاستعمار ، فإن جانباً خطيراً من تاريخ الأمة الإسلامية ، يرتبط باسمه ارتباطاً ضخماً ، ذلك هو امتلاك

(١) الذاريات الايتان : ١٧ ، ١٨

(٢) آل عمران آية : ١٢٦

الصليين للساحل الشامى ، وانتصار صلاح الدين عليهم فى معركة حطين ، ثم دخوله بيت المقدس رافعاً راية الاسلام خفاقة عالية ، معلماً كلمة الله ، هاتفاً فى معسكر التوحيد .

« بأن الله وحده صدق وعده ، ونصره عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

إن هذه العقيدة ، هى التى صنعت تلك البطولة ، فمثل صلاح الدين رجل خاف الله مخافة كل شيء ، ولو لم يخف الله لخاف من كل شيء ، رجل امتلأ قلبه يقيناً وثقة فوثق بقوله تعالى :

﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾^(١)

اعتقد أن هذا قانون الله الذى لا يتخلف ، ولا يمكن أن يتخلف ، لأن الذى حكم به هو مالك الملك وملك الملوك ، ولأن الذى جاء به هو كتاب الله الخالد ، والله اذا حكم ، فلا معقب لحكمه ، واذا قضى فلا راد لقضائه .

﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾^(٢) .

أن معركة « حطين » وما بعدها ، ترسم صورة صادقة للبطل المجاهد ، والعبرى الفذ صلاح الدين ، وتوضح شخصيته بأقوى ما يمكن أن تصور ، فقد كان محارباً شجاعاً ، بالغ الشجاعة ، خبيراً بفنون الحرب وضروبها ، وهو فى المعارك أقسى ما يكون نقمة على عدوه ، فإذا ما انتهت الحرب ، كان مثلاً من الرحمة والعدالة والوفاء لخصومه ، وقد استمد هذه الروح العالية من استاذ الانسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء سيدنا محمد ﷺ ، فقد كان يأمر بإكرام الأسرى ، ومن أجل صفاته الوفاء بالعهد مع الأعداء ، لأن القرآن الكريم ركز هذا المعنى فى قرارات نفوسهم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله أن الله خير بما تعملون ﴾^(٣) .

ولعل فى هذا الحادث الذى سنسوقه بين يدي القارىء ، ما يملأ النفس روعة وجلالة ، ويرفع رأس المسلم إلى ما فوق قبه الفلك ، عزيزاً فخوراً ، يقول لربه كفى عزاً أن أكون لك عبداً وكفى أن تكون لى فخراً وكفى شرفاً أن يكون الإسلام لى ديناً وكفى عظمة أن يكون محمد لى نبياً ورسولاً .

ومما زادنى عزاً وفخراً وكدت بأخص أطأ الثريا

دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبياً

لقد وقع سهيل بن عمرو اسيراً فى يد المسلمين فى غزوة بدر ، وكان من ألد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ، ولما دفع الفداء أطلق سراحه ، فرآه عمر بن الخطاب متوجهاً إلى مكة ، ليس عليه أى ضمير

(١) الروم آية : ٤٧

(٢) يوسف آية : ٤٠

(٣) المائدة آية : ٨

ولا سلام ، فقال عملاق الاسلام عمر : « يا رسول الله لا تدع سهيلا يذهب إلى مكة حتى أخلع له ثنيتيه ، حتى إذا قام خطيبا عليك ، اندلع لسانه من فمه فلا يستطيع أن يسبك بعد اليوم » .
فماذا كان رد المبعوث رحمة للعالمين لقد قال له :

« لا والله يا عمر لا أمثل به فيمثل الله بي ولو كنت نبياً »^(١) .

هذا حكم شريف نطق به فم شريف ، وكما قال شوقي في هذا المعنى

وإذا عفوت فقادرا ومقدرا لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا أخذت العهد أو اعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هم الرحماء
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا منها وما يتعشق الكبراء
زانتك في الخلق العظيم شمائل يغرى بهن ويلع الكرماء

من هذه الروح العالية ، والرجولة النادرة الكاملة ، والإنسانية السمحة ، ينهل أبطال الاسلام ، وارتشفوا من نهلها العذب المورد فكان صلاح الدين شجاعا في حربه ، قاسيا على عدوه ، فإذا ما وضعت الحرب أوزارها ، كان الوفي بالعهد ، الحريص على صدق الوعد ،

لقد حاز صلاح الدين اهتمام كثير من الكتاب والمؤرخين ، فكتب عنه من مؤرخي العرب ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء ، وأما مؤرخو الإفرنج ، فقد كتبوا عنه في سياق الحديث عن الحروب الصليبية ، وأفرد الكاتب الانجليزي ستانلي لين كتابا خاصا عن صلاح الدين .

ولقد ذهب كثير من مؤرخي الإفرنج ، بأن الله وفق صلاح الدين ، ليقوم بعمل يريده هو سبحانه وتعالى ، ثم يقول هؤلاء المؤرخون : « اذا كان الفرنجة عاثوا في الأرض فسادا ، وطفغوا وبغوا وارتكبوا من المظالم والمفاسد ، ما أحمرت منه الأرض خجلا ، وفق الله صلاح الدين بروح من عنده ليوقع عقابه بهم على يده ، فكان من أمره ما كان » .

شهادات من الأعداء :

لما زار الامبراطور غليوم الثاني بلاد الشام قال ما ترجمته :
« مما يزيد سرورى أننى موجود فى بلد ، عاش بها من كان أعظم رجال عصره ، وفريد دهره ، شجاعة وبسالة » وكان يقصد بذلك البطل صلاح الدين ، والحق ما شهدت به الأعداء ..

ويقول « ستيفن » : كان صلاح الدين موفقا فى خططه ، ماهراً فى عمله ، سريعا فى تقريره ، قوى الشخصية ، لم يتردد لحظة واحدة فى تنفيذ ما رسمه ، كان صبورا على الشدائد ، يثق بنفسه وثوقا عظيماً .

(١) سيرة ابن هشام ص ٢ ، ص ٣٠٤ غزوة بدر الكبرى نس ١ الحلبي

علمه بفنون الحرب

نشأ صلاح الدين بين الأكراد ، وهؤلاء كانوا أهل فروسية ، يحبون الحرب والقتال والغزو ، وبيئة هذه أمرها ، لا بد أن ينشأ الفرد فيها ، وقد عرفت عنه المقررة الحربية ، والفن العسكري ، والقوة الجبارة ، والروح العسكرية المجيدة ، من إقدام وشدة ، وشجاعة وقوة وجرأة ، وتضحية ، ولا شك أن البيئة لها أثرها الكبير ، الخطير في حياة الفرد الذي يتطبع إلى درجة كبيرة بطباعها وعاداتها وأحوالها .

وقد تجلت عبقرية صلاح الدين العسكرية وذكاءه الحربى ، أنه اضطر الصليبيين إلى أن يحاربوا في وقت لم يكونوا مستعدين فيه للحرب . إذ أمسك بيده عنصر المباغتة ، واختار زمن المعركة ومكانها ، وهما من أهم العناصر في الحرب ، وقد احتال لذلك فأخرجهم عن مواقعهم ، ليحاربوه في منطقة جرداء خالية من الماء عندما هاجم طبرية ، ليغريهم بالإسراع لنجدتها ، فتركوا مواقعهم الحصينة ، واندفعوا إلى حيث أراد صلاح الدين الهزيمة الساحقة ، إذ أن الحرب رأى وخدعة ومكيدة فقد تقدم الجيش في أرض لا ماء فيها ولا زرع ، فقاسى الأهوال والشدائد ، ولقى المشاة اعياء شديدا ، وتخلفوا عن الفرسان في الوقت الذي كانت قوات صلاح الدين ، تطهرهم وابلاً من السهام ، وهجم المسلمون على خيمة الملك لوزينان ، فسقط أسيراً في قبضتهم ، كما أسر أرناط ومقدم الراية وكثيراً من الفرسان ، وقتل صلاح الدين أرناط بيده جزاء وفاقاً ، لما اقترفه من آثام وقضى على الفرسان ، وتقدم صلاح الدين ، فأخذ يفضى حصون الصليبيين ، التى لم تعد لها قيمة حربية ، بعد القضاء على الفرسان ، فاستولى على عكا (٥٨٣) ونابلس وقيساربه وصنورية ، ثم بيروت والرملة وعسقلان .

ثم حاصر صلاح الدين بيت المقدس في رجب ٥٨٣ هـ الموافق سبتمبر ١١٨٧ م حصاراً دام أربعة عشر يوماً ، ثم تمكن المسلمون من أحداث ثغرات في الأسوار فسلمت المدينة . ولقد علم صلاح الدين أيضاً ، أن القوات المحاربة ، لا تستطيع الاستغناء عن الماء ، وأن الجنود لا يستطيع العيش دون الاستمرار في حربها وقتالها ، إلا إذا كان معهم كميات كبيرة وافرة ، تسد رمقها ، وتروى ظمأها ، لهذا نجده في موقعة طبرية يرسل جيوشه ، لمنع الماء عن الفرنجة وأفنى ما أمامه من ماء الصهاريج ، وكان الوقت صيفا ، وفي هذا الفصل يشتد احتياج المرء إلى المياه ، ولم يستطع الفرنجة بلوغ الماء ، ولم يجدوا في الصهاريج أى كمية تغنيهم عن عطش ، فكانوا يحاربون على شدة الجهد من العطش والحر ، وكان من نتيجة محاولتهم الوصول إلى ينابيع المياه ومواردها أن تمكن القائد الذكى المدرب الحذر ، الذى كان يراقب حركاتهم ، ويعرف مقصدهم من حصارهم حصاراً تاماً وضيق عليهم الخناق ، حتى كان النصر في النهاية له والهزيمة والخزلان نصيب أعدائه .

الجهاد المقدس :

فما أعظم الحرب ، وما أجمل الانتصار ، اذا كان المحارب ذا عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وأسلوب علمي ، وتخطيط قائد مجرب ، ولقد كان صلاح الدين من هذا الطراز الرفيع ، الذي خاض الحرب جليلها ودقيقها ، ومحرك الفلك ، من الإله الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، استمد النصر من فائق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم .

هنا يتجلى دور العقيدة في القائد المحارب .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ، إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾^(١)

إن المؤمن صاحب العقيدة الراسخة ، اذا نزل صومة الوغى وساحات القتال ، يجد ريح الجنة دون المعركة ، فتهفوا نفسه اليها ، وتتوق روحه لرياضها ، لأنه واثق أنه الرابع في كلتا الحالتين ، النصر أو الشهادة ، وكلاهما من أسمى الأهداف عند المؤمن ، وأجل الغايات في قلبه ، بهذا نطق القرآن الكريم :

﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾^(٢) .

إن المؤمن الحق يحس ضربات السيوف ، كأنها قبلات الملائكة ، يسمع صليلها على أنغام قدسية ، ويرى بريقها كأنه سنا من نور السماء ويهتف من أعماقه .

﴿ إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾^(٣) .

لا يعرف اليأس ، كما لا يعرفه اليأس ، يجعل من الملح الأجاج عذبا فراتا سلسيلا ، ومن الخطوب المدهمة أمنا وطمأنينا وسلامة ، ومن الليل الطويل نهرا مشرقا بنور النصر وضياء بأفراح الظفر .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قولا .

لا تذكروا الكتب السوالم عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا .

عرف صلاح الدين أن الحرب علم وتخطيط ، وفن ودراسة ، كما أهتم في معاركة بعامل المباغتة ، واضطر العدو إلى أن يخوض معركة فرض صلاح الدين زمانها ومكانها ، كما أهتم كذلك بعامل الاستطلاع ، أى

(١) آل عمران الآيات : ١٧٣ - ١٧٥

(٢) التوبة آية : ٥٢

(٣) الأعراف الآيتان : ١٩٦ - ١٩٧

معرفة مواطن الضعف عند العدو ، ومعرفة موارده وقوته ، وما يدبره في الخفاء وتحركاته وسكناته ، وهذا العامل من أهم العوامل في الحروب إذ على قدر المعلومات يقاس النصر .

فكلما علمت من عدوك الكثير من تمرده وعدده ، ومواقعه ، كلما كانت المعركة أقرب إلى النجاح ، وبهذه المعلومات ، التي تأتي بها سرايا الاستطلاع ، يستطيع القائد أن يضع خطته حسب ما يترأى له ، ويقدر موقفه حسب ما تمليه عليه هذه المعلومات ، ولقد ظهر هذا العامل في الحرب عندما أراد صلاح الدين أن يفتح بيت المقدس ، فقد عرض على أهلها الصلح على أن يسلموا له المدينة فرفضوا عرضه . وهنا قرر أن يأخذ المدينة عنوة ، فأرسل قوات استطلاعية هنا وهناك ، يلتمسون من أسوارها النقط الضعيفة ، بعد فحص دقيق دام خمسة أيام ، حتى توصل إلى إيجاد ثغرات كثيرة في الجهة الشمالية . عند المكان المعروف بـ « باب كنيسة صهيون » فنصب المنجنيقات ، ونظم الرماه ، وحرك الجند إلى الأسوار عند النقط الضعيفة ، وبدأ هجومه القوى القاسى ، الذى لم يدم أكثر من أسبوع واحد ، رأى بعض المحاصرين أن لا أمل لهم في النجاة ، فأرسلوا إليه يفاوضونه ويستسلمون ، كذلك من العوامل التي يبنى عليها نجاح المعارك الحربية ، ثقة القائد بربه ، ثم ثقة قواده وجنوده به ، وهذا العامل أيضا كان متوفرا في شخصية صلاح الدين ، ولقد كان موضع ثقة جنوده ، وموضع ثقة نفسه ، كان مؤمنا بالله ، وبأنه يعمل لغرض شريف ، وهدف نبيل ، وكان واثقا من أن نصر الله سيواتيه ، وسيتحقق على يديه — بمشيئة الله — كل ما يصبوا إليه من آماني وأحلام ، ولقد حدث أن وصلت أخبار من دمشق بتجمع الأفرنج ، ومحاولتهم غزو جهاتها ، فلم يعبأ القائد العظيم بهذا النبأ ، ولم يجد الفرع إلى قلبه سبيلا ، بل كان ثابتا ثبات الرواسي الشامخات واقفا على أرض صلبة ، لا تعرف الخور ولا الفرع وهذا المعنى يجليه قوله تعالى :

﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ^(١) هذا منطق العقيدة الراسخة ، يعقب عليها القرآن الكريم بقوله :

﴿ فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ ^(٢) ولقد قال صلاح الدين لجنوده ، عندما ترامت إلى سمعه تلك الأنباء ، التي تنخلع لها القلوب ، وتنفطر لها الأفئدة :

« دعوهم فليعملوا ما يشاءون ، فإنهم إنما يستولون على قرى وكفور ، في حين أننا نأخذ مدناً وبلاداً ، فإذا ما ذهبنا إليهم ، جئناهم بجنود لا قبل لهم بها ، فنخرجهم مما ملكوا أذلة وهم صاغرون » . وهذا القول الذى قاله وسط جنوده ، يشهد له المؤرخ الأوربى ستيفن سن فى كتابه أنه كان (صبورا على الشدائد يثق بنفسه وثوقاً عظيماً)

(١) آل عمران الآيتان : ١٤٦ ، ١٤٧

(٢) آل عمران آية : ١٤٨

ومن العوامل القوية ، التي يبنى عليها نجاح المارك ، أن يكون القائد مثلاً لجنده في الشجاعة والأقدام ، لا يخشى قوة العدو ، ولا يهاب بأسه ، ولقد كان سيد المرسلين ﷺ ذلك المثل ، الذي لقنه لأبطال الاسلام الافذاذ ، عندما وقف في صومة الوغى يوم حنين ، ينادى بأعلى صوته : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »^(١) لقد اقتبس صلاح الدين هذا الدرس في الشجاعة والإقدام من سيرة بطل الأنبياء محمد ، الذي اذا تحدث عنه التاريخ جثا على ركبتيه ، فإذا ما تكلمت عنه الدنيا تمرغت تحت قدميه ، لقد كانت شجاعة صلاح الدين الأيوبي من أسباب تنويع جنود المسلمين بانتصارات رائعة ، اذا دلت على شيء فعلي تشبههم بقائدهم العبقري في شجاعته النادرة .

يشهد بذلك أنه حدث مرة ، أن أسرع بجواده إلى حيث يوجد بعض جنوده قائد الفرجة الملقب الأسد ، فقال لهم بصوت دوى كالرعد فيه زئير الأسود ، وقوة الحق ، كأنه العاصفة يبروقها وعودها ديباجها ورمالها قال لجنود الأفرجة .

(قفوا مكانكم فها قلب أسد أقوى من قلب أسدكم) وهكذا كان يعرض نفسه للخطر مع جنوده ، رغبة منه في قهر أعداء الاسلام ، حتى لا يقربوا الأراضي المقدسة .

وكان صلاح الدين كغيره من القادة الممتازين ، يمتاز بشجاعة لا مثيل لها هي مثل طيب لجنوده ، ومن تحت إمرته يدلنا على ذلك أنه كان لا يخشى سهام عدوه المرسله اليه ، وكان يركب جواده ، وهو مريض ويقود جنوده ويندفع أمامهم ، فإذا ما طلبوا منه أن يريح نفسه قال :
(إني إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادى) .

هذه عبارة سجلها التاريخ بحروف من ذهب على صفحات من نور ، لذلك البطل المسلم . (إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادى) وهذا مبعثه العقيدة الراسخة والإيمان الذي اذا باشرت بشاشته شفاف القلوب ، تكاد تجعل المستحيل ممكناً)

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتمسكوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »^(٢)

(١) أخرجه مسلم في كتابه الجهاد والسير ج ٣ ص ١٤٠٠ برقم ١٧٧٦/ ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ / ١٧٧٦ والبخارى ج ٥ ص ١٩٥ غزوات النبي .

(٢) التوبة آية : ٢٤

صلاح الدين ومبدأ الشورى

من المبادئ التى قام عليها بناء الإسلام ، مبدأ الشورى ، فرأى الإنسان مع الجماعة ، أنفع إلى الناس من رأيه وحده ، وهذا مما يجعل الاسلام يعنى بهذا المبدأ عناية تامة ، ويجعل من أوصاف الجماعة المؤمنة ، أن الأمر شورى بينهم ، فيقول سبحانه فى سورة الشورى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ ﴾^(١) ويقول تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ﴾^(٢) . وللأمام الرازى موقف جديد بالتسجيل على هذه الصفحة لما فيه من روعة وجلال فى قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ﴾ قال : هذه الآية نزلت عقب غزوة أحد ، ونزولها بالذات عقب هذه الغزوة يؤكد حرص الاسلام على مبدأ الشورى ، وكراهيته للاستبداد بالرأى .

ففى هذه الغزوة بالذات ، بينما كان زأى بعض المسلمين ، خلاف رأى الرسول ، فقد أصروا على الخروج ، بينما كان رأيه صلى الله عليه وسلم التحصن بالمدينة ، وكانت محنة . ومثل هذا الحدث ، قد يعطى مبرراً لأى أمير مستبد عبر التاريخ ، لكى يرفض رأى الجماعة ، لأنه خاطيء ... ومنعاً لذلك نزلت آية الشورى ، وفى أعقاب غزوة أحد بالذات ، لتقطع الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى الأمة ، أو الافتئات على حقوقها .

وما أجمل كلام شوق فى همزيته ، إذا يقول مخاطباً رسول الله :

وأقمت بعدك للعباد حكومة	لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده	والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة	والأمر شورى ، والحقوق قضاء
لو أن إنساناً تخير ملة	ما اختار إلا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يداً	هى أنت بل أنت اليد البيضاء

ولقد كان صلاح الدين لا يعمل برأيه منفرداً ، بل كان يأخذ على الدوام رأى الجماعة وذوى الخبرة من أصحاب الرأى ، لما كان يراه فى رأى الفرد ، من الاستبداد الأمر ، عملاً بأمر الدين ، وجرياً على سنة الرسول كثيراً ما عدل عن رأيه ، وهو يعلم صحة هذا الرأى ، خضوعاً لرأى الجماعة ، كما حدث أمام عكا وصور ، ونحن جميعاً فى عصرنا هذا أن أى قائد يجتمع بضباط أركان حربه ، للتداول فيما بينهم ، وللتشاور فى اتخاذ خطة معينة ، وقد ذكر المؤرخون لهذه الحادثة التى إن دلت على شئ فإنما تدل على مدى اهتمام ذلك القائد برأى الجماعة ...

(١) الشورى آية : ٣٨

(٢) آل عمران : ١٥٩

حدث مرة أن كان صلاح الدين عند حصن (الشقيف) فبلغ سمعه نبأ سير الفرنج من صور ناحية عكا ، فأسرع إلى دعوة امرائه ، وجمع مجلساً حربياً ، يعرض عليه الموقف ، ويطلب منه إبداء الآراء ، واختيار ما يراه صالحاً لمعالجة الموقف ومواجهته .

وكانت الطرق مفتوحة أمامه ، أما أن يسير الفرنج على الساحل ، ثم يقاتلهم قبل بلوغهم عكا ، وإما أن يلقاهم هناك بعد أن يسلك طريقاً في الداخل ماراً بطبرية ، وعلى الرغم أنه كان يؤيد الطريق الأول ، إلا أنه عندما رأى أمراؤه يقررون الطريق الآخر ، وافق عليه على الرغم من خطورته ، لأن من نتائجه أن الفرنج يصلون إلى عكا ، ثم يستطيعون بذلك اختيار المكان اللائق للدفاع ووسائل المقاومة للتحصين ، وليس ثمة أدنى شك في أن تقدير القائد للموقف الحربي ، له أثر كبير في نتيجة هذا الموقف ، فكلما كان القائد ممتازاً كلما استطاع تقدير الموقف تقديراً صائباً ، ويستطيع بناء على هذا التقدير أن يقر خطة تؤدي به إلى النصر بعون الله ، وهذا ما كان يمتاز به صلاح الدين .

فقد حدث في أثناء القتال حول طبرية ، أن كانت همة الإفرنج متجهة إلى قطع الرجعة على صلاح الدين وجيشه ، ليحولوا بينه وبين مركز قواته وينابيع المياه ، إلا أن القوم لم يعرفوا أن صلاح الدين يحتاط في حرية للأمر قبل وقوعه ، وأنه يعلم ما للحيلة من التأثير العظيم ، والغريب أن الإفرنج نسوا أن عليهم أن يدافعوا ، ما دامت قواتهم ليست في مركز منيع يرتدون إليه عند الحاجة ، إذا إنهم حينما هاجموا وحاولوا تنفيذ ما دبروه ، وجدوا أنفسهم في كل خطوة تحت نيران صلاح الدين ، فلم يشبثوا ، بل والأدهى من ذلك أنهم عندما حاولوا التقهقر بل الفرار ، وجدوا فرق المسلمين تحيط بفرقهم ، وتسوقها إلى حيث المعتقلات وحظائر الأسرى .

مع سير الأحداث :

استمرت الخلافة الفاطمية في مصر من سنة ٣٦٢ هـ إلى سنة ٥٦٧ هـ وكان على عهد صلاح الدين خليفة فاطمي يسمى الخليفة العاضد ، فلما مات عم صلاح الدين (أسد الدين شيريكوه) اختار الخليفة الفاطمي صلاح الدين وزيراً له ، على الرغم من صغر سنه ، ووجود غيره من القواد ، وكان صلاح الدين بهذا الاختيار أهلاً ، لما ظهر به من الكفاءة والنبوغ ، ورجاحة العقل ، وإحكام الخطط ، والبطولة النادرة . ولما مات الخليفة العاضد انقضت الخلافة الفاطمية في مصر ، وبذلك أصبح صلاح الدين سلطان مصر ، ثم وسع دائرة نفوذه ، ففزا النوبة واستولى على اليمن والحجاز ، ولما مات نور الدين محمود عمل صلاح الدين على ضم مملكته إليه ، بعد أن دخلها الاضطراب والانقسام ، فامتلك دمشق وحلب ، وبقية البلاد الشامية والجزرية ، وتكونت لصلاح الدين مملكة عظيمة ، تمتد من العراق إلى برقة ، ثم اتجه بعد ذلك إلى محاربة الصليبيين ، بعد أن وجد مملكته ، وقوى نفوذه ، واستمرت حروبه معهم نحواً من عشر سنوات ، كان فيها منتصراً مظهرأ ، وتوج أعماله بانتصاره على الصليبيين في معركة حطين ، واستيلائه على بيت

المقدس ، وحصر الصليبين في منطقة ساحلية ضيقة ، انتقلت اليها مملكة بيت المقدس وجعلت مدينة عكا عاصمة لها .

حول بيت المقدس :

أكتب سطور هذا الكتاب والأمة الاسلامية ، تمر بمحنة قاسية الأحداث ، تتحرك بقسوة كالعاصفة العاتية ، بكل رعودها وبروقها ، ورياحها ورمالها ، فبعد الاعتداء الصهيوني في الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ م ، احتلت اسرائيل الضفة الغربية لنهر الأردن ، والمرتفعات السورية ، وشبه جزيرة سيناء ، وتوالت التصريحات من قادة اسرائيل العسكريين والمدنيين ، ولا فرق بين هؤلاء وأولئك . فليس في اسرائيل صقور أو حمام بل كل حكام الصهيونية صقور ، وإن ارتدوا ريش الحمام ، وكان آخر ما ادلت به رئيسه وزراء اسرائيل : « جولد مائير » قولها :

« إن اسرائيل سترفض أى حل تقترحه الدول الأربعة الكبرى »
ومن قبل أدلى وزير خارجية اسرائيل بقوله :

(إن اسرائيل ستظل محتفظة بخطوط وقف اطلاق النار ما لم توقع معاهدة صلح بين العرب واسرائيل ، يكون معترفا بها بحدود آمنة ، ولو لم تفعل اسرائيل ذلك ، فإنها ستكون قد انتحرت انتحارا سياسياً)
وآخر ما أدلى به وزير الدفاع الاسرائيلي قوله :

(أن الصيف القادم خطير وعلى شعب اسرائيل أن يعد جميع الامكانيات اللازمة للحرب المحتملة .
أسجل سطور هذا الكتاب ، والمسجد الأقصى أسير في يد الصهيونية ، والمقدسات الإسلامية تئن بدموع اللوعة على ما أصابها من عبث وانتهاك ، وقاذفات القنابل اليهودية تضرب الشيوخ والأطفال ، والنساء الآمنين الوادعين في الضفة الشرقية للأردن ، وجبهه القتال المصرية في الضفة الغربية للقتال بين عشيه أو ضحاها ، تشتبك مع القوات الصهيونية المرابطة . على الضفة الشرقية للقتال ، فالحرب الساخنة والوقود المشتعل ، ينذر بالخطر المدهم ، ومنطقة الشرق الأوسط كما شبهها وزير الدفاع الأمريكي كلارل كليفورد بأنها علبة كبريت ، قابلة للاشتعال في أى وقت ، وكما شبهها رئيس وزراء اسرائيل السابق ، أنها برميل من البترول ، ما يلبث أن يشتعل ، وقع المسجد الأقصى في يد الصهيونية ، فكان ذلك الحادث الأليم ، طعنة مسمومة في قلوب أكثر من ستمائة مليون مسلم ، يسكنون أكثر من أربعين دولة اسلامية ، وكأن التاريخ يرجع بنا إلى الحروب الصليبية ، التي وقعت بين المسلمين وجيوش أوروبا ، خلال قرنين كاملين من الزمان ، امتدت من سنة ٤٩٠ هـ إلى ٦٩٠ هـ كأن التاريخ يريد أن ينطلق بحكمه الصادق ؛ أن هذه الحروب لا تزال ممتدة ، فقد كان الشعار الذي يجمع به المال لاسرائيل في دول أوروبا قبل حرب يونيو سنة ١٩٦٧ م « قاتلوا المسلمين » .

وبفضل هذا الشعار ، تدفقت الأموال كالسيل المنهر ، ودارت الأيام دورتها أيام الصليبيين ، فقيض الله للمسجد الأقصى رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فوجهوا الضربات القاضية القاصمة إلى القلوب

المعتدية الأثيمة ، واستخلصوا بيت المقدس وغيره من الأماكن المقدسة ، وأن علماء التاريخ ومؤرخى العلوم ، يكادون يجمعون على أن هزيمة المسلمين أيام الصليبيين فى القرون الخالية ، كان مرجعها ثلاثة أشياء :
ضعف الوازع الدينى .

الاغلال الاجتماعى .

التنسخ الأخلاقى .

وما أقساها من أسباب ، وما أعظمها من أدواء ، وما نحن فى أولى القرن الرابع عشر الهجرى ، وما هى الصهيونية تنفذ المخطط الرهيب ، وترسم خريطتها الشنيعة التى تقوم على التوسع والاستيلاء ، وفى اليوم الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ تطفأ الصهيونية بأقدامها المندسة الأراضى المقدسة ، وتعبث بحرمات الاسلام . وإننى اذا أذكر للمسلمين الأسباب ، التى أدت إلى وقوع الكارثة أيام الصليبيين ، فلعل فى ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فإن الأرض المقدسة تهتف بهم أن وحدوا صفوفكم ، وكلمتكم ، وتناسوا الخلافات ، وقفوا وقفة رجل واحد لخوض المعركة الفاصلة ، فإنها معركة الاسلام .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾^(١)

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾^(٢) .

يا أيها المسلمون فى كل مكان : إن القرآن يناديكم ويهتف بكم قائلاً :

﴿ ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، ولينحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾^(٣) .

ثم يبعث فىنا أملاً ويقينا فى النصر ، إن نحن اعتصمنا بالله واصطلحنا مع الله ، فيقول سبحانه :

﴿ ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ﴾^(٤)

ويؤكد أن ما نعهده من قوة ومن رباط الخيل ، إنما هو إرهاب لأعداء الله ، أما الذى يقتل الأعداء حقيقه ، فهو الله فيقول :- ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين

(١) الأنفال آية : ١٥

(٢) الأنفال الآيات : ٤٥ ، ٤٦

(٣) آل عمران الآيات : ١٣٩ — ١٤١

(٤) الأنفال آية : ٥٩

من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴿١﴾ .

ويؤكد هنا المعنى

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ﴿٢﴾

وعلى المسلمين أن يتذكروا ما للمسجد الأقصى من مكانه في القلوب ، وحرمة في الاسلام ، ومنزلة في مقدساتهم ، فقد سأل الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري — رضى الله عنه — رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : أى مسجد وضع في الأرض أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة — الحديث (٣)

وبلغ من فضل هذا المسجد ومكانته في الاسلام ، أنه أحد المساجد الثلاثة ، التي لا تشد الرحال إلا إليها ، فقد روى عن أبي هريرة رضى الله عنه — أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال ، إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى » رواه البخاري ومسلم وأبو داود (٤)

وللصلاة في المسجد الأقصى ، فضل كبير ، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام . وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه » (٥) .

وقد جاء في الأحاديث ؟ إن فضل الصلاة في مسجد بيت المقدس ، أفضل مما سواه من المساجد — غير المسجد الحرام والمسجد النبوي . بخمسائة صلاة (٦)

ويكفي المسجد الأقصى فخراً ، أنه أولى القبلتين ، فقد استقبله الرسول ﷺ في صلواته ومعه المسلمون ، وظلوا على هذا الحال بعد الهجرة بستة عشر شهراً ، إلى أن أمره الله تعالى باستقبال البيت الحرام . وتلك مفخرة أخرى للمسجد الأقصى ، تتردد في سمع الزمان ما تعاقب الملوان ، واختلف الجديدان ، إلا أنها مسرى رسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث التقى بالأنبياء ، وصلى بهم إماماً ، لبعثن أمام الناس أجمعين ، أن شريعة الأنبياء واحدة ، فكلهم يعملون في معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، وهو قول لا إله إلا الله ، وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة :

(١) الأنفال آية : ٦٠

(٢) الأنفال آية : ١٧

(٣) أخرجه الامام مسلم في كتاب المساجد ح ١ ص ٣٧٠ برقم ٥٢٠/١

(٤) أخرجه البخاري ح ٢ ص ٩٧٥ برقم ٤١٥ / ٨٢٧ كتاب الحج ، ص ١٠١٤ برقم ٥١١ / ١٣٩٧ وأبو داود ح ٢ ص ٥٢٩

برقم ٢٠٣٣ والترمذي ح ١ ص ٢٠٥ برقم ٣٢٥ ط دار الفكر

(٥) أخرجه الامام مسلم ح ٢ ص ١٠١٢ برقم ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ / ١٣٩٤

(٦) الترغيب والترهيب ح ٢ ص ٣٦١ ، ص ٣٦٢ برقم ١٠ ط مكتبة الجمهورية .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾^(١) .
وهكذا يقف المسجد الأقصى ليأخذ مكانته اللائقة به في تاريخ الاسلام فقد شرف بزيارة الرسول ﷺ له ليلة الاسراء والمعراج .
﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾^(٢) .

صلاح الدين الأيوبي وبيت المقدس

كانت الشرارة الأولى التي فجرت نار الحرب ، بين البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبي ، وبين قوات الفرنجة المعتدية الباغية ، أن رجلاً يدعى « أرناط » كان حاكماً على « الكرك » وهذا الرجل سولت له نفسه سوءاً ، فقد اعتدى على قافلة تجارية تابعة لصلاح الدين ، فغنم أموالها ، وأسر رجالها ، وعلى الرغم من أن صلاح الدين أنذره ، إلا أن هذا الشقي ركب رأسه ، الذي عشن الشيطان فيه وفرخ ، فأقسم صلاح الدين إن ظفر به ليقتلنه بيده ، وعزم أن ينتقم منه ، وأن يكيل له الصاع صاعين ، كان ذلك في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة هجرية ، وفي سنة ٥٨٣ هـ عزم صلاح الدين عزمًا أكيداً على أن ينفذ وعيده في صاحب حصن « الكرك » أرناط ، وعلى أن يهاجم مملكة بيت المقدس ، التي كانت في ذلك الوقت تحت يد الصليبيين ، فكانت المعركة الفاصلة الخالدة ، التي سجلها التاريخ ، لذلك البطل بحروف من ذهب ، على صفحة من نور ، باقية مدى الدهر ، أعطر من الزهر ، ألا إنها موقعة حطين ، فكيف كان ذلك ؟

معركة حطين :

خرج صلاح الدين من دمشق في شهر المحرم (٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م) ولما وصل إلى رأس الماء جعله مركزاً لاجتماع الجيوش ، فقد استنفر المسلمين للجهاد العام ، وأعلن حالة التعبئة في الجماهير المسلمة .
﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾^(٣)

وقامت العقيدة بدورها الحقيقي ، لتعلن في صفوف المجاهدين قول الله عز وجل : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾^(٤) .

(١) الزخرف آية : ٤٥

(٢) الاسراء آية : ١

(٣) التوبة آية : ٤١

(٤) التوبة آية : ١١١

وهكذا نهض الناس وانتفضوا كالليوث الرئالة ، يزجرون غضباً لانتهاك الحرمات ، ويصيحون صيحة الحق ، ليدمروا الباطل ، الذى أخذ يزأر فى عرضات الدنيا ، فإذا ما توافر للقائد عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وأسلوب علمى فى فن القتال ، كان النصر حليفه ، والتوفيق رائده .

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين ﴾^(١)

لما التقى صلاح الدين بولده الأفضل عند « رأس الماء » بقى بولده برأس الماء ، وسار هو إلى بصرى ، وسار مظفر الدين كوكبورى إلى عكا ، وأيقن الصليبيون باتساع الخطة ، التى دبرها صلاح الدين ضدهم ، فاجتمعت كلمة رؤسائهم ، وحشدوا جموعهم وتوجهوا إلى طبرية .

وتقابل الفريقان فى حطين ، وجرت معارك قاسية بين الطرفين ، وانتصر فيها صلاح الدين انتصاراً حاسماً ، فقد هزمت قوات التوحيد ، شراذم الشر الباغية ، هزيمة ساحقة ، فسبحان القائل : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾^(٢) .

وقد بلغ عدد القتلى من الفرنجة عشرة آلاف ، هذا بالإضافة إلى أن ملك بيت المقدس وأرناط ، قد وقعا أسيرين فى أيدي المسلمين ، ولقد أظهر صلاح الدين شهامته ، ورجولته ، وروحه العالية ، روح البطولة ، فعامل ملك بيت المقدس معاملة كريمة وعطف عليه .

أما « أرناط » صاحب حصن الكرك ، الذى سبق أن صلاح الدين أقسم إن ظفر به ليقنتله ، فقد بر بقسمه وضرب عنقه جزاء ما قدمت يداه ، وبهذا الانتصار الساحق فى موقعة حطين ، بدت شخصية صلاح الدين فى أوروبا ، تحمل أجمل صفات البطولة ، وأنصع معانى النصر ، حتى ذاع صيته فى كل مكان ، فملأ قلوب الفرنجة رعباً ، حتى قيل أن نساء أوروبا ، كن إذا أردن أن يخفن أطفالهن : ذكرت لهم اسم صلاح الدين .

هذا هو الرجل ، الذى كان اذا صلى يطيل ركوعه وسجوده ، ويستعين على أعدائه بالدعاء وقت السحر ، وهذه معجزة الاسلام فى صنع الرجال ، وما أصعب بناء النفوس ، وما أجل بناء البطولات ولما حقق الله النصر على يدى صلاح الدين فى موقعه حطين .

كان ذلك بشير يمن ، وطالع خير ، وإيدانا بأن فجر الحق ، قد امتدت خيوطه تملأ الآفاق ، فتوالت الانتصارات بعد ذلك ، ففى الفترة الواقعة بين الانتصار فى حطين ، وبين فتح بيت المقدس ، توجه صلاح الدين بقواته إلى عكا فاستسلم من فيها بأمان ، ودخلها غرة جمادى الأولى (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) وانتقل الصليبيون منها إلى مدينة صور .

(١) آل عمران الآيتان : ١٢٦ ، ١٢٧

(٢) الروم آية : ٤٧

ثم وقع احتلال المدن والحصون ، التي حول عكا ، مثل (تبين - صيدا - جبيل - بيروت) وبعد ذلك ساير الساحل ، وحاصر عسقلان ، مدة أربعة عشر يوما ، وانتهى الأمر باستسلامها في ١٦ جمادى الآخرة ٥٨٣ هـ .

وبذلك نصب صلاح الدين حصاراً على بيت المقدس ، وحال بين مملكة بيت المقدس ، وبين الامدادات الصليبية التي كانت ترد اليها من الساحل .

صلاح الدين وبيت المقدس :

بعد أن استطاع صلاح الدين ، أن يقطع الإمدادات ، التي كانت ترد إلى بيت المقدس من الصليبيين ، سهل عليه حصار بيت المقدس ، وذلك بعد ما استسلمت (الرملة - الداروم - غزة - بيت لحم - النطرون) ومن الجدير بالذكر أن حصار بيت المقدس ، لم تدم طويلاً ، فقد استمر أسبوعاً واحداً ، انتهت بعده المقاومة الصليبية ، وأعاد الله الحق إلى أهله ، وأجرى النصر على يدي عبده المجاهد في سبيله .

وهنا تظهر الروح الكريمة العالية ، روح الاسلام التي تتسم بالرحمة ، وتمتاز بالسماحة ، فلعلنا نذكر أن الفرنجة لما دخلوا بيت المقدس ، قتلوا من أهل هذه المدينة المقدسة ، سبعين ألفاً من المسلمين ، وكان ذلك في سنة ٤٩٢ هـ في شهر شعبان ، لكن صلاح الدين أبت عليه عقيدته ، وشهامته ، ورجولته ، وبطولته ، وإنسانيته ، أن يجري الدماء أنهاراً ، بل لقد عفا وأصلح ، وقبل الفداء من الصليبيين (١٠ دنائير للرجل ، ٥ للمرأة ، ٢ للطفل) وأوسع لهم في أجل هذا الفداء لمدة ٤٠ أربعين يوماً ، فخرج الصليبيون تحت حماية القوات الاسلامية ، إلى مدينة صور ، متعهدين بعدم الرجوع إلى الحرب .

فتحنا فكان العدل منا سجية	فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحلتم قتل الأسارى وطالما	غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا	فكل أناء بالذى فيه ينضح

رد الفعل :

كان لاحتلال بيت المقدس ، واسترجاعها بأيدي المسلمين ، هزة عنيفة في أوروبا ، فنظمت حملة صليبية ثالثة ، شارك فيها أعظم ملوك أوروبا في ذلك الزمان :

(١) امبراطور ألمانيا فردريك بربروس .

(٢) ملك فرنسا فيليب أوغسطس .

(٣) ملك الانكليز ريتشارد قلب الأسد .

ومات امبراطور الألمان أثناء الطريق ، فلم يكن لأمره شأن ، أما الملكان الفرنسي والانكليزي ، فقد

وصلا إلى الشام أثناء حصار عكا الشهير ، وبعد معارك أخرى بين الفريقين ، عقد صلح الرملة بين صلاح الدين وملك الانكليز . نص فيه على حدود الطرفين ، وعقد هدنة لمدة ثلاث سنوات ، وأنه يسمح للصليبيين بزيارة بيت المقدس .

وفاة البطل صلاح الدين

بعد صلح الرملة رجع صلاح الدين إلى بيت المقدس ، وأمر بإجراء عدة اصلاحات وتنظيمات ، ثم صار قاصداً دمشق ، فوصلها في ٢٥ شوال سنة ٥٨٨ هـ . ولم يعمر صلاح الدين طويلاً بعد صلح الرملة ، فقد وافاه الأجل ، وهو بدمشق ، فأسلم الروح في ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ (٤ مارس ١١٩٣ م) وفارق الحياة ، بعد أن أدى رسالته على أكمل وجه ، وجاهد في الله حق جهاده ، وصبر على البلاء ، وتحمل الضراء ، ومات ميتة الأبطال ، بعد أن سجل له التاريخ الأجداد الخالدة ، في سبيل نصرته الاسلام والمسلمين ، وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾^(١)

فإلى رحمة الله يا صلاح الدين ، جزاء ما قدمت من أياد بيض ، ومواقف شرف في سبيل إعلاء كلمة الله ، كلمة الحق .

الحملتان الصليبيتان الرابعة والخامسة .

بعد الحديث عن موقعة حطين ، وفتح بيت المقدس ، رأينا أن نتمم الفائدة العملية والتاريخية ، حتى يكون القارئ على علم تام بالحملات الأوربية ، التي زحفت إلى الشرق الاسلامي ، تريد أن تغوص أرجل خيولها في بحار من دم المسلمين ، وأن تستنفذ قواها ، وتستولى على ما في الأرض من خيرات ، أو على حد قولهم : إنها أرض تفيض باللبن والعسل ، ومن ثم عرضنا للكلام عن بقية الحملات الصليبية ، بعد صلاح الدين رحمه الله .

جاءت الحملة الصليبية الرابعة ، نتيجة للخلاف المحتدم بين الكنيستين ، الأرثوذكسية والكاثوليكية ، تبعة خلاف سياسي وحرني ، كثيرا ما جر إلى الولايات والخطوب ، ولهذا فإن قادة الحملة الصليبية الرابعة ، سرعان ما استجابوا لدعوة دوق البندقية ، فهاجموا الامبراطورية البيزنطية ، واستولوا على القسطنطينية ، وأنشأوا فيها مملكة لاتينية ، استمرت ٥٧ سنة . وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة ، أما الحملة الخامسة ، فقد كان الغرض منها ، استنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين ، فاستجاب لهذه الدعوة ، ملك المجر أنداري الثاني ، ودوق النمسا ليوبول السادس ، وكانت سنة ٦١٢ هـ — ١٢١٦ م ، ولقد تحركت صوب الشرق

الاسلامى ، والهدف الأساسى أمام عينها ، ولكنها لما فشلت بالنسبة لبلاد الشام ، قرر ملك المجر الرجوع إلى بلاده .

لكن بقية الفرنجة ، كانوا قد وضعوا خطة ، تقضى بالزحف على مصر ، التى كانت فى ذلك الوقت ، تحكم بيت المقدس . وكان على حكمها رجل من آل أيوب ، هو الملك العادل ، وكانت الخطة ، تقتضى محاصرة مدينة دمياط الواقعة على الفرع الشرقى لدلتا النيل ، فإذا ما إحتلوها يتجهون إلى القاهرة ، مسير بين فرع النيل الشرقى .

حصار دمياط :

وبدأوا ينفذون الخطة ، فتحركت جيوشهم إلى مدينة دمياط ، وحاصروها فى صفر ٦١٥ هـ ، وظلت محاصرة إلى سنة ٦١٦ ، وقد حدث أن الملك العادل مات فى هذه الفترة ، فاضطربت الأمور لموته ، مما أدى إلى سقوط دمياط فى أيديهم ، وبعد سقوط دمياط ، استراحت جيوشهم قليلاً ، ثم قرروا متابعة الزحف إلى القاهرة ، لكن الذى حدث فى هذه الأثناء ، أن الملك الكامل ابن الملك العادل ، استطاع أن يعيد الأمور إلى نصابها ، فأرسل إلى أخوته أمراء الشام ، ليؤكد الكلمة ضد الصليبيين ، واستعد لملاقاتهم . يقول المؤرخون : استعد الملك الكامل لملاقاة الصليبيين قرب المنصورة ، وصمد لهم هناك ، واستمر القتال محتدماً بين الطرفين ، وخشى الملك الكامل تفوق الصليبيين واحتلالهم القاهرة ، فأجرى معهم مفاوضات فى الصلح ، وعرض عليهم تسليم بيت المقدس ، وعسقلان وطبرية ، وجميلة ، واللاذقية ، فى مقابل تسليمهم دمياط والخروج من مصر .

لكن الصليبيين لم يرضوا بهذا ، بل طلبوا زيادة عن ذلك — بتسليم حصن الكرك ، وثلاثمائة ألف دينار تعويضاً عن تخريب بيت المقدس ، وهكذا أضاع القادة الصليبيون فرصة لا تعوض ، وأغراهم عنادهم ، بمهاجمة القاهرة ، وصادف أن كان الوقت زمن فيضان النيل ، فقطع المصريون الجسور ، واندفعت المياه فى الأرض المنخفضة ، التى كان فيها الصليبيون ، فغمرتهم المياه وحصرتهم من كل جانب ، وأصبحوا فى الماء والوحل .

وانتصبت قوات إسلامية فى المنفذ الوحيد ، الذى يمكن للصليبيين الخروج منه ، فأسقط فى أيديهم ، وركنوا إلى الاستسلام ، والخروج من مصر ، والانسحاب عن دمياط بدون مقابل (رجب ٦١٨ هـ — ١٢٢١ م) .

فانظر إلى العناية الإلهية ، وتأمل تدبير خالق السماء والأرض ، وكيف أن الأرض ضاقت على المسلمين بما رحبت ، حتى عرضوا على أعداء الله العروض السخية ، فى سبيل أن يوقفوا هذا السرطان ، الذى يسرى فى جسد الأمة ، فيأبى هؤلاء إلا أن يركبوا رؤوسهم ، ولم يكن أحد يعلم المصير الذى ستنتهى إليه .

تلك الحملة إلا الله وحده ، فتكون هزيمة هؤلاء على يد ماء النيل ، بعد ما ظن المسلمون أنهم لن يخرجوا ، وظن الصليبيون أنهم ما نعتهم حصونهم من الله ، فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، حيث صدرت أوامره الفعالة إلى ماء النيل ، أن يفيض ، فيغرق الجسور ، ويحاصر الأعداء .

أن موقف المسلمين من الحملة الخامسة ، يجب أن نأخذ منه عبرة في شدة التمسك بحبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، فإن أهل الأرض مهما بلغت قوتهم ، وزادت الأسباب المادية في أيديهم ، فإنهم لن يستطيعوا أن يطاولوا مالك الملك ، الذى يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز ويذل من يشاء .

« الحرب الصليبية السادسة »

إن المنقب فى بطون التاريخ ، إذا ما ألقى نظرة فاحصة على مسيرة الأحداث عبر القرون الخالية ، يجد من الاستعمار الغربى عجباً عجيباً ، فقد تفاقم الصراع بين الغرب الصليبي ، والشرق الإسلامى ، يريد الغرب أن ينتزع بآنيابه الضارية بيت المقدس من أيدي المسلمين ، ويصر المسلمون على أن يحافظوا على هذا البيت ، وهكذا دارت رحى الحرب ، وحمى وطيسها ، ونحن نقول فى هذا الصدد إن التاريخ أستاذ عظيم ، يلقي الأهم الدروس ، ذات الأثر الفعال ، التى لا تنسى ، والله يقول ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ، وتعيها أذن واعية ﴾^(١)

وما أعظم الدروس التاريخية ، التى يقدمها لنا القرآن العظيم ، والتى تبدو فيها سنن الله واضحة فى أم خلقه . اقرأ قوله تعالى :

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾^(٢) .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾^(٣)

وليستمر الكتاب العزيز فى بيان هذه الدروس ، يلقيها للأمم ، ويبين حثيات حكم الله القاطع ، الذى حكم به عليها ، اقرأ قوله تعالى :

﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبشر معطلة وقصر مشيد ﴾^(٤)

(١) الحاقة آية : ١٢

(٢) آل عمران الآيتان : ١٣٧ ، ١٣٨

(٣) النحل الآيتان : ١١٢ ، ١١٣

(٤) الحج آية : ٤٥

ثم استمر في تلاوة هذه الآيات ، لترى القرآن يلقى بلائمة ، وينعى على الذين إذا ساروا في الأرض ، لا يأخذون من سيرهم عبرة ولا يستخلصون من حال أهلها موعظة ، يقول جل شأنه :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾^(١) فياخير أمة أخرجت للناس .

اقرعوا التاريخ ، وكونوا في قراءتكم معتبرين ، واستخلصوا الدروس ، وكونوا في دروسه مستبصرين ، ونقبوا في بطون العبر ، وكونوا في ذلك مسترشدين ، من قبل أن يأتي يوم لا نملك فيه إلا دموع عيوننا ، وعض بناننا ، ولات ساعة مندم .

لقد جاءت الحملة الصليبية السادسة إلى الشرق الإسلامي ، تريد أيضا استنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين ، كما كانت حال الحملات التي سبقتها ، فقد صارت أنياب الغرب شرسة ضارية تأتي على المسلمين أن تكون لهم كلمة في هذه الأرض المقدسة ، وعلى وجه الخصوص بيت المقدس ، وكانت الحال التي عليها المسلمون ، وقت مجيء هذه الحملة ، تملأ النفس ألماً ، والقلب مرارة ، فأمرء المسلمين في مصر والشام في خلاف محتدم .

فالملك الكامل الأيوبي في مصر ، والملك المعظم في الشام صاحب دمشق وبيت المقدس ، والملك الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط ، قد دبّت بين الجميع ، نار العداوة ، وخطر الفرقة ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، فإن الزحف التتري ، أخذ طريقة إلى بلاد المسلمين ، كالسيل الجارف ، فقد تدفق المغول بقيادة جانكيزخان ، كأنهم الفراش المبثوث ، أو الجرأ المنتشر ، يوجهون الضربات إلى الممالك الإسلامية ، كما يصفهم المؤرخ الأوروبي توماس أونولد في قوله :

« ولقد انساب التتار على أرض المسلمين ، كما تنساب الثلوج من قمم الجبال »

وسقطت أمام زحفهم مملكة خوارزم شاه ، واستمر زحفهم حتى وصلوا إلى شرق العراق ، فارجع البصر في هذه الأحداث الجسام ، خلاف محتدم بين الأمراء ، وعدو جبار يزحف من أقصى الشرق وهم التتار ، وآخر يأتي من الغرب ، وهم الصليبيون ، والأرض التي تدور عليها المعركة ، أرض المسلمين ، ترى ماذا تكون النتيجة ؟

كانت نتيجة مؤسفة ومحنة ، كان الامبراطور الألماني « فردريك الثاني » هو الذي قاد الحملة الصليبية السادسة ، وساعدته العوامل السابقة ، خصوصاً الخلاف المحتدم بين الأمراء ، على أن يسلم إليه بيت المقدس بشروط تجعله مشتركاً ، وهذه الشروط هي :

أ — تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين ، على شرط أن يبقى سور بيت المقدس مخرباً ، ولا يعاد تجديده وبناءه ، وأن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة (جامع عمرو) ويكون الحكم في الرساتيق (القرى) إلى وإلى المسلمين .

ب — يكون على ملك الصليبيين القرى الممتدة على الطريق ، من بيت المقدس إلى مملكة عكا الصليبية .
 ج — يتعهد فريدريك الثانى بمساعدة الملك الكامل ضد خصومه ، سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ، كما يتعهد الامبراطور بالحيلولة دون الامدادات الصليبية إلى الأمراء الصليبيين بالشام مدة عشر سنوات ونصف ، وكان الاتفاق فى ربيع سنة ٦٢٦ هـ . ١٢٢٩ م .
 ومما هو جدير بالذكر ، أن هذا الصلح ، لم يكن مرضياً منه ، لا من المسلمين ولا من الصليبيين ، وقد استغل أعداء الملك الكامل ، هذا الصلح للتشهير به ، فعقدت المجالس العامة فى دمشق ، وبكى الناس لهذا الحادث واستغله أعداؤه ضده .
 وبعد توقيع معاهدة الصلح ، ذهب فريدريك إلى بيت المقدس ، وكان يوماً مشئوماً وظرفاً عصيباً .

عودة بيت المقدس إلى أيدي المسلمين

لما مات الملك الكامل ، تولى ابنه الملك الصالح أيوب حكم مصر من بعده وكان ذلك سنة ٦٣٧ هـ — ١٢٣٩ م وكان حسن التدبير ، يعتبر آخر عظماء سلاطين بنى أيوب ، وكانت له عداوة مع بقية أمراء بنى أيوب ، خصوصاً عمه الملك الصالح اسماعيل ، الذى استولى على دمشق ، وتحالف مع الصليبيين ، وتنازل لهم عن بعض البقاع منها طبرية .
 وكانت قد نزلت قوات صليبية جديدة ، قادمة من فرنسا ، من أشهر رجالها كونت شمبانيا ، وكونت بزيطانيا ، فلم يكن من الملك الصالح أيوب (صاحب مصر) إلا الاستعانة بالقبائل الخوارزمية ، وجرت بينه وبين عمه اسماعيل والصليبيين معارك شديدة ، انتصر فيها الملك الصالح أيوب عليهم جميعاً سنة ٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م ، واسترجع بيت المقدس إلى حظيرة السيادة الاسلامية ، فاستبشر المسلمون بهذا الانتصار ، وفزعت أوروبا منه ، مما كان داعياً إلى إثارة حرب صليبية أخرى .

ملك فرنسا والحملة الصليبية السابعة :

وهكذا كان بيت المقدس ، فطب الرحى الذى تدور حوله الرحب ، وتستعر أوارها ، جاء الغرب لينزعه من أصحابه الحقيقيين ، وهب المسلمون ، ليستعيدوا حقهم فيه ، وهكذا دواليك حتى هب ملك فرنسا لويس التاسع ومعه إخوته الثلاثة ، روبرت دارتو الفونس ، وبواتيه ، شارل دانجو وكثير من الأمراء والأشراف ، وتحركت الحملة إلى قبرص ، حيث حطت الرحال بها ثمانية أشهر ، دارت فيها الاتصالات بين الملك والإمارات الصليبية ، واستقر رأيه أخيراً على أن يتحرك قاصداً مدينة دمياط ، التى سبق أن تحركت إليها الحملة الخامسة سنة ٦١٥ هـ ، وحاصرتها عاماً ، ثم كان مصيرها الغرق فى ماء النيل .

وكان على ملك فرنسا أن ينظر في عاقبة من سبق ، ولكن أعماه حقه الدفين على الاسلام والمسلمين ، فحجبه عن رؤية الحقيقة المجردة ، ونسجت أمام عينيه البغضاء ستارا كثيفا من الضباب ، فأصبح لا يرى وشاء الله له النهاية المخزية ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب .

العقاب .

في سنة ٦٤٧ هـ أقلعت الحملة الصليبية من قبرص في اتجاهها إلى دمياط ، ولكن عاصفة بحرية ، فرقت سفن الأسطول ، وجعلتها تصل إلى سواحل مصر ، في فترات متعاقبة ، وقد كانت مراكب لويس التاسع ، أول السفن التي وصلت إلى دمياط في صفر ٦٤٧ هـ ، وفوجيء سكان دمياط وحاميتها ، بهذا النزول الصليبي ، فاضطربت أحوالهم ودخلهم الرعب ، فأخلوا المدينة ، وفروا تاركين بها الكثير من السلاح والمتاع ، وامتلك الصليبيون مدينة دمياط بدون مقاومة ولا عناء .

ولقد ظل لويس التاسع بمدينة دمياط بعد احتلالها ستة أشهر ، استعدادا للزحف على القاهرة ، وفي هذه الأثناء استعد المسلمون لملاقاته ، وجهزوا جيوشهم لحربه ، يقودهم الملك الصالح ، وتحركوا إلى المنصورة ، حتى يصرفهم عن التوجه إلى القاهرة .

ولكن شاء الله أن توفي الملك الصالح سنة ٦٤٧ هـ . في شهر شعبان ، وكان له جارية تدعى شجرة الدر ، أخفت موته إلا عن خاصته ، حتى لا يدب الفشل في صفوف الجيش ، وأخذت تدبر معهم الأمر ، وتصدر الأوامر باسم الملك الصالح ، ريثما يصل ابنه وولي عهده الملك المعظم تورانشاه ، واستطاعت بذلك حفظ المعسكر الاسلامي من الفوضى والاضطراب ، أما الفرنسيون فقد تحركوا إلى المنصورة ، واقتحمتها إحدى فرقهم ، ولكن أبيدت عن آخرها ، ودارت الحرب بين الفريقين بضراوة وعنف ، خصوصاً بعد ما قدم الملك تورانشاه بن الملك الصالح ، وشاء ربك أن يقع الفرنسيون في موقع غاية في الحرج ، اذا كانوا محصورين بين فرع النيل ، وبحيرة المنزلة ، والبحر الصغير ، ورأى الملك توران شاه بثاقب فكره ، أن يقطع الامدادات التي تأتي من الصليبيين من دمياط ، فنقل سفناً مفككة على ظهور الأبل وأنزلها بفرع النيل ، بين دمياط والعساكر الصليبية ، وبذلك سد عن الصليبيين منفذهم الوحيد ، وجرت بين الأسطول المصري ، والأسطول الصليبي معارك كبيرة ، انتهت بانتصار الاسطول المصري والفتك بثلاثين سفينة صليبية ، واشتد الضغط على الصليبيين ، فقل زادهم ، وانقطع مددهم ، فتفشيت فيهم الأمراض ، وناهم الجوع ، وآباد منهم المسلمون نحو ثلاثين ألفاً ، وضائق الأرض على الصليبيين ، فأخذوا يخبرون في المصالحه ، على أن يتخلوا عن دمياط ، مقابل استرجاعهم لبيت المقدس .

ولكن توران شاه أبى هذا ، وأيقن الصليبيون بصمود القوات الاسلامية ، فدخلهم الاضطراب ، وعمدوا إلى إخراج أخشابهم وخيامهم ، وتشتت جموعهم ، فذهب معظم الجيش تجاه دمياط ، أما لويس التاسع ، فإنه التجأ إلى تل منيه عبد الله قرب المنصورة ، ولما احتوشته القوات الاسلامية ، وأيقن بالهلاك ، طلب

الأمان فأمنه الطواشي محسن الصالحى ، وكان مع لويس التاسع نحو خمسة آلاف جندى ، ثم اقتيد لويس التاسع إلى مدينة المنصورة ، حيث اعتقل فى دار القاضى إبراهيم لقمان ، ووكل به الطواشى صبيح المعظمى فى شهر المحرم سنة ٦٤٨ هـ .

نهاية الحملة الصليبية السابعة .

لما اتجهت بقية الصليبيين إلى دمياط ، سارت إليهم القوات المصرية ، والتقت بهم بفارسكو وهزمتهم ، وانتهت بذلك المقاومة الصليبية ، ثم افتدى الملك لويس التاسع رقبته وبقية من جيشه ، بغرامة مائة مقدارها خمسمائة ألف من العملة الفرنسية اذا ذاك ، وتسليم دمياط بلا قيد ولا شرط ، واتجه لويس التاسع بعد ذلك إلى عكا ، حيث قضى بها أربع سنوات ، كانت له أثناءها اتصالات بقوات التتر ، الذين أخذوا يغيرون على الشرق الاسلامى ، ويكيلون له ضربات قاسمة ، ترى ماذا كان يفعل لويس التاسع أيام أسره ، لقد أخذ يجول ببصره فى أرجاء الشرق ويقلب الأحداث بين يديه ، وينحل مخزون فكره ، ويقدح زناد رأيه ؟ ما هو العامل البديل عن الحملات الصليبية العسكرية ، التى باءت بالفشل الذريع أمام جيوش المسلمين ؟ كلما فشلت حملة تبتها حملة أخرى ، تتجرع نفس الكأس ، وتذوق نفس المصير ، وبعد أعمال فكر ، واستخلاص رأى ، وضع لويس التاسع دستوراً ، لا يزال الاستعمار الغربى يسير على منهجه ، ويترسم خطاه إلى يومنا هذا واقتضت نصوص هذا الدستور ما يلى : —

- ١ — القيام بحملات مستمرة فى الدس والوقعة ، وإذكاء نار الفتنة بين أمراء العرب .
 - ٢ — العمل على السيطرة بشتى الطرق وتنشيط حركات التبشير .
 - ٣ — إثارة الحرب الداخلية والغارات الطائفية .
 - ٤ — إقامة قاعدة تمتد من غزة إلى لواء الاسكندرونة .
- وهكذا استطاع ملك فرنسا ، قبل أن يغادر الديار المصرية ، أن يخرج بهذه الحصيلة ، التى يتبع خطاها الاستعمار الغربى فى حربه للإسلام والمسلمين ، فهل غير الاستعمار من هذه المخططات شيئاً ؟ إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والأحداث تشهد ، أنه ما تغير من هذه المخططات شيء ، إذاً فأين المفر ؟ وكيف الوصول ؟ ومتى النجاة ؟ لا مفر إلا بالرجوع إلى الله ، والوصول أكيد ، اذا ما استيقظت العقيدة فى القلوب ، والنجاة قريبة ، يوم يفيق المسلمون من غفوتهم ، ويستيقظون من كبوتهم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾^(١)

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾^(٢)

(١) التوبة آية : ١١٩

(٢) الحج آية : ٤٠

لقد انتهت الحملة الصليبية السابعة ، مخلفة وراءها حملة أخرى ، وهى الثامنة ، ولقد كان من المواقف الجليلة للمماليك ، أن المملوك القائد الظاهر بيبرس ، كرس جهاده دائماً على محاربة الصليبيين ، وتطهير أرض المشرق الاسلامى منهم ، حتى لم يبق لهم بعد موته ، إلا إمارتان هما طرابلس وعكا .

ولقد كان الخطب جسيماً ، والخطر فادحاً ، عندما وقعت الأمة الإسلامية بين خطيرين داهمين وطاحنين ، هما الخطر المغولى ، الذى كان يهدد فارس والعراق ، والخطر الصليبي الذى بقى فى طرابلس وعكا ، ولكن حكمة الله بالغة ، وعظمته مطلقة ، فهو منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، إليه يرجع الأمر كله ، وله مقاليد السموات والأرض ، ففى الوقت الذى تحالف فيه الصليبيون مع المغول ضد الأمة الإسلامية ، التى لم تفق بعد من ضربات الصليبيين ، واتفق هؤلاء وأولئك عند هدف واحد ، هو القضاء على الاسلام ، نرى فى هذه الظلمات الحالكة ، وفى هذا البحر اللجى ، الذى يغشاه موج من فوقه ، موج من فوقه سحاب ظلمات ، بعضها فوق بعض ، نرى أن الإسلام العظيم بسرره العجيب ، وقوته الذاتية ، يغزو قلوب جماعة من المغول ، عرفوا بتتر القفجاق بزعامه بركة خان ، وفى هذه الأثناء ، نرى الظاهر بيبرس ، يتعاون مع هذه الجماعة المسلمة من التتار ، فتتحد الكلمة كلمة الاسلام ضد التتار ، الذين لم يسلموا ، ويقع الصليبيون فى سوء مادبروا ، بعد ما خيب الله ما كانوا يأملون ، وبعد ما اتحدت الكلمة بين المماليك والتتار المسلمين ، كان فى هذه الوحدة قوة دافعة ، وطاقات كبرى ، جعلت الأحقاد الصليبية ، تنقلب على أعقابها .

وفى عهد السلطان قلاوون فتحت طرابلس ، حتى اذا اعتلى ابنه الأشرف خليل عرش مصر ، سقطت مدينة عكا فى أيدي المسلمين سنة ٦٩٠ هـ — ١٢٩١ م ، وكان سقوطها مسجلاً لنهاية استقرار الصليبية فى البلاد الشامية ، بعد مضى قرنين من الزمان على اندلاع الحروب الصليبية فى المشرق الاسلامى من سنة ٤٩٠ هـ إلى سنة ٦٩٠ هـ .

وقبل أن ينتهى أمر الصليبيين بالشرق ، خرجت حملة صليبية من فرنسا ، هى الحملة الثانية « لسان لويز » ملك فرنسا ، وهى الحملة الثامنة من الحملات الصليبية ، التى وجهت نحو البلاد الشامية ، ولكن هذه الحملة بدلاً من أن تتجه إلى المشرق ، حسب القصد الذى دعاها ، فإنها بتوجيهات ملك صقلية ، اتجهت إلى تونس ، ونزلت بمدينة قرطاجنة الأثرية ، وكان على تونس السلطان المنتصر بالله الحفصى ، ولم تجر بين الطرفين معارك ذات بال ، فقد بقى الصليبيون حول قرطاجنه واكتفى الحفصيون بمحاصرتهم ، وصادف أن مات « سان لويز » بإصابته بوباء ، فمال بعد ذلك كل من الصليبيين والحفصيين ، إلى الصلح وعقد اتفاق بين الطرفين ، وأقلع الصليبيون ، ورجعوا من حيث أتوا ... واكتفوا من هذه الحملة بما وقع لهم تحت خرائب مدينة قرطاجنة ، وكانت هذه الحملة الثامنة ، هى خاتمة الحملات الصليبية الغادرة الثمان ، التى اتخذت أرقاما عددية .

اللقاء بين الاستعمار والصهيونية :

ترتبط مصالح الاستعمار الغربى بوجود إسرائيل ، فوجود الاستعمار مرتبط بوجود إسرائيل ، ووجود إسرائيل مرتبط بالاستعمار العالمى ، فكلاهما تلتقى مصالحه ، رغم تفاوت درجات كل منهما .

والحديث فى هذا الموضوع وفى تلك الفترة الحاسمة ، حديث الصراع الدموى العنيف ، الذى يفرض نفسه على صوت الخطر ، الذى هبت ناره ، واندلع فى كل البقاع الاسلامية ، خصوصاً بعد الحرب الثالثة ، التى دارت رحاها بين القوى الصهيونية ، والقوى العربية ، وكان من نتائجها أن دخلت إسرائيل بيت المقدس ، واحتلت أجزاء شاسعة من أرض المسلمين والإسلام ، ولعل دوى الألباب الهاجرة ، وأولى الأفتدة المستتيرة ، يرجعون إلى الحملات الغربية التى تحركت صوب الشرق الاسلامى ، يقودها ملوك أوربا وأمراؤها ، ليستنقذوا بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وظل البيت فى حيرة يغتصبه الصليبيون مرة ، ويستعيدة المسلمون أخرى ، وهكذا قامت إسرائيل بنفس الدور الذى قام به أسلافها من جيوش أوروبا .

يحدثنا التاريخ أنه بعد أن وصل الاستعمار الغربى إلى قمته فى القرن التاسع عشر ، بدأت تواجهه منذ نهاية هذا القرن ظاهرة محاولة اليقظة ، لنفض هذا الكابوس الذى جثم على صدر الأمة ، ونخر فى عظامها ، وفتر فى عضدها ، وفرق كلمتها ، وشتت شملها ، وأوقد نار الفتنة بين أبنائه ، ولا يخشى الغرب إلا يقظة أهل الشرق ، فدعا هذا الأمر أقطاب الاستعمار الغربى ، للنظر فى شأن الشرق ، واجتمع الأقطاب من بريطانيا وفرنسا والبرتغال — أسبانيا — إيطاليا — هولنده .

وقد كشفت توجيهات تتكون وتتسع ، وتقوى ، ثم تستقر إلى حد ما ، ثم تنحل رويداً ، ثم تزول ، والتاريخ ملئ بمثل هذه التطورات ، وهو يتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة ، فهناك امبراطوريات روما وأثينا والهند والصين ، وقبلها بابل وأشور والفراعنة ، وغيرهم ، فهل لديكم أسباب أو وسائل ، يمكن أن تحول دون السقوط والإنهيار ، وتؤخر مصير الاستعمار الأوروبى ، وقد بلغ الآن الذروة ، وأصبحت أوروبا قارة قديمة . استنفدت مواردها ، وشاخت معالمها ، بينما العالم الآخر لا يزال فى شبابه ، يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية ، هذه مهمتكم أيها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤها وسيطرتنا .

اقتراحات لجنة باترمان :

وعلى ضوء هذه التوجيهات ، درست اللجنة ، كيفية ووسائل المحافظة على الامبراطوريات الاستعمارية ، وانتهت فى تقريرها ، الذى صدر سنة ١٩٠٧م ، وعرف باسم تقرير باترمان إلى مايلي : —

أولاً : استبعاد أى خطر على الاستعمار من المستعمرات الحرة ، مثل كندا ، واستراليا ، وجنوب أفريقيا ، والتقليل من خطر استقلال الهند والملايو ، والهند الصينية ، لأن المشاكل الدينية والعنصرية والطائفية . ستشغل هذه البلدان فترة طويلة ، بعد الاستقلال ، والتقليل كذلك من خطر المستعمرات فى إفريقيا والمحيطين الأطلسى والهادى ، بسبب انعزالها .

ثانيا : (وهذا هو الجزء المهم في التقرير) أن اللجنة ترى أن الخطر على الاستعمار ، يكمن في منطقة الشرق الأوسط ، فهذه المنطقة مهد الحضارات والديانات ، ويسكنها شعب ، تتوافر له من وحدة تاريخية ، ووحدة لغته وآماله ، كل مقومات التجمع والترابط ، علاوة على ثرواته الطبيعية ونزعة أهله إلى التحرر . ولذلك ولمواجهة هذا الخطر ، اقترحت اللجنة على الدول ذات المصالح المشتركة ما يلي :

١ — السيطرة على البحر المتوسط ، لأنه الشريان الحيوى للاستعمار والجسر الذى يربط بين الشرق والغرب .

٢ — استمرار وضع هذه المنطقة الجزأ ، وبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك ، ومحاربة اتحاد هذا الشعب وارتباطه ، بأى نوع من أنواع الارتباط الفكرى أو الروحى أو التاريخى .

٣ — فصل الجزء الأفريقى من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوى ، بإقامة حاجز بشرى قوى وغريب ، فى منطقة الجسر البرى ، الذى يربط آسيا وأفريقيا ، بحيث يشكل فى هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار ، وعداوة لسكان المنطقة ، ونتيجة لهذا المخطط الاستعمارى ، كان طبيعياً أن يحدث اللقاء بين الحركة الصهيونية ، وبين الاستعمار ، فقد وجد الاستعمار أهداف هذه الحركة الصهيونية الحاجز البشرى ، الذى يؤمن له مطامعه ومستقبله فى المنطقة ، ووجدت الصهيونية فى الاستعمار مثلاً فى بريطانيا السند الذى يمكن أن تعتمد عليه ، لتحقيق مخططاتها .

ولم يجد الاستعمار صعوبة فى التفكير فى اختيار هذا الحاجز البشرى الغريب ، فقد كانت الصهيونية العالمية فى ذلك الوقت ، تبحث لليهود عن وطن ، يقيمون فيه ، ومن هنا كان اللقاء بين الاستعمار والصهيونية ، وخاصة بعد مؤتمر « بال » الذى عقد فى مدينة سويسرا سنة ١٨٩٧ م . فما هى الصهيونية ؟ من الناحية اللغوية ، فإن كلمة الصهيونية مشتقة من كلمة صهيون ، وهو جبل يشرف على مدينة القدس فى فلسطين ، قدسه اليهود بعد أن بنى الملك سليمان هيكله هناك ، وقد ظلت هذه الكلمة تطلق على حنين اليهود ، وتطلعهم إلى العودة إلى هذا المكان ، بعد تشردهم منه منذ الأسر البابلى ٥٨٦ ق . م ، كما ظلت ترمز إلى تطلع اليهود إلى هذه البقعة ، من أرض فلسطين ، هذا التطلع ، الذى كان يتخذ صورة البكاء على ماضى اليهود ، ومملكتهم القديمة وهيكلهم ، ظلت كذلك كلمة الصهيونية حتى أواخر القرن التاسع عشر حيث :

- ١ — دعى موريش هتيس ١٨٦٢ إلى اعتبار أو رشليم مركزاً لليهود فى كتابه (روما وبيت المقدس) .
- ٢ — وانشئت جمعيات عشاق صهيون فى بروسيا ١٨٨٠ ، ثم توحدت هذه الجمعيات سنة ١٨٨٤ .
- ٣ — ودعا ليوبنسكى ١٨٨٢ إلى ضرورة ايجاد وطن قومى لليهود .
- ٤ — ثم جاء تيودور هرتزل فأصدر سنة ١٨٨٥ كتاب (الدولة اليهودية) الذى طالب فيه بضرورة قيام دولة يهودية .

ولم يكتف هرتزل بذلك ، بل لقد خطا خطوة أخرى عملية ، لتحقيق هدفه ، وذلك بدعوته إلى مؤتمر « بال » الذى عقد فى مدينة سويسرا فى أغسطس ١٨١٧ م .

مؤتمر بال :

- يعتبر هذا المؤتمر أول مؤتمر صهيونى عالمى ، وقد اشترك فيه أكثر من ٢٠٠ مندوب ، يمثلون اليهود فى جميع أنحاء العالم ، وفى هذا المؤتمر صدر تعريف للصهيونية ، بأنها حركة ترمى إلى انشاء وطن للشعب اليهودى شرعى ومعترف به فى أرض فلسطين ، كما حددت أيضا وسائل تحقيق هذا الهدف على النحو التالى :
- ١ — العمل بكل الوسائل على استيطان فلسطين ، بواسطة عمال زراعيين وصناعيين من اليهود .
 - ٢ — تنظيم الشعب اليهودى بواسطة منظمات محلية ودولية ، تلائم الغرض ، وتتفق مع قوانين البلاد ، التى يعيش فيها اليهود .
 - ٣ — تقوية الوعي اليهودى القومى .
 - ٤ — اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على السند الضرورى من الدول العظمى .

الصهيونية حركة سياسية عنصرية :

وقبل ان نستطرد فى شرح خطوات تنفيذ قرارات مؤتمر « بال » وتوضيح كيفية التنسيق بين مخططات كل من الصهيونية والاستعمار فى المنطقة ، فلا بد من وقفة سريعة لتحديد ماهية الحركة الصهيونية ، وذلك لتجريد هذه الحركة من كل الشعارات الزائفة ، التى حاول قادة الصهيونية إلصاقها بها .

قالوا : إن الصهيونية تحقيق لحق اليهود التاريخى فى فلسطين ، وهذا الحق تكذبه وقائع التاريخ نفسها .

فحكم داود وسليمان الذى بنى عليه الصهيونيون ادعاءهم بحقهم فى فلسطين ، لم يدم أكثر من ٧٣ سنة فقط (من ٩٢٧ - ١٠٠٠ ق . م) وحكم اليهود فى فلسطين لم يستمر سوى ٤١٤ عاماً فقط ، ولم يكن هذا الحكم مستقلاً كاملاً ..

هذا بيانها :

- ١ — حكم الرومان هذه البلاد نحو ٦٧٧ سنة .
 - ٢ — حكمها مصر نحو ٦١٥ سنة .
 - ٣ — ثم حكمها العرب نحو ٤٤٧ سنة ، وحكمها المسلمون من سلجوقيين ومماليك وعثمانيين حوالى ٦٩٨ عاماً ، تضاف إلى حكم العرب فيكون المجموع ١١٤٥ عاماً .
- وقالوا : ان الصهيونية رد فعل لاضطهاد اليهود :
- وهذا الزعم ترفضه أيضا ، لمبررات كثيرة ، أبرزها أن انبثاق هذه الحركة ، وتبلورها قد جاء فى أعقاب

رياح التحرر والمساواة ، التي كان يمكنها أن تساعد على إذابة اليهود واندماجهم في المجتمعات ، التي يقيمون فيها ، لو كانت لديهم النية الصادقة لهذا الاندماج ، ولو استطاعوا أن يتخلصوا من خرافة تميزهم عن بقية الشعوب ، وما عرف عنهم من خيانة ، وصفات ذميمة ، ساعدت على نبذهم وعلى تخوف كل الشعوب منهم .

وقالوا أيضا : إن الصهيونية تحقيق لنبوءات اليهودية القديمة في العودة إلى فلسطين . والأدلة كثيرة لكشف مدى التضليل في هذا الزعم ، ولكن يكفي فقط أن الزعماء الصهيونيين وعلى رأسهم هرتزل نفسه ، كانوا مستعدين لإقامة الوطن القومي في أى مكان آخر غير فلسطين .. في الأرجنتين .. أو غنده - قبرص - استراليا - الإكوادور - بيرو .

ونتيجة لما تقدم ، تظهر لنا حقيقة الصهيونية كحركة سياسية عنصرية رجعية ، قامت لخدمة الاحتكارات الاستعمارية ، واستثارت النعرة العنصرية في اليهود ، لتضمن ولاءهم الأعمى لها . وإذا كانت هذه الحركة ، قد فضلت أن يكون الوطن القومي لليهود في فلسطين ، فإن ذلك يرجع إلى دافعين رئيسيين :

الدافع الأول :

استغلال الشحنة العاطفية والدينية عند اليهود المرتبطة بالأرض المقدسة ، لتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين ، وتنفيذ مخططات الصهيونية .

الدافع الثاني :

إدراك الزعماء الصهيونيين منذ الوهلة الأولى ، أن اختيار فلسطين بما لها من موقع استراتيجي ، وأهمية تجارية لوقوعها في الطريق المؤدى إلى الهند ، والذي كان يعد أهم الطرق التجارية في العالم القديم ، سيلقى تأييد وتشجيع الدول الاستعمارية ، التي كانت تتحكم في هذه المنطقة ، والتي كان من مصلحتها أن تساهم في تنفيذ المخطط الصهيوني لحماية مصالحها ، وهذا ما أوضحه ناحوم جولدمان بقوله في خطاب ألقاه في مدينة مونتريال بكندا عام ١٩٤٧ :

(كان ممكناً لليهود أن يحصلوا على أوغندا ، أو مدغشقر ، أو غيرها ، ليقيموا في أى منها وطناً يهودياً ، ولكن اليهود لا يريدون سوى فلسطين ، لا لاعتبارات دينية ، أو بسبب إنارة التوراة إلى فلسطين ، بل لأن فلسطين ، هي ملتقى الطرق بين أوروبا وآسيا وأفريقيا ، وأنها هي المركز الحقيقي للقوة السياسية العالمية ، ولأنها المركز العسكرى الاستراتيجي للسيطرة على العالم) .

وهذا التفسير يوضح لنا السبب في تلاقى الصهيونية مع مخططات الاستعمار ، التي وضحت في قرارات لجنة باترمان .

خطوات تنفيذ المخطط الاستعماري الصهيوني :

وبدأ تنفيذ المخطط الاستعماري الصهيوني المشترك ، لإقامة هذا الحاحز البشرى الغريب في المنطقة ،

وقد تم تنفيذ هذا المخطط على مرحلتين رئيسيتين ، تولت قيادة الأولى منها بريطانيا ، أما المرحلة الثانية فقد تزعمتها الولايات المتحدة الأمريكية .

دور بريطانيا :

بدأت معالم هذا الدور ، تتضح خلال الحرب العالمية الأولى ، ففي الوقت الذي كانت وسائل مكماهون إلى الشريف حسين ، تعد العرب بمنحهم الاستقلال بعد انتهاء الحرب ، كانت بريطانيا تتقاسم مع فرنسا باتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ م السيطرة على بلاد المنطقة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لقد كان هناك مقابلا قدمته بريطانيا للدور الذي قامت به الحركة الصهيونية ، لمساندة قضية الحلفاء ، والمساهمة في تمويل الحرب والضغط على الولايات المتحدة ، لدخولها إلى جانب الحلفاء ، هذا الضغط الذي تزعمه اليهودي لويس اندير رئيس المحكمة الأمريكية العليا ، والذي كان الرئيس الأمريكي ويلسون يقتنع بكل ما يشير به عليه .

وكان هذا المقابل ، هو وعد بلفور ، الذي صدر في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ والذي أعطت به بريطانيا أرضاً لا تملكها لمن لا يستحقها .

ثم استطاع الاثنان بالقوة والخديعة ، أن يسلبا صاحب الحق الشرعى حقه فيما يملكه وفيما يستحق . وتناست بريطانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وعودها للعرب ، وبدأت تركز كل اهتمامها في أن تضع وعد بلفور موضع التنفيذ .

ولم يكن غريباً إذاً ، أن تحول بريطانيا مهمة الانتداب على فلسطين ، من تأهيل سكان فلسطين للحكم الذاتي ، إلى التمهيد لقيام الوطن القومى لليهود في فلسطين .

ولم يكن غريباً أيضاً ، أن يكون أول مندوب لها في فلسطين ، هو الصهيوني هربرت صمويل ، ولم تجد بريطانيا من الشذوذ أن تكون حصيلة انتدابها على فلسطين هي :

بالنسبة لعدد اليهود :

ارتفع من ٥٠,٠٠٠ سنة ١٩١٨ م إلى ٦٠٠,٠٠٠ سنة ١٩٤٧ .

بالنسبة للملكية اليهود للأراضي

ارتفعت من ٢,٥ ٪ سنة ١٩١٨ إلى ٦ ٪ سنة ١٩٤٦ بالإضافة إلى ٤٦ ٪ من أراضي الدولة منحها بريطانيا للوكالة اليهودية ، بعضها بدون مقابل ، وبعضها بثمان رمزى .

بالنسبة لتمكين اليهود في فلسطين :

— جعلت بريطانيا اللغة العبرية في مقدمة اللغات الرسمية في فلسطين .

— عينت كثيراً منهم في دوائر الحكومة .

— اشتركت الوكالة اليهودية في حكم البلاد .

— منحت اليهود كثيراً من الامتيازات للاستيلاء على المراكز الرئيسية للاقتصاد الفلسطيني .

بالنسبة لتنظيم اليهود عسكرياً :

١ — ساعدت بريطانيا اليهود ، على تهريب الأسلحة ، وتخزينها في المستعمرات .

٢ — كما تولى بعض الاخصائين البريطانيين ، تدريبهم على حرب العصابات .

٣ — وفي ١٩٤٦ بلغ قوات اليهود .

٦٢,٠٠٠ في جيش المهجانة لديهم ١٤,٤٥٠ قطعة سلاح .

٦,٠٠٠ في عصابة الأرجون .

٠,٣٠٠ في عصابة شتريد .

٢,٠٠٠ في قوة البوليس .

دور الولايات المتحدة :

أظهرت الولايات المتحدة تأييدها ، لفكرة الوطن القومي لليهود ، منذ صدور وعد بلفور ، وقد استغلت الحركة الصهيونية ، التنافس بين بريطانيا وواشنطن ، في محاولة كسب ود هذه الحركة ، والتقرب إليها لكي تصل بسهولة إلى تحقيق مطامعها .

وبعد أن استنفدت الصهيونية ، معظم ما كانت تأمل فيه من بريطانيا بدأت تركز نشاطها في الولايات المتحدة ، بعد قيام الحرب العالمية الثانية ، وساعدها على ذلك أن الولايات المتحدة ، كانت في ذلك الوقت ، قد أخذت تنزع العالم الرأسمالي ، وتبدى اهتمامها بمنطقة الشرق الأوسط ، كما أخذت احتكاراتها ، تتطلع إلى هذه المنطقة ، وخاصة للمشاركة في عملية نهب البترول العربي ، وقد برز دور الولايات المتحدة واضحاً فيما يلي :

١ — المناورات والضغط التي تمت في الأمم المتحدة ، لإقرار مشروع التقسيم ففي الأمم المتحدة وبين جنات هذه الهيئة الدولية ، بدأت مرحلة جديدة من المناورات ، لخدمة المخططات الاستعمارية ، فقد كان من المقرر ان يطرح مشروع التقسيم على الأمم المتحدة ، للاقتراع في ٢٦ نوفمبر ، ولكن أجل هذا الاقتراح إلى يوم ٢٩ نوفمبر للخوف من عدم إمكان حصول المشروع على الأغلبية المطلوبة .

وخلال هذه الأيام الثلاثة ، بذلت الصهيونية العالمية كل أساليب الضغط والمناورات ، وركزت كل ثقلها ، لكي تكسب هذه الجولة ، في هذا المجال الدولي ، وكرست الولايات المتحدة كل جهودها ونفوذها ، للهدف نفسه ، وكانت نتيجة ذلك صدور قرار الأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، بتقسيم فلسطين بأغلبية ٣٣ صوتاً مقابل ١٣ صوتاً ، وامتناع دول عن التصويت ، وقد كانت المناورات والضغط الأمريكية ، محل انتقاد وهجوم ، حتى من بعض الشخصيات الأمريكية ، ويكفي ما قاله الكاتب الأمريكي ميلر بوروز : من أن اقرار التقسيم في الولايات المتحدة ، يقع على عاتق حكومتنا ، فهي التي فرضت هذه

النتيجة فرضاً ، بعد أن لجأت دون حياء أو خجل إلى اصطناع سياسات القوة ، التي انقضت عهدها ، وكان القرار قاضياً على كل ما للعالم من ثقة بالولايات المتحدة ، والأمم المتحدة نفسها .

٢ — الاسراع في الاعتراف بإسرائيل :

كان طبيعياً أن يثور العرب على قرار التقسيم ، الذي قابله اليهود ، وخاصة بعد أن منحهم النقب ، فأعطى لدولتهم مخرجاً على البحر الأحمر ، كما ضمن لهم امكانيات توسيع رقعة دولتهم ، واستيعاب مزيد من المهاجرين ، وقد كانت نتيجة هذه الثورة ، أن ثار النقاش في الأمم المتحدة ، حول كيفية تنفيذ قرار التقسيم ، بل لقد ظهر اقتراح جديد بوضع فلسطين تحت الوصاية ، وأحست الصهيونية بخطورة الموقف ، الذي كان محتملاً أن يهدد بعض مكاسبها ، التي حصلت عليها من قرار التقسيم ، ولذلك تحركت الحركة الصهيونية بسرعة ، وأجبرت بريطانيا على تقديم موعد انسحاب قواتها من أغسطس ١٩٤٨ إلى ١٤ مايو ١٩٤٨ .

— وفي منتصف ليلة ١٥ مايو ، أعلن انتهاء الانتداب البريطاني ، وبعدها أعلن قيام إسرائيل ، وكانت الولايات المتحدة أولى الدول التي اعترفت بهذا الطغيان ، والكيان البشري الغريب ، ومن المفارقات أن يصدر هذا الاعتراف في الوقت الذي كانت الأمم المتحدة ، تناقش فيه الاقتراح بغرض الوصاية على فلسطين .

٣ — الاشتراك مع بقية القوى الكبرى في مساندة إسرائيل :

وهذه المساندة ، هي التي مكنت إسرائيل من أن تستأنف الحرب بعد الهدنة الأولى التي (كانت العامل الرئيسي في انقاذ اليهود والحيولة دون سحقهم على أيدي الجيوش العربية) كما ذكر الكاتب البريطاني « كينيت بيلبي » رغم كل المعوقات ، التي كانت تحد من حرية هذه الجيوش في الحركة ، ورغم تأمر الرجعية الحاكمة في العالم العربي ، ضد قضية فلسطين ، وكانت هذه المساندة أيضاً ، هي السبب في الضغط على العرب ، لعقد اتفاقيات الهدنة الثانية ، ثم كانت السبب في قبول إسرائيل في الأمم المتحدة في ١١ / ٥ / ١٩٤٩م وفي هذا التاريخ تحقق ما نادى به لجنة كامبل باترمان ، وانضم إلى المجتمع الدولي كيان غريب ، اشتركت في إقامة مخططات صهيونية عنصرية ، ومخططات استعمارية رجعية ، وكان ضحية هذه المخططات شعب فلسطين ، الذي شرد أكثر من ٩٠٠,٠٠٠ ألف من أبنائه ، واغتصب أرضه وممتلكاتهم ، وحرّم من وطنه ، ورغم مضي من ٤٠ عاماً على هذه الجريمة ، فما زالت الأمم المتحدة عاجزة عن أن تعيد للفلسطينيين حقوقهم ، وأن تجبر إسرائيل على احترام وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة في هذا الشأن .

وقد استمرت الولايات المتحدة إلى تدعيم اقتصاديات إسرائيل ...

فهل تغير الغرب عن الخطوط العريضة ، التي رسمها لويس التاسع ، وهل كف عن اطماعه وعدوانه للشرق ، الواقع أنه لم يتغير ، وإذا كان الأمر كذلك ، فواجبنا نحن أن نغير ما بأنفسنا ، حتى يغير الله ما حل بنا حيث يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغِيرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾^(١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾^(٢) ... أَهـ

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ ، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم .

بعد أن ذكر سبحانه جزاء المجاهدين في سبيل الله أعقبه بجزاء الكافرين فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ ﴾ قال ابن عباس أى بعداً لهم ، وقال ابن زيد شقاء لهم ، وقيل إن التعس : الانحطاط والعتار ، قال ابن السكيت التعس : أى يخر على وجهه ، والنكس أن يخر على رأسه . قال والتعس أيضاً الهلاك ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تعس عبد الدينار ، والدرهم والقטיפه والخميصة ، إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرضى » أخرجه البخارى . وفي رواية أخرى « تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » أخرجه ابن ماجه^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى أبطلها ، لأنها كانت في طاعة الشيطان كقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾^(٤) وكقوله تعالى في آخر السورة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ ﴾^(٥) ثم يبين سبحانه سبب ذلك الاضلال فقال :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ من الكتب والشرائع ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ التى عملوها في الدنيا وأصلهاهم سعيراً ، فكل ما عملوه في الدنيا من صالح الأعمال ، فهو باطل ، لعدم الإيمان الذى هو أساس قبول الأعمال .

(١) الرعد آية : ١١١

(٢) محمد آية : ١٧

(٣) أخرجه البخارى ح ٨ ص ١١٥ كتاب الرفاق ط الشعب وابن ماجه ح ٢ ص ١٣٨٥ برقم ٤١٣٥ كتاب الزهد

(٤) الفرقان آية : ٢٣

(٥) محمد آية : ٣٢

دروس وعبر

قال تعالى :

* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٣﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكُنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٤﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوهُ أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ﴿١٧﴾ وَلِلَّذِينَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آهَتُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٩﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿٢٠﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿٢١﴾

معاني المفردات

﴿ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ كثير من القرى ، ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ أى حنقها ، ﴿ آسِن ﴾ أى متغير الطعم والريح ، لطول مكثه ، ﴿ مصفى ﴾ أى لم يخالطه الشمع ، ولا فضلات النحل ، ولم يمت فيه بعض نخله كعسل الدنيا ، ﴿ حمياً ﴾ أى حاراً ، ﴿ أمعاءهم ﴾ الأمعاء : واحداً معها ﴿ بالفتح والكسر ﴾ وهو ما فى البطون من الحوايا . ﴿ آنفاً ﴾ أى : قبيل هذا الوقت ، ﴿ آتاهم ﴾ أى ألهمهم ﴿ بغتة ﴾ أى فجأة ، ﴿ الإشرائط ﴾ العلاقات ﴿ فأنى لهم ﴾ أى كيف لهم ، ﴿ ذكراهم ﴾ أى تذكرهم ﴿ متقلبكم ﴾ أى تقلبكم لأشغالكم فى الدنيا ، ﴿ ومثواكم ﴾ أى مأواكم فى الجنة أو النار .

يستهنئون ﴿١﴾ وكقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ (٢).

ثم يبين سبحانه السبب في حلول أمثال هذه العاقبة بقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ أى هذا الذى فعلنا بهم من التدمير والهلاك ، ونصر المؤمنين وإظهارهم عليهم ، بسبب أن الله ولى من آمن به وأطاع رسوله ، وأن الكافرين لا ناصر لهم ، فيدفع ما حل بهم من العقوبة والعذاب ونفى المولى عنهم هنا لا يخالف إثباته ، في قوله تعالى : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ لأن المراد به هناك المالك لأموارهم ، المتصرف في شئونهم . قال قتادة : نزلت هذه الآية يوم أحد والنبي ﷺ في الشعب إذ صاح أبو سفيان صخر بن حرب ، رئيس المشركين يوم أحد ، حين سأل عن النبي ﷺ ، وعن أبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما فلم يجب ، وقال أما هؤلاء فقد هلكوا ، فأجابه عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقال : كذبت ياعدو الله ، بل أبقى الله لك ما يسوءك ، وإن الذين عدت لأحياء ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مثله لم آمر بها ، ولم تسؤنى ذهب يرتجز ويقول : اعل هبل اعل هبل . فقال رسول الله قولوا « الله أعلى وأجل » ثم قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ « ألا تجيبوه ؟ » قالوا وما نقول يا رسول الله ؟ قال قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ .
كقوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد ﴾ (٣) وكقوله سبحانه ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ (٤).

وقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ أى والذين جحدوا بالله وكذبوا رسوله ﷺ ، وتمتعوا في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية ويأكلون فيها غير مفكرين في عواقبهم ولا معتبرين بنعم الله فمثلهم مثل البهائم ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما في غيرهم . وثبت في الصحيح ﴿ المؤمن يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء ﴾

(١) الروم الآيتان : ٩ ، ١٠

(٢) غافر الآية : ٨٢

(٣) سورة الحج آية : ١٤

(٤) سورة الحج الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نعى سبحانه على الكافرين مغبة أعمالهم ، وأن النار مثوى لهم — أردف هذا أمرهم بالنظر في أحوال الأمم السالفة ورؤية آثارهم ، لما للمشاهدات الحسية من آثار في النفوس ، ونتائج لدى ذوى العقول إذا تدبروها واعتبروا بها . ثم يبين سبحانه الفارق بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين ، في الاهتداء والضلال في الدنيا وفي الآخرة ذكر الفارق بينهما في مرجعهما ومآلهما ، وبعد أن ذكر حال المشركين وبين سوء مغبتهم — أردف هذا بيان أحوال المنافقين ، الذين كانوا يحضرون مجالس الرسول ، فيسمعون كلامه ولا يعونه ، ومن ثم تشاغلوا عن سماع كلامه ، واقبلوا على جمع حطام الدنيا ، ثم أعقبه بذكر حال الذين اهتدوا ، ثم عنف أولئك المكذبين ، وذكر أن عليهم أن يراعوا قبل أن تجيء الساعة ، التي بدت علاماتها بمبعث محمد ﷺ ، والذكرى لا تنفع حينئذ ، ثم أمر الرسول بالثبات على ما هو عليه من وحدانية الله ، والاستغفار والدعاء للمؤمنين والمؤمنات ، والله بكل شيء عليم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾

أى أفلم يسر هؤلاء المكذبون بمحمد ﷺ ، والمنكرون ما أنزلنا من الكتاب — في الأرض فيروا نقمة الله التي أحلها الله بالأمم الغابرة والقرون الخالية ، حين كذبوا رسلهم كعاد وثمود ، ويتعظوا بذلك ، ويحذروا أن نفعل بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ دمر الله عليهم ﴾ أى أهلكهم واستأصلهم . ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ أى أمثال هذه البفلة يعنى التدمير ، والهاء في (أمثالها) تعود على العاقبة ، أى وللكافرين من قريش أمثال عاقبة الأمم السالفة ، إن لم يؤمنوا .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ^(١) وكقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ^(٢) .

وكقوله تعالى : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها

(١) الأنعام آية : ١١

(٢) الحج آية : ٤٦

ثم قال تعالى : ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أى يوم جزائهم ونحو الآية قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله ، قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ، كذلك يضل الله الكافرين ، ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكتهم فلا ناصر لهم ﴾ .
أى وكثير من الأمم التى كان أهلها أشد بأساً وأكثر جمعا ، من أهل مكة الذين أخرجوك - أهلكتهم ماذا العذاب ولم يجدوا ناصرأ ولا معيناً يدفع عنهم بأسنا وعذابنا فاصبر كما صبر قبلك أولو العزم من الرسل فالله مظهرك عليهم ، ومهلكهم كما أهلك من قبلهم ان لم ينبوا إلى ربهم ويثبوا إلى رشدهم .
أخرج ابن ابى حاتم وابن مردود عن ابن عباس : « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة الى الغار التفت الى مكة وقال : أنت أحب بلاد الله الى الله ، وأنت أحب البلاد الى ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك » . فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى على نبيه ﷺ (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكتهم فلا ناصر لهم) .

قوله تعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ .
يقول تعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أى على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم وبما حيله الله عليه من الفطرة السليمة المستقيمة ﴿ كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟ ﴾ أى ليس هذا كهذا كقوله تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ ﴾ وكقوله تعالى ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الخور وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ (٢) .
قوله تعالى ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ .

بعد أن بين سبحانه وتعالى الفارق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال — ذكر الفارق بينهما فى مرجعهما ومآلهما فذكر ما للأولين من النعيم المقيم واللذات التى لا يدركها الإحصاء ، وما للآخرين من العذاب اللازب فى النار وشرب الماء الحار الذى يقطع الأمعاء فقال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ أى صفة الجنة التى وغدها الله من اتقى عقابه فأدى فرائضه واجتنب نواهيه — ما ستسمونه بعد .
ثم فسر هذه الصفة بقوله :

﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ أى فيها أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح ، لطول مكثها وركودها
﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ أى لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة .

﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أى وفيها أنهار من خمر لذينة لهم ، اذا لم تدنسها الأرجل ، ولم تكدرها الأيدي كخمر الدنيا ، وليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر وخمار كخمر الدنيا ، فلا يتكرهها الشاربون . كما قال سبحانه ﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ . ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ أى وفيها أنهار من عسل قد صفى من القذى وما يكون فى عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمع وفضالات النحل وغيرها . قال ابن كثير وفى حديث مرفوع « ولم يخرج من بطون النحل » وقال الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « فى الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل ، وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد » . رواه الترمذى فى صفة الجنة وقال حسن صحيح . وفى الصحيح « اذا سألت الله تعالى فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » .

وقوله تعالى : ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ﴾ كقوله تعالى ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ . وكقوله تبارك اسمه ﴿ فيها من كل فاكهة زوجان ﴾ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ أى مع ذلك كله ، المغفرة والرضوان كقوله تعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ أى أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء كقوله تعالى : ﴿ أفمن يلقى فى النار خيراً أم من يأتى آمناً يوم القيامة ﴾ فليس من هو فى الدرجات العلى كمن هو فى الدرجات السفلى . وقوله تعالى ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ أى حاراً شديداً الغليان ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رءوسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم .

قوله تعالى ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ . روى مقاتل أن النبى ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود ، استهزاء : ماذا قال محمد آنفا ؟ قال ابن عباس وقد سئلت فيمن سئل .

ثم بيّن سبحانه سبب استهزائهم وتهاونهم بما سمعوا فقال تعالى : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ أى هؤلاء الذين هذه صفتهم — هم الذين ختم الله على قلوبهم ، فلا يهتدون للحق الذى بعث الله به رسوله ﷺ ، واتبعوا شهواتهم وما دعتهم إليه أنفسهم ، فلا يرجعون إلى حجة ولا برهان .

وقوله تعالى ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ كقوله تعالى . ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم .. الآية ﴾ قال القرطبى وفى الهدى الذى زادهم أربعة أقاويل : أحدها — زادهم علماً والثانى — أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا ، الثالث — زادهم بصيرة فى دينهم وتصديقاً

لنبيهم ، والرابع — شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان . بقوله ﴿ وَاَتَاهُم تَقْوَاهُمْ ﴾ أى ألهمهم إياها وأعانهم على تقواه .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، ونفعا ما بعثنى الله به فعمل وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » متفق عليه .

قال الإمام الخطابى رحمه الله : فالنبي ﷺ جعل مثل العالم كمثل المطر ، ومثل قلوب الناس فيه ، كمثل الأرض في قبول الماء فشبه من تحمّل العلم والحديث ، وتفقه في الأرض الطيبة ، أصابها المطر فتنبت ، وانتفع بها الناس ، وشبه من تحمّله ولم يتفقه بالأرض الصلبة التى لا تنبت ، ولكنها تمسك الماء ، فيأخذه الناس ، وينتفعون به ، وشبه من لم يفهم ، ولم يحمل بالقيعان التى لا تنبت ولا تمسك الماء ، فهو الذى لا خير فيه أ هـ .

قوله تعالى ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أى أنه بعد أن قامت الأدلة على وحدانية الله وصدق نبوة رسوله وأن البعث حق ، وأن الله يهلك من كذب رسله كما شاهدوا ذلك فيمن حولهم من الأمم التى أهلكها الله لتكذيبها رسلها ، ولم يبق منها إلا آثارها ، ولم يغوهم كل ذلك شيئاً ولم يتعظوا ولم يؤمنوا — فماذا ينتظرون للعظة والاعتبار ؟ لا ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة اذ جاءت علامتها ، ولم يبق من الأمور الموجبة للتذكر والعظة للإيمان بالله سوى ذلك .

وقوله تعالى ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أى أمارات اقترابها كقوله تبارك اسمه ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى أَزَفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ وكقوله جلت عظمتة ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة . لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤت به نبي قبله . وقال الحسن البصرى بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة وقال البخارى عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتى تليها « بعثت أنا والساعة كهاتين » .

ثم قال تعالى ﴿ فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ؟ ﴾ أى فكيف للكافرين بالتذكر اذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ؟ كقوله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتَى رَبُّكَ أَوْ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خِيراً قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ وكقوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنى لَهُ الذِّكْرُ يَقُولُ يَالِيتَنى قَدِمْتُ حَيَاتى فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ ﴾ .

وقوله عز وجل ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ قال الماوردي وفيه — وإن كان رسول الله ﷺ عالماً بالله — ثلاثة أوجه : يعنى أعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله . والثاني : — ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً . الثالث — يعنى فاذكر أن لا إله إلا الله ، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه . أ هـ .

وعن سفيان بن عيينه أنه سئل عن فضل العلم فقال « ألم تسمع قوله تعالى بدأ به ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال ﴿ اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو — إلى قوله — سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وقال ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ ثم قال بعد : ﴿ فاحذروهم ﴾

وقوله تعالى ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ قال القرطبي يحتمل وجهين أحدهما — يعنى استغفرا الله أن يقع منك ذنب . الثاني — استغفر الله لعصمك من الذنوب . وقيل الخطاب له والمراد الأمة ، وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل أمر بالاستغفار لتفتدى به الأمة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » (رواه البخارى)

وفي رواية لمسلم « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة « رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم »^(١) (رواه أبو داود والترمذى وقال حديث صحيح .)

وعن عائشة رضى الله عنهما قالت « كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته « سبحان الله وبحمده ، استغفر الله وأتوب إليه »^(٢) .

وفي الصحيح إنه كان يقول ﷺ في سجوده « اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله وأوله وآخره وعلانيته وسره » رواه مسلم وقال النووى رحمه الله : قوله ﷺ : (اللهم اغفر لي ذنبي كله) مع أنه مغفور له ، فهو من باب العبودية والإذعان والافتقار لله تعالى .

— وقوله تعالى : ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ أى ولذنوبهم ، وهذا أمر بالشفاعة روى مسلم عن عبد الله بن سرجس الخزومى قال : أتيت النبی ﷺ وأكلت من طعامه فقلت يا رسول الله : غفر الله لك ، فقال له صاحبي : هل استغفر لك النبي ﷺ ؟ قال : نعم ، ولك ثم تلا هذه الآية : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ ثم تحولت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه جُمعاً^(٣) (وجمع الكف . وهو أن يجمع الأصابع ويصنمها) .

(١) أخرجه الترمذى كتاب الدعوات ح ٥ ص ١٥٨ برقم ٣٤٩٥ طه دار الفكر وأبو داود ح ٢ ص ١٧٨ برقم ١٥١٦ باب الوتر طه دار الحديث

(٢) أخرجه مسلم ح ١ ص ٣٥١ برقم ٢٢٠ / ٤٨٤ كتاب الصلاة وأحمد ح ٦ ص ١٨٤

(٣) أخرجه مسلم ح ١ ص ٣٥٠ برقم ٢١٦ / ٤٨٣ كتاب الصلاة .

(٤) أخرجه مسلم ح ١ ص ٣٥٠ برقم ٢١٦ / ٤٨٣ كتاب الصلاة .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَقَلْبِكُمْ وَتَتَّبِعُكُمْ ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما يعلم متقلبكم فى الدنيا ، ومتواكم فى الآخرة .

وقال ابن جريح : يعلم تصرفكم فى نهاركم ، ومستقركم فى ليلكم ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ (١) واختار هذا القول ابن جرير ورجم ابن كثير .

من أحوال المنافقين

قال تعالى :

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ آرْتَدُوا إِلَى آدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا اسْتَحْطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ (٣١)

معانى المفردات

﴿ لولا ﴾ كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، أى هلا أنزلت سورة فى أمر الجهاد ، ﴿ محكمة ﴾ أى بينة واضحة لا احتمال فيها لشيء آخر . ﴿ مرضى ﴾ أى ضعف ونفاق ﴿ نظر المغشى عليه من الموت ﴾ أى كما ينظر المصروع الذى لا يطرف بصره جبناً منه وهلعاً ، ﴿ أولى لهم ﴾ أى فويل لهم ،

﴿ عزم الأمر ﴾ أى جد أولو الأمر ، ﴿ عسى ﴾ كلمة تدل على توقع حصول ما بعدها ، ﴿ توليم ﴾ أى توليت أمور الناس وتآمرتم عليهم . ﴿ يتدبرون القرآن ﴾ أى يتصفحون ما فيه من المواعظ والزواجر . ﴿ ارتدوا على أدبارهم ﴾ أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، ﴿ سول لهم ﴾ أى سهل لهم وزين ، ﴿ وأمل لهم ﴾ أى مد لهم فى الأمانى والآمال . ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ أى يتوفونهم وهم على أفظع الأحوال . ﴿ أضغانهم ﴾ أحقادهم ، وتضاغن القوم إذا أبطنوا الأحقاد ﴿ لأريناكمهم ﴾ أى لعرفناكمهم ، ﴿ سيماهم ﴾ السيمى : العلامة . ﴿ لحن القول ﴾ أسلوبه بإمالة عن وجهه من التصريح إلى التعريض والتورية ﴿ ولنبلونكم ﴾ أى لنختبرنكم .

المناسبة وأجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين والكافرين والمؤمنين ، حين استمع آيات التوحيد والحشر والبعث ، وغيرها فيما سلف ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ وقوله : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ أردف هذا ، فذكر حالهم فى الآيات العملية ، كآيات القتال والصلاة والزكاة ونحوها ، فأبان أن المؤمنين كانوا ينتظرون مجيئها ، ويرجون نزولها ، وإذا تأخرت كانوا يقولون : هلا أمرنا بشيء من تلك التكاليف ، شق عليهم الأمر ، ثم يبين سبحانه نتيجة لما سلف ، بأنه طرد المنافقين وأبعدهم من الخير ، ومن قبل هذا أصمهم ، فلا يسمعون الكلام المستبين ، وأعمى أبصارهم ، فلا يسيرون على الصراط المستقيم ، ثم يبين سبحانه أن قلوبهم مقفلة ، فلا يتدبرون ما يتلى عليهم ، ثم ذكر أنهم رجعوا إلى الكفر ، بعد أن تبين لهم الهدى بالدلائل الواضحة ، وقد زين لهم الشيطان ذلك ، وخدعهم بباطل الأمانى ، ثم يبين سبب ارتدادهم ، وهو قولهم لبنى قريظة والنضير من اليهود : سنطيعكم فى بعض أحوالكم ، والله يعلم ما يصدر عنهم من كل قبيح ، ثم أردف هذا ذكر ما يصادفونه من الأهوال ، إذا جارتهم الملائكة ، لقبض أرواحهم الخبيثة ، ثم ذكر سبحانه أنه سيوضح لنبيه أمرهم ، وسيكشف أستارهم ، ويبرز أحقادهم ، وقد أنزل الله فى فضائحهم وما يبطنون من الأفعال ، سورة براءة ، ولذا تسمى الفاضحة .

ثم ذكر سبحانه ، أنه يتلى عباده بالجهاد وغيره ، ليعلم الصادق فى إيمانه ، الصابر على مشاق التكاليف ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾^(١)

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم ، طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المخلصين : أنهم تمنوا نزول آيات الجهاد ، حرصاً على ثوابه ورضاه ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة ﴾ قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة ، وهي أشد القرآن على المنافقين ﴿ وذكر فيها القتال ﴾ أى فرض فيها القتال والجهاد في سبيل الله ﴿ رأيت الذين في قلوبهم مرض ﴾ أى شك ونفاق ﴿ ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ﴾ أى من فزعهم وجنبهم من لقاء الأعداء ، ولعل أشد أنواع الحيرة والاضطراب ، كانت تفشى المنافقين ، فكان الأمر بالقتال ، يقع على أسماعهم ، وقع الصواعق ، حتى وصفوا في القرآن ، بأنهم كانوا ينظرون إلى النبي ﷺ ، كأنهم في غشية الموت ، ثم يحاولون التملص من القتال ، باختلاق الأعذار ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم في أكثر من موضع في كتابه العزيز قال تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً أشح عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشح على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ (١) وقال تعالى :

﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم ، قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادعوا عن

(١) (الأحزاب الآيتان : ١٨ ، ١٩ .

(٢) (التوبة آية : ٨١)

(٣) (التوبة آية : ٩٤)

انفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴿١﴾ . وقال تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ ﴿٢﴾

وقوله تعالى : ﴿ فأولى لهم ﴾ قال قتادة : لأنه قال العقاب أولى لهم . وقال الأصمعي : معناه قاربه ما يهلكه ؟ أى نزل .

وقوله تعالى : ﴿ طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ أى طاعة لله ، وقول معروف أمثل لهم ، وأحسن مما هم فيه ، من الهلع والجزع والجبن من لقاء العدو ، فمتاع الحياة الدنيا ، متاع قليل ، والآخرة خير لمن اتقى . ﴿ فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ أى فإذا حضر القتال كرهوه وتخلفوا عنه ، خوفاً وفرقاً ، ولو صدقوا في إيمانهم ، وأخلصوا النية في القتال ، لكان خيراً لهم عند ربهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تشيئاً وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً . ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾ ﴿٣﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ قال قتادة : أى فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله ، أن تفسدوا في الأرض ، بسفك الدماء الحرام ، وتقطعوا أرحامكم . قال القرطبي وقيل : ﴿ فهل عسيتم ﴾ أى فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن ، وفارقتم أحكامه ، أن تفسدوا في الأرض ، فتعودوا إلى جاهليتكم ، لذا حذر الرسول

(١) آل عمران الآيات : ١٦٦ — ١٦٨

(٢) الفتح الآيتان : ١١ ، ١٢

(٣) النساء الآيات : ٦٦ — ٧٠

ﷺ ، أمته من ذلك ، في حجة الوداع فقال : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »^(١) وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ أى فهؤلاء هم الذين أبعدهم الله من رحمته ، فأصمهم عن الانتفاع بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم عن الاستفادة ، مما شاهدوا من الآيات ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »^(٢) .

قال ابن كثير : وفي هذه الآية نهى عن الإفساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك ، عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة قال البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم أخذت بعرش الرحمن عز وجل فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب قال : فهو لك ، قال رسول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾^(٣) وقال الإمام أحمد عن أبى بكر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغى وقطيعة الرحم »^(٤) . ورواه الترمذى وقال حديث صحيح وقال أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن لى ذوى أرحام : أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسئون ، أفأكافئهم ؟ قال صلى الله ﷺ : لا ، إذن تتركون جميعاً ولكن جد بالفضل وصلهم ، فإنه لن يزال معك ظهير من الله عز وجل ما كنت على ذلك^(٥) .

وقال أحمد عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها »^(٦) رواه البخارى .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ح ١ ص ٨٢ برقم ١٢٠ / ٦٦

(٢) الرعد آية : ٢٥

(٣) أخرجه البخارى ح ٨ ص ٦ ، ص ٧ ط الشعب

(٤) أخرجه أحمد ح ٥ ص ٣٦ ، ص ٣٨

والترمذى ح ٤ ص ٧٤ برقم ٢٦٢٩ أبواب صفقة القيامة

(٥) أخرجه أحمد ح ٢ ص ١٨١ ، ص ٢٠٨

(٦) أخرجه البخارى ح ٨ ص ٧ ط الشعب كتاب الأدب .

أخرجه أحمد ح ٢ ص ١٦٣ ، ص ١٩٣

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، والرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته »^(١) وقد رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه — قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يُسط له في رزقه ، أو يُنسأ له في أثره فليصل رحمه »^(٢) رواه البخارى . والأحاديث في هذا كثيرة . ولا عجب في أن تكون صلة الرحم من أسباب سعة الرزق ، أو طول العمر ، لأنها صدقة والله تعالى يربى الصدقات ، كما أنها تورث الذكر الجميل بين الناس ، وتورث المنزلة أيضا عند الله لأنها بر ، وما عند الله خير للأبرار . قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ ، إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴿ .

أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله ، التى وعظ بها فى آى كتابه ويتفكرون فى حججه ، التى بينها فى تنزيله ، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون ، أم هم قد أقفل الله على قلوبهم ، فلا يعقلون ما أنزل فى كتابه ، من الصبر والمواعظ . وقال القرطبى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ أى يتفهمونه فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الاسلام ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ أى بل على قلوب أقفال ، أقفلها الله عز وجل عليهم ، فهم لا يعقلون ، قال ابن جرير عن هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه قال تلا رسول الله ﷺ يوماً : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها ، حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها ، فما زال الشاب فى نفس عمر رضى الله عنه حتى ولى فاستعان به^(٣) . ولما أخبر سبحانه بإقفال القلوب بين فنشأ ذلك فقال تعالى :

﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ﴾ أى أن الذين رجعوا القهقرى ، على أعقابهم كفاراً ، من بعد ما تبين لهم الهدى ، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لامر الله — الشيطان زين لهم ذلك ، وخدعهم ، وحسن لهم ما فى الدنيا من لذة ، يتمتعون بها إلى حين ، ثم يعودون كما كانوا مؤمنين ، إلى نحو ذلك من وساوسه ، التى لا تدخل تحت الحصر ، ولا يبلغها العد ،

(١) أخرجه أحمد ح ٢ ص ١٦٠ ، ص ٢٩٥

وابو داود ح ٥ ص ٢٣١ رقم ٤٩٤١ كتاب الأدب

والترمذى ح ٣ ص ٢١١ برقم ١٩٧٢

(٢) أخرجه البخارى ح ٨ ص ٦ ط الشعب باب من بسط له فى الرزق بصلته .

(٣) تفسير ابن كثير ح ٤ ص ١٨٢ ط الدار اللبنانية المصرية

قال تعالى : ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً ﴾^(١)

ثم ذكر سبحانه كيف أنهم ضلوا فقال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ﴾ أى ذلك الضلال من قبل أنهم ما لؤا اليهود من بنى قريظة والنضير ، وناصحوهم سرّاً على المؤمنين ، كما هو شأن المنافقين فى كل زمان ، والله يعلم ما يسرون وما يخفون . ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾^(٢)

ثم ذكر سبحانه أن هذه الحيل إن أجدت فى حياتهم ، فماذا هم فاعلون حين وفاتهم ، فقال تعالى : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ أى كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وتعاصت الأرواح فى أجسادهم ، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾^(٣) الآية وكقوله تعالى : ﴿ ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم — أى بالضرب — ﴾ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾^(٤) قال القرطبى قال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه .

ثم بين سبحانه سبب التوفى على تلك الحال الشيعية فقال : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ أى ذلك الهول الذى يرويه ، من أجل أنهم انهمكوا فى المعاصى ، وزينت لهم الشهوات ، وكرهوا ما يرضى الله من الإيمان به ، والعمل على طاعته ، والاخلاص له فى السر والعلن ، فأحبط ما عملوه من البر والخير ، إذ هم فعلوه وهم مشركون ، فلم تكن لله ولا بأمره ، بل بأمر الشيطان للفخر وحسن الأحداث بين الناس .

ثم بالغ فى توبيخ المنافقين ، وإظهار خفائهم ، وإعلان نواياهم فقال : ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرضى أن لن يخرج أضغانهم ﴾ أى أيعتقد المنافقون ، أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ، ويجليه حتى يفهمهم ذوا البصائر ، وقد أنزل الله تعالى فى ذلك سورة براءة ، فبين فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة ، والأضغان جمع ضغن ، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله ، والقائمين بنصره ، قال ابن القيم : أسروا سرائر النفاق ، فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم ، وفتلت اللسان ، ووسمهم لأجلها بسيماء ، لا يخفون بها على

(١) النساء آية : ١٢٠

(٢) النساء آية : ٨١

(٣) الأنفال آية : ٥٠

(٤) الانعام آية : ٩٣

أهل البصائر والإيمان ، وظنوا أنهم اذا كتموا كفرهم ، وأظهروا إيمانهم ، راجوا على الصيارف والنقاد . كيف ؟ والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرضى أن لن يخرج الله أضغانهم ؟ ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ يقول عز وجل : ولو نشاء يا محمد ، لأريناك أشخاصهم ، فعرفتهم عياناً ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ، سترأ منه على خلقه ، وحملأ للأمور على ظاهر السلامة ، ورداً للسرائر إلى عالمها ﴿ ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ أى فيما يبدو من كلامهم ، الدال على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أى الحزبين . هو بمعانى كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول ، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما أسر أحد سريرة ، إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلقات لسانه .

قال القرطبي . قال ابن عباس : وقد عرفه إياهم في سورة « براءة » وقال أنس : ما خفى على النبي ﷺ ، بعد هذه الآية أحد من المنافقين ؟ كان يعرفهم بسيماهم . ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ أى لا يخفى عليه شئ منها سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ . أى لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ حتى يتميز المجاهد الصابر من غيره ، والمؤمن من المنافق ، ونبلو أخباركم ، فتعرف الصادق منكم فى إيمانه من الكاذب ، كقوله تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين . وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ (٢) .

أحكام قاطعة الثبوت

قال تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَلُهُمْ ﴿٣١﴾ * يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَىٰ

(١) العنكبوت الآيتان : ٢ ، ٣

(٢) العنكبوت الآيتان : ١٠ ، ١١

الْسَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا
وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِيمَا فِي حِفْظِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ
﴿٣٧﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ
الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

معاني المفردات

﴿ شاقوا الرسول ﴾ أى عادوه وخالفوه ، وأهله صاروا فى شق غير شقه . ﴿ فلا تمهوا ﴾ أى
فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهن وهو الضعف ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ أى تدعوا الكفار إلى الصلح
خوفاً وإظهاراً للعجز ، ﴿ الأعلون ﴾ أى الغالبون ﴿ والله معكم ﴾ أى ناصركم ، ﴿ لن يترككم
أعمالكم ﴾ أى لن ينقصمكوها ، ﴿ لعب وهو ﴾ كل ما اشتغلت به ، مما ليس فيه ضرر فى الحال ،
ولا منفعة فى المآل ، ولم يمنعك عن مهام أمورك ، فهو لعب ، فإن شغلك عنها فهو هو ، ومن ثم يقال
آلات الملاهى ، لأنها مشغلة عن غيرها . ﴿ فيحفكم ﴾ أى فيجهدكم بطلبها جميعاً ، والإلحاف والإحفاء ،
بلوغ الغاية فى كل شىء ﴿ أضغانكم ﴾ أى أحقادكم .

المناسبة وأجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ، أن المنافقين ستفضح أسرارهم ، وأنهم سيلقون شديد الأهوال ، حين وفاتهم —
أردف ذلك ذكر حال جماعة من أهل الكتاب ، وهم بنو قريظة والنضير ، كفروا بالله ، وصدوا الناس
عن سبيل الله ، وعادوا الرسول بعد أن شاهدوا نعتة فى التوراة ، وما ظهر على يديه من المعجزات ، فهؤلاء
لن يضروا الله شيئاً بكفرهم ، بل يضرون أنفسهم ، وسيحبط الله مكائدهم ، التى نصبوها لإبطال دينه ،
ثم جاء الأمر بطاعة الله جل جلاله ، فى أوامره ونواهيه ، وطاعة رسوله ﷺ ، ثم نهى المؤمنين عن إبطال
أعمالهم بالمعاصى ، أو الرياء ، أو العجب ، ثم أعقب هذا ببيان أن العادين عن سبيل الله ، إذا ماتوا على
كفرهم ، فلن يغفر الله لهم ، وبعدئذ أردف هذا أن الله خاذلهم فى الدنيا ، فإنها ظل زائل ، وعرض غير
باق ، وهى مشغلة عن صالح الأعمال ، فلا يليق أن تعضوا عليها بالنواجذ ، بل اعملوا لما يرضى ربكم ،
يؤتكم أجوركم ، وهو لا يسألكم من أموالكم إلا القليل النذر ، الذى فيه صلاح المجتمع ، وهو عليم بأن
البعض يبخل ، ومن يبخل ، فإنما يبخل عن نفسه ، والله غنى عن معونتكم ، وإن أعرضتم عن الإيمان
والتقوى ، يأت الله بخلق غيركم يقيمون دينه وينصرون الدعوة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أى إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدوا الناس عن دينه ، الذى بعث به رسوله ، وخالفوا هذا الرسول ، وحاربوه ، وآذوه ، من بعد أن استبان لهم بالأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة ، أنه مرسل من عند ربه — ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ لأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومظهره على من عاداه وخالفه ، وسيبطل مكائدهم ، التى نصبوها لإبطال دينه ، ومشاقه رسوله ، ولا يصلون إلى ما كانوا ييغون له من الغوائل ، وستكون تمزقها إما قتلهم ، أو جلاءهم عن أوطانهم ، والمراد بصد الناس عن سبيل الله ، منعهم إياها عن الإسلام بشتى الوسائل ، وعم متابعة الرسول ﷺ والانضواء تحت لوائه قال تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ يَرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾^(٢) .

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ قال الإمام أحمد بسنده عن أبى العالية قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . ولفظ عبد بن حميد . فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا معاشر أصحاب محمد ﷺ ، نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ فلما نزلت هذه الآية ، قلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئا منها ، قلنا : قد هلك حتى نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾^(٣) فلما نزلت ، كفنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها شيئا رجونا له^(٤) .

ولقد نهى سبحانه المؤمنين ، عن إبطال أعمالهم بالربا والعجب والمن ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ

(١) الأنفال آية : ٣٦

(٢) التوبة الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

(٣) النساء آية : ٤٨ ، ١١٦

(٤) تفسير ابن كثير ح ٤ ص ١٩٤ طبع النهضة الحديثة .

الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴿١﴾

وكما في قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (٢) وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ (٣) قال هو أخلصه وأصوبه . قالوا : ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً ، لم يقبل ، وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ (٥) قال ابن القيم : وهى الأعمال التى كانت على غير السنة ، أو أريد بها غير وجه الله .

ولقد أخبر ﷺ ، عن أول ثلاثة تُسعر بهم النار : قارئ القرآن ، والمجاهد ، والمتصدق بماله ، الذين فعلوا ذلك ليقال : فلان قارئ ، فلان شجاع ، فلان متصدق ، ولم تكن أعمالهم خالصة لله .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ أى إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدوا من أراد الإيمان بالله ورسوله عن ذلك ، ثم ماتوا وهم على كفرهم ، فلن يعفو الله سبحانه عما صنعوا : بل يعاقبهم ، ويفضحهم به على رءوس الأشهاد ، كقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ أى لا تضعفوا عن الأعداء ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ أى المهادنة والمسالمة ، ووضع القتال بينكم وبين الكفار ، فى حال قوتكم وكثرة عددكم ، وعنادكم ، ولهذا قال : ﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾ أى فى حال علوكم على عدوكم ، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة ، بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الأمام فى المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل ﷺ ، حين صده كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم الله عليه وسلم إلى ذلك ،

(١) البقرة آية : ٢٦٤

(٢) الكهف آية : ١١٠

(٣) الملك آية : ٢

(٤) الكهف آية : ١١٠

(٥) الفرقان آية : ٢٣

(٦) البقرة الآيتان : ١٦١ ، ١٦٢

وقوله تعالى : ﴿ **والله معكم** ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿ **ولن يترككم أعمالكم** ﴾ أى ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها ، بل يوفىكم ثوابها ، ولا ينقصكم منها شيئاً ، قاله ابن كثير ، وقال صاحب روائع البيان فى هذه الآيات : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ، إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ، فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يترككم أعمالكم ﴾ ما نصه :

التحليل اللفظي :

تبطلوا : تضيعوا أثوابها من بطل الشيء يبطل بطلاً وبطلاناً : ذهب ضياعاً وخسراً ، صدوا : أعرضوا من الصد : وهو الإعراض والصدوف ، قال تعالى : ﴿ **رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً** ﴾ ^(١) فلا تنهوا : أى لا تفتروا ، ولا تضعفوا ، ولا تجنبوا عن قتال العدو ، من الوهنى أى الضعف فى النفس والعمل ، قال تعالى : ﴿ **فما هنوا لما أصابهم فى سبيل الله** ﴾ ^(٢) .
لن يترككم . أى لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً ، ولن يظلمكم من وتره حقه وماله نقصه إياه وفى حديث النبي ﷺ « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله »

المعنى الاجمالى

نادى الله سبحانه وتعالى المؤمنين ، مخاطباً إياهم بوصف الإيمان ، تذكيراً لهم بأن هذا الوصف ، يدعوهم إلى طاعة أوامر الله تعالى ، الآية بعد هذا النداء ، ثم جاء الأمر بطاعة الله جل جلاله ، فى أوامره ونواهيه ، فطاعته هى السبيل إلى الفلاح فى الدنيا والآخرة ، وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة المولى سبحانه وتعالى ، فعلى المؤمن أن يتبعه فى كل سنة منها .
ثم نهى الله المؤمن عن إبطال عمله ، فقد يقدم أعمالاً كثيرة من الطاعة ، ولكنه قد يضيع عمله بالمعاصى ، والرياء ، والعجب ، إلى غير ما هنا لك ، فهناك الله عن ذلك ، فعلى المؤمن أن يحافظ على ما يقدم من الطاعات ، ثم يبين الله تعالى ، أنه لا يغفر الشرك ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، حتى لا يظن الظان أن المؤمن إن أبطل عمله بالمعاصى ، فقد هلك ، بل فضل الله باق يغفر له بفضل له ؟ وإن لم يغفر له بعمله .
وإذا كان أمر الكفار فى الآخرة هذا ، فأمرهم فى الدنيا كذلك من الزلة والحقارة ، فلا تضعفوا أيها المؤمنون فى ملاقاتهم ، ولا تجنبوا عن قتالهم ، فالنصر لكم أجلاً أو عاجلاً ، فلا تدعوا الكفار إلى الصلح خوراً ، وإظهاراً للعجز ، فإن الله معكم يؤيدكم بنصره ، ويؤيدكم بقوته ، ولن ينقصكم من أعمالكم شيئاً ، بل يعطيكم ثوابها كاملاً غير منقوص .

(١) النساء آية : ٦١

(٢) آل عمران آية : ١٤٦

لطائف التفسير :

اللطيفة الأولى : قال الفخر الرازي : قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ ﴾ العطف هنا ، من باب عطف المسبب على السبب ، يقال اجلس واسترح ، وقم وامشى ، لأن طاعة الله تحمل على طاعة الرسول « وقال الألوسي : « وإعادة الفعل في قوله : ﴿ وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ ﴾ للاهتمام بشأن إطاعته عليه الصلاة والسلام .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ الآية :

قال الفخر الرازي : يحتمل وجوهاً : أحدها داوموا على ما أنتم عليه ، ولا تشركوا ، فتبطل أعمالكم ، قال تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾^(١) .

الوجه الثاني : لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول ، كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم ، بتكذيب الرسول وعصيانه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾^(٢) .

الثالث : لا تبطلوا أعمالكم بالمن والأذى كما قال تعالى : ﴿ يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَن أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بِاللَّهِ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَن هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٣) .

وقد اختلف فيما يبطل الأعمال على أقوال :

قال الحسن : المعاصي والكبائر ، وقال عطاء : الشك والنفاق ، ونقل عن ابن عباس ، وقال ابن عباس : الرياء والسمعة ، ونقل عن ابن جريج ، وقال مقاتل : المن ، وقيل : العجب ، فإنه يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب .

وقيل المراد بالأعمال الصدقات أن تعطلوها بالمن والأذى قال القرطبي : وكله يتقارب ، وقول الحسن يجمعه .

اللطيفة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ استعمال العلو في رفعة المنزلة مجاز مشهور ، أى أنتم أعز منهم ، لأنكم مؤمنون ، والحجة لكم ، وإن غلبوكم في بعض الأوقات ، وذلك كقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤) .

(١) الزمر آية : ٦٥

(٢) الحجرات آية : ٢

(٣) الحجرات آية : ١٧

(٤) المنافقون آية : ٨

وقيل وأنتم الأعلون : أى أنتم أعلم بالله منهم .

وقال الحصاص : أى وأنتم أعلم بالله منهم .

وكلها متقاربة فالإيمان يرفع منزلة أهله ويعزهم .

اللطيفة الرابعة : قال الفخر الرازى قوله : ﴿ ولن يترك أعمالكم ﴾ وعد لأن الله تعالى لما قال ﴿ والله معكم ﴾ كان فيه أن النصر بالله لا بكم ، فكأن القائل يقول : لم يصدر منى عمل له اعتبار ، فلا استحق تعظيماً ، فقال هو يتصركم ، ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئاً ، ويجعل كأن النصر جعلت بكم ، ومنكم ، فكأنكم مستقلون فى ذلك ، ويعطيكم أجر المستبد .

الطيفة الخامسة : فى الآية الكريمة دعوة إلى العزة والكرامة ، وتشجيع للمؤمنين للجهاد والنضال ، لمجابهة أعدائهم ، دون وهن أو خور ، لأن المؤمن لا يرضى بحياة الذل والهوان ، وقد أحسن من قال :
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : قوله تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ يدل على أن كل من دخل فى قربة أو نافلة لم يجز له الخروج منها قبل إتمامها .

واختلف العلماء فى هذا الحكم على مذهبين :

فذهب (الشافعى وأحمد) إلى أن للمرء يترك النافلة إذا شرع فيها ، ولا شئ عليه ، ما عدا الحج فيجب عليه الإتمام . وأما فى الصلاة والصوم فيستحب له الإتمام ولا يجب .
وذهب (أبو حنيفة ومالك) إلى أنه ليس له ذلك . فإذا أبطله وجب عليه القضاء .

أدلة المذهب الأول :

قالوا : هو تطوع ، والمتطوع أمير نفسه ، وإلزامه إياه فخرج عن وصف التطوع قال تعالى ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ .

وقالوا فى جواب الاستدلال بالآية : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض فنهى الرجل عن إحباط ثوابه . فأما ما كان نفلاً فلا ، لأنه ليس واجباً عليه .

واللفظ فى الآية وإن كان عاماً ، فالعام يجوز تخصيصه ووجه تخصيصه أن الفعل تطوع والتطوع يقتضى تخيراً .

أدلة المذهب الثانى :

قوله تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ أفاد أن التحلل من التطوع بعد التلبس به لا يجوز لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه .

وعن عائشة — رضى الله عنها — قالت : كنت أنا وحفصه صائمتين ، فأهدى لنا طعام ، فأكلنا منه ، فدخل رسول الله ﷺ فقالت حفصه وبدرتنى ، وكانت بنت أبيها : يا رسول الله ، إني أصبحت أنا وعائشة صائمتين متطوعتين فأهدى لنا طعام فأفطرنا عليه فقال :

وقال ﷺ « أقضيا مكانه يوماً »^(١) رواه مالك والترمذى وأبو داود .

وقالوا فى جواب دليل المذهب الأول : المتطوع أمير نفسه . ولا سبيل عليه قبل أن يشرع أما إذا شرع فقد ألزم نفسه ، وعقد عزمه على الفعل فوجب أن يؤدي ماالتزم ، وأن يوفى بما عقد ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾^(٢) .

ثم اللفظ عام فى الآية يشمل التطوع وغيره .

الحكم الثانى : قوله تعالى ﴿ فلا تمهّنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ .

فيه دلالة على أنه لا يجوز طلب الصلح من المشركين ، فأما إذا كان فى الكفار قوه ، وكثرة بالنسبة إلى جمع المسلمين . ورأى الإمام المسلم فى المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك . كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك .

فائدة : دل قوله تعالى : ﴿ فلا تمهّنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾ على أن النبى ﷺ لم يدخل مكة صلحاً . وإنما فتحها عنوة لأن الله تعالى قد نهاه عن الصلح فى هذه الآية . ا. هـ .

قوله تعالى ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ . يقول سبحانه حاضاً عباده المؤمنين على جهاد أعدائه والنفقة فى سبيله ، وبذل مهجتهم فى قتال أهل الكفر به : قاتلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر ، ولا تدعكم الرغبة فى الحياة الدنيا إلى ترك قتالهم ، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو لا يلبث أن يضمحل ويذهب إلا ما كان منها من عمل فى سبيل الله وطلب رضاه .

ثم رغبتهم فى العمل للآخرة فقال تعالى :

﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ أى : وإن تؤمنوا بربكم وتتقوه حق تقاه ، فتؤدوا فرائضه وتجتنبوا نواهيه — يؤتكم ثواب أعمالكم فيعوضكم عنها ما هو خير لكم يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم ، وهو لا يأمركم بإخراجها جميعاً فى الزكاة ، وسائر وجوه الطاعات ، بل يأمركم بإخراج القليل منها وهو ربع العشر للزكاة مواساة لإخوانكم الفقراء ، ونفع ذلك عائد إليكم .

(١) انظر سنن الترمذى ج ٢ ص ١١٩ أبواب الصوم . باب ما جاء فى إيجاب القضاء عليه . رقم ٧٣١ .

— انظر سنن أبى داود ج ٢ ص ٨٢٦ كتاب الصوم . باب من رأى عليه القضاء برقم ٢٤٥٧ .

— انظر موطأ مالك . كتاب الصوم قضاء التطوع . ص ٣٠٦ .

(٢) سورة المائدة آية ١

ثم بين سبحانه شح الإنسان على ماله وشدة حرصه عليه فقال تعالى :

﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيَحْفَكمْ تَبْخُلُوا وَيَخْرُجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ أى : إِنْ يَسْأَلْكُمْ رَبْكمْ أَمْوَالْكمْ فَيَجْهَدْكمْ بِالسَّأَلِ وَيُلْحِفْ عَلَيْكمْ بَطْلِبِهَا — تَبْخُلُوا بِهَا وَتَمْنَعُوهَا أَيَاهُ ضَنْأً مِنْكمْ بِهَا ، لَكِنَّه عِلْمُ ذَلِكَ مِنْكمْ فَلَمْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيَخْرُجْ ذَلِكَ السُّؤَالُ أَحْقَادَكمْ لِمَزِيدِ حَبْكمْ لِلْمَالِ .

قال قتادة : قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان .

ثم أكد سبحانه ما سلف وقرره بقوله تعالى :

﴿ هَأنَا تَدْعُونَ لِنُتَفَقَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : هَأنَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تَدْعُونَ إِلَى النِّفَقَةِ فِي جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ دِينِهِ ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخْلُ وَنَاسٌ مِنْكُمْ يَخْلُ فَاِئْتَمَارًا يَخْلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ أى : فَمِنْكُمْ مَنْ يَخْلُ عَنْ النِّفَقَةِ فِي هَذَا السَّبِيلِ ، وَمَنْ يَخْلُ فَاِئْتَمَارًا ضَرَرُ ذَلِكَ عَائِدًا إِلَى نَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : « يَا عِبَادِي إِنْكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ ، يَا عِبَادِي إِنْمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (١) رواه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ قال الإمام النووي دلت الأدلة السمعية والعقلية على أن الله مستغن في ذاته عن كل شيء ، وأنه تعالى لا يتأثر بشيء من مخلوقاته ، وقد بين الله تعالى أن له ملك السموات والأرض وما بينهما . ثم بين أنه مستغن عن ذلك ، قال تعالى : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ وهو قادر على أن يذهب هذا الوجود ويخلق غيره ، ومن قدر على أن يخلق كل شيء فقد استغنى عن كل موجود . ثم بين سبحانه وتعالى أنه مستغن عن الشريك فقال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ (٢) ثم بين سبحانه أنه مستغن عن المعين والظهير فقال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ ﴾ (٣) فوصف العز ثابت له أبداً ، ووصف الذل منتف عنه تعالى ومن كان كذلك فهو مستغن عن طاعته المطيع ، ولو أن الخلق كلهم أطاعوه كطاعة أتقى رجل منهم وبأدروا إلى أوامره ونواهيه ولم يخالفوه لم يتكثر سبحانه وتعالى بذلك ولا يكون ذلك زيادة في ملكه ، وطاعتهم إنما حصلت بتوفيقه وإعانتة ، وطاعتهم نعمة منه عليهم ، ولو أنهم عصوه كلهم كمعصية أفجر رجل — إبليس — وخالفوا أمره ونهيه ولم يضره غيرهم ، فسبحان من لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية .

(١) الحديث في الصحيح مسلم ح ٤ ص ١٩٩٥ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم رقم ٥٥ / ٢٥٧٧ .

(٢) سورة الإسراء الآية ١١١ .

وقوله تعالى ﴿ وَأَنْ تَتُولُوا يَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ أى تعرضوا عن طاعة الله وإتباع شرائعه ، ونصرة دينه ، وترتدوا راجعين عنها ، يهلككم الله ثم يجيء بقوم آخرين غيركم وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾^(١) وصفهم المولى سبحانه وتعالى بصفات خمس : الأتباع — الذلة للمؤمنين — العزة على الكافرين — الجهاد فى سبيل الله — عدم الخوف إلا من الله سبحانه وتعالى . تلك هى شروط العضوية للإلتحاق بالجماعة المؤمنة إنها لشروط مبنية على الحب المتبادل بين الرحمن وعباده ، يحبهم ويحبونه ، كما أن الرضا متبادل بينه تعالى وبينهم ، قال تعالى فى حزب الله : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٢)

كما أن الله تعالى رزقهم التواضع فى غير ذل إلا لإخوانهم المؤمنين كما وصفهم بالترفع فى غير كبر قههم أعزة على الكافرين ، كما أنه جعل الجهاد خلقهم ، والشجاعة الأدبية ديدنهم وعادتهم منهم لا يخافون فى الله لومة لائم ، ولأنهم اعتقدوا أنه لا يملك الروح والرزق إلا الله ، وكأنهم يقولون بألسنة الحال والمقال نحن الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ، إن هذه الجماعة المؤمنة كانت ولايتها كما كان ولاؤها لله ورسوله والمؤمنين ، لقد عرفناهم فى المساجد ركعاً وسجوداً ، أدوا ما عليهم من واجبات فكانوا جديرين أن ينالوا ما لهم من حقوق ، ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾^(٣) لقد عرفوا لمن يكن الولاء ومن يكون البراء ، فتابوا وأخلصوا دينهم لله وأصلحوا كل زمان ومكان فكانوا كالبحر الطهور أنساب فى أرجاء الأرض ليغسل أرجاسها وأنجاسها وأدناسها رفعوا راية الإسلام عالياً باذخة الذرى تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس فى الجلاء فأخرجوا البشرية من الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، ومن فلول الدجى وغياهب الظلمات الى نور القرآن وواسع الرحمات ، ابتعثهم الله تعالى ليخرج بهم من شاء من عبادة الأوثان الى توحيد الملك الديان ، ومن جور الإنسان الى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الآخرة ، فكانوا كما قلل مولانا ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .

(٢) سورة المجادلة آية ٢٢ .

(٣) سورة المائدة الآيات ٥٥ ، ٥٦ .

بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم ^(١)

وكانوا أهلاً للجزاء الكريم ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وهم ساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ ^(٢)

فأين أنتم يا أمة الإسلام ، يا من تفرقت كلمتكم وتمزقت وحدتكم فسهل على العدو أن يلتهمكم إنني وإن اكتب هذه السطور يحضرني الآن تلك القصيدة التي اصاغها الشاعر المسلم محمود غنيم وتقول أبياتها :

أنى تذكرت والذكرى مؤرقة	مجداً تليداً بأيدينا أضعناه
إنى اتجهت الى الإسلام فى بلد	تجده كالطير مقصوصاً جناحاه
وريج العروبة كان الكون مسرحها	فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصرفها	وبات يملكنا شعب ملكناه
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجن	شكا فرددت الأهرام شكواه
هى الحقيقة عين الله تكلؤها	فكلما حاولوا تشويهها شاهوا
هل تطلبون من المختار معجزة	يكفيه شعب من الأحداث أحياء
من وحد العرب حتى كان واثمهم	إذا رأى ولد الموتور آخاه
وكيف كانوا يداً فى الحرب واحدة	من خاضها باع دنياء بأخراه
وكيف ساس رعاها الابل مملكة	ماساسها قيصر من قبل أوشاه
وكيف كان لهم علم وفلسفة	وكيف كانت لهم سفن وأمواه
سنوا المساواة لآعرب ولاعجم	ما لأمريء شرف إلا بتقواه
وقررت مبدأ الشورى حكومتهم	فليس للفرد فيها ما تمناه
ورحب الناس بالإسلام حين رأوا	أن السلام وأن العدل مغزاه
يا من رأى عمراً تكسوه بردته	والزيت آدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كسريه فرقا	من بأسه وملوك الأرض تخشاه
سل المعالى عنا إننا عرب	شعارنا المجد يهوانا ونهواه
هى العروبة لفظ إن نطقت به	فالشرق والعناد والإسلام معناه
استرشد الغرب بالماضى فأرشده	ونحن كان لنا ماض نسيناه
إنا مشينا وراء الغرب نقبس من	ضياؤه فأصابتنا شظاياها

(١) سورة التوبة آية ٧١

(٢) سورة التوبة آية ٧٢

بالله سل خلف بحر الروم عن عرب
أين الرشيد وقد طاف الغمام به
ملك كملك بني التاميز ما غربت
ماض تعيش على أنقاضه أما
إلى لأعتبر الإسلام جامعة
أرواحنا تتلاق فيه خافقة
دستوره الوحي والمختار عاهله
لاهم قد أصبحت أهواؤنا شيعاً
راع يعيد الى الإسلام سيرته
بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهو
فحين جاوز بغداداً تحداه
شمس عليه ولا برق تخطاه
وتستمد القوى من وحي ذكره
للشرق لا يحض دين سنه الله
كالنحل إذ يتلاق في خلاياه
والمسلمون وإن شتوا رعاياه
فامتلك علينا براع أنت ترضاه
يرعى بينه وعين الله ترعاه

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ، فاهدنا بفضلك فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ،
وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت إنك سبحانك تقضى بالحق
ولا يقضى عليك ، فإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، فلك الحمد على
ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت ، نستغفرك اللهم من كل ذنب وخطيئة ونتوب
إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، أنت الغنى ونحن الفقراء إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، اللهم
يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك ولا تخزنا يوم العرض عليك ، وعاملنا بالإحسان إذ الفضل منك وإليك ،
نسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً .

تفسير سورة الفتح

مقدمة

قال صاحب البصائر :
السورة مدنية إجماعاً ..
آياتها : تسع وعشرون .
وكلماتها : خمسمائة وستون .
وحروفها : ألفان وأربعمائة وثمان وثلاثون .
ونواصل آياتها على الألف .
وسميت سورة الفتح ، لقوله ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : وعد الرسول ﷺ بالفتح والغفران ، وإنزال السكينة على أهل الإيمان ، وإبعاد المنافقين بعذاب الجحيم ، ووعد المؤمنين بنعيم الجنان ، والثناء على سيد المرسلين ، وذكر العهد ، وبيعة الرضوان ، وذكر ما للمنافقين من الخذلان ، وبيان عذر المعذورين ، والمنة على الصحابة بعدم الظفر عليهم من أهل مكة ذى الطغيان ، وصدق رؤيا سيد المرسلين على حقيقة الرسالة ، وشهادة الملك الديان ، وتمثيل حال النبي ﷺ بالزروع والزراع في البهجة والنضارة وحسن الشأن .

المتشابهات :

قوله ﴿ **وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾^(١) وبعد : ﴿ **عَزِيزاً حَكِيماً** ﴾ لأن الأول متصل بإنزال السكينة ، وإزدياد إيمان المؤمنين ، فكان الموضع موضع علم وحكمة ، وقد تقدم ما اقتضاه الفتح عند قوله ﴿ **وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا** ﴾ وأما الثاني والثالث الذي بعد فمتصلان بالعذاب والغضب وسلب الأموال والغنائم ، فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكمة .

قوله ﴿ **قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا** ﴾^(٢) وفي سورة المائدة ﴿ **فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ** ﴾^(٣) زاد في هذه السورة (لكم) لأن ما في السورة نزلت في قوم بأعيانهم وهم المخلفون وما في المائدة عام لقوله ﴿ **أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾^(٤) .

قوله ﴿ **كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ** ﴾ بلفظ الجميع ، وليس له نظير وهو خطاب للمضمرين في قوله ﴿ **لَنْ تَتَّبِعُونَا** ﴾ .

فضل السورة :

عن ابن عباس : لما نزلت هذه السورة قال رسول الله ﷺ « **لقد أنزل على سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها** » .

[وراه مسلم عن أنس ، كما في كنز العمال] .

(١) سورة الفتح آية ٤

(٢) سورة الفتح آية ١١

(٣) سورة المائدة آية ١٧

(٤) سورة المائدة آية ١٧

مناسبتها لما قبلها :

- (١) إن الفتح المراد به النصر مرتب على القتال .
 (٢) إن في كل منهما ذكراً للمؤمنين والمخلصين والمنافقين المشركين .
 (٣) إن في السورة السالفة أمراً بالاستغفار ، وفي هذه ذكر وقوع المغفرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ
 صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
 الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
 حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ
 عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
 وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ
 وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

معاني المفردات

(الفتح) المراد هنا صلح الحديبية وسمى هذا فتحاً ، لأن كان سبباً لفتح مكة قال الزهري : لم يكن
 فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام من قلوبهم ،
 وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثير بهم سواد الإسلام ، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا
 الى مكة في عشرة آلاف ففتحوها .

(أنزل السكينة) أى : خلقها وأوجدتها . والسكينة : الطمأنينة من السكون ، (إيماناً مع إيمانهم) أى :
 يقيناً مع يقينهم ، (ويكفر عنهم سيئاتهم) أى : يغطيها ولا يظهرها (السوء) (بالضم والفتح) . المساءة :
 (وظن السوء) أى : ظن الأمر السوء . (عليهم دائرة السوء) الدائرة فى الأصل الحادثة التى تحيط بمن
 وقعت عليه ، وكثر استعمالها فى المكروه ، (والسوء) العذاب والهزيمة والشر . (وهو بالضم والفتح لفنان)

وقال سيئويه : السوء هنا الفساد ، أى عليهم ما يظنونونه ويتربصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم ، (لعنهم) أى : طردهم طرداً نزلوا به الى الحضيض ، (عزيزاً) أى : (يتغلب) ولا يُغلب .

التفسير

قوله تعالى ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ .

نزلت هذه السورة المباركة حين منصرفه ﷺ من الحديبية في ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، لما صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام وحالوا بينه وبين قضاء عمرته ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة — وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة كعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فلما نحر هديه ﷺ حيث أحصر ورجع أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل هذا الصلح فتحاً مبيناً لما فيه من المصلحة ، ولما آل إليه أمره ، فقد روى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية .

وروى البخارى « أن رسول الله — ﷺ — كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلاً ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أمك يا عمر ، كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فحركت بعيرى حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فى قرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بى ، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فى قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه . فقال : لقد أنزلت على سورة لى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً)^(١) .

وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال : « لما نزلت (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) — الى قوله (فوزاً عظيماً) مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة وقد نَحَرُوا الهدى بالحديبية ، قال النبى ﷺ لقد أنزلت على آية هى أحب إلى من الدنيا جميعاً »^(٢)

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال أنزل على النبى ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مرجعة من الحديبية قال النبى ﷺ « لقد أنزلت على الليلة آية أحب إلى مما على الأرض » ثم قرأها عليهم النبى ﷺ فقالوا : هنيئاً مريئاً يا نبى الله يبين الله عز وجل ما يفعل بك

(١) الحديث فى صحيح البخارى ح ٦ ص ١٦٨ ، ١٦٩ كتاب التفسير (سورة الفتح) وكذلك ح ٥ ص ١٦١ . ١٦١ كتاب المغازى — صلح الحديبية . ط / الشعب .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤١٣ كتاب الجهاد والسير باب صلح الحديبية رقم ٩٧ / ١٧٨٦ .

فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﷺ (ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار — حتى بلغ — فوزاً عظيماً) أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به .^(١)

وقوله تعالى ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ قال ابن كثير : هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة ، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة « حبسها حابس الفيل » ثم قال ﷺ « والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمة الله إلا أجبتهم إليها »^(٢) فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويم نعمته عليك ﴾ أى : في الدنيا والآخرة (ويهديك صراطاً مستقيماً) أى : بما يتسرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم (وينصرك الله نصراً عزيزاً) أى : بسبب خضوعك لأمر الله تعالى يرفعك الله وينصرك على أعدائك . كقوله تعالى ﴿ ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ .

قوله تعالى ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ﴾ يقول تعالى ﴿ هو الذى أنزل السكينة ﴾ أى : جعل الطمأنينة فى قلوب المؤمنين وهم الصحابة — رضوان الله عليهم — يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما أطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم ، وقال الضحاك فى قوله تعالى ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ يقيناً مع يقينهم . قال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم . ثم ذكر سبحانه أنه لو شاء لا نتصر من الكافرين فقال تعالى ﴿ والله جنود السموات والأرض ﴾ أى لو أرسل عليكم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لماله فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدافعة ولهذا قال جلت عظمتة ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ .

قوله تعالى ﴿ ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾

وفى الحديث الذى رواه أحمد عن أنس بن مالك : لما قرأ النبى ﷺ على أصحابه ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، فماذا لنا ؟ فنزل ﴿ ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات .. الآية ﴾ وقوله تعالى ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ أى : خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر برحمته سبحانه وتعالى وهو أرحم الراحمين قال تعالى ﴿ الذى يصل

(١) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٦٠ كتاب المغازى — صلح الحديبية — مع حذف فى بعض ألفاظه . ط / الشعب . — انظر مسند الامام أحمد ح ٣ ص ١٩٧ عن قتادة عن أنس . واللفظ له .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى بياضية السندى ح ٢ ص ١٢٠ كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً * تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴿١﴾ وقوله تعالى ﴿٢﴾ وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴿٣﴾ كقوله تعالى ﴿٤﴾ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴿٥﴾ الآية وقوله تعالى ﴿٦﴾ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ، والله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴿٧﴾ .

أى : وليعذب هؤلاء في الدنيا بإيصال الهم والغم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين ، وربما يشاهدونه من ظهور الإسلام وقهر المخالفين وبتسليط النبي ﷺ عليهم قتلاً وأسراً واسترقاقاً ، وفي الآخرة بعذاب جهنم .

وهم قد كانوا يظنون أن النبي ﷺ سيُغلب ، وأن كلمة الكفر ستعلو كلمة الإسلام ، ومما ظنوا ما حكاه الله بقوله ﴿٨﴾ بل ظنتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴿٩﴾ . وقدم ذكر المنافقين على المشركين ، لأنهم كانوا أشد ضرراً على المؤمنين من الكفار المجاهرين لأن المؤمن كان يتوقى الجاهر ، ويخالط المنافق لظنه إيمانه ، وقوله تعالى ﴿١٠﴾ عليهم دائرة السوء ﴿١١﴾ أى : عليهم تدور الدوائر ، وسيحقيق بهم ما كانوا يتربصون بالمؤمنين من قتل وسبى وأسر لا يتخطاهم . وقوله تعالى ﴿١٢﴾ وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴿١٣﴾ أى : وناهم غضب من الله وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ، وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ، وساءت منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

وقوله تعالى ﴿١٤﴾ ولله جنود السموات والأرض ﴿١٥﴾ قال ابن عباس : جنود السموات : الملائكة وجنود الأرض : المؤمنون . ﴿١٦﴾ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴿١٧﴾ أى : وكان الله غالباً لا يرد بأسه ، حكيماً فيما دبره لخلقه .

قال الشيخ المراغى في تفسيره : ترتب على هذا الفتح أربعة أشياء للنبي ﷺ :

(١) مغفرة الذنوب . (٢) إجتماع الملك والنبوة .

(٣) الهداية الى الصراط المستقيم . (٤) العزة والمنعة .

وفاز المؤمنون بأربعة أشياء :

(١) الطمأنينة والوقار . (٢) ازدياد الإيمان .

(٣) دخول الجنات . (٤) تكفير السيئات .

(١) الأحزاب الآيتان : ٤٣ - ٤٤

(٢) آل عمران آية : ١٨٥

وجازى الكفار والمنافقين بأربعة أشياء :

- (١) العذاب .
(٢) الغضب .
(٣) اللعنة .
(٤) دخول جهنم .

بيعة الرضوان

قال تعالى :

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَلْيَأْمَأْ بِنَكَثِ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثُّنِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

معانى المفردات

﴿ شاهدًا ﴾ أى : على أمتك ، ﴿ ومبشرا ﴾ أى : بالثواب على الطاعة ، ﴿ نذيرًا ﴾ أى : بالعذاب على المعصية ﴿ تعزروه ﴾ تنصروه ، ﴿ توقروه ﴾ أى : تعظموه ، ﴿ بكرة ﴾ أول النهار ، ﴿ أصيلا ﴾ أى : آخر النهار . والمراد جميع النهار . إذ من عادة العرب أن يذكروا طرفى الشئ ويريدوا جميعه . كما يقال شرقا وغربا لجميع الدنيا .

﴿ يبايعونك ﴾ أى : يوم الحديبية إذ بايعوه على الموت فى نصرته والجهاد فى سبيل الله . ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ لأن المقصود من بيعة الرسول وطاعته طاعة الله وامثال أوامره ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ أى : هو حاضر معهم يسمع كلامهم ويرى مكانهم . ﴿ نكث ﴾ أى : نقض ﴿ أوفى ﴾ يقال أوفى بالعهد ووفى به : إذا أتمه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أتم الكلام على ما لكل من النبى ﷺ والمؤمنين من الثمرات التى ترتبت على عمله — أعقبه — بما يعمهما معاً ، فذكر أنه أرسل رسوله شاهداً على أمته ، ومبشراً لها بالثواب ومنذر إياها بالعقاب ، ثم أبان فائدة هذا الإرسال هو الإيمان بالله وتعظيمه وتسبيحه ، غدوة وعشيا ، ونصرة دينه ، ثم ذكر بيعة الحديبية (قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكة ، سميت باسم بئر هناك) وأن الذين بايعوا هذه البيعة إنما بايعوا الله ونصروا دينه ، وأن من نقض منهم العهد فوبال ذلك عائداً إليه ولا يضرن إلا نفسه ، ومن أوفى بهذا العهد فسينال الأجر العظيم ، والثواب الجزيل .

التفسير

قوله تعالى ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه﴾^(١) يقول تعالى لنبه محمد ﷺ ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾ أى : على الخلق ﴿ومبشراً﴾ أى : للمؤمنين ﴿ونذيراً﴾ أى : للكافرين كقوله تعالى ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً^(٢) وكقوله تعالى ﴿الر * كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتنعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤن كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾^(٣).

وقوله تعالى : ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه﴾ قال ابن عباس — رضى الله عنهما — وغير واحد . تعظموه . ﴿وتوقروه﴾ من التوفير وهو الإحترام والإجلال والإعظام . قال القاضي أبو الفضل عياض فى كتابه « الشفا » : فى الباب الثالث : (فى تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره)

قال الله تعالى ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه﴾ وقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾^(٤) وقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾^(٥) الثلاث الآيات وقال تعالى ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾^(٦) فأوجب الله تعالى تعزيره وتوقيره وألزم إكرامه وتعظيمه ، قال ابن عباس : تعزروه ! تُجلوه وقال المبرء : تعزروه ، تبالغوا فى تعظيمه ، وقال الاخفش تنصروه ، وقال الطبرى تعينونه ، وقرىء تعزروه بزاءيين من العز ، ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام على قول ابن عباس وغيره وهو اختيار ثعلب ، قال سهل بن عبد الله لا تقولوا قبل أن يقول وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا ، ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه وأن يفتاتوا بشيء فى ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمر ولا يسبقوه به ، وإلى هذا يرجع قول الحسن ومجاهد والضحاك والسدى والنوى ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك فقال ﴿واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ قال الماوردى اتقوه يعنى فى التقدم ، وقال

(١) سورة الاحزاب الآيات ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) سورة هود الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) سورة الحجرات آية ١ .

(٤) سورة النور آية ٦٣ .

السلام اتقوا الله في أهمال حقه وتضييع حرمة إنه سميع لقولكم عليم بفعلكم ، ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته ، وقيل كما ينادى بعضهم بعضاً باسمه . قال ابو محمد مكى أى : لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا به بالخطاب ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم لبعض ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يجب أن ينادى به : يا رسول الله ، يا نبي الله ، وهذا كقوله في الآية الأخرى ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ .

(عادة الصحابة في تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله)

قال القاضي عياض نسبة عن عمرو بن العاص قال : وما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ما أطق لأني لم أكن أملأ عيني منه . وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويتسمان إليه ويتسم لهما^(١) ، وروى أسامة بن شريك قال أتيت النبي ﷺ وأصحابه حوله كأنما على رؤسهم الطير ، (وقال عروة بن مسعود حين وجّهته قريش عام القضية إلى رسول الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه ما رأى ، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه وكادوا يقتتلون عليه ، ولا يبصق بُصاقاً ولا يتنخم نخامه إلا تلقوها بأكفهم فدلکوا بها وجوههم وأجسادهم ، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يجدون إليه النظر تعظيماً له ، فلما رجع إلى قريش قال يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه)^(٢) وقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً .. وقال البراء ابن عازب لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الأمر فأوخر سنين من هيئته .

واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم ، كما كان حال حياته ، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه ، وسنته وسماع اسمه وسيرته ، ومعاملة آله وعزته ، وتعظيم أهل بيته وصاحبته . قال أبو إبراهيم التجيبي واحب على كل مؤمن متي ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ في هيئته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله به . وكان ابن سيرين ربما يضحك فإذا ذكر عنده حديث النبي ﷺ خشع ، وكان عبد الرحمن بن مهدى إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمرهم بالسكون وقال ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ ويتأول أنه يجب من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله ﷺ :—

(١) الحديث في سنن الترمذى ح ٥ ص ٢٧٤ أبواب مناقب رسول الله رثم ٣٧٥٠ .

(٢) أنظر صحيح البخارى ح ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ كتاب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب / ط الحلبي .

— وانظر مستند الإمام أحمد ح ٤ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ .

أغر عليه للنبوة خاتم من الله من نور يلوح ويشهد
 وضم إليه اسم النبي الى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
 وشق له من اسمه ليجله فذوا العرش محمود وهذا محمد

قوله تعالى ﴿وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أى : تسبحون الله ﴿بكرة وأصيلاً﴾ أى : أول النهار وآخره
 كما قال سبحانه ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ وسبحوه بكرة وأصيلاً^(١) .
 قوله تعالى ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه
 ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾

أصل البيعة العقد الذى يفقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد والذى التزمه
 له ، والمراد بها هنا بيعة الرضوان بالحديبية ، وسبب هذه البيعة العظيمة أن النبي ﷺ أعلن في المسلمين
 أنه يتوجه الى مكة معتمراً — وكان هذا في شهر ذى القعدة ، آخر سنة ست للهجرة — فتبعه جمع كبير
 من المهاجرين والأنصار بلغ عددهم ألفاً وأربعمائة تقريباً . وأحرم ﷺ في الطريق وسافر معه الهدى ليأمن
 الناس من حربه ، وليعلموا أنه إنما خرج زائر للبيت ومعظما له .

وأرسل ﷺ وهو عند ذى الحليفة عيناً له من قبيلة خزاعة اسمه بشير بن سفيان ليأتيه بخير أهل مكة
 وسار النبي ﷺ حتى وصل الى غدير الأشطاط ، فأتاه العين الذى كان قد أرسله ، فقال له : إن قريشا
 جمعت لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلون وصادقون عن البيت وما نعوك ، فقال اشيروا
 أيها الناس . فقال له أبو بكر : يا رسول الله خرجت عامراً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ،
 فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه قال : امضوا على اسم الله^(٢) .

ثم قال : من رحل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فقال له رجل من بنى أسلم : أنا
 يا رسول الله فسلك بهم طريقاً وعراً بين الشعاب وسار النبي ﷺ وأصحابه حتى إذا كانوا في ثنية المزار
 (وهى طريق فى الجبل تشرف على الحديبية) بركت به راحلته ، فقال الناس : حل ، حل (اسم صوت
 كانوا يزعجون به الجمال) فلم تتحرك ، فقالوا : خلأت القصواء ، فقال ﷺ : ما خلأت ، وما ذاك
 لها بخلق — ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذى نفسى بيده لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمت
 الله إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على صغيرة قليلة الماء ، فلم
 يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه
 فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صاروا عنه^(٣) ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب — رضى

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٤١ ، ٤٢

(٢) أنظر صحيح البخارى بماشيه السندى ح ٣ ص ٤٥ . باب عزة الحديبية .

(٣) أنظر صحيح البخارى بماشيه السندى ح ٢ ص ١٢٠ . باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

الله عنه — لبيعته إلى مكة ليبذل عنه أشرف قريش ما جاء له فقال يا رسول الله أنى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى عدى بنى كعب من يمننى وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان تبعته إلى أبى سفيان وأشرف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة ، فخرج عثمان — رضى الله عنه — إلى مكة فلقه أبان بن سعيد بن العاصى حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان — رضى الله عنه — حتى أتى أبا سفيان وعظماً قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان — رضى الله عنه — حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين إن عثمان — رضى الله عنه — قد قتل فقال ﷺ : « لا نبرح حتى نناجز القوم »^(١) ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون بايعهم رسول الله ﷺ على الموت^(٢) فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين إلى المودة والصلح ، وكان قد أتى رسول الله ﷺ أن الذى بلغه من أمر عثمان كذب ، فتم الصلح ومشى بعضهم إلى بعض على أن يحج رسول الله ﷺ فى العام القابل ويدخل مكة .. فقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ أى : إن الذين يبايعونك بالحديبة من أصحابك على ألا يفروا عند لقاء العدو ، ولا يولوهم الأدبار ، إنما يبايعون الله ببيعهم إياك ، وقد ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك قال تعالى ﴿ مَنْ يَطْعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وقال ﷺ فى الحديث الصحيح « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : ومن أبى يا رسول الله ، قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى »^(٣) .

وقوله تعالى ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم فهو تعالى هو المبيع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾^(٤) .

وقوله تعالى ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أى فمن نقض العهد الذى عقده مع النبى ﷺ فإن ضرر ذلك راجع إليه ولا يضر إلا نفسه .

وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ ﴾ أى : ومن وفى بعهد البيعة فله الأجر والثواب فى الآخرة ، سيدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يجد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(١) أنظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٧٨٠ باب بيعة الرضوان

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٩ ص ١١٤ كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة باب الإقتدار بسنن رسول الله ﷺ .

(٣) سورة التوبة آية ١١١

مواقف لبعض الأعراب

قال تعالى :

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزِينَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِنَاخِذُهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١٧﴾

معانى المفردات

(المخلفون) واحد مخلف ، وهو المتروك في المكان خلف الخارجين منه ، (ضراً) المراد : ما يضر من هلال الأهل والمال وضياعهما ، (نفعاً) المراد به : ما ينفع من حفظ المال والأهل . (ينقلب) أن : يرجع . (إلى أهليهم) أى : عشائريهم وذوى قرباهم (بوراً) أى : هالكين (سعيراً) أى نارا مسعورة موقدة ملتهبة . (الى مغانم) المراد بالمغانم هنا مغانم خير ، فإنه عليه رجع من الحديبية في ذى الحجة ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرة . (يريدون أن يبدلوا كلام الله) المراد بتبديل كلام الله الشركة في المغانم دون أن ينصروا دين الله ويعلموا كلمته ، (يفقهون) أى يفهمون والمراد بالفهم القليل فمنهم لأموال الدنيا دون أمور الدين . (البأس) النجدة وشدة المراس في القتال ، (الحرج) الإثم والذنب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين فيما سلف وبين أن الله غضب عليهم وأعد لهم شعيراً — أردف ذلك قبائل من العرب تخلفوا عن رسول الله ﷺ لما استنزفهم عام الحديبية حين أراد السير إلى مكة معتمراً ، وساق معه الهدى ليُعلم أنه لا يريد حرباً ، وأعتلوا بأن أموالهم وأهلهم قد شغلهم ففضحهم الله في هذه الآيات وأخبر بأنه أعد لهؤلاء وأمثالهم ناراً موقدة تطلع على الأفئدة . ثم أخبر سبحانه أنهم سيقولون دعونا نتبعكم ونسر معكم إلى غزو خيبر ، حين توقعوا ما سيكون فيها من مغنم ولو كانت التلعة السالفة حقاً ما طلبوا السير معه بحال فبين سبحانه كذبهم في هذه المَعذرة وأنهم لا يخرجون إلا للدنيا فقط . ثم أردف ذلك بيان أن باب القتال لا يزال مفتوحاً أمامكم ، فإن شئتم أن تبرهنوا على مالكم من بلاء في ميدان القتال فاستعدوا فستنديون إلى مواجهة قوم أولى بأس شديد ، فإما أن يسلموا وإما أن تبارزوهم حتى تبيدوا خضراءهم ، فإن اجبتم داعي الله أنابكم ما فعلتم جزيل الأجر ، وأن نكصم على أعقابكم كما فعلتم من قبل فستجزون العذاب الأليم . ثم ذكر سبحانه الأعداء المبيحة للتخلف عن الجهاد . ومنها ما هو لازم كالعمى والعرج ، ومنها ما هو عارض يطرأ ويزول كالمرض رغم أعقب ذلك بالترغيب في الجهاد والوعيد بالعذاب الأليم من مذلة في الدنيا ونار موقدة في الآخرة لمن نكل عنه وأقبل على الدنيا وترك ما يقربه من ربه .

التفسير

قوله تعالى ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ .

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ مما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهلهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لاعلى سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة ولهذا قال تعالى ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ وهذا هو النفاق المحض ﴿ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ﴾ وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ويعجل لهم النفع ، ويبين سبحانه أنه العليم بسرائرهم وضمائرهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ فيعلم أن تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من المعاذير بل كان شكاً ونفاقاً كما فصل ذلك بقوله تعالى : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ أى لم يكن تخلفكم تخلف معذوراً ولا عاص بل تخلف نفاق فاعتقدتم أن الرسول والمؤمنين سيقتلون وتستأصل شأفتهم فلا يرجعون إلى أهلهم أبداً ، وزين لكم الشيطان ذلك الظن حتى قعدتم عن صحبتته ، وظننتم أن الله لن ينصر محمداً وصحبه المؤمنين .

على أعدائهم ، ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ وقد صرتم بما قلتم قوماً هلكى لا تصلحون لشيء من الخير ، مستوجين سخط الله وشديد عقابه .

ثم أخبر سبحانه عما أعدّه للكافرين به فقال : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا اعتدنا للكافرين سعيراً ﴾ أى : ومن لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر .

ثم بين تعالى أنه الحاكم المتصرف فى أهل السموات والأرض فقال تعالى ﴿ والله ملك السموات والأرض ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أى : وكان الله كثير المغفرة والرحمة ، يختص من يشاء بمغفرته ورحمته دون من عداهم من الكافرين منهم بم عزل عن ذلك .

وفى الآية حث لهؤلاء المتخلفين عن رسول الله ﷺ على التوبة والمراجعة إلى أمر الله فى طاعة رسوله ﷺ — وطلب المبادرة بها ، فإن الله يغفر للتائبين ويرحمهم إذا أنابوا إليه ، وأخلصوا العمل له .

قوله تعالى : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً ﴾ . هذا أخبار من الله سبحانه وتعالى عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية إذ ذهب النبى ﷺ وأصحابه — رضى الله عنهم — إلى خير يفتحونها — أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغانم وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم فى ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خير وخدمهم لا يشارك فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً ولهذا قال تعالى ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ قال مجاهد وقتادة وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية . وقال ابن جريج (يريدون أن يبدلوا كلام الله) يعنى بتثيبتهم المسلمين عن الجهاد . (قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) أى : وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم (فسيقولون بل تحسدوننا) أى : أن نشرركم فى الغنائم (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً) أى ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم .

قوله تعالى : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ .

أى : قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية (الذى تقدم ذكرهم إنكم يتفدون الى قتال قوم أولى بأس شديد) قال ابن عباس : ومجاهد : هم فارس وقال كعب والحسن : الروم وقال ابن جبير : هوازن وثقيف ، وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين ، وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنين أهل اليمامة أصحاب مسلمة والمراد قل لهؤلاء المحلفين الذين تقدم ذكرهم - إنكم ستفدون الى قتال قوم من اول البأس والنجدة ، فعليكم أن تخيروهم بين أمرين : أما السيف وإما الاسلام ، وهذا حكم عام فى مشركى العرب والمرتدين يجب اتباعه .

ثم وعدهم إذا أجابوا بقوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ أى : فإن تستجيبوا وتنفروا للجهاد وتؤدوا ما طلب منكم أداؤه — يؤتكم ربكم الأجر الحسن ، والثواب الجزيل ، فتنالوا المغنم في الدنيا ، وتدخلوا الجنة في الآخرة . ثم أوعد سبحانه من نكص على عقبة بقوله ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : أن تعصوا ربكم وتخالفوا أمره ، فتركوا قتال أولئك القوم إذا دعيتهم إلى قتالهم كما عصيتهم في أمرهم إياكم بالمسير مع رسوله ﷺ إلى مكة يعذبكم العذاب الأليم بالذلة في الدنيا ، والنار في الآخرة .

ثم ذكر سبحانه الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر وعارض كالمرض الذى يطرأ أياماً ثم يزول فهو في حال مرضه يلحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ فقال تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

قال ابن عباس : لما نزلت (وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً) قال أهل الزمالة : كيف بنا يا رسول الله ؟ فنزلت (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) أى : لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد .

ثم قال تعالى : مرغبا في الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ وقوله ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : ومن ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش (يعذبه عذاباً أليماً) في الدنيا بالمدلة وفي الآخرة بالنار كما قال تعالى ﴿ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

وأخرج الامام أحمد في سننه عن ابن عمر — رضى الله عنه — قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً حتى ترجعوا إلى دينكم » (٢) .

(١) سورة التوبة آية ٣٩

(٢) الحديث في سنن أبى داود ح ٣ ص ٧٤٠ ، ٧٤١ كتاب البيوع باب فى النهى عن العينة رقم ٣٤٦٤ . واللفظ له . — انظر مسند أحمد ح ٢ ص ٤٢ ، ٨٤ عن ابن عمر مع اختلاف فى اللفظ وتقديم وتأخير .

بيعة الرضوان وصلاح الحديبية

قال تعالى

* لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّعُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

معاني المفردات

(السكينة) : الطمأنينة والأمن وسكون النفس ، (فتحاً قريباً) : هو فتح خبير عقب انصرافهم من الحديبية ، (مغانم كثيرة) : هي مغانم خبير (عزيزاً) أى : غالباً (حكيماً) أى : يفعل على مقتضى الحكمة في تدبير خلقه . (فعجل لكم هذه) أى : مغانم خبير (أيدى الناس) أى : أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها الى الحديبية (آية) أى : أمانة للمؤمنين يعرفون بها^(١) صدق الرسول ﷺ^(٢) حياطة الله لرسوله وللمؤمنين^(٣) معرفة المؤمنين الذين سيأتون بعد أن كلائته تعالى ستعلمهم أيضاً ماداموا على الصراط المستقيم . (وأخرى) المراد مغانم فارس والروم ، (أحاط الله بها) أى : أعدها لكم وهى تحت قبضته يظهر عليها من أراد (لولوا الأدبار) أى : لا نهزموا ، (سنة الله) أى : سن سبحانه

غلبة أنبيائه كقوله ﴿لَأُغْلِبَنَّ أَنَا وَرَسُولِيَ﴾ ، ﴿أَيَّدِيهِمْ عَنْكُمْ﴾ أى : أيدى كفار مكة ، ﴿وَأَيَّدِيكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعنى بالحديبية ﴿أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أى : أعلى كلمته وجعلكم ذوى غلبة عليهم (الهدى) قرباناً لله حين أداء مناسك الحج أو العمرة ﴿مَعْكُوفًا﴾ أى : محبوساً ، (محله) أى : المكان الذى يسوغ فيه نحره وهو منى . (الوطاء) المراد به الإهلاك ، (والمعرة) المكروه والمشقة ﴿التنزِيل﴾ التفرق والتميز ، ﴿الحماية﴾ الأنفة ﴿حِمْيَرُ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ حمية فى غير موضعها لا يؤيدها دليل ولا برهان (كلمة التقوى) هى لا إله إلا الله ﴿وَأَهْلُهَا﴾ أى : المستأهلين .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه حال المخلفين فيما سلف — عاد إلى بيان حال المبايعين الذين ذكرهم فيما تقدم بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ فأبان رضاه عنهم لأجل تلك البيعة لما علم من صدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى بيعتهم أخرج البخارى عن سلمة قال : « بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت »^(١) وعن جابر أن النبى ﷺ قال « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »^(٢) أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى .

ثم وعدهم سبحانه بمغانم كثيرة من خير بعد عودتهم من الحديبية وسيؤتيهم سبحانه مغانم أخرى من فارس والروم وغيرها ما كانوا يقدرون عليها لولا الإسلام ، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لهذه الدول فأقدرهم الله عليها بعز الإسلام .

ثم ذكر سبحانه أنه لو قاتلهم أهل مكة ولم يصالحوهم لانهمزوا ولم يجدوا ولياً ولا نصيراً يدافع عنهم ، وتلك هى سنة الله من غلبة الكافرين وخذلان الكافرين . ثم أمتن على عباده المؤمنين بأنه كف أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، فصان كلاً من الفريقين عن الآخر ، وأوجد صلحاً فيه خيرة للمؤمنين ، وعافية لهم فى الدنيا والآخرة . ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات بمكة لا علم لهم بهم فيلزمهم العار والأثم — لأذن لهم فى دخول مكة ، ولقد كان الكف ومنع التعذيب لأهل مكة ليُدخل الله فى دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقبل دخولها ، ولينعن الأذى عن المؤمنين منهم ، ولو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض لعذب الذين كفروا منهم عذاباً أليماً بالقتل والسبى حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية التى تمنع من الإذعان

(١) الحديث فى صحيح البخارى ح ٣ ص ٤٤ باب غزوة الحديبية . ط / الحلبي .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ١٩٤٢ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة رقم ١٦٣ / ٢٤٩٦ .

— انظر مسند احمد ح ٣ ص ٣٥٠ مسند جابر .

— انظر سنن أبى داود ح ٥ ص ٣٥٠ ابواب المناقب باب فضل من بايع تحت الشجرة . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

للاحق ، ولكن أنزل الله الثبات والوقار على رسوله وعلى المؤمنين فامتنعوا أن ييطشوا بهم ، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بذلك من غيرهم إذ اختارهم الله لدينه وصحبه نبيه ﷺ .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ ﴾ .

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة وكانوا ألفاً وأربعمائة . قال ابن أبي حاتم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : بينما نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس : قال فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ۝ ﴾ قال فبايع رسول الله ﷺ لعثمان — رضى الله عنه — بإحدى يديه على الأخرى فقال الناس هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا فقال رسول الله ﷺ « لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف بالبيت حتى أطوف »^(١)

وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ۝ أَى : مِنَ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ۝ ﴾ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ۝ وَهِيَ الطَّمَأْنِينَةُ . ﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ ﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ ﴾ وكان الله ذا عزة في انتقامه ممن انتقم من أعدائه ، حكيماً في تدبير أمر خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ ﴾ .

قال ابن كثير : قال مجاهد في قوله تعالى ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ۝ ﴾ هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿ فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ ۝ ﴾ يعنى فتح خيبر ، وروى العوفي عن ابن عباس — رضى الله عنهما — (فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ) يعنى صلح الحديبية (وكف أيدي الناس عنكم) أى : ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم ، من عيالكم وحريمكم (ولتكون آية للمؤمنين) أى يتعبرون بذلك فإن الله تعالى حافظهم ، وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم ، أنه العالم بعواقب الأمور ، وأن الخير فيما يختاره لعباده المؤمنين ،

وإن كرهوه في الظاهر ، كما قال تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾^(١) وقوله تعالى ﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ أى بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته وموافقكم رسوله — ﷺ — .

وقوله تبارك وتعالى ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ أى : وغنيمة أخرى وفتحاً آخر ومعينا لم تكونوا قادرين عليها قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة فما المراد بها فقال العوفي عن ابن عباس — رضى الله عنهما — هى خير ، وقال قتادة هى مكة واختاره ابن جرير ، وقال الحسن البصرى هى فارس والروم ، وقال مجاهد هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة .

قوله تعالى ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ولا نهزم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً وهذه سنة الله وعادته فى خلقه كقوله تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾^(٢) وكقوله تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾^(٣) .

﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ .

هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين فلم يصل إليهم منهم سوء وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيره للمؤمنين وعافية فى الدنيا والآخرة .

وروى الترمذى عن ثابت بن أنس « أن ثمانين هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه ، فأخذوا أخذاً فأعتقهم رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ﴾ قال الترمذى هذه حرف حسن صحيح^(٤) .

وقول تعالى ﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ .

(١) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٢) سورة غافر آية ٥١ .

(٣) سورة المجادلة آية ٢١ .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ح ٥ ص ٥٢ أبواب التفسير سورة الفتح رقم ٣٣١٧ وقال الترمذى . هذا حديث حسن صحيح .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالاهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿ هُم الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى هم الكفار دون غيرهم ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أى : وأنتم أحق به ، وأنتم أهله فى نفس الأمر . ﴿ وَاهْدَىٰ مَعَكُمْ أَنْ يُلَاحِظَ مَحَلَّهُ ﴾ وهذا من بغيهم وعنادهم ، وكان الهدى سبعين بدنه . روى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين ، فحال كفار قريش دون البيت ، فنحر رسول الله ﷺ بدنه وحلق رأسه قيل : إن الذى حلق رأسه يومئذ خراش بن أمية الخزاعى ، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينحروا ويحلقوا ، ففعلوا بعد توقف كان معهم أغضب رسول الله ﷺ فقالت له أم سلمة : لو نحرت لنحرو ، فنحر رسول الله ﷺ هديه ونحروا بنحره وحلق رسول الله ﷺ رأسه ودعا للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة^(١) وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : نحرونا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، وحضر جابر الحديبية قال : ونحرونا يومئذ سبعين بدنة^(٢) .

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ لَا رَجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِّدُخُلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَّشَاءُ . لَوْ تَزِيلُوا ، لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفه على أنفسهم من قومهم لكننا سلطناكم عليهم فقتلتموهم ، وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفئدتهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم . حالة القتل ، ولهذا قال تعالى ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ ﴾ أى : إثم وغرامة (بغير علم) قال القرطبي فى قوله تعالى ﴿ بَغِيرَ عِلْمٍ ﴾ تفضيل للصحابة وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدى ، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحداً لكان عن غير قصد .

وقوله تعالى ﴿ لِّدُخُلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَّشَاءُ ﴾ اللام فى « ليدخل » متعلقة بمحذوف ، أى : لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته ويجوز أن تتعلق بالإيمان وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ، وكذلك كان ، أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا فى رحمته ، أى : جنته .

وقوله تعالى ﴿ لَوْ تَزِيلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ يَكْفُرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : لو تميز الكفار عن المؤمنين الذين بين أظهرهم لسلطانكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً .

(١) انظر صحيح البخارى ح ٥ ص ٢٥٢ كتاب الشروط فى الجهاد والصحيح والصلح مع أهل الحرب

— وانظر صحيح مسلم ح ٢ ص ٩٤٦ كتاب الحج رقم ٣١٨ / ١٣٠١ .

— وانظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٠١٢ كتاب المناسك رقم ٣٠٤٤

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الحج باب الاستدراك فى الهدى ح ٢ ص ٩٥٥ حديث ٣٥٠ / ١٣١٨ من رواية عن جابر والحديث بلفظه .

— وانظر سنن الترمذى « كتاب الحج » باب الاستدراك فى البدنه والبقرة ح ٢ ص ١٩٤ حديث رقم ٩٠٦ عن رواية لجابر والحديث بلفظه .

وقوله تعالى ﴿ إذا جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ .

قال الزهري حميتهم : أنفتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة ، فحدث الزهري أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وقالوا ائت محمداً فصالحه ، ولا تلن في صالحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا يتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً ٢ فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلموا وأطالا الكلام وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح ... ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ « اكتب باسمك اللهم » هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل ابن عمرو^(١) وقوله تعالى ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ﴾ وهي قول لا إله إلا الله .

قال ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة — رضى الله عنه — أخبره أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل »^(٢) ، وأنزل الله عز وجل في كتابه وذكر قوماً فقال ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ وقال جل ثناؤه ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة ...

(قال ابن كثير هذه الزيادات الظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري والله أعلم) .
وقوله تعالى ﴿ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ أى : كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ أى : هو سبحانه عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر .

(١) أنظر صحيح البخارى بإشبه السندى ح ٢ ص ١٢٢ كتاب الشروط والصلح مع أهل الحرب . ط الحلبي .

(٢) الحديث في صحيح مسلم ح ١ ص ١ ، ٥٢ كتاب الإيمان . باب الأبقال الناس حتى يقول لا إله إلا الله . رقم ٣٢ / ٢٠ ، ٣٣ / ٢١ .

ومما روى « أن عمر بن الخطاب قال : أتيت النبي ﷺ فقلت أأنت نبي الله حقا ؟ قال بلى ، قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذن ؟ قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري ، قلت : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال بلى ، قلت ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال بلى ، قلت فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستمسك بعرزته (سر على نهجه) فوالله إنه لعلى الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به ؟ قال بلى : أفأخبرك أنه آتية العام ؟ قلت لا ، قال فإنك تأتية وتطوف به »^(١) ثم ذكر سبحانه وتعالى أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليعلى شأنه على سائر الأديان ثم أردف هذا بيان حال الرسول وأصحابه الغر الميامين ، فوصفهم كلها مدائح لهم ، وذكرى لمن بعدهم ، وبها سادوا الأمم ، وامتلكوا الدول وقبضوا على ناصية العالم أجمع .

التفسير

قوله تعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ .

يقول ابن كثير : كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تفسر هذا العام فلما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل ، وقع في نفس بعض الصحابة — رضى الله عنهم — من ذلك شيء . حتى سأل عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — في ذلك فقال له فيما قال أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى أفأخبرتكم أنك تأتية عامك هذا ؟ قال لا ، قال النبي ﷺ « فإنك آتية ومطوف به » وبهذا أجاب الصديق — رضى الله عنه — أيضا خذو القذة بالقذة ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء في شيء .

وقوله عز وجل ﴿ آمنين ﴾ أى : في حال دخولكم . وقوله ﴿ محلقين رؤوسكم ومقصرين ﴾ حال مقدرة لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين وإنما كان هذا في ثاني الحال ، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره ، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « رحم الله المحلقين » قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ « والمقصرين » في الثالثة أو الرابعة^(١) .

(١) أنظر صحيح البخارى بياشية السندى ح ٢ ص ١٢٢ كتاب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب . ط / الحلبي .

(١) الحديث في صحيح مسلم ح ٢ ص ٩٤٦ كتاب الحج . باب تفصيل الحلق على التقصير رقم ٣١٨ / ١٣٠١ .

— أنظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٠١٢ كتاب المناسك . باب الحلق رقم ٣٠٤٤ .

الرسول وصحبه

قال تعالى

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

معاني المفردات

(محلقين رؤوسكم ومقصرين) أى : يخلق بعضكم ويقصر بعض آخر بإزالة بعض الشعر ، (ليظهره على الدين كله) أى : ليعليه على سائر الأديان حقها وباطلها (أشداء) واحد هم شديد (رحماء) رحيم (فضلاً) ثواباً (سيماهم) السيماء من السومة (بالضم) وهى العلامة . (مثلهم) وصفهم (الشطاء) فروخ الزرع ، وهو ما خرج منه وتفرع فى شاطئيه : أى : جانبيه وجمعه أشطاء وشطاء الزرع : إذا أخرج فراخه ، وهو فى الحنطة والشعير والنخل وغيرها ، (آزره) أعانه وقواه وأصله من المؤازره وهى المعاونة ، (استوى على سوقه) أى : استقام على قصبه وأصوله والسوق واحد لها ساق .

المناسبة وإجمال المعنى

قال قتاده :

رأى عليه الصلاة والسلام فى المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ، فاخبر بذلك ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، فلما انصرفوا لم يدخلوا شق ذلك عليهم ، وقال المنافقون : إين رؤياه التى رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا فى العام المقبل .

وقوله تعالى ﴿ لا تخافون ﴾ حال مؤكدة في المعنى فأثبت لهم الأ من حال الدخول ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه ، بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدوا أخذ غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه وأبو موسى الأشعري وأصحابه — رضى الله عنهم — ولم يغب منهم أحد قال ابن زيد إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه ، ثم رجع إلى المدينة . فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدى ، قيل كان ستين بدنه ، فلبى وسار أصحابه يلبون . فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث محمد بن سلمة بالخيول والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين فذهبوا فأخبروا أهل مكة فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مععدة في قربها كما شارطهم عليه فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن صفحى فقال يا محمد ما عرفناك تنقض العهد ؟ فقال ﷺ « وماذا ؟ » قال دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح ، فقال ﷺ « لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ فقال بهذا عرفناك بالبر والوفاء وخرجت رعوس الكفار من مكة لئلا ينظرون إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه — رضى الله عنهم — غيظاً وحنقاً وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فدخلها ﷺ وبين يديه أصحابه يلبون والهدى قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية وعبد الله بن رواحه أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول :

باسم الذى لا دين إلا دينه	باسم الذى محمد رسوله
خلوا بنى الكفار عن سبيله	اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله	ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله	قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تتلى على رسوله	بأن خير القتل في سبيله

يارب إني مؤمن بقبيله

وقال ابن إسحاق : وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه في غسرة وجهد وشدة : قال : فصنف له المشركون عند دار الندوة ، لينظروا إليه وإلى أصحابه فلما دخل رسول الله ﷺ اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمين ثم قال : « رحم الله أمرا أراهم اليوم »

من نفسه قوة»^(١) ثم استلم الركن وخرج يهول ويهول أصحابه معه ، حتى هروا كذلك ثلاثة أطواف ، ومشى سائرهما قال . فكان ابن عباس يقول : كان الناس يظنون أنها ليست عليهم (أى ليست سنة عامة) وذلك أن الرسول إنما صنعها لهذا الحى من قريش للذى بلغه عنهم ، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها ، فمضت السنة بها .

وقوله تعالى ﴿ فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ أى : فعلم الله عز وجل من الخير والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ فجعل من دون ذلك ﴾ أى : قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ فتحاً قريباً وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين .

ثم قال تبارك اسمه مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه وعلى سائر أهل الأرض .
﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ أى : هو سبحانه الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ليعليه على كل الأديان ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان كائن لا محالة .
ونحو الآية قوله تعالى ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾^(٢)

المستقبل للإسلام

كتب الشيخ نصر الدين الألبانى تحت هذا العنوان ما نصه :
قال الله عز وجل ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾

تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها ، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق فى عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين ، وليس كذلك ، فالذى تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق ، كما أشار إلى ذلك النبى ﷺ بقوله « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقالت عائشة : يا رسول الله إن كنت لا أظن حين أنزل الله ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ أن ذلك تماماً ،

(١) انظر سيرة ابن هشام ح ٣ ص ٨٢٧ عمرة القضاء .

(٢) سورة الصف آية ٩ .

قال إنه سيكون من ذلك ما شاء الله .. »^(١) الحديث رواه مسلم وغيره .

وقد وردت أحاديث أخرى توضح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره بحيث لا يدع مجالاً للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه ، وها أنا أسوق ما تيسر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سبباً لشحذ هم العاملين للإسلام ، وحجة على اليائسين المتواكلين .

الحديث الأول : قال ﷺ « إن الله ذوى (أى جمع وضم) لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ... »^(٢) الحديث رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى .

والحديث الثانى : قوله ﷺ « ليلغنى هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به دين الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر »^(٣) رواه الجماعة .

الثالث : « عن أبى قبيل قال كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل أى المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتاباً قال : فقال عبد الله بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ (مدينة هرقل تفتح أولاً يعنى قسطنطينية)^(٤) رواه أحمد والدرامى وصحح الحاكم ووافقه الذهبى وهو كما قال : (ورومية) هى روما كما فى (معجم البلدان) وهى عاصمة إيطاليا اليوم وقد تحقق الفتح الأول على محمد الفاتح العثمانى ، كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من أخبار النبى ﷺ بالفتح ، وسيتحقق الفتح الثانى بإذن الله تعالى ولا بد ، (ولتعلمن نبأه بعد حين) . ولا شك أيضاً أن تحقيق الفتح الثانى يستدعى أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة وهذا مما ييشرنا بقوله ﷺ فى الحديث الرابع :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها ما شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء الله أن يرفعها . ثم تكون ملكاً عاصياً فيكون ملكاً جبرياً فتكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت »^(٥) ذكره حذيفة مرفوعاً ، رواه الحافظ العراقى من طريق أحمد وقال هذا حديث صحيح .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢٣٠ كتاب الفتن . باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخصلة برقم ٥٢ / ٢٩٠٧ .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢١٥ كتاب الفتن وأشراف الساعة . باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض . رقم ١٩ / ٢٨٨٩ .
— انظر سنن أبى داود ح ٤ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ كتاب الفتن والملاحم . باب ذكر الفتن ودلائلها . رقم ٤٢٥٢ .
— انظر سنن الترمذى ح ٣ ص ٣١٩ كتاب الفتن باب سؤال النبى ﷺ ثلاث فى أمتة . رقم ٢٢٦٧ . وقال الترمذى . هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ١٠٣ ابن عامر عن نعيم الوارى .

(٤) الحديث فى مسند أحمد ح ٢ ص ١٧٦ مسند عبد الله بن عمرو بن العاص .

— انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم . ح ٤ ص ٥٥٥ كتاب الفتن والملاحم .

(٥) الحديث فى مسند أحمد ح ٤ ص ٢٧٣ مسند حذيفة .

هذا وإن من المبشرات بعودة القوة إلى المسلمين واستثمارهم الأرض استثماراً يساعد على تحقيق الغرض وتنبؤ عن أن لهم مستقبلاً باهراً حتى من الناحيتين الإقتصادية والزراعية قوله ﷺ :
« لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً »^(١) رواه مسلم .

وقد بدأت تبشير هذا الحديث تتحقق في بعض الجهات من جزيرة العرب بما أفاض الله عليها من خيرات وبركات وآلات ناضحات تستنبط الماء الغزير من بطن أرض الصحراء ، وهناك فكرة بجر نهر الفرات إلى الجزيرة ، كنا قرأناها في بعض الجرائد العلمية فلعلها تخرج إلى حيز الوجود ، وإن غداً لناظره قريب .
هذا ومما يجب أن يعلم بهذه المناسبة أن قوله ﷺ « لا يأتي عليك زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم »^(٢) رواه البخارى في باب الفتن .

فهذا الحديث ينبغى أن يفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة وغيرها مثل أحاديث الهدى ونزول عيسى بن مريم ، فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومهم فيقعوا في اليأس الذى لا يصح أن يتصف به المؤمن (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) أ . هـ .

قوله تعالى ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ .

قوله تعالى ﴿ محمد رسول الله ﴾ « محمد » مبتدأ « ورسول » خبره وقيل « محمد » ابتداء « ورسول الله » نعتة ﴿ والذين معه ﴾ أصحابه الكرام الغر الميامين ﴿ أشداء على الكفار ﴾ أى : غلاظ عليهم كالأسد على فريسته ﴿ رحماء بينهم ﴾ أى : يرحم بعضهم بعضاً فهم متعاطفون متوادون .

وقوله تعالى ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ أخبار عن كثرة صلاتهم وإرضائهم لربهم ﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ وهذا إخبار عن إخلاصهم منهم يطلبون بأعمالهم الجنة ورضا الله سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى ﴿ سيماهم من أثر السجود ﴾ السيمة : العلامة ، أى لاحت علامات التهجد بالليل وأمارات السهر . وقد روى « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار »^(١) قال الحسن : هو بياض يكون في الوجه يوم القيامة وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ من حديث أبى هريرة وفيه « ... حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته ممن أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من

(١) انظر صحيح مسلم كتاب الزكاة « باب الترغيب في الصدقة » ح ١ ص ٧٠١ حديث رقم ٦٠ / ١٥٧ فقد ورد الحديث في حديث طويل لأبى هريرة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب القيم باب لا يأتي زمان إلا الذى بعده شر منه » ح ٩ ص ٦١ ؛ ٦٢ فقط ورد الحديث في حديث طويل لأنس .

النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ، ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله ، فيعرفونهم من النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود « (٢) » .

وقال ابن عباس ومجاهد : السيماء في الدنيا وهو السميت الحين وعن مجاهد أيضاً : هو الخشوع والتواضع . قال منصور : سألت مجاهداً عن قوله تعالى ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ أهو أثر يكون بين عيني الرجل ؟ قال : لا ربما يكون بين عيني الرجل مثل رُكبة العنز وهو أقسى قلباً من الحجارة ! ولكنه نور في وجوههم من الخشوع .

وقوله تعالى ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴾ قال ابن عباس وغيره : هما مثلان ، أحدهما في التوراة والآخر في الإنجيل ؟ فيوقف على هذا ، على « التوراة » ويكون تمام الكلام ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ ثم ابتداء فقال ﴿ ومثلهم في الإنجيل ﴾ وقال مجاهد : هو مثل واحد ، يعني ، أن هذه صفتهم في التوراة والإنجيل ، فلا يوقف على « التوراة » على هذا ، ويوقف على « الإنجيل » ويتبدى ﴿ كزرع أخرج شطأه ﴾ على معنى وهم كزرع .

وقوله تعالى ﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ .

قال القرطبي : هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثر ، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوى أمره ، كالزراع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد الحال حتى يغلظ نباته وأفراخه ، فكان هذا من أصلح مثل وأقوى بيان . وقال قتاده : مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر .

(فآزره) أى : قواه وأعانه وشده ، أى : قوى الشطء الزرع وقيل بالعكس ، أى : قوى الزرع الشطء . وقوله ﴿ فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾ أى : على عوده الذى يقوم عليه فيكون ساقاً له .

وقوله تعالى ﴿ يعجب الزراع ﴾ أى : يعجب هذا الزرع زراعه وهو مثل كما بينا ، فالزراع محمد ﷺ والشطء أصحابه ، كانوا قليلاً فكثروا ، وضعفاء فقروا ، قاله الضحاك وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ اللام متعلقة بمحذوف ، أى : فعل الله هذا لمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار .

وقوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم ﴾ أى : وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ، وهم المؤمنون الذين آمنوا بالله وأجرهم عظيماً ﴾ أى : ثواباً لا ينقطع وهو الجنة .

وليسبت « من » في قوله « منهم » مبعوضة لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة مجنسة ، مثل قوله تعالى ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾^(١) لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس أى : فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتى ، منها الزنى ، والربا ، وشرب الخمر والكذب . فأدخل « من » يفيد بها الجنس وكذا « منهم » أى : هذا الجنس ، يعنى جنس الصحابة .

مكانة الصحابة في الإسلام

روى أبو عروة الزبيرى عن ابن الزبير : كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك بن أنس هذه الآية ﴿ محمد رسول الله والذين معه ﴾ حتى بلغ ﴿ يعجب الزراع ليغيب بهم الكفار ﴾ .

فقال مالك : من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية ، ذكره الخطيب أبو بكر .

قال القرطبي : لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله . فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد ردّ على الله رب العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين ، قال الله تعالى ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ﴾ الآية .

وقال ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ إلى غير ذلك من الآي التي تضمنت الثناء عليهم ، والشهادة لهم بالصدق والفلاح قال الله تعالى ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾^(٢) وقال ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾^(٣) ثم قال تعالى ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ إلى قوله ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾^(٤) وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم وقال رسول الله ﷺ « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم »^(٥) وقال « لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه » أخرجه البخارى^(٦) .

(١) سورة الحج آية ٣٠

(٢) الاحزاب آية : ٢٣

(٣) سورة الحشر آية ٨

(٤) سورة الحشر آية ٩

(٥) الحديث في صحيح البخارى بماثبيه السندى ح ٢ ص ١٠٢ كتاب الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور . ط / الجلبى :

(٦) الحديث في صحيح البخارى ح ٥ ص ١٠ كتاب الفضائل باب أبى بكر ط / الشعب

قال أبو عبيد : معناه : لم يدرك مد أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد ، فالنصف هو النصف هنا .
وفي البزار عن جابر مرفوعاً صحيحاً : « إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبي والمرسلين واختار
لي من أصحابي أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً — فجعلهم أصحابي »^(١) .
وقال « في أصحابي كلهم خير » .

وروى عويم بن ساعدة قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل اختارني واختار لي أصحابي
فجعل لي منهم وزراء وأختاناً وأصهاراً فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله
منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً »^(٢) والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ، فحذار من الوقوع في أحد منهم . ولقد
لعن رسول الله ﷺ من سب أصحابه ، فالمكذب لأصغرهم — ولا صغير منهم — داخل في لعنة الله
التي شهد بها رسول الله ﷺ وألزمها كل من سب واحداً من أصحابه أو طعن عليه .
قال القرطبي : فالصحابه كلهم عدول أولياء الله تعالى وأصفيائه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله .
هذا مذهب أهل السنة والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة . وقد ذهبت شرذمة لا مبالاه بهم إلى أن
حال الصحابة كحال غيرهم ، فيلزم البحث عن عدالتهم ، ومنهم من فرق بين حالهم في بداءة الأمر فقال :
إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك ، ثم تغيرت بهم الأحوال ، فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء ، فلا بد
من البحث . وهذا مردود ، فإن خيار الصحابة وفضلاؤهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم — رضى الله
عنهم — ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضى الله عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى ﴿ مغفرة وأجرًا
عظيماً ﴾ ، وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة باقرار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمر
الجارية عليهم بعد نبهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم ، إذ كانت تلك الأمور
مبنية على الاجتهاد ، وكل مجتهد مصيب .

فائدة

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتاب الفوائد « قول النبي ﷺ لعمر وما يدريك أن الله أطلع
على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »^(٣) أشكل على كثير من الناس معناه فإن ظاهرة إباحة
كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاءوا منها ، وذلك ممتنع . فقالت طائفة ، منهم ابن الجوزي : ليس المراد
من قوله (اعملوا) الاستقبال وإنما هو للماضي وتقديره ، أى : عمل كان لكم فقد غفرته . قال ويدل
على ذلك شيئان : (أحدهما) أنه كان يكون إطلاقاً في الذنوب ولا وجه لذلك .

(١) الحديث في كشف الأستاذ عن زوائد البزار . ح ٣ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ رقم ٢٧٦٣ . باب مناقب أصحاب رسول الله .

(٢) الحديث في كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم . كتاب معرفة الصحابة باب لعنة الله على من سب أصحاب النبي . ح ٣ ص ٦٣٢ .

(٣) الحديث في صحيح البخارى ح ٥ ص ١٨٥ باب غزوة الفتح . ط / الشعب .

وحقيقة هذا الجواب إني قد غفرت لكم بهذه الغزوة ما سلف من ذنوبكم ، ولكنه ضعيف من وجهين (أحدهما) أن لفظ « آعملوا » بأباه ، فإنه للإستقبال دون الماضي .

وقوله ﴿ قد غفرت لكم ﴾ لا يوجب أن يكون أعملوا مثله ، فإن قوله « قد غفرت » تحقيق لوقوع المغفرة في المستقبل . كقوله ﴿ أتى أمر الله ﴾ ﴿ وجاء ربك ﴾ ونظائره . (الثاني) أن نفس الحديث يرده ، فإن سببه قصة حاطب وتجنسه على النبي ﷺ وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لا قبلها ، وهو سبب الحديث فهو مراد منه قطعاً ، فالذى نظن في ذلك — والله أعلم — أن هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم بل يموتون على الإسلام . وأنهم قد يقارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب ، ولكنه لا يتركهم سبحانه وتعالى مصرين عليها بل يوفقهم لتوبة نصوح ، واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك . ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم لأنه قد تحقق ذلك فيهم وأنهم مغفور لهم . ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم كما لا يقتضى ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقاً بالمغفرة ، فلو كانت قد حصلت بدون الإستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ، وصيام ، وحج ، ولا زكاة ، ولا جهاد ، وهذا محال ، ومن أوجب الواجبات التوبة بعد ذلك . فضمنان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة ونظير هذا قوله في الحديث الآخر « أذنب عبد ذنباً فقال أى رب أذنبت ذنباً فأغفره لى فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب آخر ، فقال أى رب أصبت ذنباً فأغفره لى فغفر له . ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنباً آخر فقال رب أصبت ذنباً فأغفره لى فقال الله : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فقد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء »^(١) فليس في هذا إطلاق وإذن منه سبحانه له في المحرمات والجرائم وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك إذا أذنب تاب .

واختصاص هذا العبد بهذا لأنه قد علم أنه لا يصبر على ذنب وأنه كلما أذنب تاب . حكم يعم كل من كانت حاله حاله ، لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر وكذلك كل من بشره رسول الله ﷺ بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له ، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصى له ، ومسامحته بترك الواجبات ، بل كان هؤلاء أشد اجتهاداً وحذراً وطوقاً بعد البشارة منهم قبلها ، كالعشرة المشهود لهم بالجنة . وقد كان الصديق شديد الحذر والخافة . وكذلك عمر فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت ومقيدة بانتفاء ، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الإطلاق : الاذن فيما شاءوا من الأعمال .

(١) صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب قوله تعالى « يريدون أن يدلوا كلام الله » ح ٩ ص ١٧٨ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة مع اختلاف في بعض الفاظ وعباراته واتحاد في المعنى .

وانظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » « باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب » ح ٤ ص ٢١١٢ حديث رقم ٢٩ ، ٣٠ / ٢٧٥٨ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى هريرة مع اختلاف في الألفاظ والعبارات واتحاد في المعنى .

كانوا رجالاً

حسبك أن تعلم أن هؤلاء الصفوة كانوا رجالاً ، والرجال قليل ، فالرجولة عملة نادرة في عصر يقول فيه القائل يخاطب شباب النيل :

شباب النيل يا زين الشاب	ويا أبناء آساد غضاب
أرى منكم فريقاً حين يمشى	يحك بأنفه طرف السحاب
يحاكي الليث في حلف وتيه	وليس لدى الخطوب بليث غاب
وأرسل شعره المضغوط يحكي	وميض البرق أو لمع السراب
ولا يخشى على شيء ويخشى	إذا ثار التراب على الثياب
برئت من الفتى يبدو فتبرو	عليه نعومته البيض الكعاب
إذا الذئب استحال بمصر ظيماً	فمن يحمى البلاد من الذئاب

فاعجب معى بعصر اختلط فيه الحابل بالنابل ، وصارت التفرقة بين الجنسين عسيرة ، إذ صار هناك جنس ثالث لا إلا هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن هنا نعلم أن الرجولة كلمة رفيعة المستوى ، طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها إلى أعماق القلوب ، لقد وصف الله تعالى أصحاب رسوله ، صلوات ربي وسلامه عليه ، بأنهم رجال ، وقد كانوا كذلك ، كانوا رجالاً في المساجد ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾^(١)

وكانوا رجالاً ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾^(٢) وكانوا رجالاً في ميادين القتال وساحات الوغى ، وعندما تصمت الألسنة ، وتنطلق الألسنة ، وتخطب السيوف على منابر الرقاب ، وتقدم النفوس على الخيط الصعاب ، فلا ترى إلا نفوساً تنثر ودماء تهدر ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾^(٣)

كانوا شباباً مكتهلين في ثيابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة إلى الباطل أرجلهم ، نظر الله إليهم في جوف الليل فإذا أصلاهم محنية على أجزاء القرآن إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ،

(١) سورة التوبة آية ١٠٨

(٢) سورة النور الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

(٣) سورة الأحزاب الآيتان ٢٢ ، ٢٣

فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهيقاً كأن زفير جهنم بين أذنيه ، جعلوا من البحر الأبيض والأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان في أرض الإسلام ، كيف تراهم ؟ إلا خاشعين قانتين إنهم الذين قال الله فيهم ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾^(١) .

قد يكون من السهل تشييد المصانع وإقامة ناطحات السحاب وبناء البوارج التي تمخر غباب الماء وتغوص في لجج البحار ، وقد يكون من السهل بناء الأساطيل التي تتركب متن الهواء ، وقد يكون من السهل بناء الجوارى في البحر كالأعلام والمصفحات التي تقطع كبد الصحراء ، ولكن ليس من السهل بناء النفوس فهو رسالة تقطع دونها الأنفاس ، عندما تولى الرئيس الأمريكى (ريتشارد نيكسون) حاكم الولايات المتحدة الأمريكية قال في خطاب له ، إن الولايات المتحدة لا تعاني أزمة مادية إنما تعاني أزمة روحانية ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء في السلع ولكننا فقراء في الروح ، نصل في قرب عظيم إلى القمر ، ونسقط في خلاف حاد على الأرض .

نعم :

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته	اتطلب الربح بما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها	فأتت بالنفس لا الجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصماً	فإن الركن إن خانتك أركان
دع الفؤاد من الدنيا وزخرفها	فصفوها كدر والوصل هجران

يرحم الله أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، وقد دار بينه وبين الصحابة هذا الحوار . قال عمر : ما الذى يتمناه كل واحد منكم ويسأل الله أن يحققه له ؟ قال أحدهم : أتمنى مثل أحد ذهباً أنفقه في سبيل الله ، وقال آخر وأنا أتمنى ملء الأرض خيلاً أغزو به في سبيل الله ، وقال ثالث : وأنا أتمنى ملء المدينة عبيداً أعتقهم لوجه الله ، ثم قالوا لأمير المؤمنين فما تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ فماذا قال فاروق هذه الأمة ؟ وقد ضرب الله الحق على قلبه ولسانه قال كلمته الفاضلة : أتمنى ملء هذا المسجد ، يعنى به المسجد النبوى رجالاً أمثال أبى بكر الصديق .

لقد كان قائدهم محمداً ، فنعم القائد ، إذ القيادة قدوة ، فأسد يقود ألف نعامة يغلب ألف أسد تقودهم نعامة ، فما بالك إذا كان قائدهم أسداً وهم أسود ، وعمل رجل في ألف رجل أقوى تأثيراً وأشد تثبيتاً من قول ألف رجل في رجل (كانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم) ما أمارتهم ؟ (سيماهم في وجوههم

من أثر السجود) أين مثلهم هذا في التوراه ؟ فما مثلهم في الإنجيل (كزرع أخرج شطأه) بأبي بكر (فآزره) بعمر (فاستغلظ) بعثمان (فاستوى على سوقه) بعلي أين تخرجوا ؟ لم يتخرجوا في جامعات الشرق أو الغرب ، إنما تخرجوا في جامعة فيها الحبيب المصطفى ، لا يلحق كانوا مسجدين في جامعة كان سقفها الجريد وأرضها الحصباء ، كان إمامها خير خلق الله وكان مؤذنها بلالاً ، هذا المسجد تخرج فيه المصلح العظيم كأبي بكر والزعيم الملهم كعمر والحيي الكريم كعثمان والعبرى الفذ كعلي ، والزاهد الكريم كأبي ذر ، والفقير العظيم كأبي عباس ، والمفتي الخبير كأبن عمر ، والمحدث الجليل كأبي هريرة ، والقائد الجبار كخالد بن الوليد ، والفيلسوف البارع كأبي ذر ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾ .

الحمد لله

فالحمد لله الذي أبان للعباد منهج التربية القويمه في قرآنه المجيد ، وضح للعالمين مبادئ الخير والهدى والإصلاح في أحكام شرعه الخفيف والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله للإنسانية مؤدياً ، وأنزل عليه تشريعاً يحقق للبشرية أسمى آيات عزها ومجدها وأعظم غايات شؤنها ومكانتها ، ورفعها واستقرارها . وعلى آله وأصحابه الطيبين الأطهار ، الذين أعطوا الأجيال المتعاقبة نماذج فريدة في تربية الأبناء ، وتكوين الأمم وعلى من نهج نهجهم ، وأتقى أثرهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فمن فضل هذا الإسلام على البشرية أن جاءها بمنهاج شامل قويم في تربية النفوس ، وتنشئة الأجيال ، وتكوين الأمم ، وبناء الحضارات ، وإرساء قواعد المجد والمدنية ... وماذاك إلا لتحويل الإنسانية التائهة من ظلمات الشرك والجهالة والضلال والفوضى إلى نور التوحيد والعلم والهدى والإستقرار وصدق الله العظيم في محكم تنزيله ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ ^(١)

وإذا كانت الشريعة الإسلامية تتصف بالربانية ، وتتسم بالشمول ، وتختص بالتجديد والإستمرار ، فهل مبادئها الشاملة ومعطياتها المتجددة .. فكرة مجردة في الأذهان ، ونظريات مدونة في الكتب ، أم هي متحققة في أمة تلمسها الأيدي وتراها العيون ؟ فلنحلّ الجواب إلى شهيد الإسلام سيد قطب — رحمه الله — ولنسمع منه ما يقوله « وانتصر محمد بن عبد الله يوم صنع أصحابه — عليهم رضوان الله — صوراً حية من إيمانه ،

تأكل الطعام ، وتمشى في الأسواق ، يوم صاغ من كل منهم قرآناً حياً يدب على الأرض ، يوم جعل من كل فرد نموذجاً مجسماً للإسلام ، يراه الناس فيرون الإسلام .
 إن النصوص وحدها لا تصنع شيئاً ، وأن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلاً ، وأن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكاً ومن ثم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجالاً لا أن يلقي مواعظ ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يديج خطباً ، وأن يبنى أمة لا أن يقيم فلسفة ، أما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها القرآن الكريم وكان عمل محمد ﷺ أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدي ، وتراهم العيون .

ولقد انتصر محمد ﷺ يوم صاغ من فكرة الإسلام شخصاً ، وحول إيمانهم بالإسلام عملاً ، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفاً ، ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق ، إنما طبعها بالتبر على صحائف من القلوب . وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطي وتقول بانفعل والعمل ما هو الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ من عند الله .

ومن أراد أن يعرف شيئاً عن تربية الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم بإحسان ، فليستقرئ التاريخ لسمع الكثير عن جليل مآثرهم وكريم فضائلهم فهل عرفت الدنيا أنبل منهم وأكرم أو أرف ، أو أرحم ، أو أجل أو أعظم ، أو أرق أو أعلم ؟!

ويكفيهم شرفاً وفخراً وخلوداً أن يقول القرآن العظيم ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾

ويقول ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾^(١)

ويقول ﴿ والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾^(٢)
 ويقول ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً ﴾^(٣)

ويقول ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾^(٤)

(١) سورة الذاريات الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٢٢ .

(٢) سورة الحشر آية ٩ .

(٤) سورة التوبة آية : ١٠٠

هذا غيض من فيض مما نزل في كريم مآثرهم ، وجميل مجاملهم وقد تحقق بهم فعلاً إقامة المجتمع الفاضل الذي كان حلم المفكرين ، وأمنية الفلاسفة منذ القدم .. وكيف لا والقاضي يجلس بينهم تسخين ولا يتخاصم إليه أثنان ؟ ولماذا يتخاصمون وبين أيديهم القرآن ؟ ولماذا يختلفون وهم يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم ؟ ولماذا يتباغضون والإسلام يأمرهم بالحب والإخاء ، ويحضهم على التعاطف والإيثار ؟

والتكلم ما قاله الصحابي الجليل (عبد الله بن مسعود) - رضي الله عنه - في تعداد مجاملهم وفضائلهم ، ووجوب الناسي بأفعالهم الحميدة وأخلاقهم الكريمة ...
« من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، واختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »

(من كتاب تربية الأولاد في الإسلام)

وقد صدق فيهم - رضي الله عنه - ما قاله العلامة ابن القيم في تلك القصيدة العظيمة :

يا باغي الإحسان يطلب ربه	ليفوز منه بغاية الأمثال
أنظر إلى هدى الصحابة والذي	كانوا عليه في الزمان الخالي
واستلك طريق القوم أين تيمموا	تخذ تيممه ما الدرب ذات الشمال
تالله ما اختاروا لأنفسهم سوى	سبل الهدى في القول والأفعال
درجوا على نهج الرسول وهديه	وبه اقتدوا في سائر الأحوال
نعم الرفيق لطالب يبغي الهدى	فماله في الخسر خير مثال
القائمين المحبتين لسربهم	الناطقين بأصدق الأمثال
التاركين لكل فعل سيئ	والعامتين باحسن الأعمال
أهواؤهم تبغ لدين نبيهم	وسواهم بالصناد في ذي الخال
ما شابههم في دينهم نقص ولا	في قولهم شطبع الجهول الغالي
وسواهم بالضد في الأمرين قد	تركوا الهدى ودعوا إلى الاضلال
فهم الادلة للخياري ، من يستر	بهدهم لم يخشى من إضلال
وهم النجوم هداية وإضاءة	وعلمو منزلة ، وبعد مثال
يمشون بين الناس هونا ، نطقهم	بالحق ، لا بجهالة والجهال
علماً ، وعلماً ، مع تقى وتواضع	ونصيحة ، مع مرتبة الإفضال
يحبون ليلهم بطاعة ربهم	بتلاوة ، وتضرع ، وسؤال
وعيونهم تجري بقيض دموعهم	مثل انهمال الوابل الهطال

وإذا بدا علم الرّهان رأيتهم يتسابقون بصالح الأعمال
 بوجوههم أثر السجود صفاتهم في سورة الفتح المبين العالى
 وبرابع السبع الطوال صفاتهم قـوم يحبهم ذووا إدلال
 وبراءة ، والحشر فيها وصفهم وبهل أتى ، وبسورة الأنفال

صور من السيرة العاطرة التى اشتملت عليها سورة الفتح

اشتملت هذه السورة الكريمة على تلك الصور الرائعة من حياة الرسول ﷺ وجهاده وسوف نتحدث

عنها على الوجه التالى :

أولاً : قصة صلح الحديبية .

ثانياً : غزوة خيبر

ثالثاً : عمرة القضاء

رابعاً : فتح مكة

خامساً : غزوة حنين

سادساً : غزوة الطائف

أولاً : قصة صلح الحديبية

قال الإمام ابن القيم فى الزاد

قال نافع : كانت سنة ست فى ذى القعدة ، وهذا هو الصحيح ، وهو قول الزهرى ، وقتاده ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم . وكان معه ألف وأربعمائة ، وهو قول البراء بن عازب ، ومعقل بن يسار وسلمو بن الأكوع فى أصح الروايتين ، قال شعبه : عن قتاده ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه : كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة .

فلما كانوا بذى الحليفة ، قلّد رسول الله ﷺ الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة ، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عينه فقال : إني تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت وما نعوك ، واستشار النبي ﷺ وقال : أترون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا ، قعدوا موتورين محروبين ، وإن يجيئوا تكن عنقاً قطعها الله ، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ، ولم نجىء لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت ، قاتلناه ، فقال النبي ﷺ : « فروحوا إذا » فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي ﷺ : « إن خالد بن

الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين « فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقتله الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالتَّيَّة التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته ، فقال الناس : حَلْ حَلْ — كلمة تقال للناقة إذا تركت السير — فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبي ﷺ « ما خلأت القصواء ، وما ذلَّ لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله ، إلا أعطيتهم إياها ^(١) ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء ، إنما يتبرحنه الناس تبرحاً — أي يأخذونه قليلاً قليلاً — فلم يلبثه الناس أن ترحوه ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فأنزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، قال فوالله مازال يجيش لهم بالرَّيِّ ، حتى صدروا عنه ^(٢) .

وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله ﷺ أي يبعث إليهم رجلاً من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم فقال : يا رسول الله : ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوديت ، فأرسل عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وأدعهم إلى الإسلام ، وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان ، فانطلق عثمان ، فمر على قريش ببلدح ، فقالوا : إين تريد ؟ فقال بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام وأخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك ، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاصي ، فرحب به ، وأسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء بمكة ، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان ؟ خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به ؟ فقال رسول الله ﷺ « ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون » ، فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص ؟ قال : « ذاك ظني به . ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه » .

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم ، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل ، فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على ألا يفروا ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه ، وقال « هذه عن عثمان » ولما تمت البيعة ، رجع عثمان ، فقال له المسلمون : أشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ، فقال بئس ما ظنتم بي ، والذي نفسي بيده ، لو مكثت بها سنة ، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ،

(١) أنظر صحيح البخاري بما فيه السندى ح ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ باب الشروط في الجهاد والمصالحة .

(٢) أنظر صحيح البخاري ح ٢ ص ١٢٠ كتاب الشروط في الجهاد والمصالحة ط / الحلبي .

— أنظر القصة من قوله « فلما كانوا بذى الخليفة ... إلى حتى صدورا عنه في مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ . عن المسور بن محزمه ومروان بن الحكم .

ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت ، فأبيت ، فقال المسلمون : رسول الله ﷺ : رسول الله كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً^(١) وكان عمر آخذاً بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة ، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجَدَّ بن قيس .

وكان معقل بن يسار آخذاً بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدى . وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات ، فى أول الناس ، وأوسطهم وآخرهم .

« فبينما هم كذلك ، إذا جاء بُدَيْلُ بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلون ، وصادوك عن البيت ، قال رسول الله ﷺ «إنا لم نجىء لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرَّت بهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ، ويخلوا بينى وبين الناس ، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، فعلوا ، وإلا فقد جمُّوا ، وإن هم أبو إلا القتال ، فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لئن فُذِنَ الله أمره » قال بُدَيْل : سأبلغهم ما تقول ، فأنطلق حتى أتى قريشاً ، فقال : إني قد جئتك من عند هذا الرجل ، وقد سمعته يقول قولاً ، فإن شئت عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : هات ما سمعته ، قال : سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبى ﷺ فقال : عروة بن مسعود الثقفى : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها ، ودعوني آتة ، فقالوا : آتته ، فأتاه ، فجعل يكلمه ، فقال له النبى ﷺ نحواً من قوله لبديل ، فقال له عروة عند ذلك : أى محمد ، أرايت لو أستأصلت قومك . هل سمعت بأحد من العرب احتاج أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى ، فوالله إني لأرى وجوهاً ، وأرى أوباشاً من الناس خليقاً أن يفرّوا ويدعوك ، فقال له أبو بكر : امضْ بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه . قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر قال أما والذى نفسى بيده ، لولا يد كانت لك عندى لم أجرك بها ، لأجبتك ، وجعل يكلم النبى ﷺ وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبه عند رأس النبى ﷺ ومعه السيف ، وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنصل السيف ، وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروة رأسه وقال من ذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبه . فقال : أى غدر أو لست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم . فقال النبى ﷺ « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء »^(٢)

(١) أنظر كنز العمال « مراسل عروه » ح ١٠ ص ٤٨١ حديث رقم ٥٢ / ٣٠ فقد ورد الحديث من قوله : ففرغت قريش ... إلى وأحسننا ظناً .

— وأنظر مسند بن أبى شيبة ح ١٤ ص ٤٢٩ . غزوة الحديبية .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى يماشيه السندى ح ٢ ص ١٢٠ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ بعينيه فوالله ما تنخم النبي ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ، ابتدروا أمره ، وإذا توضأ ، كادوا يقتلون على وضوئه وإذا تكلم أخفقوا أصواتهم عنده ، وما يُجدون إليه النظر تعظيماً له ، فرجع عروة إلى أصحابه ، فقال : أي قوم ، والله لقد وفدت على الملوك : على كسرى ، وقيصر ، والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما عظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ ، كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم أخفضوا أصواتهم عنده ، وما يُجدون إليه النظر تعظيماً له ، وقد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها فقال رجل من بني كنانة : دعوني آته ، فقالوا : آتته ، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه . قال رسول الله ﷺ هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن — فابعثوها له ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبنون ، فلما رأى ذلك قال : « سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت » فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البدن قد قلّدت وأشعرت ، وما أرمى أن يصدوا عن البيت ، فقام مكرز بن حنص فقال : دعوني آته ، فقالوا آته ، فلما أشرف عليهم ، قال النبي ﷺ « هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر » فجعل يكلم رسول الله ﷺ فينما هو يكلمه ، إذا جاء سهيل بن عمرو ، فقال النبي ﷺ : « قد سهّل لكم من أمركم » فقال : هات ، اكتب بيننا وبينكم كتاباً ، فدعا الكاتب ، فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل . أما الرحمن ، فوالله ما ندرى ما هو ، ولكن اكتب باسم اللهم ، كما كنت تكتب ، فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبي ﷺ « اكتب باسمك اللهم » ثم قال : « اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » فقال سهيل : فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ، ما صدّدناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله فقال النبي ﷺ إني لرسول الله وإن كذبتُموني ، أكتب : محمد بن عبد الله فقال النبي ﷺ على أن تخلوا بيننا وبين البيت ، فنطوف به فقال سهيل ، والله لا تتحدث العرب أنا اخذنا ضغطه ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، فقال المسلمون سبحان الله ، كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً ، فبينما هم كذلك ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرصف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردّه إلّي ، فقال النبي ﷺ « إنا لم نقض الكتاب بعد ، فقال : فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً ، فقال النبي ﷺ « فأجزه لي » قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : « بلى فافعل » قال : « ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجزناه . فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أريد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون ما لقيت ، وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً ، قال عمر بن الخطاب : (والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ) فأتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله : أأنت نبي الله حقاً ؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . فقلت : علام نعطي المدّنية في ديننا

إذا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ فقال : إني رسول الله ، وهو ناصري ، ولست أعصيه « قلت : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتكم أنك تأتية العام ؟ قلت : لا قال : فإنك آتية وتطوف به . قال : فأتيت أبا بكر ، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ ورد على أبو بكر كما رد على رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بعرزته حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق . قال عمر : ففعلت لذلك أعمالاً وفي رواية ابن اسحاق وكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة الذى تكلمت به .

فلما فرغ من قضية الكتاب ، قال رسول الله ﷺ « قوموا فانحروا ، ثم احلقوا » فوالله ما قام منهم رجل واحد حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس . فقالت أم سلمة يا رسول الله . أتحب ذلك أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بذلك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام ، فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، قاموا فانحروا ، جعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً ، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ حتى بلغ (بعصم الكوافر) (الممتحنة ١٠) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا في الشرك فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع إلى المدينة وفي مرجعه أنزل الله تعالى ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ .

فقال عمر : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال نعم ، فقال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ، فمالنا ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ﴾

ولما رجع إلى المدينة ، جاءه أبو بصير رجل من قريش مسلماً ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذى جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا في الخليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر ، فقال : أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت ، فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه به حتى برد ، وفر الآخر يعدو حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد فقال رسول الله ﷺ حين رآه : « لقد رأى هذا ذعراً » فلما أنهى إلى النبي ﷺ قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول ، فجاء أبو بصير ، فقال : يا بنى الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد ردتني إليهم ، فأنجاني الله منهم ، فقال النبي ﷺ « ويل أمه مسعر حرب ، لو كان له أحد » ، فلما سمع ذلك ، عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم ، فهو آمن فأنزل الله عز وجل ﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ حتى بلغ (حمية الجاهلية) .

وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه نبي الله ، ولم يقرؤا بيسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت^(١) .
وفي صحيح البخارى عن جابر ، قال عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوه
يتوضأ منها ، إذ جهش الناس نحوه ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : يا رسول الله : ما عندنا ماء نشرب ،
ولا نتوضأ إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه أمثال العيون ،
فشربوا ، وتوضؤوا ، وكانوا خمس عشرة مائة^(٢) .

وفى هذه الغزوة أصابهم ليلة مطر ، فلما صلى النبي ﷺ الصبح قال : « أتدرون ماذا قال ربكم اللية ؟ »
قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أصبح من عبادى مؤمن بى ، وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله
ورحمته ، فذلك مؤمن بى ، كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا نبوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى ،
مؤمن بالكواكب » (رواه البخارى)

وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من
بعض ، وأن يرجع عنهم عامه ذلك حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلوا بينه وبين مكة ، فأقام بها
ثلاثاً ، وإن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب ، والسيوف فى القرب ، وأن ما أتانا من أصحابك لم نرده عليك ،
ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عيبة مكفوفة (أى صدوراً سليمة فى المحافظة على
العهد) وإنه لا إسلال ولا إغلال ، فقالوا : يا رسول الله أنعطيتهم هذا ؟ فقال « من أتاهم منا فأبعده الله ،
ومن أتانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجاً ومخرجاً »^(٣) (أخرجه أحمد ورجاله ثقات) .

ما تضمنته هذه القصة من الفوائد الفقهية

وفى قصة الحديبية ، أنزل الله — عز وجل فديه الأذى لمن حلق رأسه بالصيام ، أو الصدقة ، أو النسك
فى شأن كعب بن عُجرة . وفيها : دعا رسول الله ﷺ للمحلقين بالمغفرة ثلاثاً ، وللمقصرين مرة .
وفيها : نحروا البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة وفيها : أهدي رسول الله ﷺ فى جملة هدية جملاً
كانم لأبى جهل كان فى أنفه بُدة من فضة ليغيب به المشركين .
وفيها : أنزلت سورة الفتح ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ وعهده ، ودخلت بنو بكر فى
عقد قريش وعهدهم ، وكان فى الشرط أن من شاء أن يدخل فى عقد قريش دخل .

(١) أنظر صحيح البخارى ح ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ . كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب . ط / الحلبي .
— وكذلك أنظر القصة بأكملها من قوله فيينا هم كذلك . إذ جاء بدليل ... إلى قوله . « وحالوا بينهم وبين البيت » فى مسند أحمد ح ٤ ص ٣٢٩ ،
٣٣٠ ، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٥٦ ، ١٥٧ . كتاب المغازى باب غزوة الحديبية ط / الشعب .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٥٥ . كتاب المغازى باب غزوة الحديبية . ط / الشعب .

أنظر صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤١١ . كتاب الجهاد والسير . باب صلح الحديبية رقم ٩٣ / ١٧٨٤ .

— وأنظر مسند أحمد ح ٤ ص ٣٢٥ .

ولما رجع إلى المدينة جاءه نساء مؤمنات ، منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، فجاء أهلها يسألونها رسول الله ﷺ بالشرط الذي كان بينهم ، فلم يرجعها إليهم ، ونهاه الله عز وجل عن ذلك ، فقل هذا نسخ للشرط في النساء ، وقيل : تخصيص للسنة بالقرآن ، وهو عزيز جداً . وقيل لم يقع الشرط إلا على الرجال خاصة ، وأراد المشركون أن يعموه في الصنفين ، فأبى الله ذلك .

ومنها : إعتار النبي ﷺ في أشهر الحج ، فإنه خرج إليها في ذى القعدة .
ومنها : إن الإحرام بالعمرة من الميقات أفضل ، كما أن الإحرام بالحج كذلك ، فإنه أحرم بهما من ذى الحليفة ، وبينها وبين المدينة ميل أو نحوه .

ومنها : أن سوق الهدى مسنون في العمرة المفردة ، كما هو مسنون في القرآن .

ومنها : أن إشعار الهدى سنة لا مثله منهي عنها .

ومنها : استحباب مغايظة أعداء الله ، فإن النبي ﷺ أهدى في جملة هدية جملاً لأبي جهل في أنفه برة من فضة يغيظ به المشركين ، وقد قال تعالى في صفة النبي ﷺ وأصحابه ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ وقال عز وجل ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (١)

ومنها : أن أمير الجيش ينبغي له أن يبعث العيون أمامه نحو العدو ومنها : أن الإستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة ، لأن عينه الخزاعة كان كافراً إذ ذاك ، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم .

ومنها : استحباب مشورة الإمام رعيته وجيشه ، إستخراجاً لوحدة الرأي ، وإستطابة لنفوسهم ، وأما لعيتهم ، وتعرفاً لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض ، وأمثالاً لأمر الرب في قوله تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ (آل عمران : ١٥٩) وقد مدح سبحانه وتعالى بقوله ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (٢) .

ومنها : جواز سبي ذراري المشركين إذا انفردوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال .

ومنها : رد الكلام الباطل ولو نسب إلى غير مكلف ، فإنهم لما قالوا : خلأت القصواء ، يعنى حرنت وألحت ، فلم تسر ، والخلاء في الإبل (بكسر الخاء والمد) ، نظير الحران في الخيل ، فلما نسبوا إلى الناقة ما ليس من خلقها وطبعها ، رده عليهم ، وقال : « ما خلأت وماكان لها بخلق » ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها وأن الذي حبس الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التي ظهرت بسبب حبسها ، وما جرى بعده .

(١) سورة التوبة آية ١٢٠ .

(٢) سورة الشورى آية ٣٨ .

ومنها : جواز الحلف ، بل استحبابه على الخير الدينى الذى يريد تأكيده ، وقد حفظ عن النبى ﷺ الحلف فى أكثر من ثمانين موضعاً وأمره الله تعالى بالحلف على تصديق ما أخبره به فى ثلاثة مواضع : فى (سورة يونس) ، (وسبأ) (والتغابن) .

ومنها : أن المشركين ، وأهل البدع والفجور ، والبغاه والظلمة ، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمت الله تعالى ، أجبوا إليه وأعطوه ، واعمىوا عليه ، وإن منعوا غيره ، فعاونوا على ما فيه تعظيم حرمت الله تعالى . لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مما سوى ذلك ، فكل من اتمس المعاونة على محبوب لله تعالى مرض له ، وأجيب إلى ذلك كائناً من كان ، ما لم يترتب على إعانته ، على ذلك المحبوب ، مبعوض لله أعظم منه ، وهذا من أدق المواضع وأصعبها ، وأشقها على النفوس ، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق ، وقال عمر ما قال حتى عمل له أعمالاً بعده ، والصدىق تلقاه بالرضى والتسليم ، حتى كان قلبه فيه على قلبى رسول الله ﷺ وأجاب عمر عما سأل عن من ذلك بعين جواب رسول الله ﷺ وذلك يدل على أن الصديق — رضى الله عنه — أفضل الصحابة وأكملهم ، وأعرفهم بالله تعالى ورسوله ﷺ وأعلمهم بدينه ، وأقومهم بمحابة ، وأشدهم موافقة خاصة دون سائر أصحابه .

ومنها : أن النبى ﷺ عدل ذات اليمين إلى الحديبية ، قال الشافعى : بعضها من الحل ، وبعضها من الحرم وروى الإمام أحمد فى هذه القصة أن النبى ﷺ كان يصلى فى الحرم وهو مضطرب فى الحل ، وفى هذا كالدلالة على أن مضاعفة الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يخص بها المسجد الذى هو مكان الطواف وأن قوله « صلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى »^(١) كقوله تعالى ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾^(٣) وكان الإسراء من بيت أم هانئ .

ومنها : أن من نزل قريباً من مكة ، فإنه ينبغى له أن ينزل فى الجَلِّ ، ويصلى فى الحرم ، وكذلك كان ابن عمر يصنع .

(١) الحديث فى صحيح ابن حبان ح ٣ ص ٧١ ، ٧٢ رقم ١٦١٨ . بلفظ صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، وصلاة فى ذاك أفضل من مائة صلاة فى هذا — يعنى فى مسجد المدينة .

(٢) سورة التوبة آية ٢٨

(٣) سورة الإسراء آية ١

ومنها : جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه ، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم وفي قيام المغيرة بن شعبه على رأس رسول الله ﷺ بالسيف ، ولم يكن عادته أن يقام على رأسه ، وهو قاعد ، سنة يقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر وتعظيم الإمام ، وطاعته ، ووقايته بالنفوس ، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين ، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين ، وليس هذا من هذا النوع الذي ذمّه النبي ﷺ بقوله « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار »^(١) (أخرجه أبو داود واسناده صحيح) .

كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره ، وفي بعث البدن في وجه الرسول الآخر دليل على استحباب إظهار شعائر الإسلام لرسل الكفار .

وفي قول النبي ﷺ للمغيرة : « أمّا الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء »^(٢) دليل على أن مال المشرك المعاهد معصوم ، وأنه لا يملك ، بل يرد عليه ، فإن المغيرة كان قد صحبهم على الأمان ، ثم غدر بهم ، وأخذ أموالهم ، فلم يتعرض النبي ﷺ لأموالهم ، ولا ذبّ عنها ، ولا ضمنها لهم ، لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة .

وفي قول الصديق لعروة : امصص بظر اللات ، دليل على جواز التصريح باسم العورة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال ، كما أذن النبي ﷺ — أن يُصرّح لمن ادعى دعوى الجاهلية بهن أبيه ، ويقال له : اعضضن أير أبيك ، ولا يكنى له ، فلكل مقام مقال .

ومنها : إحتمال قلة أدب رسول الكفار ، وجهلة وجفوته ، ولا يقابل على ذلك لما فيه من المصلحة العامة ، ولم يقابل النبي ﷺ عروة على أخذ بلحيته وقت خطابه ، وإن كانت تلك عادة العرب ، لكن الوقار والتعظيم خلاف ذلك .

(١) الحديث في سنن أبي داود ح ٥ ص ٣٩٨ كتاب الأدب رقم ٥٢٢٩ .

— أنظر سنن الترمذ ح ٤ ص ١٨٤ بلفظ من سره ... الخ أبواب الاستئذان والأداب . باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل رقم ٢٩٠٣ .

(٢) الحديث في صحيح البخارى ح ٥ ص ٢٥٤ كتاب الشروط في الإسلام . ط / الشعب .

وكذلك لم يقاتل رسول الله ﷺ رسولاً مسليمة الكذاب حين قالوا : نشهد أنك رسول الله وقال : « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما » (١) .

ومنها : طهارة النخامة ، سواء كانت من رأس أو صدر .

ومنها : طهارة الماء المستعمل .

ومنها : استحباب التفاؤل ، وأنه ليس من الطيرة المكروهة لقوله لما جاء سهيل : « سَهْلٌ أمرٌكم » .

ومنها : أن المشهور عليه إذا عرف باسمه واسم أبيه ، أغنى ذلك عن ذكر الجد ؛ لأن النبي ﷺ —

لم يزد على محمد بن عبد الله ، وقنع من سهيل بذكر اسمه واسم أبيه خاصة واشترط ذكر الجد لا أصل له ، ولما اشترى العداء بن خالد منه — ﷺ — الغلام فكتب له : « هذا ما اشترى العداء بن خالد بن

هوزة » فذكر جده ، فهو زيادة بيان تدل على أنه جائز لا بأس به ، ولا تدل على اشتراطه ، ولما لم يكن في الشهرة بحيث يكتفى باسمه واسم الأب ، وعند عدم الاشتراك اكتفى بذكر الاسم واسم الأب والله أعلم .

ومنها : أن مصالحه المشركين ببعض ما فيه نصيب على المسلمين جائزة للمصلحة الراجحة ، ودفع ما هو

شر منه ، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما .

ومنها : أن من حلف على فعل شيء ، أو نذره ، أو وعد غيره به ولم يعين وقتاً ، لا بلفظه ، ولا بنيته ،

لم يكن على الفور ، بل على التراخي .

ومنها : أن الحلاقة نسك ، وأنه أفضل من التقصير ، وأنه نسك في العمرة ، كما هو نسك في الحج ،

وأنه نسك في عمرة المحصور ، كما هو نسك في عمرة غيره .

ومنها : أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من الحل أو الحرم ، وأنه لا يجب عليه أن يواعد من ينحره

في الحرم إذا لم يصل إليه ، وأنه لا يتحلل حتى يصل إلى محله ، بدليل قوله تعالى . ﴿ والهدى معكوفاً

أن يبلغ محله ﴾ .

ومنها : أن المحصر لا يجب عليه القضاء ، لأنه — ﷺ — أمرهم بالحل والنحر ، ولم يأمر أحداً منهم

بالقضاء ، والعمرة من العام القابل لم تكن واجبة ، ولا قضاء عن عمرة الإحصار فإنهم كانوا في عمرة

الإحصار ألفاً وأربعمائة ، وكانوا في عمرة القضية دون ذلك ، وإنما سميت عمرة القضية والقضاء ، لأنها

العمرة التي قاضاهم عليها ، فأضيفت العمرة إلى مصدر فعله .

ومنها : أن الأمر المطلق على الفور وإلا لم يغضب لتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر ، وقد اعتذر عن

تأخيرهم الامتثال بأنهم كانوا يرجون النسخ ، فأخروا متأولين لذلك ، وهذا الاعتذار أولى أن يُعذر عنه ،

وهو باطل ، فإنه — ﷺ — لو فهم منهم ذلك ، لم يشتد غضبه لتأخير أمره ، ويقول « مالي لا أغضب ،

١ — الحديث في الجامع الكبير للسيوطي ج ١ ص ٦٧٢ من رواية أحمد والطبراني في الكبير عن نعيم ابن مسعود الأشجعي

وفي مسند أحمد ج ٣ ص ٤٨٨

وأنا آمر بالأمر فلا أتبع » وإنما كان تأخيرهم من السعى المغفور لا المشكور ، وقد رضى الله عنهم ، وغفر لهم وأوجب لهم الجنة .

ومنها : أن الأصل مشاركة أمته له في الأحكام إلا ما خصّه الدليل ولذلك قالت أم سلمة : « أخرج ولا تكلم أحداً حتى تحلق رأسك وتنحر هديك » وعلمت أن الناس سيتابعونه .

فإن قيل : فكيف فعلوا ذلك اقتداءً بفعله ، ولم يمتثلوه حين أمرهم به ؟ قيل : هذا هو السبب الذى لأجله ظن من ظن أنهم أخرجوا الامتثال طمعا في النسخ ، فلما فعل النبي — ﷺ — ذلك علموا حينئذ أنه حكم مستقر غير منسوخ ، وقد تقدم فساد هذا الظن ، ولكن لما تغيظ عليهم ، وأخرج ولم يكلمهم وأزاهم أنه بادر إلى امتثال ما أمر به ، وأنه لم يؤخر كتأخيرهم ، وأن اتباعهم له وطاعتهم توجب اقتداءهم به بادروا حينئذ إلى الاقتداء به وامتثال أمره .

ومنها : جواز صلح الكفار على رد من جاء منهم إلى المسلحين وألا يرد من ذهب من المسلحين إليهم ، هذا في غير النساء وأما النساء ، فلا يجوز اشتراط ردهن ، إلى الكفار ، وهذا موضوع النسخ خاصة في هذا العقد بنص القرآن ، ولا سبيل إلى دعوى النسخ في غيره بغير موجب .

ومنها : أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم ، ولذلك أوجب الله سبحانه رد المهر على من هاجرت امرأته ، وحيل بينه وبينها ، وعلى من ارتدت امرأته من المسلمين إذا استحق الكفار عليهم ردّ مهور من هاجر إليهم من أزواجهم ، وأخبر أن ذلك حكمه الذى حكم به بينهم ، ثم لم ينسخه شيء ، وفى إيجابه رد ما أعطى الأزواج من ذلك دليل على ما تقوم به بالمسمى ، لا بمهر المثل .

ومنها : أن رد من جاء من الكفار إلى الإمام لا يتناول من خرج منهم مسلماً إلى غير بلد الإمام ، وأنه إذا جاء إلى بلد الإمام لا يجب عليه رده بدون الطلب فإن النبي — ﷺ — لم يرد أبابصير حين جاءه ، ولا أكرهه على الرجوع ، ولكن لما جاؤوا في طلبه ، مكثهم من أخذه ، ولم يكرهه على الرجوع .

ومنها : أن المعاهدين إذا تسلموه وتمكنوا منه فقتل أحداً منهم لم يضمنه بدية ولا قود ، ولم يضمنه الإمام ، بل يكون حكمه في ذلك حكم قتله لهم في ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم فإن أبابصير قتل أحد الرجلين المعاهدين بذى الحليفة ، وهى من حكم المدينة ، ولكن كان قد تسلموه وفصل عن يد الإمام وحكمه .

ومنها : أن المعاهدين إذا عاهدوا الإمام ، فخرجت منهم طائفة فحاربتهم ، وغنمت أموالهم ، ولم يتحيزوا إلى الإمام ، لم يجب على الإمام دفعهم عنهم ، ومنعهم منهم ، وسواء دخلوا في عقد الإمام وعهده ودينه ، أو لم يدخلوا ، والعهد الذى كان بين النبي — ﷺ — وبين المشركين لم يكن عهداً بين أبى بصير وأصحابه وبينهم ، وعلى هذا فإذا كان بين بعض ملوك المسلمين وبعض أهل الذمة من النصارى وغيرهم عهد جاز الملك آخر من ملوك المسلمين أن يغزوهم ، ويقنم أموالهم إذا لم يكن بينه وبينهم عهد ، كما أفتى به شيخ الإسلام فى نصارى ملطية وسبيهم ، مستدلاً بقصة أبى بصير مع المشركين .

فصل

في الإشارة إلى بعض الحكم التي تضمنتها هذه الهدنة

يقول ابن القيم — رحمه الله — : وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها ف وقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده .

فمنها : أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده ، ودخل الناس به في دين الله أفواجا ، فكانت هذه الهدنة باباً له ، ومفتاحاً ، ومؤذناً بين يديه ، وهذه عادة الله سبحانه في الأمور العظام ، التي يقضيها قدراً وشرعاً ، أن يوطيء لها بين يديها مقدمات وتوطئات ، تؤذن بها ، وتدل عليها .

ومنها : أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح ، فإن الناس أمن بعضهم بعضاً ، وأختلط المسلمون بالكفار ، وبادؤوهم بالدعوة ، من كان مختفياً بالإسلام ، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل ، ولهذا سماه الله فتحاً مبيناً . قال ابن قتيبة : قضينا لك قضاء عظيماً ، وقال مجاهد : هو ما قضى الله له بالحديبية وحقيقة الأمر : أن الفتح — في اللغة — فتح المغلق ، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً حتى فتحه الله ، وكان من أسباب فتحه صد رسول الله — ﷺ — وأصحابه عن البيت ، وكان في الصورة الظاهرة خيماً وهضماً للمسلمين ، وفي الباطن عزاً وفتحاً ونصراً ، وكان رسول الله — ﷺ — ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم ، والعز ، والنصر من وراء ستر رقيق ، وكان يعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط ، التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم وهو — ﷺ — يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾^(١) فكان يدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأييده ، وأن العاقبة له ، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عين النصر ، وهو من أكبر الجند الذي أقامة المشترطون ، ونصبوه لحربهم ، وهم لا يشعرون فذلوا من حيث طلبوا العز ، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة ، وعز رسول الله — ﷺ — وعساكر الإسلام من حيث انكسروا لله ، واحتملوا الضيم له وفيه ، فدار الدأور ، وانعكس الأمر ، وانقلب العز بالباطل ذلاً بحق وانقلبت الكسرة لله عزاً بالله ، وظهرت حكمة الله وآياته ، وتصديق وعده ، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها .

ومنها : ما سببه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعان ، والانقياد على ما أحبوا وكرهوا ، وما حصل لهم في ذلك من الرضى بقضاء الله ، وتصديق عليهم بالسكينة التي أنزلها في قلوبهم ، أحوج

ما كانوا إليها في تلك الحال التي تزعزع لها الجبال ، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبهم ، وقويت به نفوسهم وازدادوا به إيماناً .

ومنها : أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذي حكم به لرسوله وللمؤمنين سبباً لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإتمام نعمته عليه ، ولهدايته الصراط المستقيم ، ونصره النصر العزيز ، ورضاه به ، ودخوله تحته ، وانشراح صدره به مع ما فيه من الغيم ، وإعطاء ما سأله ، كان من الأسباب التي نال بها الرسول وأصحابه ذلك ، ولهذا ذكره الله سبحانه جزاء وغاية ، وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى ، وفتحته . وتأمل كيف وصف — سبحانه — النصر بأنه عزيز في هذا الموطن ، ثم ذكر إنزال السكينة في قلوب المؤمنين في هذا الموطن ، الذي اضطربت فيه القلوب ، فازدادوا بها إيماناً إلى إيمانهم ، ثم ذكر سبحانه بيعتهم لرسوله ، وأكدها بكونها بيعة له سبحانه ، وأن يده تعالى كانت فوق أيديهم إذ كانت يد رسول الله — ﷺ — كذلك وهو رسوله ونبيه ، فالعقد معه عقد مع مرسله ، وبيعته بيعته فمن بايعه ، فكأنما بايع الله ، ويد الله فوق يده ثم أخبر سبحانه أن ناكث هذه البيعة إنما يعود نكثته على نفسه ، وأن للموفى بها أجراً عظيماً فكل مؤمن فقد بايع الله على لسان رسوله بيعة على الإسلام وحقوقه ، فناكث وموفٍ .

ثم ذكر حال من تخلف عنه من الأعراب ، وظنهم أسوأ الظن بالله : أنه يخذل رسوله وأوليائه ، وجنده ، ويظفر بهم عدوهم ، فلن ينقلبوا إلى أهلهم ، وذلك من جهلهم بالله واسمائه وصفاته ، وما يليق به وجهلهم برسوله وما هو أهل أن يعامله به ربه مولاه .

ثم أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البيعة لرسوله ، وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم حينئذ من الصدق والوفاء ، وكال الانقياد ، والطاعة ، وإيثار الله ورسوله على ما سواه ، فأنزل الله السكينة والطمأنينة ، والرضى في قلوبهم ، وأثابهم على الرضى بحكمه ، والصبر لأمره فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر ، ومغانمها ، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر . ووعدهم الله سبحانه مغانم كثيرة يأخذونها ، وأخذهم أنه عجل لهم هذه الغنيمة ، وفيها قولان . أحدهما : أنه الصلح الذي جرى بينهم وبين عدوهم ، والثاني : أنها فتح خيبر وغنائمها ، ثم قال ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ فقيل : أيدي أهل مكة أن يقاتلوهم ، وقيل : أيدي اليهود حين هموا بأن يقاتلوا من بالمدينة بعد خروج رسول الله — ﷺ — بمن معه من الصحابة منها ، وقيل : هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسد وعظفان والصحيح تناول الآية للجميع .

وقوله ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ قيل : الفعلة التي فعلها بكم ، وهي كف أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم ، فإنهم حينئذ كان أهل مكة ومن حولها ، وأهل خيبر ومن حولها ، وأسد وغظان ، وجمهور قبائل العرب أعداء لهم ، وهم بينهم كالشامة ، فلم يصلوا إليهم بسوء ، فمن آيات الله سبحانه كف أيدي

أعدائهم عنهم ، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم ، وشدة عداوتهم ، وتولى حراستهم ، وحفظهم في مشاهدهم ومغيبهم .

وقيل : هي فتح خير ، جعلها الله آية لعباده المؤمنين ، وعلامة على ما بعدها من الفتوح ، فإن الله سبحانه وعدهم مغانم كثيرة وفتوحا عظيمة ، فعجل لهم فتح خير ، وجعلها آية لما بعدها ، وجزاء لصبرهم ورضاهم يوم الحديبية وشكرانا ، ولهذا خص بها وبغنائمها من شهد الحديبية . ثم قال ﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ فجمع لهم إلى النصر والظفر والغنائم الهداية ، فجعلهم مهديين منصورين غانمين ، ثم وعدهم مغانم كثيرة وفتوحاً أخرى ، لم يكونوا ذلك الوقت قادرين عليها ، فقيل : هي مكة وقيل : فارس والروم ، وقيل : الفتوح التي بعد خير من مشارق الأرض ومغاربها . ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أوليائه ، لولى الكفار الأدبار غير منصورين ، وأن هذه سنته في عباده قبلهم ، ولا تبدل سنته . فإن قيل : فقد قاتلوهم يوم أحد ، وانتصروا عليهم ، ولم يولوا الأدبار ؟ قيل : هذا وعد معلق بشرط مذكور في غير هذا الموضوع ، وهو الصبر والتقوى ، وفات هذا الشرط يوم أحد بفشلهم المنافي للصبر ، وتنازعهم ، وعصيانهم المنافي للتقوى ، فصرفهم عن عدوهم ، ولم يحصل الوعد لانتفاء شرطه .

ثم ذكر — سبحانه — أنه هو الذي كف أيدي بعضهم عن بعض من بعد أن أظفر المؤمنين بهم ، لماله في ذلك من الحكم البالغة التي منها : أنه كان فيهم رجال ونساء قد آمنوا ، وهم يكتمون إيمانهم ، لم يعلم بهم المسلمون ، فلو سلطكم عليهم ، لأصبتم أولئك بمعرة الجيش ، وكان يصيبكم منهم معرة العدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به ، وذكر سبحانه حصول المعرة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم ، لأنها موجب المعرة الوافعة منهم بهم ، وأخبر سبحانه أنهم لو زايلوهم وتميزوا منهم ، لعذب أعداءه عذاباً أليماً في الدنيا ، إما بالقتل والأسر ، وإما بغيره ، ولكن دفع عنهم هذا العذاب لوجود هؤلاء المؤمنين بين أظهرهم ، كما كان يدفع عنهم عذاب الاستئصال ، ورسوله بين أظهرهم .

ثم أخبر سبحانه عما جعله الكفار ، في قلوبهم من حمية الجاهلية التي مصدرها الجهل والظلم ، التي لأجلها صدوا رسوله وعباده عن بيته ، ولم يقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم ، ولم يقرؤوا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صدقه ، وتيقنهم صحة رسالته بالبراهين التي شاهدوها وسمعوا بها في مدة عشرين سنة ، وأضاف هذا الجعل إليهم وإن كان بقضائه وقدره ، كما يضاف إليهم سائر أفعالهم التي هي بقدرتهم وإرادتهم . ثم أخبر — سبحانه — أنه أنزل في قلب رسوله وأوليائه من السكينة ما هو مقابل لما في قلوب أعدائه من حمية الجاهلية ، فكانت السكينة حظ رسوله وحزبه ، وحمية الجاهلية حظ المشركين وجندهم ، ثم ألزم عباده المؤمنين كلمة التقوى ، وهي جنس يعم كل كلمة يتقى الله بها ، وأعلى نوعها كلمة الإخلاص ، وقد فسرنا بسم الله الرحمن الرحيم ، وهي الكلمة التي أبت قريش أن تلتزمها ، فألزمها الله أوليائه وحزبه ، وإنما حرمها أعداءه صيانه لها من غير كفئها ، وألزمها من هو أحق بها وأهلها ، فوضعها في موضعها ، ولم يضيعها بوضعها في غير أهلها وهو العليم بمحال تخصيصه ومواضعه .

ثم أخبر — سبحانه — أنه صدق رسوله رؤياه في دخولهم المسجد آمين وأنه سيكون ولا بد ، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك في هذا العام ، والله سبحانه علم من مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم ، فأنتم أحببتم استعجال ذلك ، والرب تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلموه ، فقدم بين يدي ذلك فتحا قريبا ، توطئه له وتمهيدا .

ثم أخبرهم بأنه هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض ، ففي هذا تقوية لقلوبهم ، وبشارة لهم وتثبيت ، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذى لا بد أن ينجزه ، فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية نصرة لعدوه ، ولا تخليا عن رسوله ودينه ، كيف وقد أرسله بدينه الحق ، ووعد أنه يظهره على كل دين سواه .

ثم ذكر — سبحانه — رسوله وحزبه الذين اختارهم له ، ومدحهم بأحسن المدح ، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل ، فكأن في هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم ، لا كما يقول الكفار عنهم : إنهم متغلبون طالبوا ملك ودنيا ، ولهذا لما رأهم نصارى الشام وشاهدوا هديهم وسيرتهم ، وعدلهم وعلمهم ، ورحمتهم وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة ، قالوا : ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ، وكان هؤلاء النصارى بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم والرافضة تصفهم بغير ما وصفهم الله به في هذه الآية وغيرها و ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل الله فليس تجد له ولياً مرشداً ﴾^(١) .

ثانيا :

غزوة خيبر

قال الإمام ابن الغيم في الزاد :

« قال موسى بن عقبة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية ، مكث بها عشرين ليلة أو قريبا منها ، ثم خرج غازياً إلى خيبر ، وكان الله — عز وجل — وعده إياها ، وهو بالحديبية . قال ابن إسحاق : حدثني الزهري ، عن عروة ، عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة ، أنهما حدثاه جميعاً ، قالا : انصرف رسول الله — ﷺ — عام الحديبية ، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة ، فأعطاه الله — عز وجل — فيها خيبر ﴿ وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ خيبر ، فقدم رسول الله — ﷺ — المدينة في ذى الحجة : فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم ، فنزل

رسول الله ﷺ — بالرجيع : واد بين خير و غطفان ، فتخوف أن تدمهم غطفان فبات به حتى أصبح ، فغدا إليهم .

واستخلف — ﷺ — على المدينة سباع بن عرفطة ، وقدم أبو هريرة حينئذ المدينة ، فوافى سباع بن عرفطة في صلاة الصبح ، فسمعه يقرأ في الركعة الأولى (كهيعص) ، وفي الثانية (ويل للمطففين) فقال في نفسه : ويل لأبي فلان ، له مكيلا ، إذا اكتال اكتال بالوافي ، وإذا كال كال بالناقص ، فلما فرغ من صلاته ، أتى سباعاً ، فزوده حتى قدم على رسول الله ﷺ — وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه في سهمانهم .

ولما قدم رسول الله ﷺ — خير ، صلى بها الصبح ، وركب المسلمون ، فخرج أهل خير بمساحيمهم ومكاتلهم ، ولا يشعرون بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا الجيش ، قالوا : محمد والله ، محمد والجميس ، ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم ، فقال النبي ﷺ — « الله أكبر خربت خير ، الله أكبر خربت خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين »^(١)

ولما دنا النبي ﷺ — وأشرف عليها قال « قفوا » فوقف الجيش فقال : « اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإننا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير ما فيها ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله »^(٢)

ولما كانت ليلة الدخول ، قال : « لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » . فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس ، غدوا على رسول الله ﷺ — كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال « أين على بن أبي طالب ؟ » فقالوا : يا رسول الله : هو يشتكي عينيه . قال : « فأرسلوا إليه » ، فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ — في عينيه ، ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية ، فقال : يا رسول الله ! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : « أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم »^(٣) .

فخرج مَرَحَبٌ وهو يقول :

أنا الذي سميتني أمي مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

١ — الحديث في صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب غزوة خير — ج ٥ ص ١٦٧ ط الشعب

٢ — الحديث في مجمع الزوائد — كتاب الأدعية — ج ١٠ ص ١٣٥

٣ — الحديث في صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب غزوة خير — ج ٥ ص ١٧١ ط الشعب

فبرز على بن طالب وهو يقول :

أنا الذى سمتنى أمى حيدرہ کلیث غابات کریہ المنظرہ
أوفیہم بالصاع کیل السندرہ
فضرب مرحباً ، فقلق هامته ، وكان الفتح .

قال موسى بن عقبة : ثم دخل اليهود حصناً لهم منيعاً يقال له : القموص ، فحاصروهم رسول الله ﷺ — قريبا من عشرين ليلة ، وكانت أرضاً وخمة شديدة الحر ، فجهد المسلمون جهداً شديداً ، فذبحوا الحمير فنهاهم رسول الله ﷺ — عن أكلها ، وجاء عبد أسود حبشى من أهل خير ، كان فى غنم لسيده ، فلما رأى أهل خير قد أخذوا السلاح ، سألهم ما تريدون ؟ قانوا : نقاتل هذا الذى يزعم أنه نبي ، فوقع فى نفسه ذكر النبي — ﷺ — فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ — فقال : ماذا تقول وما تدعوا إليه ، قال : « أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، وألا تعبد إلا الله »^(١) . قال العبد ، فما لى إن شهدت وآمنت بالله — عز وجل — ؟ قال : « لك الجنة إن مت على ذلك »^(٢) ، فأسلم ، ثم قال : يابى الله ! إن هذه الغنم عندى أمانة ، فقال له رسول الله ﷺ — « أخرجها من عندك وارمها بالحصباء ، فإن الله سيؤدى عنك أمانتك » ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى سيدها ، فعلم اليهودى أن غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله ﷺ — فى الناس ، فوعظهم وحضهم على الجهاد ، فلما التقى المسلمون واليهود ، قتل فيمن قتل العبد الأسود ، فاحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل فى الفسطاط ، فرعموا أن رسول الله ﷺ — أطلع فى الفسطاط ، ثم أقبل على أصحابه وقال « لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خير ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يصل لله سجدة قط »^(٣) .

وقال شداد بن الهاد : جاء رجل من الأعراب إلى النبي — ﷺ — فأمن به واتبعه ، فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خير ، غنم رسول الله ﷺ — شيئاً ، فقسمه ، وقسم للأعرابى ، فأعطى أصحابه ما قسمه له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء ، دفعوه إليه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسم قسمة لك رسول الله ﷺ — فأخذه فجاءه إلى النبي — ﷺ — فقال : ما هذا يارسول الله ؟ قال : « قسم قسمته لك » ، قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا ، وأشار إلى حلقه بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال : « إن تصدق الله يصدقك » ثم نهض إلى قتال العدو ، فأتى به إلى النبي — ﷺ — وهو مقتول ، فقال : « أهو هو ؟ » قالوا : نعم قال : « صدق الله فصدقه » فكفنه النبي — ﷺ — فى جيبه ، ثم قدمه ، فصلى عليه ، وكان من دعائه له : « اللهم هذا عبدك خرج

مهاجراً في سبيلك ، قتل شهيدا ، وأنا عليه شهيد » (أخرجه النسائي والحاكم والبيهقي وإسناده صحيح)^(١)

قال الواقدي : وتحولت اليهود إلى قلعة الزبير : حصن منيع في رأس قلة ، فأقام رسول الله ﷺ — ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود يقال له عزال فقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهراً ما بالوا ، إن لهم شراباً وعيوناً ، تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعته فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك ، فسار رسول الله ﷺ — إلى مائهم ، فقطعه عليهم فلما قطع عليهم ، خرجوا ، فقاتلوا أشد القتال ، وقتل من المسلمين نفر ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ — ثم تحول رسول الله ﷺ — إلى أهل الكُتَيْبَةِ والوطيح والسلام حصن ابن أبي الحقيق ، فتحصن أهله أشد التحصن ، وجاءهم كل فلّ كان انهزم من النطاة والشق ، فإن خير كانت جانبيين . الأول الشق والنطاة ، وهو الذي افتتحه أولاً

والجانب الثاني : الكتيبة والوطيح والسلام ، فجعلوا لا يخرجون من حصونهم حتى هم رسول الله ﷺ — أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة ، وقد حاصرهم رسول الله ﷺ — أربعة عشر يوماً ، سألوا رسول الله ﷺ — الصلح ، وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ — أنزل فأكلمك ؟ فقال رسول الله ﷺ — « نعم » فنزل ابن أبي الحقيق فصالح رسول الله ﷺ — على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خير وأرضها بذرايرهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ — وبين ما كان لهم من مال وأرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان ، فقال رسول الله ﷺ — « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتمتموني شيئاً » فصالحوه على ذلك .

قال حماد بن سلمة : عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ — قاتل أهل خير حتى ألجأهم إلى قصرهم ، فغلب على الزرع والنخل والأرض ، فصالحوه على أن يجُلُوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ — الصفراء والبيضاء ، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يُغَيُّوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، فغَيُّوا مَسْكَاً فيه مال وحلى لحى بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خير حين أجليت النضير .

فقال رسول الله ﷺ — لعم حى بن أخطب : « ما فعل مَسْكَ حى الذى جاء به من النضير ؟ »^(١) قال : « أذهبته النفقات والحروب فقال : « العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك » ، فدفعه رسول الله ﷺ — إلى الزبير ، فمسه بعذاب ، وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال : « قد رأيت حياً ، يطوف في خربة ها هنا ، فذهبوا فطافوا ، فوجدوا المسك في الخربة ، فقتل رسول الله ﷺ —

١ — الحديث في المستدرک للحاکم ح ٣ ص ٥٩٥ ، ٥٩٦ كتاب معرفة الصحابة ذكر شداد بن الحاد — رضى الله عنه —

وفى سنن النسائي ح ٤ ص ٦٠ ، ٦١ — باب الصلاة على الشهداء

ابنى أبى الحقيق ، وأحدهما زوج صفية بنت حى بن أخطب ، وسبى رسول الله ﷺ — نساءهم وذريتهم ، وقسم أموالهم بالنكت الذى نكثوا ، وأراد أن يجليهم منها ، فقالوا : يا محمد ! دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ — ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خير على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ — أن يقرهم ولم يقتل رسول الله ﷺ — بعد الصلح إلا ابنى أبى الحقيق للنكت الذى نكثوا ، فإنهم شرطوا إن غيوا ، أو كتموا ، فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله ، فغيوا ، فقال لهم : « أين المال الذى خرجتم به من المدينة حين أجليناكم »^(١) قالوا : ذهب ، فحلفوا على ذلك ، فاعترف ابن عم كنانة عليهما بالمال حين دفعه رسول الله ﷺ — إلى الزبير يعذبه ، فدفع رسول الله ﷺ — صفية بنت حى بن أخطب وابنة عمتها وكانت صفية تحت كنانة بن أبى الحقيق ، وكانت عروساً حديثة عهد بالدخول ، فأمر بلالاً أن يذهب بها إلى رحله ، فمر بها بلال وسط القتلى ، فكره ذلك رسول الله ﷺ — وقال : « أذهبت الرحمة منك يا بلال »^(٢) .

وعرض عليها رسول الله ﷺ — الإسلام ، فأسلمت ، فاصطفاها لنفسه ، وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها ، وبنى بها فى الطريق ، وأولم عليها ، ورأى بوجهها خضرة ، فقال « ما هذا ؟ »^(٣) قالت : يا رسول الله ! رأيت قبل قدومك علينا ، كأن القمر زال من مكانه فسقط فى حجرى ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً ، فقصصتها على زوجى ، فلطم وجهى وقال : تمنين هذا الملك الذى بالمدينة . (رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح)^(٤) .

وشك الصحابة : هل اتخذها سرية أو زوجة ؟ فقالوا : انظروا إن حجبها ، فهى إحدى نسائه ، وإلا فهى مما ملكت يمينه ، فلما ركب ، جعل ثوبه الذى ارتدى به على ظهرها ووجهها ثم شد طرفه تحته ، فتأخروا عنه فى السير ، وعلموا أنها إحدى نسائه ، ولما قدم ليحملها على الرحل أجلته أن تضع قدمها على فخذه ، فوضعت ركبته على فخذه ثم ركبت (أخرجه البخارى)^(٥) .

ولما بنى بها ، بات أبو أيوب ليلته قائماً قريباً من قبته ، أخذ بقائم السيف حتى أصبح ، فلما رأى رسول الله ﷺ — ذلك ، كبر أبو أيوب حين رآه قد خرج ، فسأله رسول الله ﷺ — مالك يا أبا أيوب ؟ فقال له : أرقت ليلتى هذه يا رسول الله لما دخلت بهذه المرأة ، ذكرت أنك قتلت أباه وأخاه ، وزوجها وعامة عشيرتها ، فخفت أن تغتالك ، فضحك رسول الله ﷺ — وقال له معروفاً .

(١) انظر سيرة النبى لابن هشام — تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الايبارى ، عبد الحفيظ شلبى ح ٣ ص ٣٥١ بقية أمر خير

(٢) الحديث فى الإصابة فى تمييز الصحابة ح ١٣ ص ١٤

(٣) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ح ٢٤ ص ٦٦ — ٧٠

(٤) الحديث رواه الطبرانى ح ٢٤ ص ٦٦ — ٧٠

(٥) الحديث أخرجه البخارى — باب غزوة خير — ح ٥ ص ١٧١ ، ١٧٢

وقسم رسول الله ﷺ — خيبر على ستة وثلاثين سهماً جمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم فكان لرسول الله ﷺ — وللمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ؟ ولرسول الله ﷺ — سهم كسهم أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر ، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوابه وما ينزل به من أمور المسلمين^(١)

وقال ابن القيم : وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ، ومن غاب ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله ﷺ — كسهم من حضرها .

قال موسى بن عقبة وغيره : وكان بين قريش حين سمعوا بخروج رسول الله ﷺ — إلى خيبر تراهن عظيم وتبايع ، فمنهم من يقول : يظهر محمد وأصحابه- ، ومنهم يقول : يظهر الحليفان ويهود خيبر ، وكان الحجاج بن علاط السلمي قد أسلم وشهد فتح خيبر ، وكانت تحت أم شيبه أخت بنى عبد الدار بن قصي ، وكان الحجاج مكثراً من المال ، كانت له معادن بأرض بنى سليم ، فلما ظهر النبي ﷺ — على خيبر ، قال الحجاج ابن علاط : إن لي ذهباً عند امرأتي ، وإن تعلم هي وأهلها بإسلامي ، فلا مالي لي ، فأذن لي ، فلأسرع السير وأسبق الخبر ، ولأخبرن أخباراً إذا قدمت أدراً بها عن مالي ونفسي ، فأذن له رسول الله ﷺ — ، فلما قدم مكة ، قال لامرأته : أخفى عليّ واجمعي ما كان لي عندك من مال ، فإني أريد أن اشتري من غنائم محمد وأصحابه ، فإنهم قد استبيحوا ، وأصبحت أموالهم ، وإن محمداً قد أسر ، وتفرق عنه أصحابه ، وإن اليهود قد أقسموا : لتبعثن به إلى مكة ثم لتقتلنه بقتلاهم بالمدينة ، ونشأ عن ذلك بمكة ، واشتد على المسلمين وبلغ منهم ، وأظهر المشركون الفرح والسرور ، فبلغ العباس عم رسول الله ﷺ — زجلة الناس وجلبتهم وإظهارهم السرور ، فأراد أن يقوم ويخرج ، فانخزل ظهره فلم يقدر على القيام ، فدعا ابناً له يقال له : قثم ، وكان يشبه رسول الله ﷺ — فجعل العباس يرتجز ، ويرفع صوته لئلا يشمت به أعداء الله :

حبي قثم صبي قثم شيبه ذى الأنف الأشم

نبي ربي ذى النعم برغم أنف من رغم

وحشر إلى باب داره رجال كثيرون من المسلمين والمشركين منهم المظهر للفرح والسرور ، ومنهم الشامت المعزى ، ومنهم من به مثل الموت من الحزن والبلاء ، فلما سمع المسلمون رجز العباس وتجلده ، طابت نفوسهم ، وظن المشركون أنه قد أتاها ما لم يأتهم ، ثم أرسل العباس غلاماً له إلى الحجاج ، وقال له : اخل به ، وقل له : ويلك ما جئت به ، وما تقول ، فالذى وعد الله خير مما جئت به ؟ فلما كلمه

الغلام قال له : اقرأ على أبي الفضل السلام ، وقل له : فليخل بي في بعض بيوته حتى آتية ، فإن الخبر على ما يسره ، فلما بلغ العبد باب الدار ، قال : أبشر يا أبا الفضل ، فوثب العباس فرحاً كأنه لم يصبه بلاء قط ، حتى جاءه وقبل ما بين عينيه ، فأخبره بقول الحجاج ، أخل به في بعض بيوتك حتى يأتيك ظهراً ، فلما جاءه الحجاج ، وخلا به ، أخذ عليه لتكتمن خبري ، فوافقته عباس على ذلك ، فقال له الحجاج : جئت وقد افتتح رسول الله ﷺ — خير ، وغنم أموالهم ، وجرت فيهم سهام الله ، وإن رسول الله ﷺ — قد اصطفى صفية بنت حبي لنفسه ، وأعرس بها ، ولكن جئت لمالي ، أردت أن أجمعه وأذهب به ، وإني استأذنت رسول الله ﷺ — أن أقول ، فأذن لي ، أن أقول ما شئت فاخف علي ثلاثاً ، ثم اذكر ما شئت ، قال : فجمعت له امرأته متاعه ، ثم انشمر راجعاً ، فلما كان بعد ثلاث ، أتى العباس امرأة الحجاج فقال ما فعل زوجك ، قالت : ذهب ، وقالت : لا يحزنك الله يا أبا الفضل ، لقد شق علينا الذي بلغك ، فقال : أجل ، لا يحزنني الله ، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحب ، فتح الله على رسوله خير ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى رسول الله ﷺ — صفية لنفسه فإن كان لك في زوجك حاجة ، فالحق به . قالت : أظنك والله صادقاً . قال : فإني والله صادق ، والأمر على ما أقول لك ، قالت : فمن أخبرك بهذا ؟ قال : الذي أخبرك بما أخبرك ، ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش ، فلما رأوه ، قالوا : هذا والله التجلّد يا أبا الفضل ، ولا يصيبك إلا خير ، قال : أجل لم يصبنى إلا خير ، والحمد لله ، أخبرني الحجاج كذا وكذا . وقد سألتني أن اكتب عليه ثلاثاً لحاجة ، فرد الله ما كان للمسلمين من كآبة وجزع على المشركين ، وخرج المسلمون من مواضعهم حتى دخلوا على العباس فأخبرهم الخبر ، فأشرقت وجوه المسلمين (أخرجه عبد الرزاق في المصنف وعنه أحمد وسند صحيح)^(١)

فصل

فيما كان في غزوة خيبر من الأحكام الفقهية

قال العلامة ابن القيم :

فمنها : محاربة الكفار ومقاتلتهم في الأشهر الحرم ، فإن رسول الله ﷺ — رجع من الحديبية في ذي الحجة ، فمكث بها أياماً ، ثم سار إلى خيبر في المحرم ، كذلك قال الزهري عن عروة ، عن مروان والمصور بن مخرمة ، وكذلك قال الواقدي : خرج في أول سنة سبع من الهجرة ، ولكن في الاستدلال بذلك نظر ، فإن خروجه كان في أواخر المحرم لا في أوله ، وفتحها إنما كان في صفر . وأقوى من هذا الاستدلال بيعة النبي ﷺ — عند الشجرة ببيعة الرضوان على القتال وألا يفروا ، وكانت في ذي القعدة ،

١ — انظر سيرة النبي لابن هشام — تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الايباري ، عبد الحفيظ شلبي — ح ٣ ص ٣٥٩ — ٣٦١ — في فتح خيبر

ولكن لا دليل في ذلك ؛ لأنه إنما بايعهم على ذلك لما بلغه أنهم قتلوا عثمان وهم يريدون قتاله ، فحينئذ بايع الصحابة ، ولا خلاف في جواز القتال في الشهر الحرام إذا بدأ العدو ، إنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداء ، فالجمهور أجوزوه وقالوا : تحريم القتال فيه منسوخ وهو مذهب الأئمة الأربعة رحمهم الله .

وذهب عطاء وغيره إلى أنه ثابت غير منسوخ ، وكان عطاء يحلف بالله : ما يحل القتال في الشهر الحرام ، ولا نسخ تحريمه شيء . وأقوى من هذين الاستدلالتين الاستدلال بحصار النبي ﷺ — للطائف ، فإنه خرج إليها في أواخر شوال ، فحاصروهم بضعا وعشرين ليلة ، فبعضها كان في ذى القعدة ، فإنه فتح مكة لعشر بقين من رمضان وأقام بها بعد الفتح تسع عشرة يقصر الصلاة ، ففتح الله عليه هوازن ، وقسم غنائمها ، ثم ذهب إلى الطائف ، فحاصرها بضعا وعشرين ليلة ، وهذا يقتضى أن بعضها في ذى القعدة بلا شك . فهذا الحصار وقع في ذى القعدة بلا ريب ، ومع هذا فلا دليل في القضية ؛ لأن غزو الطائف كان من تمام غزو هوازن ، وهم بدؤوا رسول الله ﷺ — فكان غزوهم من تمام الغزوة التي شرع فيها ، والله أعلم . وقال الله تعالى في (سورة المائدة) وهي من آخر القرآن نزولاً ، وليس فيها منسوخ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ولا القلائد ﴾^(١)

وقال في سورة البقرة : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله ﴾ (البقرة : ٢١٧) ، فهاتان آيتان مدنيتان ، بينهما في النزول نحو ثمانية أعوام ، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله فانسح لحكمها ، ولا أجمعت الأمة على نسخه ، ومن استدل على نسخه بقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ (التوبة : ٣٦) ونحوها من العمومات ، فقد استدل على النسخ بما لا يدل عليه ، ومن استدل عليه بأن النبي ﷺ — بعث أبا عامر في سرية إلى أوطاس في ذى القعدة ، فقد استدل بغير دليل ، لأن ذلك كان من تمام الغزوة التي بدأ فيها المشركون بالقتال ، ولم يكن ابتداء منه لقتالهم في الشهر الحرام .

ومنها : قسمة الغنائم ، للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم .
ومنها : أنه يجوز لأحد الجيش إذا وجد طعاماً أن يأكله ولا يخمسه كما أخذ عبد الله بن المقفل جراب الشحم الذي دلى يوم خيبر ، واختص به بمحضر النبي ﷺ —

ومنها : تحريم لحوم الحُمُرِ الإنسية ، صح عنه تحريمها يوم خيبر ، وصح عنه تعليل التحريم بأنها رجس ، وهذا مقدم على قول من قال من الصحابة إنما حرمها ؛ لأنها كانت ظهر القوم وحمولتهم ؛ فلما قيل له : فنى الظهر وأكلت الحمر ، حرمها ، وعلى قول من قال : إنما حرمها لأنها لم تُخمس ، وعلى قول من قال : إنما حرمها لأنها كانت حول القرية ، وكانت تأكل العذرة ، وكل هذا في « الصحيح »

لكن قول رسول الله — ﷺ — « إنها رجس » مقدم على هذا كله ، لأنه من ظن الراوى ، وقوله بخلاف التعليل بكونها رجس . ولا تعارض بين هذا التحريم وبين قوله تعالى ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ (الأنعام : ١٤٥)

فإن لم يكن قد حرم نزول هذه الآية من المطاعم إلا هذه الأربعة ، والتحريم كان يتجدد شيئاً فشيئاً ، فتحريم الحمر بعد ذلك تحريم مبتدأ لما سكنت عنه النص ، لا أنه رافع لما أباحه القرآن ، ولا مخصص لعمومه ، فضلاً عن أن يكون ناسخاً . والله أعلم .

ومنها : جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض من ثمر أو زرع ، كما عامل رسول الله — ﷺ — أهل خيبر على ذلك ، واستمر ذلك إلى حين وفاته لم ينسخ البتة ، واستمر عمل خلفائه الراشدين عليه ، وليس هذا من باب المؤاجرة فى شيء ، بل من باب المشاركة ، وهو نظير المضاربة سواء ، فمن أباح المضاربة ، وحرم ذلك ، فقد فرق بين متماثلين .

ومنها : فرض الثمار على رؤوس النخل ، وقسمها كذلك ، وأن القسمة ليست بيعاً . ومنها : الاكتفاء بخارص واحد ، وقاسم واحد .

ومنها : جواز عقد المهادنة عقداً جائزاً للإمام نسخه متى شاء .

ومنها : جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط ، كما عقد لهم رسول الله — ﷺ — أن لا يغيبوا ولا يكتموا .

ومنها : جواز تقرير أرباب التهم بالعقوبة ، وأن ذلك من الشريعة العادلة لا من السياسة الظالمة .
ومنها : الأخذ فى الأحكام بالقرائن والأمارات ، كما قال النبى — ﷺ — لكنانة : « المال كثير ، والعهد قريب »^(١) فاستدل بهذا على كذبه فى قوله : أذهبته الحروب والنفقة .

ومنها : أن من كان القول قوله اذا قامت قرينة على كذبه .. لم يلتفت إلى قوله ، ونزل منزلة الخائن .
ومنها : أن أهل الذمة إذا خالفوا شيئاً مما شرط عليهم ، لم يبق لهم ذمة ، وحلت دماؤهم وأموالهم ؛ لأن رسول الله — ﷺ — عقد لهؤلاء الهدنة وشرط عليهم أن لا يغيبوا ولا يكتموا ، فإن فعلوا حلت دماؤهم وأموالهم ، فلم لم يفوا بالشرط ، استباح دماءهم وأموالهم . وبهذا اقتدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الشروط التى اشترطها على أهل الذمة ، فشرط عليهم أنهم متى خالفوا شيئاً منها ، فقد حلّ له منهم ما يحل من أهل الشقاق والهداوة .

ومنها : جواز التفاؤل بل استحبابه بما يراه أو يسمعه مما هو من أسباب ظهور الإسلام وإعلامه ، كما تفاءل النبى — ﷺ — برؤية المساحى والفؤوس والمكاتل مع أهل خيبر ، فإن ذلك فآل فى خرابها .

ومنها : أن الإمام مخير في أرض العنوة بين قسمتها وتركها ، وقسم بعضها ، وترك بعضها .
ومنها : جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم ، كما قال النبي — ﷺ — « نقرم ما أقرم الله »^(١) وقال لكبيرهم : « كيف بك إذا رقصت بك راحلتك نحو الشام يوماً ثم يوماً » ، وأجلأهم عمر بعد موته — ﷺ — وهذا مذهب محمد بن جرير الطبري ، وهو قول قوى يسوغ العمل به إذا رأى الإمام فيه المصلحة .

ومنها : جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره ، إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه ، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين ، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب ، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن ، فمفسدة يسيرة في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب ، ولا سيما تكميل الفرح والسرور وزيادة الإيمان الذي حصل بالخير الصادق بعد هذا الكذب ، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الراجعة .
ومنها : جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب ، وحل طعامهم .

فصل

ثم انصرف رسول الله — ﷺ — من خير إلى وادي القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، وقد انضاف إليهم جماعة من العرب فلما نزلوا استقبلهم يهود بالرمي ، وهم على غير تعبئة ، فقتل مدعم عبد رسول الله ﷺ فقال الناس هنيئاً له الجنة فقال النبي ﷺ : « كلا والذي نفسي بيده ، إن الشملة التي أخذها يوم خير من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً »^(٢) ، فلما سمع بذلك الناس ، جاء رجل إلى النبي ﷺ بشراك أو شركاين ، فقال النبي ﷺ « شراك من نار أو شركان من نار »^(٣) .

فعباً رسول الله — ﷺ — أصحابه للقتال ، وحفهم ودفع لواءه إلى سعد بن عباد ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وأخبرهم أنهم إن أسلموا ، أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم وحسابهم على الله ، فبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام ، فقتله ، ثم برز آخر ، فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبي طالب — رضى الله عنه — فقتله ، حتى قتلوا منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل ، دعا من بقى إلى الإسلام ، وكانت الصلاة تحضر ذلك اليوم ، فيصلى بأصحابه ، ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ،

(١) الحديث في السنن الكبرى للبيهقي ح ٩ ص ٢٠٧

وفي صحيح البخارى — باب ما يجوز من الشروط في الاسلام — ح ٣ ص ٢٥٢

(٢) الحديث بمعناه في صحيح البخارى — كتاب الشروط — باب إذا اشترط في المزارعة إذا شئت أخرجتك — ح ٣ ص ٢٥٢ ط الشعب

(٣) الحديث في سنن النسائي — كتاب الأيمان والنذور — باب هل تدخل الأرضون في المال إذا نذر ح ٧ ص ٢٢

وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنمه الله أموالهم ، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا ، وأقام رسول الله — ﷺ — بوادى القرى أربعة أيام ، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادى القرى ، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود ، وعاملهم عليها ، فلما بلغ يهود تيماء ماواطأ عليه رسول الله — ﷺ — أهل خير وفدك ووادى القرى ، صالحوا رسول الله — ﷺ — وأقاموا بأموالهم ، فلما كان زمن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أخرج يهود خير وفدك ، ولم يخرج أهل تيماء ووادى القرى ؛ لأنهما داخلتان فى أرض الشام ، ويرى أن ما دون وادى القرى إلى المدينة حجاز ، وأن ما وراء ذلك من الشام .
وانصرف رسول الله — ﷺ — راجعاً إلى المدينة .

ثالثاً :

فى عمرة القضية

قال العلامة ابن القيم فى الزاد :

قال نافع : كانت فى ذى القعدة سنة سبع . وقال سليمان التيمى لما رجع رسول الله — ﷺ — من خير بعث السرايا — وأقام بالمدينة حتى استهل ذو القعدة ، ثم نادى فى الناس بالخروج .
قال موسى بن عقبة : ثم خرج رسول الله — ﷺ — من العام المقبل من عام الحديبية معتمراً فى ذى القعدة سنة سبع ، وهو الشهر الذى صده فيه المشركون عن المسجد الحرام ، حتى إذا بلغ يأجج (موضع قرب مكة على ثمانية أميال) وضع الأداة كلها الحجف والجان ، والنبل ، والرماح ، ودخلوا بسلاح الراكب : السيوف وبعث رسول الله — ﷺ — جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث بن حزف العامرية ، فخطبها إليه ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب ، وكانت أختها أم الفضل تحتة ، فزوجها العباس رسول الله — ﷺ — فلما قدم رسول الله — ﷺ — أمر أصحابه فقال :
« اكشفوا عن المناكب ، واسعوا فى الطواف »^(١) ليرى المشركون جلدتهم وقوتهم . وكان يكأيدهم بكل ما استطاع ، فوقف أهل مكة : الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله — ﷺ — وأصحابه يطوفون بالبیت ، وعبد الله بن رواحه بين يدي رسول الله — ﷺ — يرتجز متوشحاً بالسيف يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صحف تتلى على رسوله يارب إني مؤمن بقليله
إني رأيت الحق فى قبوله اليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقله ويذهل الخليل عن خليله .

وتغيب رجال من المشركين كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ — حنقاً وغيظاً ، فأقام رسول الله ﷺ — بمكة ثلاثاً ، فلما أصبح من اليوم الرابع ، أتاه سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ورسول الله ﷺ — في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عباد ، فصاح حويطب الله والعقد لما خرجت من أرضنا ، فقد مضت الثلاث ، فقال سعد بن عباد كذبت لا أم لك ، ليست بأرضك ولا أرض آبائك ، والله لا نخرج ثم نادى رسول الله ﷺ — حويطب وسهيلاً ، فقال : « إني قد نكحت منكم امرأة فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ، ونضع الطعام فنأكل ، وتأكلون معنا »^(١) فقالوا : أنناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا ، فأمر رسول الله ﷺ — أبا رافع ، فأذن بالرحيل ، وركب رسول الله ﷺ — حتى نزل بطن سرف ، فأقام بها وخلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمسي ، فأقام حتى قدمت ومن معها ، وقد لقوا أذى وعناء من سفهاء المشركين وصبيانهم ، فبنى بها بسرف ، ثم أدلج وسار حتى قدم المدينة وقدر الله أن يكون قبر ميمونة بسرف حيث بنى بها .

وأما قول ابن عباس : إن رسول الله ﷺ — تزوج ميمونة وهو محرم وبنى بها وهو حلال « فما استدرك عليه ، وعُد من وهمه ، قال سعيد بن المسيب : ووهم ابن عباس وأن كانت خالته ما تزوجها رسول الله ﷺ — إلا بعد ما حل^٢ »

وقال يزيد بن الأصم عن ميمونة : « تزوجني رسول الله ﷺ — ونحن حلالان بسرف »^(٣) رواه مسلم .

وقال أبو رافع : « تزوج رسول الله ﷺ — ميمونة ، وهو حلال ، وبنى بها وهو حلال ، وكنت الرسول بينهما » صح ذلك عنه (أخرجه أحمد)^(٤) .

وقد قيل : إنه تزوجها قبل أن يحرم ، وفي هذا نظر إلا أن يكون وكل في العقد عليها قبل إحرامه ، وأظن الشافعي ذكر ذلك قولاً ، فالأقوال ثلاثة :

أحدها : أنه تزوجها بعد حله من العمرة ، وهو قول ميمونة نفسها وقول السفير بينهما وبين رسول الله ﷺ — وهو أبو رافع ، وقول سعيد بن المسيب وجمهور أهل النقل .

الثاني : أنه تزوجها وهو محرم ، وهو قول ابن عباس ، وأهل الكوفة وجماعة .

الثالث : أنه تزوجها قبل أن يحرم

١ — انظر سيرة النبي لابن هشام — تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي — ح ٤ ص ١٤ باب عمرة القضاء

٢ — الحديث في السنن الكبرى للبيهقي ج ٧ ص ٥٨ — باب ما أبيح له من النكاح في الإحرام

وفي سنن أبي داود — ح ٢ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣

٣ — الحديث في سنن الترمذي — كتاب الحج ح ٢ ص ١٦٨ ، ١٦٩

وفي صحيح مسلم بشرح النووي ح ٩ ص ١٩٦

٤ — الحديث في سنن الترمذي — كتاب الحج ح ٢ ص ١٦٧ ، ١٦٨

وفي مسند أحمد ح ٦ ص ٣٣٢

وقد تحمل قول ابن عباس أنه تزوجها ، وهو محرم على أنه تزوجها في الشهر الحرام ، لا في حال الإحرام ، قالوا ، ويقال : أحرم الرجل : إذا عقد الإحرام ، وأحرم : إذا دخل في الشهر الحرام وإن كان حلالاً وقد روى مسلم في « صحيحه » من حديث عثمان بن عفان — رضى الله عنه — قال سمعت رسول الله — ﷺ — يقول « لا ينكح المحرم ولا ينكح ، ولا يخطب »^(١) ولو قدر تعارض القول والفعل ها هنا ، لوجب تقديم القول ؛ لأن الفعل موافق للبراءة الأصلية ، والقول ناقل عنها ، فيكون رافعاً لحكم البراءة الأصلية ، وهذا موافق لقاعدة الأحكام ، ولو قدم الفعل ، لكان رافعاً لموجب القول ، والقول رافع لموجب البراءة الأصلية ، فيلزم تغيير الحكم مرتين ، وهو خلاف قاعدة الأحكام والله أعلم .

ولما أراد النبي — ﷺ — الخروج من مكة ، تبعته ابنة حمزة تنادى ياعم ياعم ، فتناولها على بن أبي طالب — رضى الله عنه — فأخذ بيدها وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك ، فحملتها ، فاختصم فيها على وزيد وجعفر ، فقال على : أنا أخذتها ، وهى ابنة عمى ، وقال جعفر : ابنة عمى وخالتها تحتى ، وقال زيد : ابنة أخنى (يريد الإخاء الذى عقده رسول الله — ﷺ — بينه وبين حمزة لما واهى بين المهاجرين) فقضى بها رسول الله — ﷺ — لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم »^(٢) وقال لعللى . « أنت منى وأنا منك »^(٣) ، وقال لجعفر « أشبهت خلقتى وخلقتى »^(٤) وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا »^(٥) متفق على صحته .

وفي هذه القصة من الفقه : أن الخالة مقدمة في الحضانة على سائر الأقارب بعد الأبوين ، وأن تزوج الحضانة بقريب من الطفل لا يسقط حضانتها ، نفى أحمد في رواية عنه على أن تزويجها لا يسقط حضانتها في الجارية خاصة ، واحتج بقصة بنت حمزة هذه .

وقد اختلف في سقوط الحضانة بالنكاح على أربعة أقوال :

أحدها : تسقط به ذكراً كان أو أنثى ، وهو قول مالك ، والشافعى وأبى حنيفة ، وأحمد في إحدى الروايات عنه .

والثانى : لا تسقط بحال ، وهو قول الحسن ، وابن حزم

والثالث : إن كان الطفل بنتاً ، لم تسقط الحضانة ، وإن كان ذكراً سقطت وهذه رواية عن أحمد — رحمه الله —

والرابع : أنها إذا تزوجت بنسيب من الطفل ، لم تسقط حضانتها ، وإن تزوجت بأجنبى ، سقطت ...

١ — الحديث في صحيح مسلم — كتاب النكاح — ح ٢ ص ١٠٣١ ، نُذِّظ .

٢ — الحديث في الجامع الكبير للسيوطى ح ١ ص ٤٠٩ من رواية البخارى ومسلم والدارمى وابن عوانة

٣ — الحديث في مسند أحمد ح ١ ص ٩٨ ، ١٦٢

٤ — الحديث في مسند أحمد ح ١ ص ٩٨ ، ١٠٨

٥ — الحديث في صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب عمرة القضاء ح ٥ ص ١٧٩ ، ١٨٠

فصل

واختلف في تسمية هذه العمرة بعمرة القضاء ، هل هو لكونها قضاء للعمرة التي صدوا عنها ، أو من المقاضاة ؟ على قولين تقدما ، قال الوافدي بسنده عن ابن عمر ، قال : لم تكن هذه العمرة قضاء ، ولكن كان شرطاً على المسلمين أن يعتمروا في الشهر الذي حاصروهم فيه المشركون .

واختلف الفقهاء في ذلك على أربعة أقوال :

أحدها : أن من أحصر عن العمرة يلزمه الهدى والقضاء ، وهذا إحدى الروايات عن أحمد ، بل أشهرها عنه .

والثاني : لا قضاء عليه ، وعليه الهدى ، وهو قول الشافعي ، ومالك في ظاهر مذهبه ، ورواية أبي طالب عن أحمد .

والثالث : يلزمه القضاء ، ولا هدى عليه ، وهو قول أبي حنيفة ،

والرابع : لا قضاء عليه ، ولا هدى ، وهو إحدى الروايات عن أحمد .

فمن أوجب عليه القضاء والهدى ، احتج بأن النبي ﷺ — وأصحابه نحروا الهدى حين صدوا عن البيت ، ثم قضوا من قابل ، قالوا : والعمرة تلزم بالشروع فيها ، ولا يسقط الوجوب إلا بفعلها ، ونحر الهدى لأجل التحلل قبل تمامها ، وقالوا : وظاهر الآية يوجب الهدى ، لقوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾^(١) . ومن لم يوجبها ، قالوا : لم يأمر النبي ﷺ — الذين أحصروا بالقضاء ولا أحداً منهم ، ولا وقف الحل على نحرهم الهدى ، بل أمرهم أن يخلقوا رؤوسهم ، وأمر من كان معه هدى أن ينحر هديه . ومن أوجب الهدى دون القضاء احتج بقوله ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾^(٢) .

ومن أوجب القضاء دون الهدى ، احتج بأن العمرة تلزم بالشروع ، فإذا أحصر جاز له تأخيرها لعذر الإحصار ، فإذا زال الحصر أتى بها بالوجوب السابق ، ولا يوجب تخلل التحلل بين الإحرام بها أولاً ، وبين فعلها في وقت الإمكان شيئاً ، وظاهر القرآن يرد هذا القول ، ويوجب الهدى دون القضاء ، لأنه جعل الهدى هو جميع ما على المحصر ، فدل على أنه يكتفى به منه والله أعلم .

وفي نحره — ﷺ — وحله ، دليل على أن المحصر بالعمرة يتحلل ، وهذا قول الجمهور .

وفي ذبحه — ﷺ — بالحديبية وهي من الحل بالاتفاق ، دليل على أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من حل أو حرم ، وهذا قول الجمهور ، وأحمد ومالك والشافعي . وعن أحمد رواية أخرى ، أنه ليس

له نحر هديه إلا في الحرم ، فبيعته إلى الحرم ، ويواطىء رجلاً على أن ينحره في وقت يتحلل فيه ، وهذا يروى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — وجماعة من التابعين . وهو قول أبى حنيفة .
وهذا إن صح عنهم فينبغى حملة على الحصر الخاص ، وهو أن يتعرض ظالم لجماعة أو لواحد ، وأما الحصر العام ، فالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ — تدل على خلافه ، والحديبية من الحل باتفاق الناس ، وقد قال الشافعى : بعضها من الحل ، وبعضها من الحرم ، قلت : ومراده أن أطرافها من الحرم وإلا فهي من الحل باتفاقهم ...

رابعاً :

في الفتح الأعظم (فتح مكة)

الذى أعز الله به دينه ، ورسوله ، وجنده ، وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين ، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به في دين الله أفواجا ، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا ، فرج له رسول الله ﷺ — بكتائب الإسلام ، وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضي من رمضان واستعمل على المدينة أبارهم كلثوم بن حصين الغفارى ، وقال ابن سعد بل استعمل عبد الله بن أم مكتوم .
وكان السبب الذى جر إليه ، وحدا إليه فيما ذكر إمام أهل السير والمغازى والأخبار محمد بن إسحاق بن يسار ، أن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة — وهم على ماء يقال له : الوتير — فبيتوهم وقتلوا منهم ، وكان الذى هاج ذلك أن رجلاً من بنى الحضرمي يقال له : مالك بن عباد خرج تاجراً ، فلما توسط أرض خزاعة ، عدوا عليه فقتلوه ، وأخذوا ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من بنى خزاعة فقتلوه ، فعدت خزاعة على بنى الأسود وهم سلمى ، وكلثوم ، وذؤيب ، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم ، هذا كله قبل المبعث ، فلما بعث رسول الله ﷺ — وجاء الإسلام ، حجز بينهم ، وتشاغل الناس بشأنه ، فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ — وبين قريش ، وقع الشرط : أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ — وعهده ، فعل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم ، فعل ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ — وعهده ، فلما استمرت الهدنة ، اغتتمها بنو بكر من خزاعة ، وأرادوا أن يصيبوا منهم الثأر القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الديلى في جماعة من بنى بكر ، فبيت خزاعة وهم على الوتير ، فأصابوا منهم رجلاً ، وتناوشوا واقتتلوا ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفياً ليلاً ، ذكر ابن سعد منهم : صفوان بن أمية ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكيز بن حفص حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه ، قالت بنو بكر : يانوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك . فقال كلمة عظيمة :

لا إله له اليوم ، يابني بكر أصيبوا ثأركم ، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟ ! فلما دخلت خزاعة مكة ، لجئوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم يقال له : رافع ، ويخرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ — فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني أصحابه فقال :

يارب إني ناشد محمداً حلف أيينا وأبيه الاتلدا .
 قد كنتم ولداً وكنا والدا ثمت أسلمنا ولم تنزع يدا
 فانصر هداك الله نصراً أبداً وادع عباد الله يأتوا مددا
 إن سيم خسفا وجهه تربداً في فيلق كالبحر يجرى مزبدا
 إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 وجعلوا لي في كداء رصداً وزعموا أن لست تدعو أحدا
 وهم أذل وأقل عدداً هم بيوتا بالوتير هجداً

وقتلونا ركعاً وسجداً

يقول : قُتلنا وقد أسلمنا ، فقال رسول الله ﷺ — : « نُصرت ياعمرو بن سالم » ثم عرضت سحابة لرسول الله ﷺ — فقال « إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب » ، ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ — ، فأخبروه بما أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة ، فقال رسول الله ﷺ — للناس « كأنكم بأبي سفيان ، وقد جاء ليشد العقد ويزيد في المدة »^(١) .

ومضى بديل بن ورقاء في أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعُسفان وقد بعثه قريش إلى رسول الله ﷺ — ليشد العقد ، ويزيد في المدة ، وقد رهبوا الذي صنعوا ، فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء ، قال : من أين أقبلت يابديل ؟ فظن أنه أتى النبي ﷺ — فقال : سرت في خزاعة في هذا الساحل ، وفي بطن هذا الوادي ، قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا ، فلما راح بديل إلى مكة ، قال أبو سفيان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ، ففته ، فرأى فيها النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبه ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ — طوته عنه ، فقال : يابنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ — وأنت مشرك بخس ، فقال : والله لقد أصابك بعدى شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ — فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ — فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ — فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة ، وحسن غلام يدب بين يديهما ، فقال : يا علي إنك أمس القوم بي رحماً ، وإني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، اشفع لي إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ — على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : « هل لك أن تأمرى ابنك هذا ، فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ — قال : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ، قال : والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم ألحق بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ، قال : لا والله ما أظنه ، ولكني ما أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيها الناس ! إني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيه فانطلق فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله مارد عليّ شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة ، فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت عمر بن الخطاب ، فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم ، قد أشار عليّ بشيء صنعته فوالله ما أدرى ، هل يغنى عني شيئاً ، أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت ، فقالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا ، قالوا : ويلك والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

وأمر رسول الله ﷺ — الناس بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة — رضى الله عنها — وهى تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ — فقال ، أى بنية ، أمر كن رسول الله ﷺ — بتجهيزه ؟ قالت : نعم ، فأين ترينه يريد ، قالت : لا والله ما أدرى ثم إن رسول الله ﷺ — أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، فأمرهم بالجد والتجهيز ، وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها »^(١) فتجهز الناس . فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ — إليهم ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في قرون في رأسها ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ — الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علياً والزبير ، فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلقا تعادى بهما خيلهما ، حتى وجدا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلاها ، وقالوا : معك كتاب ؟ فقالت : ما معى كتاب ، ففتشا رحلها ، فلم يجدا شيئاً ، فقال لها على — رضى الله عنه — أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ — ولا كذبتنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأتا الجد منه ، قالت : أعرض فأعرض ، فحلت قرون رأسها ،

فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليهما ، فأتيا به رسول الله — ﷺ — حاطباً ، فقال : ما هذا يا حاطب ؟ فقال : لا تعجل على يا رسول الله ، والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ، ولا بدلت ، ولكني كنت امرئاً ملصقاً في قريش لست من أنفسهم ، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لي فيهم قرابة ، يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله — ﷺ — : « إنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم »^(١) فذرفت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

ثم مضى رسول الله — ﷺ — وهو صائم ، والناس صيام حتى إذا كانوا بالكديد — وهو الذي تسميه الناس اليوم قديداً — أفطر وأفطر الناس معه . (أخرجه البخاري)

ثم مضى حتى أنزل مر الظهران ، وهو بطن مر ، ومعه عشرة آلاف ، وعمى الله الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وارتقاب وكان أبو سفيان يخرج يتحسس الأخبار فخرج هو وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار ، وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ، فلقي رسول الله — ﷺ — بالجحفة ، وقيل : فوق ذلك ، وكان ممن لقيه في الطريق ابن عمه سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أبي أمية لقيه بالأبواء ، وهما ابن عمه وابن عمته ، فأعرض عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك ، وقال على لأبي سفيان فيما حكاه أبو عمر : أتت رسول الله — ﷺ — من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾^(٢) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً ، ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله — ﷺ — « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »^(٣)

فأنشده أبو سفيان أبياتاً منها :

لعمرك إني حين أحمل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكا لمدج الحيران أظلم ليلة	فهذا أواني حين أهدى فأهتدي
هداني هادٍ غير نفسي ودلني	على الله من طردت كل مطرد

فضرب رسول الله — ﷺ — صدره وقال : « أنت طردتني كل مطرد »^(٣) وحسن إسلامه بعد ذلك .

١ — الآية : ٩١ من سورة يوسف

٢ — الآية ٩٢ من سورة يوسف

٣ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ج ٤ ص ٢٠

وفي المستدرک للحاکم ج ٣ ص ٤٣ ، ٤٤ ، وسنده جيد ، وصححه الحاكم ، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم

يخرجاه ، ووافقه الذهبي

ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ — منذ أسلم حياء منه ، وكان رسول الله ﷺ — يحبه وشهد له بالجنة وقال : « أرجو أن يكون خلفاً من حمزة »^(١) ولما حضرته الوفاة ؛ قال : لا تبكوا علي ، فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت .

فلما نزل رسول الله ﷺ — مر الظهران ، نزله عشاء فأمر الجيش فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ — الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وركب العباسي بغلة رسول الله ﷺ — البيضاء ، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الحطابة ، أو أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ — قبل أن يدخلها عنوة ، قال : والله إني لأسير عليها إذ سمعت كلام أبي سفيان ، وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً ، قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكريها ، قال : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة فعرف صوتي ، فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم ، قال : ما لك فذاك أبي وأمي ؟ قلت : هذا رسول الله ﷺ — في الناس واصباح قريش والله : ، قال : فما الحيلة فذاك أبي وأمي ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ﷺ — فاستأمنه لك ، فركب خلفي ورجع صاحبه ، قال : فجئت به ، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : « من هذا ؟ » فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ — قالوا : عم رسول الله ﷺ — على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلي ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ — ، وركضت البغلة فسبقت ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ — ودخل عليه عمر ، فقال : يارسول الله : هذا أبو سفيان ، فدعني أضرب عنقه ، قال : قلت : يارسول الله ﷺ — إني قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ — فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا ينجيه الليلة أحد دوني ، فلما أكثر عمر في شأنه ، قلت : مهلاً يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بني عدى بن كعب ما قلت مثل هذا ، قال : مهلاً يا عباس ، « فوالله لأسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ — من إسلام الخطاب ، فقال رسول الله ﷺ — « اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به » . فذهبت فلما أصبحت ، غدوت به إلى رسول الله ﷺ — قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ »^(٢) قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك ،

١ — الحديث في أسد الغابة في معرفة الصحابة — في ترجمة أبي سفيان بن الحارث القرظي ح ٦ ص ١٤٦ رقم ٥٩٥٩

٢ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٢٢

وأكرمك ، وأوصلك ، لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى شيئاً بعد ، قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ » قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أمّا هذه ، فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً ، فقال له العباس ويحك أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق ، فقال العباس يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه ، فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام ، فهو آمن »^(١) .

وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله ، فيراها ، ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت به قبيلة قال : يا عباس ، من هذه ؟ فأقول : سليم ، قال : فيقول : مالي ولسليم ، ثم تمر به القبيلة ، فيقول : يا عباس ! من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ، حتى نفدت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سألتني عنها ، فإذا أخبرته بهم قال : مالي ولبنى فلان حتى مر به رسول الله ﷺ — في كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ — في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، ثم قال : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ، قال : قلت يا أبا سفيان : إنها النبوة ، قال : فنعم إذاً ، قال : قلت : النجاء إلى قومك . وكانت راية الأنصار مع سعد بن عباد ، فلما مر بأبي سفيان ، قال له ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرم ، اليوم أذل الله قريشاً . فلما حاذى رسول الله ﷺ — أبا سفيان ، قال : يا رسول الله ﷺ — ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ، فقال : كذا وكذا ، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ — « بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً » ثم أرسل رسول الله ﷺ — إلى سعد ، فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى قيس ابنه ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه ، قال أبو عمر : ورؤى أن النبي ﷺ — لما نزع منه الراية ، دفعها إلى الزبير .

ومضى أبو سفيان حتى إذا جاء قريشاً ، صرخ بأعلى صوته يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، فقالت اقتلوا الحميت الدسم ، الأحمش الساقين ، قُبِح من طليعة قوم ، قال : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لَكُمْ به ، من دخل دار أبي سفيان ، فهو آمن ومن دخل المسجد ، فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك . قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وسار رسول الله ﷺ — فدخل مكة

من أعلاها ، وضربت له هنالك قبة ، وأمر رسول الله ﷺ — خالد بن الوليد أن يدخلها من أسلفها ، وكان على المجنبة اليمنى ، وفيها أسلم ، وسليم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وقبائل من قبائل العرب ، وكان أبو عبيدة على الرجالة والحُسَر ، وهم الذين لا سلاح معهم ، وقال لخالد ومن معه : إن عرض لكم أحد من قريش ، فاحصدوهم حصداً حتى توافوني على الصفا ، فما عرض لهم أحد إلا أناموه ، وتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخدمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يعد سلاحاً قبل دخول رسول الله ﷺ — فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، قالت والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، قال : إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم ، ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فما لي على هذا سلاح كامل وألّه

وذو غرارين سريع السّلة

ثم شهد الخدمة مع صفوان وعكرمة وسهيل بن عمرو ، فلما لقيهم المسلمون ناوشوهم شيئاً من قتال ، فقتل كُرزين جابر الفهري ، وخُنيس بن خالد بن ربيعة من المسلمين ، وكانا في خيل خالد بن الوليد ، فشذا عنه ، فسلكا طريقاً غير طريقه ، فقتلا جميعاً ، وأصيب من المشركين نحو اثني عشر رجلاً ، ثم انهزموا ، وانهزم حماس صاحب السلاح حتى دخل بيته ، فقال لامرأته : أغلّقي علىّ بابي ، فقالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخدمة إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة

واستقبلتنا بالسيوف المسلمة يقطعن كل ساعد وجمجمة

ضرباً فلا نسمع إلا غمغمة لهم نيت خلفنا وهممة

لم تنطق في اللوم أدنى كلمة .

وركزت راية رسول الله ﷺ — بالحجون عند مسجد الفتح .

ثم نهض رسول الله ﷺ — والمهاجرون والأنصار بين يديه ، وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفي يده قوس ، وحول البيت ، وعليه ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنهم بالقوس ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) (جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد)^(١) والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرماً يومئذ ، فاقصر على الطواف ، فلما أكمله ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت ، فدخلها فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام ، فقال :

١ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد — ٤ ص ٣٧ وفي صحيح البخاري — باب غزوة

« قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط »^(١) ورأى في الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحييت .

ثم أغلق الباب ، وعلئ وأسامه وبلال ، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع ، وقف وصلى هناك ، ثم دار فى البيت ، وكبر فى نواحيه ، ووجد الله ، ثم فتح الباب ، وقریش قد ملأت المسجد صنوفاً ينتظرون ماذا يصنع ، فأخذ بعضاً وتى الباب ، وهم تحته ، فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عهده ، وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو مال أو دم ، فهو تحت قدمي هاتين الإسدانة وسقاية الحاج ، ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة مائة من الابل ، أربعون منها فى بطونها أولادها ، يا معشر قریش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ثم قال : « يا معشر قریش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ »^(٢) قالوا : خير أخ كريم وابن أخ كريم قال : « فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : « لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم جلس فى المسجد ، فقام إليه على — رضى الله عنه — ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال : يا رسول الله ! اجمع لنا الحجابة مع السقاية — ﷺ — فقال رسول الله — ﷺ — « أين عثمان بن طلحة ؟ »^(٣) فدعى له ، فقال له : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء »^(٤)

وأمر رسول الله — ﷺ — بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسير ، والحارث بن هشام ، وأشرف قریش جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته ، فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبى — ﷺ — فقال لهم : « قد علمت الذى قلت »^(٥) ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك ثم دخل رسول الله — ﷺ — دار أم هانئ بنت أبى طالب ، فاغتسل ، وصلى ثمان ركعات فى بيتها ، وكانت ضحى فظنها من ظنها صلاة الضحى ، وإنما هذه صلاة الفتح ، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلداً ، صلوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداء برسول الله — ﷺ — وفى القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكراً لله عليه ، فإنها قالت : ما رأيته صلاها قبلها ولا بعدها .

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — ج ٤ ص ٣٢

٢ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — ج ٤ ص ٣٢

٣ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — ج ٤ ص ٣٣

وأجارت أم هانئ حموين لها ، فقال لها رسول الله ﷺ — : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ »^(١) .

ولما استقر الفتح ، آمن رسول الله ﷺ — الناس كلهم إلا تسعة نفر ، فإنه أمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت ستار الكعبة ، وهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعبد العزى بن خطل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس ابن صبابه ، وهبار بن الأسود ، وقينتان لابن خطل ، كانت تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ — ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب .

فأما ابن أبي سرح فأسلم ، فجاء به عثمان بن عفان ، فاستأمن له رسول الله ﷺ — فقبل منه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله ، وكان قد أسلم قبل ذلك ، وهاجر ، ثم أرتد ، ورجع إلى مكة . وأما ابن خطل ، والحارث ، ومقيس ، وإحدى القينتين ، فقتلوا ، وكان مقيس ، قد أسلم ، ثم ارتد وقتل ، ولحق بالمشركين ، وأما هبار بن الأسود ، فهو الذى عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ — حين هاجرت ، فنخس بها حتى سقطت على صخرة ، وأسقطت جنينها ، ففر ، ثم أسلم وجسن إسلامه .

واستؤمن رسول الله ﷺ — لسارة وإحدى القينتين ، فأمنهما فأسلمتا . فلما كان الغد من يوم الفتح ، قام رسول الله ﷺ — فى الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ومجّده بما هو أهله ، ثم قال : « يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمأ أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ — فقولوا : إن الله أذن لرسوله ، ولم يأذن لكم ، وإنما حلت لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب » (أخرجه البخارى)^(٢) .

ولما فتح الله مكة على رسوله ، وهى بلده ، ووطنه ، ومولده ، قال الأنصار فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ — إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها ، وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه ؟ فلما فرغ من دعائه ، قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شئ يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال رسول الله ﷺ — : « معاذ الله ، الحيا محياكم والممات مماتكم » (أخرجه مسلم)^(٣) .

(١) — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣١

(٢) — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣٥ ، ٣٦

وفى صحيح البخارى — باب غزوة الفتح — ح ٥ ص ١٩٤ ط الشعب

(٣) — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣٦

وفى صحيح مسلم — كتاب الجهاد والسير ح ٣ ص ١٤٠٦ ، ١٤٠٨

وهم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ﷺ — وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه ، قال له رسول الله ﷺ — أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله ، قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك »^(٢) ؟ قال : لا شيء كنت أذكر الله ، فضحك النبي ﷺ — ثم قال : « استغفر الله »^(٣) ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلى ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ؟ فقلت : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا يأبى عليك الله والإسلام
لو قد رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسّر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيناً والشرك يغشى وجهه الإظلام

وفر يومئذ صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، فأما صفوان ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول الله ﷺ — فأمنه وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر فردّه ، فقال اجعلنى فيه بالخيار شهرين ، فقال : أنت بالخيار فيه أربعة أشهر .

وكانت أم حكيم بنت الحارث بن هشام تحت عكرمة بن أبى جهل فأسلمت ، واستأمنت له رسول الله ﷺ — فأمنه فلحقت به باليمن ، فأمنته فردته ، وأقرهما رسول الله ﷺ — هو وصفوان على نكاحهما الأول .

ثم أمر رسول الله ﷺ — تميم بن أسيد الخزاعى فجدد أنصاب الحرم (حجارة تجعل علامات بين الحل والحرم) ، وبث رسول الله ﷺ — سراياه إلى الأوثان التى كانت حول الكعبة فكسرت كلها منها اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ونادى مناديه بمكة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره » .

فصل

فى الإشارة إلى ما فى الغزوة من الفقه واللطائف

قال ابن القيم :

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هذا الفتح العظيم ، آمن الناس به ، وكلّم بعضهم بعضاً وناظره فى الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ،

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣٣

٢ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣٧

ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام . ولهذا سماه الله فتحاً في قوله ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ نزلت في شأن الحديبية . فقال عمر : يا رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال : « نعم »^(١) وأعاد سبحانه وتعالى ذكر كونه فتحاً فقال ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ إلى قوله ﴿ فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ .

وهذا شأنه سبحانه وتعالى أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، المنبهة عليها ، كما قدم بين يدي قصة المسيح وخلقته من غير أب قصة زكريا ، وخلق الولد له مع كونه كبيراً لا يولد لمثله ، وكما قدم بين يدي نسخ القبلية قصة البيت وبنائه وتعظيمه ، والتنويه به ، وذكر بانيه ، وتعظيمه ومدحه ، ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ ، وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له ، وهكذا ما قدم بين يدي مبعث رسوله — ﷺ — من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك ، وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله — ﷺ — كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة ، وكذلك الهجرة كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد ، ومن تأمل أسرار الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر كلمته الأبواب .

وفيها : أن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام وجواره وعهده ، صاروا حرباً له بذلك ، ولم يبق بينهم وبينه عهد ، فله أن يبيتهم في ديارهم ، ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء ، وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة ، فإذا تحققها ، صاروا نابذين لعهده .

وفيها : انتقاض عهد جميعهم بذلك ، ردئهم ومباشرهم إذا رضوا بذلك ، وأقروا عليه ولم ينكروه ، فإن الذين أعانوا بنى بكر من قریش بعضهم ، لم يقاتلوا كلهم معهم . ومع هذا فغزاهم رسول الله — ﷺ — كلهم ، وهذا كما أنهم دخلوا في عقد الصلح تبعاً ، ولم ينفرد كل واحد منهم بصلح ، إذ قد رضوا به وأقروا عليه ، فكذلك حكم نقضهم للعهد ، هذا هدى رسول الله — ﷺ — لا شك فيه كما ترى ...

وهذا حكم قطاع الطريق . حكم ردئهم حكم مباشرهم ؛ لأن المباشر إنما باشر الإفساد بقوة الباقيين ، ولولاهم ما وصل إلى ما وصل إليه ، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ، وهو مذهب أحمد ، ومالك ، وأبي حنيفة ، وغيرهم .

وفيها : جواز صلح أهل الحرب على وضع القتال عشر سنين ، وهل يجوز فوق ذلك ، الصواب : أنه يجوز للحاجة والمصلحة الراجحة كما إذا كان بالمسلمين ضعف وعدوهم أقوى منهم ، وفي العقد لما زاد عن العشر مصلحة للإسلام .

١ — انظر تفسير ابن كثير ح ٧ ص ٣٠٨ — تفسير سورة الفتح

والحديث في مسند أحمد ح ٣ ص ٤٨٦

وفيهما : أن الإمام وغيره إذا سئل ما لا يجوز بذله ، أو لا يجب ، فسكت عن بذله ، لم يكن سكوته بذلاً له ، فإن أبا سفيان سأل رسول الله ﷺ — تجديد العهد ، فسكت رسول الله ﷺ — ولم يجبه بشيء ، ولم يكن بهذا السكوت معاهداً له .

وفيهما : أن رسول الكفار لا يقتل ، فإن أبا سفيان كان ممن جرى عليه حكم انتقاض العهد ، ولم يقتله رسول الله ﷺ — إذ كان رسول قومه إليه .

وفيهما : جواز تبیت الكفار ، ومغافضتهم (أى أخذهم على غرة) فى ديارهم إذ كانت قد بلغتهم الدعوة ، وقد كانت سرايا رسول الله ﷺ — يبيتون الكفار ، ويغيرون عليهم بإذنه بعد أن بلغتهم دعوته . وفيها : جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً ؛ لأن عمر — رضى الله عنه — سأل رسول الله ﷺ — قتل حاطب بن أبى بلتعنة لما بعث يخبر أهل مكة بالخبر ، ولم يقل رسول الله ﷺ — : لا يحل قتله أنه مسلم ، بل قال : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم »^(١) فأجاب بأن فيه مانعاً من قتله ، وهو شهوده بدرأً ، وفى الجواب بهذا كالتنبية على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع ، وهذا مذهب مالك ، وأحد الوجهين فى مذهب أحمد ، وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا يُقتل ، وهو ظاهر مذهب أحمد ، والفريقان يحتجون بقصة حاطب ، والصحيح أن قتله راجع إلى الإمام ، فإن رأى فى قتله مصلحة للمسلمين قتله ، وإن كان استبقاؤه أصلح ، استبقاه ، والله أعلم .

وفيهما : جواز تجريد المرأة كلها وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة ، فإن علياً والمقداء قالاً للطعينة : لتخرجن الكتاب أو لنكشفنك ، وإذا جاز تجريدها لحاجتها إلى ذلك حيث تدعو إليها ، فتجريدنا لمصلحة الإسلام والمسلمين أولى .

وفيهما : أن الرجل إذا نسب المسلم إلى النفاق والكفر متأولاً وغضباً لله ورسوله ودينه لا لهواه وحظه ، فإن لا يكفر بذلك ، بل لا يأثم به ، بل يثاب على نيته وقصده ، وهذا بخلاف أهل الأهواء والبدع ، فإنهم يكفرون ويؤدعون لمخالفة أهوائهم ونحلهم وهم أولى بذلك ممن كفروه وبدعوه .

وفيهما : أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية ، كما وقع الجسُّ من حاطب بشهوده بدرأً ، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة ، وتضمنته من محبة الله لها ورضاه بها ، وفرحه بها ، ومباهاته للملائكة بفاعلها ، أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجسِّ من المفسدة ، وتضمنته من بغض الله لها ، فغلب الأقوى على الأضعف ، فأزاله ، وأبطل مقتضاه ، وهذه حكمة الله فى الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات ، الموجبين لصحة القلب ومرضه ، وهى نظير حكمته تعالى فى الصحة والمرض اللاحقين للبدن فإن الأقوى منها يقهر المغلوب ، ويصير الحكم له حتى يذهب أثر الأضعف ، فهذه حكمته فى خلقه وقضائه ، وتلك حكمته فى شرعه وأمره ...

فتأمل قوة إيمان حاطب التي حملته على شهود بدر ، وبذله نفسه مع رسول الله ﷺ — وإيثاره الله ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته وهم بين ظهرائي العدو ، وفي بلدهم ، ولم يتن ذلك عنان عزمه ، ولا قل من حد إيمانه ومواجهته للقتال من أهله وعشيرته وأقاربه عندهم فلما جاء مرضى الجسسى ، برزت إليه هذه القوة ، وكان البُحرانُ صالحاً فاندفع المرضى ، وقام المريض ، كأن لم يكن به قلبه ولما رأى الصبيب قوة إيمانه قد استعملت على مرض جسده وقهرته ، قال لمن أراد فصده : لا يحتاج هذا العارفى إلى فصاد ، « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم »^(١) وعكس هذا ذو الخويصرة التميمي وأضرابه من الخوارج الذين بلغ اجتهداهم فى الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يحقر أحد الصحابة عمله معه ، كيف قال فيهم : « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد »^(٢) وقال « اقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم »^(٣) . وقال « شر قتلى تحت أديم السماء » (أخرجه مسلم) . فلم ينتفعوا بتلك الأعمال العظيمة مع تلك المواد الفاسدة المهلكة واستحالت فاسدة .

وتأمل فى حال إبليس لما كانت المادة المهلكة كامنة فى نفسه ، لم ينتفع معها بما سلف من طاعاته ، ورجع إلى شاكلته وما هو أولى به ، وكذلك الذى آتاه الله آياته ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين وأضرابه وأشكاله ، فالمعول على السرائر والمقاصد والنيات والهمم ، فهى الإكسير الذى يقلب نحاس الأعمال ذهباً ، أو يردّها خبثاً ، وبالله التوفيق .

ومن له لب وعقل ، يعلم قدر هذه المسألة وشدة حاجته إليها وانتفاعه بها ، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته فى خلقه ، وأمره ، وثوابه ، وعقابه ، وأحكام الموازنة ، وإيصال اللذة والألم إلى الروح والبدن فى المعاش والمعاد ، وتفاوت المراتب فى ذلك بأسباب مقتضية بالغة ممن هو قائم على كل نفس بما كسبت .

وفىها : جواز بل استحباب كثرة المسلمين وقوتهم وشوكتهم وهيئتهم لرسول العدو إذا جاؤوا إلى الإمام كما يفعل ملوك الإسلام ، كما أمر النبى ﷺ — بإيقاد النيران ليلة الدخول إلى مكة ، وأمر العباسى أن يجلس أبا سفيان عند حظيم الجبل ، وهو ما تضايق منه حتى عرضت عليه عساكر الإسلام ، وعصاة التوحيد وجند الله ، وعرضت عليه خاصكية رسول الله ﷺ — (وهم الجند الخاص بحراسة الأمير) وهم فى السلاح منهم إلا الحدق ، ثم أرسله ، فأخبر قريشا بما رأى .

وفىها : جواز دخول مكة للقتال المباح بغير إحرام ، كما دخل رسول الله ﷺ — والمسلمون ، وهذا لا خلاف فيه ، ولا خلاف أنه لا يدخلها من أراد الحج أو العمرة إلا بإحرام ، واختلف فيما سوى ذلك إذا لم يكن الدخول لحاجه متكررة ، كالحشاش والخطاب على ثلاثة أقوال :

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٧

٢ — الحديث فى صحيح مسلم — كتاب الزكاة — ح ٢ ص ٧٤٢

٣ — الحديث فى صحيح مسلم — كتاب الزكاة — ح ٢ ص ٧٤٧

أحدها : لا يجوز دخولها إلا بإحرام ، وهذا مذهب ابن عباس — رضى الله عنه — وأحمد فى ظاهر مذهبه ، والشافعى فى أحد قولىه .

والثانى : أنه كالحشاش والحطاب ، فيدخلها بغير إحرام ، وهذا القول الآخر للشافعى ، ورواية عن أحمد .

والثالث : أنه إن كان داخل المواقيت ، جاز دخوله بغير إحرام ، وإن كان خارج المواقيت ، لم يدخل إلا بإحرام ، وهذا مذهب أبى حنيفة ، وهدى رسول الله — ﷺ — معلوم فى المجاهد ، ومريد النسك ، وأما من عداهما فلا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، أو أجمعت عليه الأمة .

وفى القصة : أن النبى — ﷺ — دخل البيت ، وصلى فيه ، ولم يدخله حتى محيى الصور منه ، ففيه دليل على كراهية الصلاة فى المكان المصور ، وهذا أحق بالكراهة من الصلاة فى الحمام ؛ لأن كراهة الصلاة فى الحمام ، إما لكونه مظنة النجاسة ، وإما لكونه بيت الشيطان ، وهو الصحيح ، وأما حمل الصور ، فمظنة الشرك ، وغالب شرك الأمم كان من جهة الصور والتبور .

وفى القصة : أنه دخل مكة ، وعليه عمامة سوداء ، ففيه دليل على جواز لبس السواد أحيانا ، ومن ثم جعل خلفاء بنى العباس لبس السواد شعارا لهم ، ولولاتهم ، وقضاتهم ، وخطبائهم والنبى — ﷺ — لم يلبسه لباساً راتباً ، ولا كان شعاره فى الأعياد ، والجمع ، والمجامع العظام البتة ، وإنما اتفق له لبس العمامة السوداء يوم الفتح دون سائر الصحابة ، ولم يكن سائر لباسه يومئذ السواد ، بل كان لواؤه أبيض . وفى قصة الفتح من انفق : جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين كما أجاز النبى — ﷺ — أمان أم هانئ لحمويها . وفيها من الفقه جواز قتل المرتد الذى تغلظت ردة من غير اشتباهه ، فإن عبد الله بن مسعود بن أبى سرح كان قد أسلم وهاجر ، وكان يكتب الوحى لرسول الله — ﷺ — ثم ارتد ، ولحق بمكة ، فلما كان يوم الفتح أتى به عثمان بن عفان رسول الله — ﷺ — ليبيعه فأمسك عنه طويلاً ، ثم بايعه ، وقال : « إنما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضكم ، فيضرب عنقه » فقال له رجل : هلا أومأت إالى يارسول الله ؟ فقال : « ما ينبغي لنبى أن تكون له خائنة الأعين » . (أخرجه أبو داود وصححه الحاكم ووافقه الذهبى)^(١) فهذا كان قد تغلظ كفره برده بعد إيمانه ، وهجرته ، وكتابة الوحى ، ثم ارتد ولحق بالمشركين يطعن فى الإسلام ويعيبه ، وكان رسول الله — ﷺ — يريد قتله ، فلما جاء به عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاة لم يأمر النبى — ﷺ — بقتله حياء من عثمان ، ولم يبيعه ليقوم إليه بعض أصحابه فيقتله ، فهابوا رسول الله — ﷺ — أن يقدموا على قتله بغير إذنه ، واستحى رسول الله — ﷺ — من عثمان ، وساعد القدر السابق لما يريد الله سبحانه بعبد الله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح ، فبايعه ، وكان ممن

استثنى الله بقوله : ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾^(١) .
وقوله — ﷺ — « ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين »^(٢) أى : أن النبي — ﷺ — لا يخالف ظاهره باطنه ، ولا سره علانيته ، وإذا نفذ حكم الله وأمره لم يؤمر به ، بل صرح به وأعلنه ، وأظهره .

خامساً : غزوة حنين .

قال العلامة ابن القيم في الزاد :

في غزوة حنين وتسمى غزوة أوطاس .

وهما موضعان بين مكة والطائف ، فسميت الغزوة باسم مكانها ، وتسمى غزوة هوازن ؛ لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله — ﷺ —

قال ابن إسحاق : ولما سمعت هوازن برسول الله — ﷺ — وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النضري واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، واجتمعت إليه مضر وجشم كلها ، وسعد بن بكر ، وناس من بني هلال ، وهم قليل ، ولم يشهدوها من قيس عيلان إلا هؤلاء ، ولم يحضرها من هوازن كعب ، ولا كلاب ، وفي جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه إلا رؤية ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجرباً ، وفي ثقيف سيدان لهم ، وفي الأحلاف قارب بن الأسود ، وفي بني مالك سبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النضري ، فلما أجمع السير إلى رسول الله — ﷺ — ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل قال : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن خيرس ، ولا سهل دهنس . مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير وبكاء الصبى ، ويعار الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم . قال أين مالك ؟ قيل : هذا مالك ، ودعى له : قال : يامالك إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟ ! قال : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولم ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم فقال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ، إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ،

١ — الآيات ٨٦ إلى ٨٩ من سورة آل عمران

٢ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ج ٤ ص ٢٩

وإن كانت عليك ، فضحت في أهلك ومالك ، ثم قال : ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدا أحد منهم . قال : غاب الحد والجُد ، لو كان يوم علاء ورفعة ، لم تغب عنا كعب ولا كلاب ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب ، فمن شهدا منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر ؟ قال : ذاك الجذعان من عامر (يريد أنهما ضعيفان في الحرب) ولا ينفعان ولا يضران . يامالك ! إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحر الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى متمنّ بلادهم وعليا قومهم ، ثم الق الصُّبابة على متون الخيل فإن كانت لك ، لحق بك من وراءك . وإن كانت عليك ألفاك ذلك ، وقد أحرزت أهلك ومالك ، قال : والله لا أفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتُطيعُنني يامعشر هوازن ، أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى ، فقالوا : أطعناك ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى .

ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا شدة رجل واحد ، وبعث عيوننا من رجاله ، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم ، قال : ويلكم ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلقٍ ، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، فوالله مارده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد . ولما سمع بهم نبي الله — ﷺ — بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلحة ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، فانطلق ابن أبي حدرد ، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله — ﷺ — وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله — ﷺ — فأخبره الخبر .

فلما أجمع رسول الله — ﷺ — السير إلى هوازن ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً ، فأرسل إليه ، وهو يومئذ مشرك ، فقال : « ياأبا أمية ! أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً » فقال صفوان : أغضباً يا محمد ؟ قال : « بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك »^(١) ، فقال ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فزعموا أن رسول الله — ﷺ — سأله أن يكفيهم حملها ، ففعل . ثم خرج رسول الله — ﷺ — معه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، وكانوا اثني عشر ألفاً ، واستعمل عتاب بن أسيد على مكة أميراً ، ثم مضى يريد لقاء هوازن .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن بن جابر ، عن أبيه جابر بن عبد الله ، قال : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادي من أودية تهامة أجوف حطوط (منحدر) ، إنما تنحدر فيه انحداراً . قال : وفي عماية الصباح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي ، فكمنوا لنا في شعبه وأصنائه ومضايقه قد أجمعوا ، وتهيؤوا ، وأعدوا فوالله ما راعنا — ونحن منحطون — إلا الكتائب ،

قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد ، وانحاز رسول الله ﷺ — ذات اليمين ، ثم قال : « إلى أين أيها الناس ؟ هلم إليّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله »^(١) ، وبقي مع رسول الله ﷺ — نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه ، والفضل بن العباس ، وربيع بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأمين بن أم أيمن ، وقتل يومئذ .

قال : ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل أمام هوازن ، وهوازن خلفه ، إذا أدرك ، طعن برمحه ، وإذا فاتته الناس ، رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، فبينا هو كذلك إذ أهوى عليه على بن أبي طالب ، ورجل من الأنصار يريدانه ، قال : فأتى علي بن خلفه ، فضرب عرقوبى الجمل ، فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل ، فضربه ضربة أطعن قدمه بنصف ساقه ، فانجعف عن رحله ، قال : فاجتلد الناس ، قال : فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله ﷺ — .

قال ابن إسحاق : ولما انهزم المسلمون ، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ — من جفأة أهل مكة الهزيمة فكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وإن الأزلام لمعه في كنانته ، وصرخ جبلة بن الحنبل — وقال ابن هشام : صوايه كلداء — ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان أخوه لأمه وكان بعد مشركا : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يُرَبَّنَى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن وقال ابن إسحاق : وحدثني الزهرى ، عن كثير بن العباس ، عن أبيه العباس بن عبد المطلب ، قال : إني لمع رسول الله ﷺ — آخذ بحكمة بغلته البيضاء ، قد شجرتها بها ، وكنت امرءا جسيما شديد الصوت ، قال : رسول الله ﷺ — يقول حين رأى ما رأى من الناس : « إلى أين أيها الناس ؟ » . قال : فلم أر الناس يلوون على شيء ، فقال : « يا عباس اصرخ : يامعشر الأنصار يامعشر أصحاب السَّمرَة » ، فأجابوا : لبيك لبيك . قال : فيذهب الرجل ليشنى بعيه ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وقوسه وترسه ، ويقتحم عن بعيه ، ويخلى سبيله ، ويؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ — حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس ، فاقتتلوا فكانت الدعوة أول ما كانت للأنصار ، ثم خلصت آخراً : ياللعزرج ، وكان صبراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله ﷺ — في ركائبه ، فنظر إلى مجتلد القوم ، وهم يجتلدون ، فقال : « الآن حمى الوطيس »^(١) وزاد غيره .

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »^(٤)

وفي « صحيح مسلم » : ثم أخذ رسول الله ﷺ — حصيات ، فرمى بها في وجوه الكفار ، ثم قال : « انهزموا ورب محمد »^(٥) فما هو إلا أن رماهم ، فمازلت أرى أحدهم كليلاً ، وأمرهم مدبراً . وفي لفظ له . إنه نزل عن البغلة ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل بها وجوههم ، وقال : « شأهت الوجوه »^(٦) فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينه تراباً بتلك القبضة ، فولوا مدبرين .

وذكر ابن اسحاق عن جبير بن مطعم ، قال : لقد رأيت — قبل هزيمة القوم ، والناس يقتتلون يوم حنين — مثل البجاد الأسود ، أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا ائمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى ، فلم يكن إلا هزيمة القوم ، فلم أشك أنها الملائكة .

قال ابن إسحاق : ولما انهزم المشركون ، أتوا الطائف ، ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، وبعث رسول الله ﷺ — في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري ، فأدرك من الناس بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فرمى بسهم فقتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ، وهو ابن أخيه ، فقاتلهم ففتح الله عليه ، فهزمهم الله ، وقتل قاتل أبي عامر ، فقال رسول الله ﷺ — : « اللهم اغفر لعبيد أبي عامر وأهله ، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك واستغفر لأبي موسى »^(٧) .

ومضى مالك بن عوف حتى تحصن بخصن ثقيف ، وأمر رسول الله ﷺ — بالسبي والغنائم أن تجمع فجمع ذلك كله ، ووجهوه إلى الجعرانة ، وكان السبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، فاستأنى بهم رسول الله ﷺ — أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة .

ثم بدأ بالأموال فقسّمها ، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس ، فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ، ومائة من الإبل فقال : ابنى يزيد ؟ فقال : « أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل »^(٨) فقال : ابنى معاوية ؟ قال : « أعطوه أربعين أوقية ، ومائة من الإبل »^(٩) ، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ،

١ — الحديث في الجامع الكبير للسيوطى ح ١ ص ٥٥٤ من رواية مسلم وأحمد والطبرانى في الكبير وفي صحيح مسلم — كتاب الجهاد والسير — ح ٣ ص ١٤٠٢

وفي مسند أحمد ح ١ ص ٣٦٨ ، ص ٢٨٦

٢ — الحديث في الجامع الكبير للسيوطى ح ١ ص ٣٨٨ عن رواية البخارى ومسلم وفي صحيح البخارى — باب أوطاس ح ٥ ص ١٩٨ ط الشعب وفي صحيح مسلم — كتاب فضائل الصحابة — ح ٤ ص ١٩٤٣ ، ١٩٤٤

٣ ، ٤ — الحديث بمعناه في أسد الغابة في معرفة الصحابة — في ترجمة أبى سفيان الأموى وهو : صخر بن حرب رقم ٢٤٨٤

ثم سأله مائة أخرى فأعطاه ، وأعطى النضر بن الحارث بن كلده مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين ، وذكر أصحاب المائة — وأصحاب الخمسين — وأعطى العباس بن مرداس أربعين ، فقال في ذلك شعرا ، فكمل له المائة . ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس ، ثم فضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة . فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بغيراً وعشرين ومائة شاة قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن أبي سعيد الخدري قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش ، وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله ﷺ — قومه ، فدخل عليه سعد بن عباد ، فقال : يا رسول الله ! إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفء الذى أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحى من الأنصار منها شيء . هـ

قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد »^(١) قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي . قال : « فاجمع لى قومك في هذه الحظيرة ؟ »^(٢) قال : فجاء رجال من المهاجرين ، فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا ، أتى سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ — فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « يامعشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها في أنفسكم ، ألم آتكم ضللاً فهداكم الله بي ،

وعالة فأغناكم الله بي وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ »^(٣) قالوا : الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : « ألا تحيوني يامعشر الأنصار ؟ »^(٤) قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ، لله ولرسوله المن والفضل . قال : « أما والله لو شئتم ، لقلم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، أوجدتم على يامعشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تتألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ — إلى رحالكم ، فوالذى نفسى محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة ، لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ووادياً ، وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووادياً ، الأنصار شعار والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار »^(٥) قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ — وتفرقوا . وقدمت الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ — من الرضاعة ، فقالت : يا رسول إني أختك من

١ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٤٧

٢ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٤٧

٣ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٤٧

الرضاعة ، وقال : وما علامة ذلك ؟ قالت : عضة عضضتها في ظهري ، وأنا متوركتك . قال : فعرف رسول الله ﷺ — العلامة ، فبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه وخيرها ، فقال : « إن أحببت الإقامة فعندي محبة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك فترجعي إلى قومك »^(١) قالت : بل تمتعني وتردني إلى قومي ، ففعل فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاما يقال له : مكحول وجارية ، فزوجت إحداهما من الآخر ، فلم يزل من نسلهما بقية . وقال أبو عمر : فأسلمت فأعطاها رسول الله ﷺ — ثلاثة أعبد وجارية ، ونعماً ، وشاء ، وسماها حذافة . وقال : والشيماء لقب .

في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكيمة

كان الله — عز وجل — قد وعد رسوله — وهو صادق الوعد — أنه إذا فتح مكة ، دخل الناس في دينه أفواجا ، ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم الفتح المبين ، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ — والمسلمين ، ليظهر أمر الله ، وتقام إعزازه لرسوله ، ونصره لدينه ، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح ، وليظهر الله — سبحانه — رسوله وعباده ، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلاً ، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب ، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين ، وتبدو للمثوسمين .

واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم ، وعُددهم ، وقوة شوكتهم ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح ، ولم تدخل بلده وحرمة كما دخله رسول الله ﷺ — واضعاً رأسه منحنيّاً على فرسه ، حتى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعاً لربه ، وخضوعاً لعظمته ، واستكانة لعزته ، أن أحل له حرمة وبلده ولم يحل لأحد قبله ولا لأحد بعده ، وليبين سبحانه لمن قال : « لن تغلب اليوم عن قلة » أن النصر إنما هو من عنده ، وأنه من ينصره ، فلا غالب له ، ومن يخذله ، فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه ، لاكثرتم التي أعجبتكم ، فإنها لم تغن عنكم شيئاً ، فوليتم مدبرين ، فلما انكسرت قلوبهم ، أرسلت إليها خلج الجبر مع بريد النصر فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وقد اقتضت حكمته أن خلج النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)^(٢) .

١ — الحديث في سيرة ابن هشام — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج ٤ ص ٩١

٢ — الآيات ٥ ، ٦ من سورة القصص

ومنها : أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة ، فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ، ولا متاعاً ، ولا سبياً ، ولا أرضاً كما روى أبو داود عن وهب بن منبة ، قال سألت جابراً : هل غنموا يوم الفتح شيئاً ؟ قال : لا . وكانوا قد فتحوها بايجاف الخيل والركاب ، وهم عشرة آلاف ، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم ، وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم ، وشأنهم ، وسبيهم معهم نزلاً ، وضيافة ، وكرامة ، لحزبه وجنده ، وثم تقديره سبحانه بأن أطمعهم في الظفر ، وألاح لهم مبادئ النصر ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه ، وبردت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله ، قيل : لا حاجة لنا في دمائكم ، ولا في نسائكم وذرائكم ، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة ، فجاءوا مسلمين . فقيل : إن من شكر إسلامكم وأيتانكم ، أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم و(إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)^(١) .

ومنها : أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، ولهذا يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر ، فيقال : بدر وحنين ، وإن كان بينهما سبع سنين والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين ، والنبى ﷺ — رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وبهاتين الغزاتين أطفئت جمره العرب لغزو رسول الله ﷺ — والمسلمين . فالأولى : خوفهم وكسرت من حذهم ، والثانية : استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بُدّاً من الدخول في دين الله .

ومنها : أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة ، وفرّحهم بم نالوه من النصر والمغنم ، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم وإن كان عين جبرهم ، وعرفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن ، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة ، وإنما نصرّوا عليهم بالمسلمين ، ولو أفردوا عنهم ، لأكلهم عدوهم ، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يحيط بها إلا الله تعالى .

وفيها : من الفقه أن الإمام ينبغي له أن يبعث العيون ومن يدخل بين عدوه ليأتيه بخبرهم ، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدوه له ، وفي جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم ، بل يسير إليهم ، كما سار رسول الله ﷺ — إلى هوازن حتى لقيهم بحنين .

ومنها : أن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه كما استعار رسول الله ﷺ — أذراع صفوان ، وهو يومئذ مشرك .

ومنها : أن من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسياتها قدراً وشرعاً ، فإن رسول الله ﷺ — وأصحابه أكمل الخلق توكلأً ، وإنما كانوا يلقون عدوهم ، وهم متحصنون بأنواع السلاح ،

ودخل رسول الله ﷺ — مكة ، والبيضة على رأسه ، وقد أنزل الله عليه : (والله يعصمك من الناس)^(١) وكثير ممن لا تحقيق عنده ، ولا رسوخ في العلم يتشكل هذا ، ويتكايس في الجواب تارة بأن هذا فعله تعليماً للأمة ، وتارة بأن هذا كان قبل نزوله الآية . ووقعت في مصر مسألة سأل عنها بعض الأمراء ، وقد ذكر له حديث ذكره أبو القاسم بن عساكر في « تاريخه الكبير » أن رسول الله ﷺ — كان بعد أن أهدت له اليهودية الشاة المسمومة لا يأكل طعاماً قدم له حتى يأكل منه من قدمه .

قالوا : وفي هذا أسوة للملوك في ذلك . فقال قائل : كيف يُجمع بين هذا وبين قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) فإذا كان الله سبحانه قد ضمن له العصمة ، فهو يعلم أنه لا سبيل لبشر إليه . وأجاب بعضهم بأن هذا يدل على ضعف الحديث ، وبعضهم بأن هذا كان قبل نزول الآية ، فلما نزلت لم يكن ليفعل ذلك بعدها . ولو تأمل هؤلاء أن ضمان الله له العصمة ، لا ينافي تعاطيه لأسبابها ، لأغنائهم عن هذا التكلف ، فإن هذا الضمان له من ربه تبارك وتعالى لا يناقض احتراسه من الناس ، ولا ينافيه ، كما أن إخبار الله سبحانه له بأنه يظهر دينه على الدين كله ، ويعليه ، لا يناقض أمره بالقتال وإعداد العدة ، والقوة ، ورباط الخيل ، والأخذ بالجد ، والحذر ، والاحتراس من عدوه ، ومحاربه بأنواع الحرب والتورية ، فكان إذا أراد الغزوة ، ورى غيرها ، وذلك لأن هذا إخبار من الله — سبحانه وتعالى — عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التي جعلها الله مفضية إلى ذلك مقتضية له وهو ﷺ — أعلم بربه وأتبع لأمره من أن يعطل الأسباب التي جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر ، وإظهار دينه ، وغلبته لعدوه ، وهذا كما أنه سبحانه ضمن له حياته حتى يبلغ رسالاته ، ويظهر دينه ، وهو يتعاطى أسباب الحياة من المأكل والمشرب ، والملبس والسكن ، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ، حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدعاء وزعم أنه لا فائدة فيه ، لأن المسؤول إن كان قد قدر ، ناله ولا بد ، وإن لم يقدر ، لم ينله ، فأى فائدة في الاشتغال بالدعاء ؟ ثم تكايس في الجواب بأن قال — الدعاء عبادة ، فيقال لهذا الغالط ، بقى عليك قسم آخر — وهو الحق — أنه قد قدر له مطلوبه بسبب إن يتعاطاه ، حصل له المطلوب ، وإن عطل السبب ، فإنه المطلوب ، والدعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب ، وما مثل هذا الغالط إلا مثل من يقول : إن كان الله قد قدر لي الشيع ، فأنا أشبع ، أكلت أو لم آكل ، وإن لم يقدر لي الشيع ، لم أشبع أكلت أو لم آكل ، فما فائدة الأكل ؟ وأمثال هذه الترهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه ، وبالله التوفيق .

ومنها : عفو رسول الله ﷺ — عن من هم بقتله ولم يعاجله ، بل دعه له ومسح صدره حتى عاد ، كأنه ولي حميم

ومنها : مآظهر في هذه الغزوة من معجزات النبوة وآيات الرسالة من إخباره لشيبة بما أضمر في نفسه ، وقد تولى عنه الناس ، وهو يقول :

أنا النبي لا كذب — أنا ابن عبد المطلب^(١)

ومنها : إيصال الله قبضته التي رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه ، وبركته في تلك القبضة ، حتى ملأت أعين القوم ، إلى غير ذلك من معجزات فيها ، كنزول الملائكة للقتال معه ، حتى رأهم جهرة ورأهم بعض المسلمين .

سادساً : غزوة الطائف :

في غزوة الطائف

قال العلامة ابن قيم الجوزية في « زاد المعاد » « في شوال سنة ثمان . قال ابن سعد : قالوا ولما أراد رسول الله ﷺ — المسير إلى الطائف ، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذى الكفين : صنم عمرو بن حممة الدوسى ، يهدمه ، وأمره أن يستمد قومه ، ويوافيه بالطائف فخرج سريعاً إلى قومه ، فهدم ذا الكفين ، وجعل يحشى النار في وجهه ويحرقه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادك ميلادنا أقدم من ميلادك

إني حششت النار في فؤادك .

وانحدر معه من قومه أربعمئة سراعاً ، فوافوا النبي ﷺ — بعد مقدمة بأربعة أيام ، وقدم بدبابة ومنجنيق قال ابن سعد : ولما خرج رسول الله ﷺ — من حنين يريد الطائف قدم خالد بن الوليد على مقدمته ، وكانت ثقيف قد رموا حصنهم ، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة ، فلما انهزموا من أوطاس ، دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم ، وتهيؤوا للقتال ، وسار رسول الله ﷺ — فنزل قريباً من حصن الطائف ، وعسكر هناك ، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً ، كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً ، فارتفع رسول الله ﷺ — إلى موضع مسجد الطائف اليوم ، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب ، فضرب لهما قبتين ، وكان يصلى بين القبتين مدة حصار الطائف ، فحاصرهم ثمانية عشر يوماً وقال ابن إسحاق : بضعاً وعشرين ليلة .

ونصب عليهم المنجنيق ، وهو أول من رمى به في الإسلام . وقال ابن سعد : حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن ثور بن يزيد ، عم مكحول أن النبي ﷺ — نصب على أهل الطائف أربعين يوماً .

(١) الحديث في الجامع الكبير للسيوطي ح ١ ص ٣٣١ من رواية أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وفي مسند أحمد ح ٤ ص ٢٨٠ (٢) وفي صحيح البخارى — باب فضل الجهاد والسير — ح ٤ ص ٣٧ ط الشعب وفي صحيح مسلم — كتاب الجهاد والسير ح ٣ ص ١٤٠٠

قال ابن إسحاق : حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، ودخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ — تحت دبابه ، ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجلاً ، فأمر رسول الله ﷺ — بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون .

قال ابن سعد : فسألوه أن يدعها لله وللرحم ، فقال رسول الله ﷺ — « فإني أدعها لله وللرحم »^(١) فنادى منادى رسول الله ﷺ — : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً ، منهم أبو بكر — فأعتقهم رسول الله ﷺ — ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين ميمونة ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة .

ولم يؤذن لرسول الله ﷺ — في فتح الطائف ، واستشار رسول الله ﷺ — نوفل بن معاوية الديلي ، فقال : ما ترى ؟ فقال ثعلب في جحر ، إن أقمت عيله أخذته ، وإن تركته لم يضرك . فأمر رسول الله ﷺ — عمر بن الخطاب ، فأذن في الناس بالرحيل ، فضج الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ؟ فقال رسول الله ﷺ — : « فاغدوا على القتال »^(٢) فغدوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله ﷺ — : « إنا قافلون غداً إن شاء الله »^(٣) فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ — يضحك ، فلما ارتحلوا واستقلوا ، قال : قولوا : « آيئون ، تائبون ، عابدون لربنا حامدون »^(٤) ، وقيل يارسول الله ! ادع الله على ثقيف فقال : « اللهم اهد ثقيفاً واثت بهم »^(٥) .

واستشهد مع رسول الله ﷺ — بالطائف جماعة ، ثم خرج رسول الله ﷺ — من الطائف إلى الجعرانة ثم دخل منها محرماً بعمرة ، فقضى عمرته ، ثم رجع إلى المدينة .

قال ابن إسحاق : وقدم رسول الله ﷺ — من تبوك في رمضان ، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف وكان من حديثهم : أن رسول الله ﷺ — لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة ، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ — :

١ — انظر سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج ٤ ص ١٢٩

٢ — الحديث في صحيح البخاري — كتاب المغازي — غزوة الطائف — ج ٥ ص ١٩٨ ط الشعب

٣ — الحديث في صحيح البخاري — كتاب المغازي — غزوة الطائف — ج ٥ ط الشعب

٤ — الحديث في مسند أحمد ج ١ ص ٢٥٦

٥ — الحديث في سنن الترمذي — أبواب المناقب ج ٥ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ رقم ٤٠٣٤

« كما يتحدث قومك أنهم قاتلوك »^(١) وعرف رسول الله ﷺ — أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم ، فقال عروة : يا رسول الله ؟ أنا أحب إليهم من أبكارهم ، وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً ، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف لهم على عليّة له ، وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة : ما ترى في ربك ؟ قال : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله إليّ ، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذي قتلوا مع رسول الله ﷺ — قبل أن يرتحل عنكم ، فادفوني معهم ، فدفنوه معهم فزعموا أن رسول الله ﷺ — قال فيه : « إن مثله في قومه ، كمثل صاحب يس في قومه »^(٢) .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ — رجلاً ، كما أرسلوا عروة فكلّموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، وكان في سن عروة بن مسعود ، وعرضوا عليه ذلك ، فأبى أن يفعل وخشى أن يصنع به كما صنع بعروة ، فقال : لست بفاعل حتى ترسلوا معي رجلاً ، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف ، وثلاثة من بنى مالك ، فيكونون ستة ، فبعثوا معه الحكم بن عمرو بن وهب ، وشرحيل بن غيلان ، ومن بنى مالك عثمان بن أبي العاص ، وأوس بن عوف ، ونمير بن خرشه ، فخرج بهم ، فلما دنوا من المدينة ، ونزلوا قناة لقوا بها المغيرة بن شعبة ، فاشتد ليبشر رسول الله ﷺ — بقدمهم عليه ، فلقاه أبو بكر فقال : أقسمت عليك بالله لا تتسبقني إلى رسول الله ﷺ — حتى أكون أنا أحدثه ففعل ، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه ، فروّح الظهر معهم ، وأعلمهم كيف يحبون رسول الله ﷺ — فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ — ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده كما يزعمون .

وكان خالد بن سعيد بن العاصي هو الذي يمشي بينهم ، وبين رسول الله ﷺ — حتى اكتبوا كتابهم ، وكان خالد هو الذي كتبه ، وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ — حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا .

وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ — أن يدع لهم الطاغية ، وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ — فما برحوا يسألونه سنة ، ويأبى عليهم ، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسموا بتركها من سفائهم ونسائهم وذرايهم ، ويكرهون أن يردّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام ، فأبى رسول الله ﷺ — إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها ، وقد كانوا يسألونه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة ، وألا لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ —

١ — في سورة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ج ٤ ص ١٩٤

٢ — في سورة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ج ٤ ص ١٩٥

ﷺ — « أما كسر أو ثانكم بأيديكم ، فسنغفكم منه ، وأما الصلاة ، فلا خير في دين لا صلاة فيه »^(١) .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله — ﷺ — كتاباً ، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص ، وكان من أحدثهم سناً ، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام ، وتعلم القرآن فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله — ﷺ — معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية ، فخرجوا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف ، أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك عليه أبو سفيان ، فقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بماله بذي الهذم فلما دخل المغيرة بن شعبة ، علاها يضربها بالمعول ، وقام دونه بنو مُعْتَب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة ، وخرج نساء ثقيف حُسراً يبكين عليها ، ويقول أبو سفيان — والمغيرة يضربها بالفأس — : « واهاً لك واهاً لك » فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها ، أرسل إلى أبي سفيان مجموع مالها من الذهب والفضة والجزع ...

فهذه قصة ثقيف من أولها إلى آخرها ، سقناها كما هي ، وإن تخلل بين غزوها وإسلامها غزاة تبوك وغيرها ، لكن آثرنا ألا لا نقطع قصتهم ، وأن ينتظم أولها بآخرها ليقع الكلام على فقه القصة وأحكامها في موضع واحد .

في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكيمة .

فيها من الفقه : جواز القتال في الأشهر الحرم ، ونسخ تحريم ذلك ، فإن رسول الله — ﷺ — خرج من المدينة إلى مكة في أواخر شهر رمضان بعد مضي ثمان عشرة ليلة منه والدليل عليه ما رواه أحمد في « سنده » عن شداد بن أوس ، أنه مر مع رسول الله — ﷺ — زمن الفتح على رجل يحتجم بالبقيع لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان ، وهو أخذ بيدي ، فقال « أفطر الحاجم والمحجوم »^(٢) وهذا أصح من قول من قال : إنه خرج لعشر خلون من رمضان ، وهذا الإسناد على شرط مسلم فقد روى به بعينه : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء »^(٣) . وأقام بمكة تسع عشرة ليلة يقصر الصلاة ، ثم خرج إلى هوازن ، فقاتلهم ، وفرغ منهم ، ثم قصد الطائف ، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة في قول ابن إسحاق ، وثمان عشرة ليلة في قول ابن سعد ، وأربعين ليلة في قول مكحول . فإذا تأملت ذلك ، علمت أن بعض

١ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٩٧

٢ — الحديث في مسند أحمد ح ٢ ص ٣٦٤

٣ — الحديث في مسند أحمد ح ٤ ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥

مدة الحصار في ذى القعدة ، ولا بد ، ولكن قد يقال : لم يتدىء القتال إلا في شوال ، فلما شرع فيه ؟ لم يقطعه للشهر الحرام ، ولكن من أين لكم أنه — ﷺ — ابتداء قتالا في شهر حرام ، وفرق بين الابتداء والاستدامة .

ومنها : جواز غزو الرجل وأهله معه ، فإن النبي — ﷺ — كان معه في هذه الغزوة أم سلمة وزينب .
ومنها : جواز نصب المنجنيق على الكفار ، ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية .
ومنها : جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم ، وهو أنكى لهم .
ومنها : إن العبد إذا أبق من المشركين ولحق بالمسلمين ، صار حراً . قال سعيد بن منصور بسنده عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله — ﷺ — يعتق العبيد إذا جاؤوا قبل مواليهم .
وعن الشعبي ، عن رجل من ثقيف ، قال : سألنا رسول الله — ﷺ — أن يرُد علينا أبا بكر ، وكان عبداً لنا أتى رسول الله — ﷺ — وهو محاصر ثقيفاً ، فأسلم ، فأبى أن يرده علينا ، فقال : « هو طليق الله ، ثم طليق رسوله »^(١) فلم يرده علينا . (أخرجه أحمد) قال ابن المنذر : وهذا قول كل من يحفظ عنه من أهل العلم .

ومنها : أن الإمام إذا حاصر حصناً ، ولم يفتح عليه ، ورأى مصلحة المسلمين في الرحيل عنه ، لم يلزمه مصابرتة ، وجاز له ترك مصابرتة ، وإنما تلزم المصابرة إذا كان فيها مصلحة راجحة على مفسدتها .
ومنها : أنه أحرم من الجعرانة بعمره ، وكان داخلاً إلى مكة ، وهذه هي السنة لم يدخلها من طريق الطائف وما يليه ، وأما ما يفعله كثير ممن لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمره ، ثم يرجع إليها ، فهذا لم يفعله رسول الله — ﷺ — ولا أحد من أصحابه البتة ، ولا استحبه أحد من أهل العلم ، وإنما يفعله عوام الناس ، زعموا أنه اقتداء بالنبي — ﷺ — وغلطوا ، فإنه إنما أحرم منها داخلاً إلى مكة ، ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها ، فهذا لون ، وسنته لون ، وبالله التوفيق .
ومنها : استجابة الله لرسوله — ﷺ — دعاءه لثقيف أن يهديهم ، ويأتى بهم ، وقد حاربوه وقتلوه ، وقتلوا جماعة من أصحابه ، وقتلوا رسول الله الذي أرسله إليهم يدعوهم إلى الله ، ومع هذا كله فدعا لهم ، ولم يدع عليهم ، وهذا من كمال رأفته ، ورحمته ، ونصيحته — صلوات الله وسلامه عليه —
ومنها : كمال محبة الصديق له ، وقصده التقرب إليه ، والتحبب بكل ما يمكنه ، ولهذا ناشد المغيرة أن يدعه هو يبشر النبي — ﷺ — بقدم وفد الطائف ، ليكون هو الذي بشره وفرحه بذلك ، وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثره بقربة من القرب ، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر بها أخاه ، وقول من قال من الفقهاء : لا يجوز الايثار بالقرب ، لا يصح ، وقد آثرت عائشة عمر بن الخطاب بدفنه في بيتها جوار النبي — ﷺ — وسألها عمر ذلك ، فلم تكره له السؤال ، ولا لها البذل ، وعلى هذا ، فإذا

سأل الرجل غيره أن يؤثره بمقامة في الصف الأول ، لم يكره له السؤال ، ولا لذلك البذل ، ونظائره . ومن تأمل سيرة الصحابة ، وجددهم غير كارهين لذلك ، ولا ممتنعين منه ، وهل هذا إلا كرم وسخاء ، وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها تفريحا لأخيه المسلم ، وتعظيماً لقدره ، وإجابة له إلى ما سأله وترغيباً له في الخير ، وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحاً على ثواب تلك القربة ، فيكون المؤثر بها ممن تاجر ، فبذل قربة ، وأخذ أضعافها ، وعلى هذا فلا يمتنع أن يؤثر صاحب الماء بمائه أن يتوضأ به ويتيمم هو إذا كان لا بد من تيمم أحدهما ، فأثر أخاه ، وحاز فضيلة الإيثار ، وفضيلة الطهر بالتراب ، ولا يمنع هذا كتاب ولا سنة ، ولا مكارم أخلاق ، وعلى هذا فإذا اشتد العطش بجماعة وعابنوا التلف ومع بعضهم ماء فأثر على نفسه ، واستسلم للموت ، كان ذلك جائزاً ، ولم يقل : إنه قاتل لنفسه ، ولا أنه فعل محرماً ، بل هذا غاية الجود والسخاء كما قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾^(١) . وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام ، وعد ذلك من مناقبهم وفضائلهم ، وهل إهداء القرب المجمع عليها والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها ، وهو عين الإيثار بالقرب ، فأى فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحضر ثوابها ، وبين أن يعمل ثم يؤثره بثوابها ، وبالله التوفيق . ومنها : أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً ، فإنها شعائر الكفر والشرك وهي أعظم المنكرات ، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة ، وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك ، والنذر والتقيل ، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، أو أعظم شركاً عندها ، وبها ، والله المستعان .

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق وتميت وتحى ، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم ، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ، وسلكوا سبيلهم حذوا القذة بالقذة ، وأخذوا مأخذهم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهورها الجهل وخفاء العلم فصار المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة ، والبدعة سنة ، ونشأ في ذلك الصغير ، وهرم عليه الكبير ، وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام ، وقل العلماء ، وغلب السفهاء ، وتفاقم الأمر ، واشتد البأس ، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين ، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

ومنها : جواز صرف الإمام الأموال التي تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت في الجهاد ومصالح المسلمين ، فيجوز للإمام ، بل يجب عليه أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التي تساق إليها كلها ، ويصرفها على الجند

والمقاتلة ، ومصالح الإسلام ، كما أخذ النبي ﷺ — أموال اللات ، وأعطائها لأبي سفيان يتألفه بها ، وقضى منها دين عروة والأسود ، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا ، وله أن يقطعها للمقاتلة ، أو يبيعها ويستعين بأثمانها على مصالح المسلمين ، وكذلك الحكم في أوقافها ، فإن وقفها ، فالوقف عليها باطل ، وهو مال ضائع ، فيصرف في مصالح المسلمين ، فإن الوقف لا يصح إلا في قرابة وطاعة لله ورسوله ، فلا يصح الوقف على مشهد ، ولا قبر يسرج عليه ويعظم ، وينذر له ، ويحج إليه ، ويعبد من دون الله ، ويتخذ وثناً من دونه وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام ، ومن اتبع سبيلهم . أ هـ .

تفسير سورة الحجرات

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية (وآياتها) ثمان عشرة . (وكلماتها) ثلاثمائة وثلاث وأربعون . (وحروفها) ألف وأربعمائة وأربع وسبعون (مجموع فواصل آياتها) ثمان عشرة (مقصود السورة)

معظم مقصود السورة محافظة أمر الحق تعالى ، ومراعاة حرمة والأكابر والتؤدة في الأمور ، والاجتناب عن التهور ، والكون في إغاثة المظلوم ، والاحتراز عن السخرية بالخلق ، والحذر عن التجسس والغيبة ، وترك الفخر بالأنساب والتحاشي عن المنّة على الله تعالى بالطاعة ، وإحالة علم الغيب إلى الله — تعالى — في قوله ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ﴾ .

(المتشابهات)

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ مذكور في السورة خمس مرات والمخاطبون المؤمنون ، والمخاطب به أمر ونهى ، وذكر في السادس ﴿ يا أيها الناس ﴾ فعم المؤمنين والكافرين ، والمخاطب به قوله ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ لأن الناس كلهم في ذلك شرع سواء .

(مناسباتها لما قبلها)

لا يخفى تأخى هاتين السورتين (الفتح والحجرات) مع ما قبلهما لكونهما مدينتين ، ومشمئتين على أحكام . فتلك فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة . وتلك ختمت بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا . وتلك تضمنت تشريفاً له — ﷺ — خصوصاً مطلعها ، وهذه أيضاً في مطلعها أنواع من التشريف له — ﷺ —

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

معاني المفردات

(لا تقدموا) أى : لا تتقدموا ، والمراد لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة ، (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) أى : إذا كلمتموه ونطق ونطقتم فلا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذى يبلغه صوته (يخفضون أصواتهم) أى : يخفضونها ويلينونها ، (امتحن الله قلوبهم) أى : طهرها ونقاها . (من وراء الحجرات) أى : من خارجها سواء كان من خلفها أو من قدامها ، والمراد بها حجرات نساءه — عليه الصلاة والسلام — وكانت تسعة لكل منهن حجرة من جريد النخل ، على أبوابها الموح من شعر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۚ ۞ ﴾ .

هذه آداب أدب الله تعالى بها عبادة المؤمنين فيما يعاملون به الرسول — ﷺ — من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام فقال تبارك وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ ۞ ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم وقال سفيان الثوري (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) بقول ولا فعل .

وقال الإمام ابن القيم : أى : لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر . قال بعض السلف : ما من فعله وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى : لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ؟ أن الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى ، وابتغاء الوسيلة إليه ؟ ومحل هذا السؤال : أنه ، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك ، أم فعلته لحظك وهواك ؟ والثاني : سؤال عن متابعة الرسول — عليه الصلاة والسلام — في ذلك التعبد ، أى : هل كان العمل مما شرعته لك على لسان رسولى ، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه ؟ فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثاني عن المتابعة ، فإن الله سبحانه لا يقبل عملاً إلا بهما فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثانى : بتحقيق المتابعة .

وإنما يستقيم له هذا باستقامة قلبه وجوارحه . فاستقامة القلب بشئيين : أحدهما : أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب ، فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما عداه ، فربت على ذلك مقتضاه ، وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل ، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان . وما أكثر أن يقدم العبد ما يحبه هو يهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى . فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحاب ، وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه ولا ينال شيئاً منها إلا بنكد وتنغيص ، جزاء له على إثارة هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى . وقد قضى الله قضاء لا يرد ولا يدفع أن من أحب شيئاً سواه عذب به ولا بد ، وأن من خاف غيره سُلط عليه ، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤماً عليه ، ومن آثر غيره عليه لم يبارك فيه ، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد .

الأمر الثانى : الذى يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهى ، وهو ناشئ عن تعظيم الأمر الناهى فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه ، قال سبحانه وتعالى ﴿ مالكم لا ترجون الله وقاراً ﴾^(١) قالوا فى تفسيرها : مالكم لا تخافون الله تعالى عظمة . أ هـ .

وقوله تعالى ﴿ واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾

قال السلمى : اتقوا الله فى إهمال حقه وتضييع حرمة إنه سميع لقولكم ، عليم بفعلكم وقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ .

هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين ألا لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ — فوق صوته .
وقال البخاري بسنده عن ابن أبي مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر — رضى الله عنهما —
رفعا أصواتهما — عند النبي ﷺ — حين قدم عليه ركب بنى تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس —
رضى الله عنه — أخى بنى مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر — قال نافع لا أحفظ اسمه — فقال أبو بكر
لعمر — رضى الله عنهما — ما أردت إلا خلافي قال ما أردت خلافاً فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل
الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم
لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾^(١) قال ابن الزبير — رضى الله عنه — فما كان عمر —
رضى الله عنه — يسمع رسول الله ﷺ — بعد هذه الآية حتى يستفهمه ...

وقال الآمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال لما نزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين
آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي — الآية ﴾ وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت
فقال أنا الذى كنت أرفع صوتى على صوت رسول الله ﷺ — أنا من أهل النار ، حبط عملى ، وجلس
في أهله حزينا ففقد رسول الله ﷺ — فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له تفقدك رسول الله ﷺ —
مالك ؟ قال أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبي ﷺ — وأجهر له بالقول حبط عملى ، أنا من
أهل النار ، فأتوا النبي ﷺ — فأخبروه بما قال فقال — « لا » بل هو من أهل الجنة^(٢)
قال أنس — رضى الله عنه — فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة
كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفة فقال بئسما قعودون أقرانكم
فقاتلهم حتى قتل — رضى الله عنه —

قال ابن كثير : وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك فقد نهى الله — عز وجل — عن
رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ — وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله
عنه — أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ — قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال أتدريان أين
أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً .
وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره — ﷺ — كما كان يكره في حياته — عليه الصلاة والسلام —
لأنه محترم حياً وفي قبره — ﷺ — دائماً . وكان عبد الرحمن بن مهدى إذا قرأ حديث النبي ﷺ —
أمرهم بالسكوت وقال (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) . ثم نهى سبحانه عن الجهر له بالقول

١ — الحديث في صحيح البخارى ح ٦ ص ١٧١ ، ١٧٢ تفسير سورة الحجرات ط الشعب

٢ — الحديث في صحيح البخارى ح ٦ ص ١٧١ — تفسير سورة الحجرات ط الشعب وفي صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب

مخافة المؤمن أن يحبط عمله — ح ١ ص ٧٧

وفي مسند أحمد ح ٣ ص ١٣٧

وفي تفسير ابن كثير — تفسير سورة الحجرات — ح ٧ ص ٣٤٧

كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه بل يخاطب بسكينة ووقار تعظيم كما قال تعالى ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ (١).

قوله تعالى ﴿ إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

أى : يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له — ﷺ — أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له . قال أبو بكر — رضى الله عنه — : والله لا أرفع صوتي إلا كأخى السرار (أى كصاحب الدار ، أو كمثل المساررة لخفض صوته) . وقال عبد الله بن الزبير لما نزلت (لا ترفعوا أصواتكم) ما حدث عمر عند النبي — ﷺ — بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ، فنزلت ﴿ إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ قال الفراء : أى : أخلصها للتقوى . وقال الأخفش أى : اختصها بالتقوى . وقال ابن عباس (امتحن الله قلوبهم للتقوى) طهرهم من كل قبيح ، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى . فهولاء (لهم مغفرة وأجر عظيم) .

وقد قال الإمام أحمد في كتاب الزهد عن مجاهد قال كتب إلى عمر بأمر المؤمنين رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر — رضى الله عنه — إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) . قوله تعالى ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ﴾

يقول ابن كثير : ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهى نساءه كما يضع أجلاف الأعراب فقال (أكثرهم لا يعقلون) ثم أرشد سبحانه إلى الأدب فى ذلك فقال عز وجل ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾ أى : لكان لهم فى ذلك الخيرة والمصلحة فى الدنيا والآخرة . ثم قال جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة (والله غفور رحيم) وقد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى — رضى الله عنه — فيما أورده غير واحد قال الإمام بسنده عن الأقرع بن حابس — رضى الله عنه — أنه نادى رسول الله — ﷺ — فقال يا محمد يا محمد .

إرشادات آلهية

قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنْ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٥٨﴾ فَضَلَّاهُم مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦١﴾

معاني المفردات

(الفاسق) هو الخارج عن حدود الدين من قولهم : فسق الرطب إذا خرج من قشره . (النبأ) الخبر قال الراغب : ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة وبه يحصل علم أو غلبة ظن ، (بجهالة) أى : جاهلين حالهم ، (فتصبحوا) أى : فتصيروا . (نادمين) أى : مغتمين غماً لازماً متمنين أنه لم يقع . (لعنتم) أى : لوقعتم في الجهد والهلاك . (الراشدون) الرشاد : إمابة الحق واتباع الطريق السوى . (بغت) البغى : التطاول والفساد . (تفيء) أى : ترجع إلى الطاعة . (المقسطين) العادلين المحقين

المناسبة وإجمال المعنى

أدب الله عباده المؤمنين بأدب نافع لهم في دينهم ودينهم أنه إذا جاءهم الفاسق المجاهر بترك شعائر الدين بأى خبر ، لا يصدقونه بآدىء ذى بدء حتى يثبتوا ، ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على قوله ، فإن من لا يبالى بالفسق لا يبالى بالكذب الذى هو من فصيلته — كراهة أن يصيبوا بأذى قوماً هم جاهلون حالهم ، فتندموا على ما فرط منكم وتتمنوا أنه لو لم يكن قد وقع . ثم عقب تعالى بما يترتب على سماع مثل هذه (الأنباء المكذوبة) من تخاصم ، وتباغض ، وتقاتل فقال : إذا رأيتم أيها المؤمنون طائفتين

من إخوانكم جنحتا إلى القتال والعدوان ، فابذلوا جهدكم للتوفيق بينهما ، وادعوهن إلى النزول على حكم الله تعالى ، فإن اعتدت إحدى الطائفتين على الأخرى فقاتلوا تلك الطائفة الباغية ، حتى تثوب إلى رشدها ، وترضى بحكم الله تعالى ، وتقلع عن البغى والعدوان فإذا كفت عن العدوان فأصلحوا بينهما بالعدل ، لأنهم إخوانكم في الدين ، ومن واجب المسلمين أن يصلحوا بين الإخوة ، لا أن يتركوا البغضاء تدب ، والفرقة تعمل عملها ؛ لأن المؤمنين جميعاً إخوة ، جمعهم رابطة الإيمان وليس ثمة طريق إلى إعادة الصفاء إلا بالإصلاح بين المتخاصمين ، فهو سبيل الفلاح وطريق الفوز والنجاح ، واتقوا الله لتنالكم رحمته ، وتسعدوا بمرضاته ولقائه .

التفسير

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ .

قال ابن كثير :

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه وقد نهى الله — عز وجل — عن اتباع سبيل المفسدين .
وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ — على صدقات بني المصطلق وقد روى ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الامام أحمد في مسنده من رواية مالك بن المصطلق وهو الحارث بن ضرار الخزاعي — رضى الله عنه — يقول : قدمت على رسول الله ﷺ — قد دعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله أرجع إليهم فأدعوهن إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب دفعت زكاته ، وترسل إليّ يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ — أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأتته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم إن رسول الله ﷺ — كان وقت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ — الخلق ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ — وبعث رسول الله ﷺ — الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أي : خاف فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ — فقال يا رسول الله إن الحارث قد

منعنى الزكاة وأراد قتلى فغضب رسول الله ﷺ — وبعث البعث إلى الحارث — رضى الله عنه — وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك ، قال ولم ؟ قالوا إن رسول الله ﷺ — بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله ، قال - رضى الله عنه - لا ، والذي بعث محمداً ﷺ بالحق مارأيت به ولا أتاني فلما دخل الحارث على الرسول قال : « منعت الزكاة وأردت قتل رسولى »^(١) قال لا والذي بعثك بالحق مارأيت ولا أتاني وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول الله ﷺ خشيت أن يكون سخطه من الله تعالى ورسوله قال فنزلت الحجرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ إلى قوله : ﴿ حكيم ﴾ .

قال الإمام الفخر الرازى : ما ذكره المفسرون من أنها نزلت بسبب (الوليد بن عقبة) حين بعثه الرسول ﷺ — إلى بنى المصطلق ليقبض صدقاتهم .. الخ إن كان مرادهم أن الآية نزلت عامة لبيان وجوب التثبيت في خبر الفاسق ، وأنها نزلت في ذلك الحين الذى وقعت فيه حادثة الوليد فهذا جيد . وإن كان غرضهم أنها نزلت لهذه الحادثة بالذات فهذا ضعيف ؛ لأن الوليد لم يتقصّد الإساءة إليهم ، ورواية الإمام أحمد تدل على أن الوليد خاف وفرق حين رأى هجاعة الحارث — وقد خرجت في انتظاره . فظنها خرجت لحربه فرجع وأخبر الرسول ﷺ — بما أخبره ظناً منه أنهم خرجوا لقتاله .. ويتأكد ما ذكرنا أن إطلاق لفظ (الفاسق) على الوليد شيء بعيد ؛ لأنه توهم وظن فأخطأ ، والمخطيء لا يسمى فاسقاً ، وكيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج من ربة الإيمان لقوله تعالى ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ﴾ إلى غير ذلك أ هـ .

وقوله تعالى ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾

أى : واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تبارك اسمه ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ ثم يبين أن رأيهم سخيّف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنم ﴾ أى : لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وخرجكم كما قال تعالى ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ .

(١) الحديث في مسند أحمد ج ٤ ص ٢٧٩

وفى تفسير ابن كثير — تفسير سورة الحجرات — ج ٧ ص ٢٤

(٢) الآية ٧١ من سورة المؤمنون

وقوله تعالى ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ أى : حبيه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم قال الإمام أحمد عن أنس — رضى الله عنه — قال كان رسول الله — ﷺ — يقول « الإسلام علانية والإيمان في القلب — قال ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول — التقوى ههنا ، التقوى ههنا »^(١) .
وقوله تعالى ﴿ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ أى : وبغض إليكم الكفر والفسوق والعصيان وهى الذنوب الكبار والعصيان وهى جميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة .

وقوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم .

وقوله تعالى ﴿ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أى : فعل الله ذلك بكم فضلاً ، أى : الفضل والنعمة له . (والله عليم حكيم) أى : والله عليم بمن يستحق الهداية ، ومن يستحق الغواية . (حكيم) فى تدبير شئون خلقه وصرفهم فيما شاء من قضائه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : العارف بالله يسير إلى الله بين مشاهدة المنّة ومطالعة عيب النفس والعمل . وهذا معنى قوله — ﷺ — فى الحديث الصحيح من حديث بريرة — رضى الله عنه — « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »^(٢) فجمع فى قوله — ﷺ — « أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبي » مشاهدة المنّة ، ومطالعة عيب النفس والعمل ، فمشاهدة المنّة توجب له المحبة والحمد والشكر لولى النعم والإحسان ، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة فى كل وقت ، وألا لا يرى نفسه إلا مفلساً ، وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سبباً يتعلق به ولا وسيلة منه بمن بها ، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف ، والإفلاس المحض ، دخول من قد كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته ، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل وكال فاقته وفقره إليه ، وأن فى كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة ، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى ، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر ، إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته . ولا طريق إلى الله تعالى أقرب من العبودية ، ولا حجاب أغلظ من الدعوى .

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٣٩٣ من رواية أحمد وأبى يعلى وفى مسند أحمد ج ٣ ص ١٣٤ ، ١٣٥ وفى تفسير ابن كثير — تفسير سورة الحجرات — ج ٧ ص ٣٥٢

(٢) الحديث فى مسند أحمد ج ٤ ص ١٢٢

والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها : حب كامل ، وذل تام ومنشأ هذين الأصلين عن ذنبك الأصلين المتقدمين وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة ، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام ، وإذا كان العبد قد بنى سلوكه الى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غرة وغيلة وما أسرع ما ينعشه الله — عز وجل — ويجبره ويتداركه برحمته . (الوابل الصيب لابن القيم)

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

أى : وإن اقتتل طائفتان من أهل الإيمان ، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم الله والرضا بما فيه . سواء كان لهما أو عليهما وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل . ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى : فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم الله وتعدت ما جعله الله عدلاً بين خلقه ، وأجابت الأخرى فقاتلوا التي تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكمه حتى ترجع إليه وتخضع طائعة له . ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ أى : فإن رجعت الباغية بعد قتالك إياها إلى الرضا بحكم الله — فأصلحوا بينهما بالإنصاف والعدل حتى لا يتجدد بينهما القتال في وقت آخر .

ثم أمرهم سبحانه بالعدل في كل أمورهم فقال تعالى ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أى : واعدلوا في كل ما تأتون وما تذكرون ، إن الله يحب العادلين في جميع أعمالهم ويجازيهم أحسن الجزاء . وفي الصحيح عن أنسى — رضى الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قلت : يا رسول الله : هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصر ظالماً ؟ قال : تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه »^(١)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أى : انهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية وفي الحديث المتفق عليه عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله — ﷺ — « مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر »^(٢)

١ — الحديث في حلية الأولياء ح ٣ ص ٩٤ ، وفي مسند أحمد ح ٣ ص ٩٩ ، وفي مجمع الزوائد وفي صحيح البخارى ح ٧ ص ٢٦٤ — كتاب المظالم ح ٣ ص ١٦٨ ، وصحيح مسلم — كمال البر — باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً
٢ — الحديث في صحيح مسلم — ح ٤ ص ١٩٩٩ — باب تراحم المؤمنين — وفي صحيح البخارى — كتاب الأدب — باب رحمة الناس والبهائم ح ٨ ص ١١ ، ١٢

وفي مسند أحمد ح ٤ ص ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٣٧٥

وفي تفسير ابن كثير — تفسير سورة الحجرات — ح ٧ ص ٣٥٥

وعن أبي موسى ، عن النبي ﷺ — : « المؤمن للمؤمن كالنيان يشد بعضه بعضاً ، ثم شبك بين أصابعه »^(١) وكان النبي ﷺ — جالساً إذ جاءه رجل يسأل ، وطالب حاجة أقبل علينا بوجهه ، فقال : « اشفعوا فلتؤجروا ، وليقضى الله على لسان نبيه ما شاء »^(٢) متفق عليه . وعن جرير بن عبد الله — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله »^(٣) متفق عليه .

وعن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — « المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم »^(٤) رواه الترمذی وقال حديث حسن . وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ — « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله . التقوى ههنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »^(٥) متفق عليه .

وعن أنس — رضي الله عنه — عن النبي ﷺ — قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(٦) متفق عليه .

وعن أبي هريرة — رضي الله عنه — أن رسول الله ﷺ — قال : « حق المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه »^(٧) .

ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ولا بد — تسبب عن ذلك قوله ﴿ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخْيَكُمْ ﴾ في الدين كما تصلحون بين أخويكم في النسب .

(١) . الحديث في صحيح البخارى ح ٨ ص ١٤ ط الشعب — باب تعاون المؤمن —

وفي صحيح مسلم — ح ٤ ص ١٩٩٩ باب تراحم المؤمنين

(٢) . الحديث في صحيح البخارى ح ٨ ص ١٤ ط الشعب — باب تعاون المؤمن

(٣) . الحديث في الجامع الكبير للسيوطى ح ١ ص ٨٤٢ من رواية أحمد والبخارى ومسلم والطبرانى

(٤) . الحديث في الجامع الكبير للسيوطى ح ١ ص ٤٤٦ من رواية الترمذى عن أبي هريرة وفي مسند أحمد والطبرانى في الكبير عن واثلة وفي مسند أحمد ح ٢ ص ٢٧٧

وفي تحفة الأخوذى — باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ح ٦ ص ٥٤

(٥) . الحديث في صحيح مسلم — كتاب البر والصلة — ح ٤ ص ١٩٨٦

(٦) . الحديث في صحيح مسلم — كتاب الايمان — ح ١ ص ٦٧

(٧) . الحديث في صحيح مسلم — كتاب السلام ح ٤ ص ١٧٠٥

وقوله تعالى ﴿ واتقوا الله ﴾ في كل ما تأكلون وما تذرّون ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين كما قال تعالى ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾^(١) وكقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله عليكم رقيباً ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾^(٣) .

قال القرطبي : في هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغى لا يذيل اسم الإيمان ؛ لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين ، قال الحارث الأعور : سئل على بن أبي طالب — رضى الله عنه — وهو القدوة عن قتال أهل البغى من أهل الجمل وصفين : أمشركون هم ؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً . قيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا .

وبعد أن عشنا في تلك الأجواء الرفيعة المستوى ، المشرقة المحيا ، السامية السامقة ، نزيد الأمر وضوحاً فنسلط تلك الأضواء الكاشفة على هذا المشهد القرآنى المهيب ، ونستمد تلك الأضواء من كتاب روائع البيان لما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية التي تستنبط من هذه الآيات الكريمة .

يقول صاحب « روائع البيان » ما نصه :

سورة الحجرات تسمى صورة (الأخلاق والآداب) فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق ، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خمس مرات ، وفي كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم ، وفضيلة من الفضائل ، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها في فقرات ، وهي :

١ — وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الرسول — وعدم التقدم عليه برأى ، أو قول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله .. ﴾ أى : لا تعجلوا بقول ، أو فعل قبل أن يقول : فيه رسول الله أو يفعل .

٢ — احترام الرسول ، وتعظيم شأنه ، وعدم رفع الصوت في حضرته ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي .. الآية ﴾ .

٣ — وجوب الثبوت من صحة الأخبار ، وعدم الاعتماد على أقوال الفسقة المفسدين ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا .. ﴾ الآية .

(١) الآية ١ من سورة الأنفال

(٢) الآية ١ من سورة النساء

(٣) الآية ١٣٢ من سورة آل عمران

٤ — النهى عن السخرية بالناس وعن التناز باللقاب ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن .. ﴾ الآية .

٥ — نهى عن التجسس ، والغيبة ، وسوء الظن ، وعن سائر الأخلاق الذميمة ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً .. ﴾ الآية .

فهذه السورة الكريمة التي لا تتجاوز ثمانى عشرة آية قد جمعت الفضائل ، والآداب الإنسانية ، فلا عجب أن تسمى (سورة الآداب) أو (سورة الأخلاق) فهي تتناول الأدب مع الله ، والأدب مع الرسول ، والأدب مع النفس والأدب مع المؤمنين ، والأدب مع الناس عامة ، وكلها بهذا الشكل الرتيب . (وهذه هي اللطيفة الأولى) .

اللطيفة الثانية :

تصدير الخطاب بالنداء ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ لتنبية المخاطبين على أن ما بعده أمر خطير ، يستدعى مزيد العناية والاهتمام بشأنه ، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ، ووازع عن الإخلال به . أفاده العلامة أبو السعود .

اللطيفة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ في هذا التعبير إشارة لطيفة إلى أن المؤمن ينبغي أن يكون جذراً يقظاً ، لا يقبل كل كلام يلقي على عواهنه ، دون أن يعرف المصدر ، وتنكير (فاسق) للتعميم ، لأنه نكرة في سياق الشرط وهي كالنكرة في سياق النفي تفيد العموم كما قرره علماء الأصول ، والمعنى إن جاءكم أى : فاسق فتثبتوا من خبره ، وجاء بحرف التشكيك (إن) ولم يقل (إذا) التي تفيد التحقيق ، ليشير إلى أن وقوع مثل هذا إنما هو على سبيل (النادرة) إذ الأصل في المؤمن أن يكون صادقاً ، ولما كان رسول الله ﷺ — وأصحابه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب ، وما كان يقع مثل ما فرط من (الوليد بن عقبة) إلا في النادرة قيل : (إن جاءكم) بحرف الشك . فتدبر أسرار الكتاب العزيز (روح المعاني للأولوسي) .

اللطيفة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ تقديم خبر أن على اسمها ليفيد معنى الحصر ، المستتبع لزيادة التوبيخ لهم على ما فرط منهم في حق الرسول ﷺ — وفي الكلام إشعار بأنهم زينوا بين يدي الرسول ﷺ — الإيقاع بالحارث وقومه ، وقد أريد أن ينعى عليهم ذلك بتنزيلهم منزلة من لا يعلم أنه — عليه السلام — بين أظهرهم .

قال الإمام الفخر — رحمه الله — : « والذي اختاره وكأنه هو الأقوى إن الله تعالى لما قال : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ أى : فتثبتوا واكشفوا ، قال بعده : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ .. أى : الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبي — ﷺ — فإنه فيكم مبین مرشد ، وهذا كما قال القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ في مسألة : هذا الشيخ قاعد .. لا يريد به بيان قعوده ، وإنما يريد أمرهم بالرجوع إليه ، فكأن الله تعالى يقول : استرشدوا بالرسول — ﷺ — فإنه يعلم ولا يطيع أحدا ، فلا يوجد فيه حيف ، ولا يروج عليه زيف لأنه لا يعتمد على كثير من آرائكم التى تبدونها ، وإنما يعتمد على الوحي الذى يأتيه من عند الله . »

اللطيفة الخامسة :

صيغة المضارع تفيد (الاستمرار والتجدد) بخلاف الماضي ، فالعدول عن الماضي إلى المضارع فى قوله تعالى : ﴿ لو يطيعكم ﴾ ليفيد هذا المعنى على أنهم كانوا يريدون إطاعة الرسول لهم إطاعة مستمرة بدليل قوله تعالى : ﴿ فى كثير من الأمر ﴾ وذلك أن صيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ، نقول : فلان يقرى الضيف ، ويحمى الحرم ، تريد أن ذلك شأنه وأنه مستمر على ذلك .
وكأن الله تعالى يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ ولا تكونوا أمثال هؤلاء الذين استفزهم النبأ قبل التعرف على صدقه ، ثم لم يكتفوا حتى أرادوا أن يحملوا الرسول على رأيهم ، ليوقعوا أنفسهم ويوقعوا غيرهم فى العنت والإرهاق ، واعلموا جلالة قدر الرسول — ﷺ — وتفادوا عن أمثال هذه الأخطاء .

اللطيفة السادسة :

قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى : ﴿ وما آتيم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾^(١) وهذا الالتفات من المحسنات البديعية كما قرره علماء البلاغة ، ويقصد به التعظيم أى : هؤلاء الذين حبب الله إليهم الإيمان ، وزينه فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، هم الذين بلغوا أرفع الدرجات ، وأعلى المناصب ، ونالوا هذه الرتبة العظيمة (رتبة الرشاد) فضلاً من الله وكرماً .

اللطيفة السابعة :

قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ الطائفة فى اللفظ : مفرد ، وفى المعنى : جمع ، لأنها تدل على عدد كبير من الناس ، ولهذا جاء التعبير بقوله : ﴿ اقتتلوا ﴾ ، رعاية للمعنى فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة ، ثم قال تعالى : ﴿ فأصلحوا بينهما ﴾ ولم يقل بينهم رعاية للفظ ، والنكته

في هذا هو ما قيل : إنهم عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وهم مختلطون ، فلذا جمع الضمير ، وفي حال الصلح تتفق كلمة كل طائفة حتى يكونوا كنفسين فلذا ثنى الضمير . (أفاده الفخر الرازي) .

اللطيفة الثامنة :

قال الإمام الفخر : — رحمه الله — قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يقل (منكم) مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تنبيهاً على قبح ذلك ، وتبعيداً لهم عنهم ، كما يقول السيد لعبده : إن رأيت أحداً من غلمانى يفعل كذا فامنعهُ ، فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ، كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ، فإن فعل غيرك فامنعهُ ، كذلك ههنا قال : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبيه مع أن المعنى واحد .

اللطيفة التاسعة :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، فيه تشبيه لطيف يسمى (التشبيه البليغ) وأصل الكلام : المؤمنون كالأخوة في وجوب التراحم ، والتناصر فحذف وجه الشبه ، وأداة الشبه فأصبح بليغاً ، قال بعض أهل اللغة : الإخوة جمع الأخ من النسب ، والإخوان جمع الأخ من الصداقة ، فالله تعالى قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ تأكيداً للأمر وإشارة إلى أن ما بينهم كما بين الإخوة من النسب ، والإسلام لهم كالأب فأخوة (العقيدة) فوق أخوة (الجسد) ، ورابطة الإيمان أقوى من رابطة النسب ، وقد قال الشاعر العربى :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقرىس أو تميم

اللطيفة العاشرة :

سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم من قتال فقال : تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا فلا تلوث بها ألسنتنا ، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته . وسئل (الحسن البصرى) عن قتالهم ، فقال : (قتال شهدته أصحاب محمد — ﷺ — وغبنا ، وعلموا ، وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا) .

وقال المحاسبى : فنحن نقول كما قال الحسن : ، ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا وجه الله — عز وجل — .

الأحكام الشرعية (المستنبطة من الآيات)

الحكم الأول : هل يقبل خبر الواحد إذا كان عدلاً ؟ استدل العلماء بهذه الآية الكريمة ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ﴾ على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً ووجه الاستدلال من جهتين :

(الأولى) : أن الله تعالى : أمر بالتثبت في خبر الفاسق ، ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل لما كان ثمة فائدة من ذكر التثبت ، لأن خبر كل من العدل ، والفاسق مردود ، فلما دل الأمر بالتثبت في خبر الفاسق ، وجب قبول خبر العدل ، وهذا الاستدلال كما يقول علماء الأصول من باب (مفهوم المخالفة) .

(الثانية) : أن العلة في رد الخبر هي (الفسق) لأن الخبر أمانة ، والفسق يبطلها فإذا انتفت العلة انتفى الرد ، وثبت أن خبر الواحد ليس مردوداً ، وإذا ثبت ذلك وجب حينئذ قبوله والعمل به .

وأما المجهول الذي لا تعلم عدالته ولا فسقه فقد استدل الحنفية على قبول خبره ، وحجتهم في ذلك أن الآية دلت على أن الفسق شرط وجوب التثبت ، فإذا انتفى الفسق فقد انتفى وجوبه ، ويبقى ما وراءه على الأصل وهو قبول خبره ، لأن الأصل في المؤمن العدالة .

وأنت ترى أن هذا الاستدلال مبني على أن الأصل العدالة ، ولكن بعض الفقهاء يعارض في هذا ويقول : الأصل الفسق لأنه أكثر ، والعدالة طارئة فلا يقبل قوله حتى يثبت عدالته .

الترجيح

والظاهر أن مسألة قبول خبر المجهول مبنية على هذا ، فإن صح أن الأصل العدالة فهو باق على عدالته حتى يتبين خلافها ، وإن كان الأصل عدمها فهو داخل في حكم الفسق حتى يتبين عدالته ، والمسألة تطلب بالتفصيل من كتب الأصول .

الحكم الثاني :

هل يجب البحث عن عدالة الصحابة في الشهادة والرواية ؟

استدل بعض العلماء بالآية الكريمة على أن من الصحابة من ليس بعدل لأن الله تعالى : أطلق لقب الفاسق على (الوليد بن عقبة) فإنها نزلت فيه ، وسبب النزول لا يمكن إخراجهم من اللفظ العام وهو صحابي بالاتفاق ، وقد أمر الله بالتثبت مع خبره ، فلا بد من البحث عن عدالة الصحابة في الشهادة والرواية .

والمسألة خلافية وفيها أقوال نذكرها بإيجاز :

الأول : أن الصحابة كلهم عدول ، ولا يبحث عن عدالتهم في رواية ولا شهادة ، وهذا رأى جمهور العلماء سلفاً وخلفاً .

الثاني : أن الصحابة كغيرهم يُبحث عن العدالة فيهم في الرواية والشهادة ، إلا من يكون ظاهر العدالة ، أو مقطوعها كالشيخين (أبى بكر) و (عمر) — رضى الله عنهما — .

الثالث : أنهم عدول إلى زمن عثمان — رضى الله عنه — ، ويبحث عن عدالتهم بعد مقتله ، وهذا رأى طائفة من العلماء .

الرابع : أنهم عدول إلا من قاتل علياً — كرم الله وجهه — لفسقه بالخروج على الإمام الحق وهذا مذهب المعتزلة .

الترجيح

والحق ما ذهب إليه جمهور العلماء سلفاً وخلفاً من أن الصحابة كلهم عدول ، ببركة صحبة النبي — ﷺ — ومزيد من ثناء الله — عز وجل — في كتابه العزيز كقوله سبحانه : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾^(١) أى : عدولاً ، وقوله سبحانه : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾^(٢) ، وقوله جل ذكره : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾^(٣) ، وقوله جل وعلا : ﴿ يتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾^(٤) . وقوله جل وعلا : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾^(٥) إلى آخر ما هنالك من الآيات الكثيرة .

وكذلك ما ثبت في السنة المطهرة من مدحهم ، والثناء عليهم وبيان أنهم أفضل الناس بعد رسول الله — ﷺ — على الإطلاق ، ونحن نذكر بعض هذه الأحاديث الشريفة التي تشير إلى فضيلتهم باختصار .

١ — قال — ﷺ — : « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. الحديث »^(٦) ، (رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى) .

(١) سورة البقرة من الآية ١٤٣

(٢) سورة آل عمران من الآية ١١٠

(٣) سورة الفتح من الآية ٢٩

(٤) سورة الحشر الآية ٨

(٥) سورة البينة من الآية ٨

(٦) الحديث فى صحيح مسلم — كتاب فضائل الصحابة ج ٤ ، ص ١٩٦٣ عن عبد الله رقم ٢١٢ / ٢٥٣٣

— وفى صحيح البخارى كتاب فضائل أصحاب النبى — ج ٥ ص ٣ عن عبد الله

— وفى سنن الترمذى كتاب القدر — باب ما جاء فى القرن الثالث ج ٣ ص ٣٣٩ رقم ٢٣٢٠ عن عمران بن حصين .

— وفى سند الامام أحمد ج ١ ص ٤٣٤ حديث عبد الله .

٢ - وقال - ﷺ : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم أو نصيفه »^(١) ، (رواه الشيخان وأبو داود والترمذي) .

٣ - وقال - ﷺ : « الله ، الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فحببني أحبهم ، ومن أبغضهم فبغضني أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »^(٢) ، (رواه الترمذي) .

فهذه الأخبار التي وردت في الكتاب ، والسنة كلها متضافرة على عدالة الصحابة ، وأفضليتهم على سائر الناس ، وما وقع من بعضهم من مخالفات فليس يسوغ لنا أن نحكم عليهم بالفسق ، لأنهم لا يصرون على الذنب ، وإذا تاب الإنسان رجعت إليه عدالته ، ولا يحكم بفسقه على التأييد ، فهذا (ماعز الأسلمي) الذي ارتكب الفاحشة يقول عنه النبي - ﷺ : « بعد أن أمر برجمه » لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم »^(٣) ، (هذا جزء من حديث طويل رواه مسلم) .

والقول بأن بعض الصحابة قد وقع في الذنب والمخالفة ، بناء على الاعتقاد بعدم عصمتهم - لا يعني أنهم غير عدول ، لأن الفاسق الذي ترد شهادته ، وروايته هو الذي يصر على الذنب والمعصية ، وليس في الصحابة من يصر على ذلك .

وقد عرفت ما ذكره الإمام الفخر أنها لم تنزل خاصة بسبب (الوليد بن عقبة) وإنما نزلت عامة في بيان حكم كل فاسق . وأنها نزلت في ذلك الوقت الذي حدثت فيه تلك القصة ، فهي مثل التاريخ لنزول الآية ، وكلام الإمام الفخر نفيس فارجع إليه .

الحكم الثالث : هل تقبل شهادة الفاسق أو المبتدع .

اتفق العلماء على أن شهادة الفاسق لا تقبل عملاً بالآية الكريمة ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ وكذلك لا تقبل روايته ، لأن الرواية عن رسول الله - ﷺ - أمانة ودين ، والفسق يطلها لاحتمال كذبه على رسول الله - ﷺ - .

قال القرطبي : « ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعاً ، لأن الخبر أمانة ، والفسق قرينة يطلها » .

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ج ٤ ص ١٩٦٧ رقم ٢٢٢ / ٢٥٤١ - وفي سنن أبي داود ج ٥ ص ٤٥ رقم ٤٦٥٨ - كتاب السنة - باب النبي عن سب أصحاب النبي - ﷺ - وفي سنن الترمذي ج ٥ ص ٣٥٧ رقم ٣٩٥٢ أبواب المناقب . وفي البخاري ج ٥ ص ١٠ .

(٢) الحديث في سنن الترمذي (أبواب المناقب) في من سب أصحاب النبي - ﷺ - ج ٥ ص ٣٥٨ رقم ٣٩٥٤ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم كتاب الخلود - باب من اعترف على نفسه بالزنى ج ٣ ص ١٣٢١ ، ١٣٢٢ رقم ٢٢ / ١٦٩٥ عن ماعز بن مالك من حديثه الطويل .

وقال الجصاص :

وقوله تعالى : ﴿ فتيّنوا ﴾ اقتضى ذلك النهى عن قبول شهادة الفاسق مطلقاً ، إذ كان كل شهادة خبراً ، وكذلك سائر أخباره فلذلك قلنا : شهادة الفاسق غير مقبولة فى شىء من الحقوق وكذلك أخباره فى الرواية عن النبى — ﷺ — وكل ما كان من أمر الدين ، يتعلق به اثبات شرع ، أو حكم ، أو اثبات حق على إنسان .

وقد استثنى العلماء من قبول خبر الفاسق أموراً تتعلق بالمعاملات وليس فيها شهادة على الغير منها : أ — قبول قوله فى الإقرار على نفسه مثل : لفلان عندى مائة درهم فيقبل قوله ، كما يقبل فى ذلك قول الكافر ، لأنه إقرار لغيره بحق على نفسه فلا تشترط فيه العدالة .

ب — قبول قوله فى الإقرار على نفسه مثل : لفلان عندى مائة درهم فيقبل قوله ، كما يقبل فى ذلك قول الكافر ، لأنه إقرار لغيره بحق على نفسه فلا تشترط فيه العدالة .

ج — وكذلك فى الإذن بالدخول ونحوه كما إذا استأذن إنسان فقال له : ادخل . لا تشترط فيه العدالة . ومثل هذا جميع أخبار المعاملات إذا لم يكن فيها شهادة على الغير .

واختلف العلماء فى أمر الولاية بالنكاح ، فذهب الشافعى وغيره إلى أن الفاسق لا يكون ولياً فى النكاح ، لأنه يسيء التصرف ، وقد يضر بمن يلى أمر نكاحها بسبب فسوقه .

وقال أبو حنيفة ومالك : تصح ولايته ، لأنه يلى ما لها فىلى بضعها كالعدل ، وهو — وإن كان فاسقاً — إلا أن غيرته موفره ، وبها يحمى الحرم ، وقد يبذل المال ويصون الحرمه ، وإذا ولى المال فالنكاح أولى .

أما المتبوع :

وهو الفاسق الذى يكون فسقه بسبب الاعتقاد ، وهو متأول للنصوص كالجبرية ، والقدرية ، ويقال له : المبتدع بدعة واضحة ، فمن الأصوليين من رد شهادته وروايته كالإمام الشافعى — رحمه الله — ومنهم من قبلهما ، وفرق الحنفية فقالوا : تقبل منه الشهادة ، ولا تقبل منه الرواية لأن من ابتدع بدعة بسبب الدين فلا يبعد أن ينتصر لهواه ويدعو الناس إلى ذلك فنرد روايته دون شهادته ، لأن الدعوة إلى مذهب داعية إلى النقل فلا يؤتمن على الرواية وهذا مذهب جمهور أئمة الفقه والحديث .

الحكم الرابع : هل تصح ولاية الفاسق ؟

قال ابن العربى — رحمه الله — : « ومن العجب أن يجوز الشافعى ونظراؤه إمامة الفاسق ، ومن لا يؤتمن على حبة مال كيف يصح أن يؤتمن على قنطار دين ؟ ! وهذا إنما كان أصلة أن الولاية الذين كانوا يصلون بالناس ، لما فسدت آديانهم ولم يمكن ترك الصلاة ورائهم ، ولا استطيعت إزالتهم صلى

معهم ووراءهم ، كما قال عثمان : الصلاة أحسن ما يفعل الناس ، فإذا أحسنوا فأحسن ، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم .

ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقيّة أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته ، وبوجوب الإعادة أقول ، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سرّاً في نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

وأما أحكامه إن كان والياً فينفذ منها ما وافق الحق ويرد ما خالفه ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال ، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية تؤثر ، أو قول يحكى ، فإن الكلام كثير والحق ظاهر .. (آيات الأحكام لابن العربي) .

الحكم الخامس : هل يجب قتال أهل البغى ؟

ذهب جمهور العلماء إلى وجوب قتال أهل البغى ، الخارجين على الإمام أو أحد المسلمين ، ولكن بعد دعوتهم إلى الوفاق والصلح ، والسير بينهم بما يصلح ذات البين ، فإن أقاموا على البغى وجب قتالهم عملاً بقوله : (فأصلحوا بينهما فإن بغت أحدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله) .

وذهب جماعة ممن يدعى العلم إلى عدم جواز قتال البغاة من المؤمنين ، واحتجوا بقوله — عليه السلام — : « سباب المؤمن فسوق وقاتله كفر »^(١) رواه الشيخان والترمذي والنسائي . وهذا الحديث لا ينهض حجة لهم ، لأن من بغى من المؤمنين فقد أمر القرآن بقتاله ، فكيف يحتج بمثل هذا الحديث لإبطال حكم الله عز وجل ؟ قال القرطبي :

وهذه الآية : دليل على فساد قول من منع قتال المؤمنين . ولو كان قتال المؤمن الباغي كفراً لكان الله — تعالى — قد أمر بالكفر تعالى الله عن ذلك !! وقد قاتل الصديق — رضى الله عنه — من تمسك بالاسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر الا يتبع مول ولا يجهز على جريح ، ولم تحل أموالهم بخلاف الكفار . وقال الطبري :

(١) الحديث في صحيح البخارى (كتاب الإيمان) باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله ج ١ ص ١٩ — وفي صحيح مسلم — كتاب الإيمان باب سباب المسلم فسوق وقاتله كفر عن عبد الله بن سعود ج ١ ص ٨١ رقم ١١٦ / ٦٤ . — وفي سنن الترمذي (كتاب البر والصلة) (باب ما جاء في الشتم) ج ٣ ص ٢٣٨ رقم ٢٠٤٩ وقال ابو عيسى : هذا حديث من صحيح . — وفي سنن النسائي : ج ٤ ص ١٢١ (كتاب تحريم الدم) باب قتال المسلم عن عبد الله . — وفي سنن ابن أبي ماجة كتاب الفتن باب سباب المسلم فسوق وقاتله كفر ج ٢ ص ٢٩٩ رقم ٣٩٣٩ .

« ولو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ، ولزوم المنازل ، لما أقيم حد ، ولا أبطل باطل ولوجد أهل النفاق ، والبخور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين ، وسبى نسائهم ، وسفك دمائهم ، بأن يتحزبوا عليهم ، ويكف المسلمون أيديهم عنهم وذلك مخالف لقوله — عليه السلام — « خذوا على أيدي سفهائكم » ^(١) .

أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على وجوب قتل البغاة بعدة أدلة نوجزها فيما يلي :

أ — قوله تعالى : ﴿ فقاتلوا التي تبغى حتى تنفيء إلى أمر الله ﴾ الآية .

ب — حديث « سيخرج قوم في آخر الزمان ، حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، يقرءون القرآن ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة » ^(٢) ، (رواه الشيخان وأبو داود والنسائي) .

ج — حديث « سيكون في أمتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القول ويسئون العمل ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه ، هم شر الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه ، قالوا يا رسول الله : ماسيماهم ؟ قال : التحليق » ^(٣) ، (رواه السنة إلا الترمذي) .
فهذه الأحاديث صريحة في وجوب قتال أهل البغى ومن شايعهم على باطلهم من أهل الفجور والضلال .

(١) الحديث في كنز العمال ج ٣ ص ٦٩ رقم ٥٥٢٥ — الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانظر القرطبي ج ٦ ص ٤ .

(٢) الحديث في البخارى كتاب بدء الخلق باب علامات النبوة ج ٤ ص ٢٤٤

— وفي صحيح مسلم : كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج ج ٢ ص ٧٤٦ رقم ١٥٤ / ١٠٦٦ .

— وفي أبو داود كتاب الأدب — باب قتل الخوارج ج ٥ ص ١٢٤ رقم ٤٧٦٧ .

— وفي نصف عبد الرزاق ج ١٠ ص ١٥٦ رقم ١٨٦٧٧ .

وفي سنن النسائي ج ١ المصرية بالأزهر ج ٧ ص ١٩ كتاب تحريم الدم (باب من شهر سبقه ثم وضعه في الناس) .

(٣) الحديث في سنن أبي داود و (كتاب الأدب) باب قتال الخوارج ج ٥ ص ١٢٣ رقم ٤٧٦٥ . فقد ورد الحديث بلفظه .

— وانظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ٢ ص ١٤٧ « كتاب قتال أهل البغى ، فقد ورد الحديث من رواية أنس بن مالك في حديث طويل .

— وانظر صحيح مسلم (كتاب الزكاة) باب الخوارج شر الخلق والخليقة ج ٢ ص ٧٥٠ حديث ١٠٦٨ / ١٥٨ فقد ورد هذا من رواية لأبي ذر مع اختلاف في بعض ألفاظه وجمله

— وفي السنن الكبرى للبيهقي من رواية أنس بن مالك وأبي سعيد الخدري ج ٨ ص ١٧١ .

الحكم السادس : هل تكون أموال البغاة غنيمة للمسلمين ؟

اختلف العلماء في حكم أموال البغاة هل تكون غنيمة للمسلمين ؟ أم ترد إليهم بعد الصلح وانتهاء الحرب ؟

أ — فقال محمد بن الحسن الشيباني : إن أموالهم لا تكون غنيمة ، وإنما يستعان على حربهم بسلاحهم وخيلهم عند الاستيلاء عليه ، فإذا وضعت الحرب أوزارها رد عليهم السلاح والمال .

ب — وقال أبو يوسف : إن ما وجد في أيدي البغاة من سلاح وعتاد فهو (غنيمة) يقسم ويخمس .

ج — وقال مالك : لا تسبى ذراريهم ولا أموالهم . وهو مذهب الشافعي .

حجة أبي يوسف : أنهم باغون معتدون فيقسم ما لهم غنيمة بين المسلمين .

حجة الجمهور : أن بغيتهم يحل قتالهم ، ولا يحل أموالهم وذراريهم ، لأنهم ليسوا كفاراً ، وإنما هم

مؤمنون باغون ، أو فاسقون خارجون عن الطاعة ، والأمر بقتالهم من أجل ردهم إلى صف المؤمنين .

واستدلوا بما روى عن ابن عباس أن الخوارج لما تقموا على (علي) — كرم الله وجهه — قال :

أفتسبون أمكم عائشة ، ثم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها ؟ فلئن فعلتم لقد كفرتم .

واستدلوا بحديث ابن عمر عن النبي — ﷺ — أنه قال : « يا عبد الله أتدرى كيف حكم الله

فيمن بغى من هذه الأمة » ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فقال : لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها

ولا يطلب هاربها ، ولا يقسم فيئها ^(١) ، (القرطبي) .

قال القرطبي :

« والمعول في ذلك عندنا أن الصحابة — رضی الله عنهم — في حروبهم لم يتبعوا مدبراً ، ولا ذفقوا

على جريح (أى أجهزوا على جريح) ولا قتلوا أسيراً ، ولا ضمنوا نفساً ولا مالاً ، وهم القدوة » .

الترجيح : والصحيح ما ذهب إليه الجمهور لأنهم ليسوا كفاراً ولأننا لو أخذنا أموالهم وسبينا ذراريهم

تألبوا علينا ولم يمكن ردهم إلى صف المسلمين والله أعلم .

فائدة هامة : حول ما وقع بين الصحابة — رضوان الله عليهم أجمعين : قال العلامة القرطبي — رحمه

الله — : « لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوعة به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما

فعلوه ، وأرادوا الله — عز وجل — ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم ، وألا

نذكرهم إلا بأحسن الذكر ، لحرمه الصحبة ، ونهى النبي — ﷺ — عن سبهم ، وأن الله غفر لهم ،

وأخبر بالرضا عنهم .

هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ — أن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض ، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً لم يكن بالقتل فيه شهيداً ، لأن الشهادة لا تكون إلا بالقتل في الطاعة .

ومما يدل على ذلك ما قد صحح بأن قاتل الزبير في النار ، وقوله — عليه السلام — (بشر قاتل ابن صفية بالنار) وإذا كان كذلك فقد ثبت : أن (طلحة) و (الزبير) غير عاصيين ، ولا آثمين بالقتال ، وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقَت فيما بينهم فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَةٌ قَدْ خَلَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : وجوب الثبوت من الأخبار وعدم الوثوق بخبر الفاسق الخارج عن طاعة الله .
ثانياً : ضرورة التريث قبل الحكم على الأشخاص لمجرد سماع الأنباء خشية الظلم والعدوان عليهم .
ثالثاً : الرسول ﷺ — هو المرجع للمؤمنين ، فلا يجوز لأحد من أهل الإيمان أن يقطع بأمر دونه .
رابعاً : وجوب الإصلاح بين طوائف المؤمنين عند حصول النزاع خشية تصدع الصف ، وتفرق الكلمة .

خامساً : إذا بغت إحدى الطائفتين على الأخرى ولم يمكن الإصلاح وجب قبر الفتنة بحد السيف .
سادساً : المؤمنون إخوة **جمعتهم** رابطة (العقيدة والإيمان) وهذه الرابطة أقوى من رابطة النسب والدم .
سابعاً : يجب على المؤمنين مقاومة أهل البغي إبقاءً لوحدة الأمة الإسلامية ودفعاً للظلم عن المستضعفين .

حكمة التشريع

يدعو الإسلام إلى الثبوت في الخبر ، وأخذ الحيطة والحذر ، في كل أمر من أمور المسلمين ، ليجنبوا المزالق التي يدبرها لهم أعداؤهم ، ويكونوا على بينة من أمرهم ، فكم من فتنة حصلت بسبب خبر كاذب ، نقله فاسق . فاجر ؟ وكم من دماء أريقَت بسبب فتنة هوجاء أشعل نارها أناس ماكرون ؟ لا يريدون للأمة الخير ، ولا يضمرون للمسلمين إلا كل شر ، وبلاء ، وفتنة ، ليفسدوا عليهم وحدثهم ، ويكذبوا عليهم صفاءهم وسرورهم .

لذلك أمر الإسلام بمبدأ كريم فاضل (مبدأ التحيص) والتثبت من كل خبر ، وخاصة خبر الفاسق ، الذى لا يقيم حرمة للدين ، ولا يبالي بما يحدث من جراء كذبه وبهتانه من أضرار فادحة ، ونتائج وخيمة ، تشل حركة المجتمع وقد تفضى إلى فجيرة عظيمة تودى بحياة أناس بريئين ، كما كان سيحدث فى قصة (الوليد بن عقبة) لولا أن الله — عز وجل — أطلع رسوله على جليلة الأمر ، بواسطة الوحي المنزل ، فكان فى ذلك صيانة الدماء البريئة ، وحفظ وحدة المسلمين ، كما أمر الإسلام بمقاومة الظلم والطغيان ، أياً كان مصدره ، فدعا إلى الإصلاح بين الطوائف المتنازعة ، والفئات المتخاصمة ، فإن لم ينفع الصلح ، ولم تثمر دعوته ، كان السيف هو الحكم الفاصل تقاتل به الفئة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله ، وتفىء إلى رشدتها .

وهذه الخطة الحكيمة التى انتهجها الإسلام قاعدة تشريعية وقائية ، لصيانة المجتمع المسلم من الخصام ، والتفكك والاندفاع وراء الأهواء الطائشة التى لا تجنى منها الأمة إلا كل شر ، وبلاء . أ هـ .

من الآداب الإسلامية

قال تعالى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

معانى المفردات

﴿ لا يسخر ﴾ السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، يقال سخر به ، وسخر منه ، وضحك به ، وضحك منه ، وهزىء به ، وهزىء منه ، والاسم السخرية والسخرى (بالضم والكسر) وقد تكون بالمحاكاة بالقول ، أو بالفعل ، أو بالإشارة ، أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه ، أو على صنعه أو على قبح صورته .

﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أى : لا يعب بعضكم بعضاً بقول ، أو إشارة باليد ، أو العين أو نحوهما ، والمؤمنون كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾ التنازير : المتعابر والتداعى بما يكرهه الشخص من الألقاب ، ﴿ الاسم ﴾ الذكر والصيت ، ﴿ اجتنبوا ﴾ أى : تباعدوا ، وأصل اجتنبته : كنت منه على جانب ، ثم شاع استعماله فى التباعد اللازم له . ﴿ الاثم ﴾ الذنب ، ﴿ التجسس ﴾ البحث عن العورات والمعائب والكشف عما ستره الناس . ﴿ والغيبة ﴾ ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته . ﴿ من ذكر وأنثى ﴾ أى : من آدم وحواء ، ﴿ شعوباً ﴾ الشعوب واحدهم شعب (بفتح الشين وسكون العين) ، وهو الحى العظيم المنتسب إلى أصل واحد . كربيعة ومضر .. وسمى الشعب شعباً لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر — سبحانه — ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله — تعالى — ومع النبى — ﷺ — ، بين سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، فذكر أنه لا ينبغى أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز ، ولا أن يلقيه باللقب الذى يتاذى منه ، فبئس العمل هذا ، ومن لم يتب بعد ارتكابه فقد أساء إلى نفسه وارتكب جرماً كبيراً . كذلك ينبغى عليه أن يتعد عن سوء الظن بالناس وتخونهم فى كل ما يقولون وما يفعلون ، لأن بعض ذلك قد يكون إثماً محضاً . فليجتنب كثير منه ، وقد روى عن عمر — رضى الله عنه — أنه قال : ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً ، وأنت وأن تجد لها فى الخير محملاً ، وكذلك ينبغى عليه ألا يبحث عن عورات الناس ومعائبهم وعدم ذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون ، وقد مثل الشارع المغتاب بأكل لحم الميتة استفظاعاً له . قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة ممدودة أن تأكل منها ، كذلك فأكره لحم أخيك وهو حى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ .

إنه لترتيب إلهى عال حيث رتب — سبحانه — مسألة النزاع والقتال بين الطوائف والأشخاص على أبناء الفاسقين ولذا نبهنا فيما سبق إلى التبين والتثبت فى تلقى الأخبار ، وأنه لنسق فريد أن يسوق تلك الإرشادات الإلهية فى هذه الآيات التى تتضمن سل السخائم وإماتة الأحقاد حتى تصبح الأمة الإسلامية كالجسد الواحد بعد ذلك .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ نادانا المولى — سبحانه وتعالى — بوصف الإيمان لينهانا عن السخرية وغيرها ليشعرنا بأن ما يدعونا إليه من إرشاد هو مقتضى الإيمان الصحيح فقد قال صاحب الخلق العظيم : ﴿ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ﴾^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ .

أى : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر رجل أو امرأة أو جماعة من رجل آخر أو امرأة أخرى أو جماعة أخرى ، والسخرية بالناس رذيلة تغضب الرحمن وترضى الشيطان ، وتثير كوامن الفتن وبواعث الشر وهى صفة المجردين من الخير ، المنغمسين فى حمأة الرذيلة ، فالسخرية دليل على خبث الطوية ، وسوء السريرة ، ودناءة النفس ، ولا يصح أن يسخر نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، فالمستهزأ به غالباً يكون خيراً عند الله من المستهزئ .

فينبغى ألا يجترىء أحد على الاستهزاء بأحد لثأته حالة أو لكونه ذا عاهة فى بدنه ، أو لكونه غير لبق فى محادثته ، فلعلة أخلص ضميراً وأبقى قلباً ممن هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى .

وقد قال الإمام النووى فى رياض الصالحين : باب تحريم احتقار المسلمين — بعد أن أورد هذه الآية : « وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ — قال : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم »^(٢) رواه مسلم .

وعن ابن مسعود — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ — قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال ، رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، وفعله حسنة ، فقال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »^(٣) رواه مسلم . ومعنى « بطر الحق » دفعه ، و « غمط الناس » احتقارهم .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أى : ولا يعب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة على وجه الخفية قال تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾^(٤) أى : عذاب شديد وهلاك ودمار ، لكل من يعيب

(١) الحديث فى سنن الترمذى كتاب الرخاع باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٢ ج ٢ ص ٣١٥ وفى الباب عن عائشة وابن عباس ، وقال أبو عيسى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم ظلم المسلم وحزله واحتقاره .. الخ ج ٤ ص ١٩٨٦ رقم ٣٢ / ٢٥٦٤ عن أبى هريرة من حديثه الطويل .

(٣) انظر صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب تحريم الكبر وبيانه ج ١ ص ٩٣ رقم ١٤٧ / ٩١ .

(٤) سورة المزة الآية ١

الناس ويعتابهم ويظعن في أعراضهم ، أو يلزمهم سرّاً بعينه أو حاجبه ، قال الطبري : اللزم باليد والعين واللسان والاشارة والهمز لا يكون إلا باللسان . وفي قوله : ﴿ أنفسكم ﴾ تنبيه إلى أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنه كنفسه ، ومن ثم : قال النبي ﷺ — : « المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »^(١) ، وقال — ﷺ — « يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ويدع الجذع في عينه ، وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره »^(٢) ، قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلاً ورعاً اشغله عن عيوبه ورعُه
كما السقيم المريض يشغله عن وجع الناس وجعه
وقوله تعالى : ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾ .

قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يُعير بعد إسلامه بكفره يا يهودي يا نصراني ، فنزلت هذه الآية . وروى عن قتادة : هو قول الرجل لأخيه : يا فاسق ، يا منافق وقاله مجاهد والحسن أيضا . وقال الإمام أحمد : عن أبي جيرة : بن الضحاك : قال : فينا نزلت في بني مسلمة ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾ قال : قدم رسول الله ﷺ — المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يغضب من هذا الاسم فنزلت ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾^(٣) .

ولله در النبي ﷺ — حيث يوصي بأن تدعو أخاك بأحب الأسماء إليه .
وقوله تعالى : ﴿ بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ أي : بشئ الصفة والاسم الفسوق وهو التنازير بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتعانون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه .
قوله تعالى : ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ أي : ومن لم يتب من هذا فأولئك هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوا عقاب الله بعصيانهم أوامره .

في الفرق بين الاسم والكنية واللقب

قال ابن القيم : هذه الثلاثة . وإن اشتركت في تعريف المدعو بها . فإنها تفرق في أمر آخر . وهو أن الاسم إما أن يفهم مدحاً أو ذماً أو لا يفهم واحداً منهما . فإن أفهم ذلك فهو اللقب . وغالب

(١) الحديث في صحيح مسلم (كتاب البر والصلة) باب تراجم المؤمنين وتعاطفهم ج ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٦٦ / ٢٥٨٦ .

(٢) انظر كنز العمال ج ١٦ ص ١٢٢ رقم ٤٤١٤١ ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة .

— وفي كشف الخفاء ج ٢ ص ٥٤٣ رقم ٣٢١٢ عن أبي هريرة .

— وفي انحف السادة المتقين ج ٧ ص ٥٣٧ الحديث ورد بلفظه عن أبي هريرة .

(٣) الحديث في مسند الإمام أحمد ج ٤ ، ص ٢٦٠ (حديث أبي جيرة بن الضحاك — رضي الله عنه — .

وفي سنن أبي داود (كتاب الأدب) باب في الألقاب ج ٥ ص ٢٤٦ رقم ٤٩٦٢ .

استعماله في الذم . ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾ ولا خلاف في تحريم تلقيب الإنسان بما يكرهه سواء كان فيه أو لمن يكن ، وأما إذا عرف بذلك ، واشتهر به كالأعمش والاشتر والأصم والأعرج . فقد اطرده استعماله على ألسنة أهل العلم قديماً وحديثاً ، وسهل فيه الإمام أحمد .

قال أبو داود في مسائله . سمعت أحمد بن حنبل سئل عن الرجل يكون له اللقب . لا يعرف إلا به ، ولا يكرهه . قال أليس يقال سليمان الأعمش ، وحמיד الطويل . كأنه لا يرى به بأساً ، وأما أن لا يفهم مدحاً ، ولا ذمّاً ، فإن صدر بأب وأم فهو الكنية ، كأبي فلان ، وأم فلان ، وإن لم يصدر بذلك فهو الاسم . كزيد وعمرو ، وهذا هو الذي كانت تعرفه العرب ، وعليه مدار مخاطبتهم .. » .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ .

قال صاحب التفسير الواضح : هذا القسم مشتمل على ثلاثة أمراض : ١ — الظن ، السئ ، ٢ — تتبع عورة أخيك ، ٣ — إشاعة عورته بين الناس بالغيبة . وتلك صفات لعمرى تتنافى مع الإيمان الصحيح ولا يصح أن تكون في المؤمنين ، ولذا صدر الكلام بالنداء بوصف الإيمان فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، وقد أخذ في هذا القسم بالتدرج الطبيعي ، فإن أول بوادر الشر أن يخطر ببالك ظن سئ ، وتأويل غير مقبول لفعل أخيك ، فتأخذ في تأكيد هذا الخاطر وتثيته بتتبع حركاته واستقصاء أعماله ، لتبنى من ذلك كله عقائد يعلم الله أنها على أسس من الوهم والظن السئ ، وربما فعلها أخوك من غير قصد ، ولو كان قلبك سليماً من سوء الظن لما فهمت هذا ، ثم يأتي بعد هذا التجسس دور الغيبة وإذاعة السوء محبة أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين وهو دور التقاطع والتدابير والتباغض وربما تفاقم الشر حتى يصل إلى أعلاه ، وقد كان السبب أوهاماً وخیالات لا أساس لها .

وقوله تعالى : ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ ، وهذا أعلى أسلوب وأدقه حيث قال : اجتنبوا كثيراً من الظن ، فإن من الظن ما هو مطلوب كالاكتياط في دفع الأذى عن النفس والمال .

قال القرطبي : للظن حالتان : حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن ، كالقياس . وخبر الواحد وغير ذلك من قيم المتلفات وأروش الجنايات . والحالة الثانية — أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده ، فهذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنه عنه على ما قررنا آنفاً .

ولا يحرم سوء الظن إلا ممن شوهد منه السر والصلاح ، وأونست منه الأمانة أما من يجاهر بالفجور كمن يدخل إلى الحانات أو يصاحب الغواني الفواجر فلا يحرم سوء الظن به .

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ — أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها من الخير محملاً ، ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن إلا نفسه ،

ومن كنتم سره كانت الخيرة في يده ، وما كافأت من عصي الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك بإخوان الصدق فكن في اكتسابهم ، فإنهم زينة في الرخاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، ولا تتهاون بالحلف فيهنك الله تعالى ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ولا تضع حديثك إلا عند من تشتهيه ، وعليك بالصدق وإن قتلك ، واعتزل عدوك ، وأحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله ، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب .

ثم علل — سبحانه — الأمر باجتناب كثير من الظن بقوله تعالى : ﴿ **إِنْ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾ أى : إن ظن المؤمن الشر أثم ، لأن الله قد نهاه عنه ففعله إثم .

قال ابن عباس في الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءا .. ثم لما أمرهم — سبحانه — باجتناب كثير من الظن نهاهم عن التجسس فقال ﴿ **وَلَا تَجَسَّسُوا** ﴾ أى : ولا يتبع بعضهم عورة بعض ولا يبحث عن سرائره يتغنى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمون من الخفايا .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ — قال : « **إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ** ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » ^(١) .

﴿ **التجسس** ﴾ : البحث عما يكتُم عنك ، ﴿ **والتحسس** ﴾ : طلب الأخبار ، والبحث عنها ، ﴿ **والتناجش** ﴾ : البيع على بيع غيرك ، ﴿ **والتدابير** ﴾ : الهجر والقطيعة .

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : قال رسول الله — ﷺ — : « **يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بَلْسَانَهُ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانَ قَلْبَهُ ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ، فَإِنْ مِنْكُمْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي عُقْرِ بَيْتِهِ** » ^(٢) .

وعن زيد بن وهب قال : أتى ابن مسعود ف قيل : هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء ونأخذ به .

وقوله تعالى : ﴿ **وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا** ﴾ نهى — عز وجل — عن الغيبة وهي أن تذكر الرجل بما فيه ، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان . ثبت معناه في صحيح مسلم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ — قال : « **أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ** » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال :

(١) الحديث في صحيح البخارى ج ٨ ص ٢٣ كتاب الأدب (باب ما ينهى عن التحاور والتدابير) ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .
— وفي سنن الترمذى ، البر والصلة — باب في الحسد عن أنس ج ٣ ص ٢٢١ رقم ٢٠٠٠ وفي صحيح مسلم : كتاب البر والصلة (باب تحريم الظن والتحسس والتنافس .. ونحوها ج ٤ ص ١٩٨٥) ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .
(٢) الحديث : في سنن أنس بن مالك كتاب الأدب — باب في الغيبة ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٤٨٨٠ ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .

« ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته »^(١) يقال : اغتابه اغتاباً إذا وقع فيه ، والأسم الغيبة ، وهي ذكر العيب بظهر الغيب .

وعن شعبة قال : قال لي معاوية بن قرة : لو مرَّ بك رجل أقطع فقلت : هذا أقطع كان غيبة . قال شعبة : فذكرته لأبي اسحاق فقال صدق .

وقوله تعالى : ﴿ أَيْحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

قال القرطبي : مثل الله الغيبة بأكل الميتة ، لأن الميت لا يعلم يأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه .

وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة ، لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس .

وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حياً . واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية ، قال — ﷺ — : « ما صام من ظل يأكل لحوم الناس »^(٢) فشبه الواقعة في الناس بأكل لحومهم . فمن تنقص مسلماً . أو ثلم عرضه فهو كالأكل لحمه حياً ، ومن اغتابه فهو كالأكل لحمه ميتاً .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله — ﷺ — « لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم »^(٣) أخرجه أبو داود .

وقال عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — : إياكم وذكر الناس فإنه داء وعليكم بذكر الله فإنه شفاء .

وسمع علي بن الحسين — رضي الله عنهما — رجلاً يغتاب آخر ، فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ قال مجاهد : فكرهتم أكل الميتة فأكروها غيبة الناس ، وقال الغراء معناه : أي : فقد كرهتموه فلا تفعلوه .

(١) الحديث في سنن أبي داود كتاب الأدب ج ٥ ص ١٩٢ باب في القية ورد عن أبي هريرة .

وفي صحيح مسلم : (كتاب البر والصلة) باب تحريم الغيبة ج ٤ ص ٢٠٠١ رقم ٢٥١٩ / ٧٠ ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة .

(٢) الحديث في تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٣٦ (تفسير سورة الحجرات)

(٣) الحديث في سنن أبي داود (كتاب الأدب) باب في الغيبة ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٤٨٧٨ ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .

وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه وراقبوه واخشوه . ﴿ إن الله ثواب رحيم ﴾
 أى : إن الله يتوب على من تاب إليه عما فرط منه من الذنب ، رحيم به إن يعذبه بعد توبته .
 ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يُقلع عنها ويندم على ما فرط منه ،
 ويعزم عزماً مؤكداً على ألا يعود إلى مثل ما فرط منه .

بحث في الغيبة

قال صاحب كتاب « مختصر منهاج القاصدين » وهو يحدثنا عن آفات اللسان : الكلام فيما لا يعنى ،
 والخوض فى الباطل ، والتفعر فى الكلام ، والفحش والسب والبذاء ، والمزاح ، والسخرية والاستهزاء
 وافشاء السر واخلاف الوعد والكذب ثم قال :

الآفة الثامنة : الغيبة ، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهى عنها وشبه صاحبها بآكل الميتة .
 وفى الحديث « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام »^(١) .
 وعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ — « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل
 الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن
 تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته »^(٢) .
 وقال على بن الحسين — رضى الله عنهما — : إياك والغيبة ، فإنها ادم كلاب الناس .
 والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة .

معنى الغيبة :

ومعنى الغيبة : أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه ، سواء كان نقصاً فى بدنه ، كالعمش ،
 والعمور ، والحول ، والقرع ، والطول ، والقصر ونحو ذلك .
 أو فى نسبه ، كقولك : أبوه نبطى ، أو هندى ، أو فاسق ، أو خسيس ونحو ذلك .
 أو فى خلقه كقولك هو سىء الخلق ، بخيل ، متكبر ونحو ذلك . أو فى ثوبه كقولك : هو طويل
 الذيل ، واسع الكم ، وسخ الثياب .

(١) الحديث فى صحيح البخارى (كتاب بدء الوحي) باب قول النبى ﷺ — ج ١ ص ٢٦

وانظر صحيح مسلم كتاب القسامة ج ٣ ص ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ رقم ١٦٧٩ / ٢٩ .

(٢) الحديث فى سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب فى القبيية ج ٥ ص ١٩٤ حديث رقم ٤٨٨٠ ورد الحديث بلفظه عن أبى برزة
 الأشلمى .

— وانظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الامام الترمذى ج ٦ ص ١٨٠ حديث رقم ٢١٠١ ورد الحديث بلفظه .

— وفى سنن الترمذى (كتاب البر والصلة) ج ٣ ص ٢٥٥ رقم ٢١٠١ (باب ما جاء فى تعظيم المؤمن) عن ابن عمر وقال ابو
 عيسى هذا حديث غريب لا لفرقة إلا من حديث الحسين بن واقد .

والدليل على ذلك ، أن النبي — ﷺ — سئل عن الغيبة قال : « ذكرتك أخاك بما يكره » قال : أرأيت إن كان في أخى ما أقول يا رسول الله ؟ قال : « إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »^(١) .

وأعلم : أن كل ما يفهم منه مقصود الذم ، فهو داخل في الغيبة سواء كان بكلام أو بغيره ، كالغمز ، والإشارة والكتابة بالقلم فإن القلم أحد اللسانين .

أقبح أنواع الغيبة

وأقبح أنواع الغيبة ، غيبة المتزهدين المرائين ، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، والتبذل فى طلب الحطام ، أو يقولون : نعوذ بالله من قلة الحياء ، أو نسأل الله العافية ، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم . وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان : ذاك المسكين قد بلى بأفة عظيمة ، تاب الله علينا وعليه ، فهو يظهر الدعاء ويخفى قصده .

تحريم سماع الغيبة

واعلم : أن المستمع للغيبة شريك فيها ، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه ، فإن خاف منقلبه وإن قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، لزمه ذلك . قال تعالى : فى وصف المؤمنين (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه)^(٢) . وقال تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾^(٣) . وقال تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وأما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾^(٤) . وعن أبى الدرداء — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال : « من رد عن عرض أخيه ، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة »^(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

(١) انظر سنن الترمذى (كتاب البر والصلة) باب ما جاء فى القيبة ج ٣ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ رقم ١٩٩٩ قال ابو عيسى : هذا حديث حسن .

— وفى سنن أبى داود (كتاب الأدب) ج ٥ ص ١٩٢ باب ما جاء فى القيبة ورد عن أبى هريرة .

(٢) سورة القصص من الآية ٥٥

(٣) سورة الاسراء من الآية ٣٦

(٤) سورة الأنعام الآية ٦٨

(٥) الحديث فى سنن الترمذى (كتاب البر والسر) باب ما جاء فى الذب عن المسلم ج ٣ ص ٢١٩ رقم ١٩٩٦ عن أبى الدرداء وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وعن عتبان بن مالك — رضى الله عنه — فى حديثه الطويل المشهور قال : قام النبى — ﷺ — يصلى فقال « أين مالك بن الدخشنى ؟ » فقال رجل : ذلك منافق لا يحب الله ولا رسوله فقال النبى — ﷺ — : « لا تقل ذلك ، ألا تراه قد قال : لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله ! وإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله »^(١) متفق عليه .

ورأى عمر بن عتبة مولاة مع رجل وهو يقع فى آخر فقال له : ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا ، كما تنزه نفسك عن القول به ، فالمستمع شريك القائل ، إنما نظر إلى شر ما فى وعائه ، فأفرغه فى وعائك ، ولو ردت كلمة سفيه فى فيه لسعد بها رادها كما شقى بها قائلها .

فى بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها

أما الأسباب التى تبعث على الغيبة فكثيرة .

منها : تشفى الغيظ ، بأن يجرى من إنسان فى حق آخر سبب يوجب غيظه ، فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه .

السبب الثانى : من البواعث على الغيبة : موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون فى الأعراض ، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه ، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة .

الثالث : إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره ، فيقول : فلان جاهل وفهمه ركيك ، ونحو ذلك ، غرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه .

وكذلك الحسد فى ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم ، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك .

الرابع : اللعب والهزل ، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا .

علاج الغيبة

وأما علاج الغيبة ، فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله ومقتة ، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه ، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة .

(١) الحديث فى كتاب اللؤلؤ والمرجان (كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها) باب الرخصة فى التخلف على الجماعة ج ١ ص ١٢٩ ، ١٣٠ رقم ٣٨٤ حديث عتبان بن مالك .

وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه ، ويشغل بإصلاحها ، ويستحي أن يعيب وهو معيب ، كما قال بعضهم :

إن عبت قوماً بالذى فيك مثله فكيف يعيب الناس من هو أعور
وإن عبت قوماً بالذى ليس فيهم فذلك عند الله والناس أكبر
وعن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ، وفقهه في الدين ، وبصره عيوبه .
وإن ظن أنه سليم من العيوب ، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب
وهو الغيبة ، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له ، فينبغي أن لا يرضاها لغيره من نفسه .
فلينظر في السبب الباعث على الغيبة ، فيجتهد على قطعه ، فإن علاج الصلة يكون بقطع سببها .

فصل في حصول الغيبة بسوء الظن

وقد تحصل الغيبة بالقلب ، وذلك سوء الظن بالمسلمين .
والظن : ما تركز إليه النفس ويميل إليه القلب ، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً ، إلا إذا انكشف
أمراً لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل ، فمال قلبك إلى تصديقه ، كنت معذوراً لأنك لو كذبت
كنت قد أسأت الظن بالخبر ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر ، بل ينبغي أن تبحث ،
هل بينهما عداوة وحسد ؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك ، ومن خطر لك خاطر سوء على مسلم ،
فينبغي أن تزيد في مراعاته ، وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقي إليك
خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة .
وإذا تحققت هفوة مسلم ، فانصحه في السر .
واعلم : أن من ثمرات سوء الظن ، التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، بل يطلب التحقيق فيشتغل
بالتجسس ، وذلك منهي عنه ، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم ، ولو لم ينكشف لك ، كان قلبك
أسلم للمسلم .

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة وكفارة الغيبة

اعلم : أن المرخص في ذكر مساوئ الغير ، وهو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه
إلا به ، وذلك يدفع إثم الغيبة ، وهو أمور :
أحدها : التظلم ، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفي حقه .
الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر ، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح .

الثالث : الاستفتاء ، مثل أن يقول للمفتي ، ظلمني فلان ، أو أخذ حقى ، فكيف طريقى فى الخلاص ، فالتعيين مباح والأولى التعريض ، وهو أن يقول : ما تقول فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو نحو ذلك ؟

والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت : لرسول الله — ﷺ — : « إن ابا سفيان رجل شحيح » ^(١) ولم ينكر عليها — ﷺ — .

الأمر الرابع : تحذير المسلمين ، مثل أن ترى متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك ، فلك أن تكشف له الحال .

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق ، فتذكر ذلك للمشتري .

وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الأمانة ، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير ، لا على قصد الوقعة إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح .

والدليل أن فاطمة بنت قيس ، — رضى الله عنها — قالت : أتيت النبى — ﷺ — فقلت : إن أباجهم ومعاوية خطبانى ؟ فقال رسول الله — ﷺ — « أما معاوية ، فصعلوك لا مال له ، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه » ^(٢) متفق عليه ومعنى لا يضع العصا عن عاتقه أى : كثير الأسفار .
الخامس : أن يكون معروفاً بقلب ، كالأعرج ، والأعمش ، فلا إثم على من يذكره به ، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق ، ولا يستنكف أن يذكر به .

قيل للحسن : الفاجر المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه مخيبة : قال : لا ، ولا كرامة .

وأما كفارة الغيبة

فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين

إحدهما : على حق الله — تعالى — إذ فعل ما نهاه عنه ، وكفارة ذلك التوبة والندم .

والجناية الثانية : على محارم المخلوق ، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل ، جاء إليه واستملمه ، وأظهر له الندم على فعله .

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٨٦ (كتاب النفقات) باب وعلى الوارث مثل ذلك عن عائشة — رضى الله عنها — وفى صحيح مسلم (كتاب الاقضية) باب قضية هند ج ٣ ص ١٣٣٨ رقم ١٧١٤٠ / ٧ عن عائشة .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم — كتاب الطلاق — باب المطلقة ثلاث لا نفقة لها ج ٢ ص ١١١٤ رقم ١٤٨٠ / ٣٦ .

— وانظر الترمذى أبواب النكاح — باب ما جاء أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ج ٢ ص ٣٠٠ رقم ١١٤٣ حديث فاطمة بنت قيس .

— وانظر سنن أبى داود (كتاب الطلاق) باب فى عفة المبتوتة ج ٢ ص ٧١٢ رقم ٢٢٨٤ .

— وانظر سنن النسائى — كتاب النكاح — باب إذا استشارت المرأة رجلاً فيمن يخطبها هل يخبرها بما يعلم ج ٦ ص ٧٥ ، ٧٦ .

وقد روى أبو هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — أنه قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه ، من مال أو عرض ، فليأتها فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطىها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقى عليه »^(١) .
وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل ، جعل مكان استحلالة الاستغفار له ، لئلا يخبره بما لا يعلمه ، فيوعز صدره .

قال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بخير ، وكذلك إن كان قد مات .
أ . ه .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ .

يقول تعالى : مخبراً للناس أنه — سبحانه — خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء وجعلهم شعوباً وهي أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب آخر كالقصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾^(٢) .

قال ابن كثير : فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء — عليهما السلام — سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية — وهى طاعة الله — تعالى — بعد النهى عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً ، منبهاً على تساويهم فى البشرية : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ أى : ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته .

وقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ أى : إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالاحساب وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله — ﷺ — .

قال البخارى : عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : سئل رسول الله — ﷺ — أى الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم »^(٣) الحديث .

(١) انظر شكل الآثار للطحاوى ج ١ ص ٧٠ باب شكل ما روى عن رسول الله — ﷺ — من أمره من قبله مظلمه لأخيه فى عرض أو فى مال أن يتحلله منها فى الدنيا .

— وانظر تفسير القرطبي (تفسير سورة البقرة الآية ٤٨ ح ١ ص ٣٧٨ عن أبى هريرة .
— وانظر صحيح البخارى (كتاب المظالم) باب من كانت له مظلمة عند الرجل ج ٣ ص ١٧٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ج ٦ ص ٦٢ (فى تفسير سورة يوسف) عن أبى هريرة .

وقال مسلم : عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »^(١) .

وقال ابن أبي حاتم عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : طاف رسول الله — ﷺ — يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده فما وجد لها مناخا في المسجد حتى نزل — ﷺ — على أيدي الرجل فخرج بها إلى بطن المسيل فأنىخت ثم إن — رسول الله ﷺ — خطبهم على راحلته فحمد الله — تعالى — وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : « يا أيها الناس ، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل برّ تقى كريم على الله — تعالى — ورجل فاجر شقى هين على الله ، تعالى ، إن الله — عز وجل — يقول : ﴿ يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ، ثم قال — ﷺ — أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم »^(٢) .

واخرج الطبرى فى كتاب (آداب النفوس) بسنده عن أبى نضرة قال : حدثنى ، أو حدثنا من شهد خطب رسول الله — ﷺ — بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : « يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وأن أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال — ليلغ الشاهد الغائب »^(٣) .

الناس من جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكله	وأعظمُ خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ وما كان يحسنه	وللرجال على الأفعال سيماء
و ضد كل امرئ ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء

وروى الطبرى من حديث أبى هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن أوليائى المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم ظلم المسلم ج ٤ ص ١٩٩٧ رقم ٣٤ / ٢٥٦٤ .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (فى تفسير سورة الحجرات) ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٥ رقم ٣٣٢٤ عن ابن عمر وانظر كنز العمال ج ١ ص ٢٥٨ رقم ١٢٩٦ عن ابن عمر .

(٣) الحديث فى كنز العمال ج ٣ ص ٦٥ رقم ٥٦٥٢ ورد هذا بلفظه وانظر الحديث فى مجمع الزوائد ج ٣ ص ٢٦٦ باب الخطب فى الحج ورد هذا الحديث بلفظه عن أبى نضرة .

محمد فأقول هكذا وهكذا^(١) . وأعرض في كل عطفية . وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله - ﷺ - جهاراً غير سرّ يقول : « إن آل أبي ليسوا لي بأولياء إنما وليّ الله وصالح المؤمنين »^(٢) .

قال القرطبي : وقد جاء منصوباً عنه - عليه السلام - « من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله »^(٣) . والتقوى بمعناها مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً .

ما يصنع العبد بعز الغنى والعز كل العز للمتقى
من عرف الله فلم تغنه معرفة الله فذاك الشقى

روى البخارى عن سهل بن سعد أن النبى - ﷺ - مر عليه رجل فقال : « ما تقولون فى هذا ؟ فقالوا : حرئى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يُسمع . قال : ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : « ما تقولون فى هذا » قالوا : حرى إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع . فقال رسول الله - ﷺ - « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا »^(٤) .

من لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً وإن كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصياً

قوله تعالى : ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ أى : إن الله عليم بكم وبأعمالكم ، خير بباطن أحوالكم فاجعلوا التقوى زادكم لدى معادكم .

(١) الحديث فى أنحاف السادة المتقين ج ٨ ص ٤٢٠ ورد الحديث عن أبى هريرة وفى كنز العمال الحديث من (الديلمى رواية عن معاذ) رقم ٥٦٥٩ باب التقوى من الاكمال .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب موادة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم ج ١ ص ١٩٧ رقم ٣٦٦ / ٢١٥ ورد الحديث بلفظه عن عمرو بن العاص .

(٣) انظر القرطبي ج ١٦ ص ٣٤٥ فى تفسير سورة الحجرات .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٩ (كتاب النكاح) باب الأكفاء فى الدين : عن سهل .

حقيقة الإيمان والإسلام

* قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

معانى المفردات

﴿الأعراب﴾ : سكان البادية . ﴿آمنا﴾ أى : صدقنا بما جئت به من الشرائع وامثلنا ما أمرنا به . ﴿لم تؤمنوا﴾ : لم تصدقوا بقلوبكم . ﴿أسلمنا﴾ : استسلمنا خوفاً وطمعاً . ﴿لا يلتكم﴾ أى لا ينقصكم ، يقال لاته يلتيه إذا نقصه ﴿يمنون عليك﴾ أى : يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنيعة ، وأسدى إليك نعمة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حث — سبحانه — الناس على التقوى — وبخ من فى إيمانه ضعف من الأعراب الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وغلة ، لإنهم كانوا يريدون المغنم وعرض الدنيا .. قال السدى : نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح : أعراب مزينة وجهينة وأسلم وغفار والدليل وأشجع ، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا .

التفسير

قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قال العلامة ابن كثير :

يقول — تعالى — منكرأً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادّعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وقد استفيد من هذه الآية الكريمة : أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل — عليه الصلاة والسلام — حين سأل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم — إلى الأخص — ، ثم للأخص منه . وقال الإمام أحمد عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، — رضى الله عنهما — قال أعطى رسول الله — ﷺ — رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً فقال سعد : — رضى الله تعالى عنهما — يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ، وفلاناً ، ولم تعط فلاناً شيئاً ، وهو مؤمن ؟ فقال : النبي — ﷺ — : أو مسلم — حتى أعادها سعد — رضى الله عنه — ثلاثاً ، والنبي — ﷺ — يقول : أو مسلم ؟ ثم قال النبي — ﷺ — : « إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إلى منهم فلم أعطه شيئاً مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم »^(١) اخرجنا — الصحيحين من حديث الزهري به ، فقد فرق النبي — ﷺ — بين المؤمن والمسلم فدل على : أن الإيمان أخص من الاسلام .. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام ، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه ، فأدبوا في ذلك وهذا معنى قول ابن عباس : — رضى الله عنهما — وإبراهيم النخعي ، وقتادة ، وإختاره ابن جرير ، وإنما قلنا : هذا لأن البخارى — رحمه الله — ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك . وقد روى عن سعيد بن جبیر ، ومجاهد ، وابن زيد أنهم قالوا في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أى : استسلمنا خوف القتل والسبى ، قال مجاهد : نزلت في بنى أسد من خزيمة ، وقال قتادة انزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله — ﷺ — والصحيح الأول : أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعد ، فأدبوا

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ، ص ١٧٦ عن سعد بن أبي وقاص عن أبيه .
 — وفي صحيح البخارى ج ١ ص ١٣ (كتاب الإيمان) باب إذا لم يكن الاسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل عن سعد بن أبي وقاص .
 — وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٢٣ (كتاب الإيمان) رقم الحديث ٢٣٦ / ١٥٠ باب تألف قلب من يخاف الله على إيمانه نصعه .
 — وفي سنن النسائي ج ١ ص ١٠٣ عن الزهري (كتاب الإيمان وشرائعه) .

وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا ، كما ذكر المنافقين في سورة براءة ، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً : ﴿ قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ ، أى : لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد ، ثم قال : ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ﴾ أى : لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله عز وجل : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ الله غفور رحيم ﴾ أى : لمن تاب إليه وأناب .

وقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ .

أى : إنما المؤمنون حق الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ، ثم لم يشكوا ولم يتزلزوا ، بل ثبتوا على حال واحدة ، وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه — أولئك هم الصادقون في قولهم : آمنا ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة ، وقد دخلوا الملة خوفاً من السيف ، ليحققوا دماءهم ويحفظوا أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم ﴾ ، ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم ﴾ ؟ أى : قل لهم : أتخبرون الله بما في ضمائركم ، وما تنطوى عليه جوارحكم من صادق الإيمان بقولكم : آمنا حقاً . ﴿ والله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ فلا يخفى عليه مثقال ذرة فيها كقوله تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ ^(١) ، وكقوله تعالى : ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾ ^(٢) ، قوله تعالى : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم فتتالكم عقوبته ، إذ لا يخفى عليه شيء . قوله تعالى : ﴿ يمينون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ ، يعنى — سبحانه — للأعراب الذين يمينون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم ، على الرسول — ﷺ — يقول الله — تعالى — رداً عليهم : ﴿ قل لا تمنوا على إسلامكم ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، والله المنة عليكم فيه ، ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ أى : في دعواكم ذلك .

(١) سورة يونس الآية ٦١

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٥

فالله — سبحانه وتعالى — لم يخلقنا ليستكثر بنا من قلة أو ليستأنس بنا من وحشة ولكنه — سبحانه — خلقنا بمحض جوده وكرمه وبمحض فضله ومنته .

يقول — تعالى — في الحديث القدسي : « يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم . وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »^(١) ، فليو أن الخلق كلهم أطاعوه كطاعة أتقى رجل متهم وبادروا إلى أوامره ونواهيه ولم يخالفوه لم يتكثر — سبحانه وتعالى — بذلك ولا يكون ذلك زيادة فى ملكه ، وطاعتهم إنما حصلت بتوفيقه ، وإعانتة ، وبفضله ، ومنته ، وطاعتهم نعمة منه عليهم ، ولو أنهم كلهم عصوه كعصية أفجر رجل ، وخالفوا أمره ونهيه لم يضره ذلك ، ولم ينقص ذلك من كمال ملكه شيئاً ، فإنه لو شاء أهلكتهم ، وخلق غيرهم فسبحان من لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية الغنى الحميد قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ أى : إن الله يعلم ما غاب فيهما وهو بصير سرهم وعلايتكم لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾^(٣)

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة) باب تحريم الظلم ج ٤ ص ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ رقم ٥٥ / ٢٥٧٧ عن أبى دُرٍّ من حديثه الطويل بقوله : يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى .. الخ .

(٢) سورة (فاطر) الآيتان ١٥ ، ١٧ .

(٣) سورة الحشر الآيات ٢٢ — ٢٤

تفسير سورة (ق)

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق .

عدد آياتها : خمس وأربعون

وكلماتها : ثلاثمائة وخمس وسبعون

وحروفها : ألف وأربعمائة وأربع وسبعون

مجموع فواصل آياتها : (صر جد ظب)

سميت بـ (ق) لافتتاحها بها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : إثبات النبوة للرسول — ﷺ — وبيان حجة التوحيد ، والاخبار عن إهلاك القرون الماضية وعلم الحق — تعالى — بضمائر الخلق وسرائرهم ، وذكر الملائكة الموكلين على الخلق ، المشرفين على أقوالهم ، وذكر بعث القيامة ، وذل العاصين يومئذ ، ومناظرة المنكرين بعضهم بعضاً في ذلك اليوم ، وتغيُّظ الجحيم على أهله ، وتشرف الجنة بأهلها ، والخبر عن تخلق السماء والأرض ، وذكر نداء إسرافيل بنفخة الصور ، ووعظ الرسول — ﷺ — الخلق بالقرآن المجيد في قوله : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ وقال قرينه ﴾ وبعده : ﴿ قال قرينه ﴾ لأن الأول خطاب الإنسان من قرينه ومتصل بكلامه ، والثاني استئناف خطاب الله — سبحانه — من غير اتصاله بالمخاطب الأول وهو قوله : ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ ، وكذلك الجواب بغير واو ، وهو قوله : ﴿ لا تختصموا لدي ﴾ وكذلك ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ فجاء الكل على نسق واحد .

قوله : ﴿ قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ وفي طه ﴿ وقبل غروبها ﴾ لأن في هذه السورة : راعى الفواصل ، وفي طه ، راعى القياس ، لأن الغروب للشمس ، كما أن الطلوع لها . أ هـ .

مناسبتها لما قبلها :

أنه أشار في آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيماناً حقاً ، وذلك يقتضى الشك في البعث ، وافتتح السورة بما يتعلق بذلك .

فضل السورة

حديث مسلم ، وغيره عن جابر بن سمرة أنه عليه — الصلاة والسلام — كان يقرأ هذه السورة في الركعة الأولى من صلاة الفجر .

واخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي واقد الليثي « إنه — ﷺ — كان يقرأ في العيد بقاف ، واقتربت »^(١) .

واخرج أبو داود والبيهقي وابن ماجه عن أم هشام ابنة حارثة قالت : « ما أخذت ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ إلا من في رسول الله — ﷺ — « كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس »^(٢) .

وكل ذلك دليل على أنه — ﷺ — كان يقرأ بها في المسامع الكبيرة كالعيدين ، والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب . فهذه السورة رهيبة ، شديدة الوقع على الحس ، تهز القلب هزاً وترج النفس رجاً ، وتثير فيها روعة الإعجاب ، ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب .

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢١٧ ، ٢١٨ حديث أبي واقد الليثي — رضى الله عنه —
 (٢) وانظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٤٦٥ ، ٤٣٦ في أحاديث أم هشام من حارثة بن الفهمان — رضى الله عنه —
 — وانظر صحيح مسلم (كتاب الجمعة) ج ٢ ص ٥٩٥ باب تخفيف الصلاة والخطبة رقم الحديث ٨٧٢ / ٥٠ .
 — وفي سنن أبي داود ج ١ ص ٦٦١ (كتاب الصلاة) باب الرجل بخطب على قوس رقم الحديث ١١٠٢ .
 وحديث رقم ١١٠٠ أيضا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنَ إِذَا الْمَجِيدُ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ إِذَا
 مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا
 بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا
 مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى
 لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ
 لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رَزَقْنَا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
 وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ
 وَعِيدُ ﴿١٤﴾ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

معانى المفردات

﴿ المجيد ﴾ من المجد وهو كما قال الراغب : السعة فى الكرم ، وصف به القرآن لكثرة ما تضمنه من المكارم الدنيوية والآخروية . ﴿ رجع بعيد ﴾ أى : بعث بعد الموت بعيد عن الأذهان . ﴿ ما تنقص الأرض ﴾ أى : ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم . ﴿ حفيظ ﴾ أى : حافظ لتفاصيل الأشياء كلها . ﴿ بالحق ﴾ أى : بالنبوة الثابتة بالمعجزات . ﴿ مريج ﴾ أى : مضطرب . ﴿ بنيناها ﴾ أى : أحكمنا بناءها ، فجعلناها بغير عمد ، ﴿ وزيناها ﴾ أى : بالكواكب ، ﴿ فروج ﴾ أى : شقوق ، ﴿ مددناها ﴾ أى : بسطناها ، ﴿ رواسي ﴾ أى : جبالا ثوابت تمنعها من الميّد والاضطراب ، ﴿ زوج ﴾ صنف ، ﴿ بهيج ﴾ أى : ذى بهجة وحسن ، ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ أى : تبصيراً وتذكيراً ، ﴿ منيب ﴾ من أناب إذا رجع وخضع ، ﴿ حب الحصيد ﴾ أى : حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالبر والشعير ، ﴿ باسقات ﴾ أى : طويلات ، والطلع ما ينمو ويصير بلحاً ثم رطباً ثم تمراً ، ﴿ نضيد ﴾ أى : منضود بعضه فوق بعض ، ﴿ الخروج ﴾ أى : من القبور ، ﴿ الرس ﴾ البئر التى لم تطو أى : لم تبني وأصحابه هم من بعث إليهم شعيب — عليه الصلاة والسلام — ، ﴿ والأيكه ﴾ الغيضة الملتفة الشجر ، ﴿ تبع ﴾ هو تبع الحميرى ، ﴿ أفعينا ﴾ العى عن الأمر : العجز عنه ﴿ لبس ﴾ أى : شك شديد وحيرة واختلاط .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ق . والقرآن المجيد ﴾

﴿ ق ﴾ أحد حروف الهجاء وفي القرآن الكريم سور افتتحت بمثل هذا الحرف فقد تفتح السورة بحرف واحد مثل ﴿ ص ﴾ و ﴿ ق ﴾ و ﴿ ن ﴾ وقد تفتح بحرفين مثل ﴿ حم ﴾ ، ﴿ طه ﴾ وقد تفتح بثلاثة أحرف مثل ﴿ الم ﴾ ﴿ الر ﴾ ﴿ طسم ﴾ ، وقد تفتح بأربعة أحرف مثل ﴿ المر ﴾ وقد تفتح بخمسة أحرف مثل ﴿ كهيعص ﴾ و ﴿ حم عسق ﴾ .

ونحن إذا حذفنا المكرر من تلك الحروف أعطتنا جملة تقول ﴿ نص حكيم ، قاطع ، له سر ﴾ . وقد شاءت حكمة الله — تعالى — أن يتحدى أساطين الفكر وأرباب البلاغة وعباقره الكلمة ، وجهابذة البيان ، بهذا الكتاب الكريم ، وفي هذه الحروف الهجائية التي افتتح الله — تعالى — بها بعض السور فيها إشارة إلى هذا الإعجاز ، فهذا كتاب عربى مبين ، نزل على نبي عربى وهو بشر ، فإن كنتم تكذبونه فما جاء به فقد بعث بمعجزة خالدة دائمة هي :

القرآن الكريم : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾^(١) فأنتم عرب تتكلمون

بلغة هذا الكتاب ، فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله فأتوا بعشر سور وإلا فأتوا بسورة ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾^(٢) . والنتيجة : أنهم عجزوا عجزاً تاماً فلزمتهم الحجة ، ﴿ فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾^(٣) .

ولمكانة هذا الكتاب المعجز ، وعلوا منزلته ، ورفعة طبقته ، أقسم عليه وهو جواب القسم (البعث حق) كما يستفاد ذلك من سياق الآيات في قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ أنذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ﴾ فكأنه — تعالى — يقول لهم : أقسم بهذا الكتاب المعجز « لتبعثن » فإعجازى فى كلمتى كإعجازى فى خلقى فكل شئ عندى بالكاف والنون ، فإذا كان القرآن كوناً ناطقاً فإن القرآن كون صامت ، وإذا كان ذلك كذلك محمد — ﷺ — قرآن ، يمشى بين الناس وإعجازى فى كلماتى التنزيلية كإعجازى فى كلماتى التكوينية ، فالتنزيل نور ، والتكوين نور وكلاهما نور على نور ، ﴿ يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم ﴾^(٤) وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴿^(٥) .

(٤) سورة النور الآية : ٣٥

(٥) سورة العنكبوت الآية ٤٣

(١) سورة الطور الآية ٣٤

(٢) سورة البقرة الآية ٢٤

(٣) سورة هود الآية ١٤

قوله تعالى : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ .
 أى : تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾^(١) ، وكقوله تعالى : ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم .. ﴾^(٢) . أى : وليس هذا بعجيب فإن الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ثم قال — عز وجل — مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجوع بعيد ﴾ أى : يقولون : أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً كيف : يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ (ذلك رجوع بعيد) أى : بعيد الوقوع . منهم يعتقدون استحالة وعدم امكانه . قال الله تعالى : راداً عليهم :

﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ أى : قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسادهم في البلى نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ أى : حافظ لذلك فالعلم شامل ، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة . كقوله تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر ﴾^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ﴾ أى : وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال : بعد ذلك فهو باطل ﴿ فهم في أمر مريج ﴾ أى : مضطرب كقوله تعالى : ﴿ إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك ﴾^(٤) .

قوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

يقول — تعالى — منبهاً للعباد على قدرته العظيمة ، التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾ بالمصاييح ﴿ وما لها من فروج ﴾ قال مجاهد : يعنى : من شقوق كقوله تعالى : ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿^(٥) أى : كليل عن أن يرى عيباً ، أو نقصاً .

(١) سورة يونس الآية ٢

(٢) سورة الاعراف الآية ٦٣

(٣) سورة القمر الآيات ٥٢ ، ٥٣

(٤) سورة الذاريات الآيات ٨ ، ٩

(٥) سورة الملك الآيات ٣ ، ٤

وقوله تعالى : ﴿ والأرض مددناها ﴾ أى : وسعناها وفرشناها ، ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ وهى : الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ أى : من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ، كقوله تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ بهيج ﴾ أى : حسن المنظر ، قال تعالى : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ أى : ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة ، تبصرة ودلالة ، وذكرى لكل عبد منيب ، أى : خاضع خائف ، وجل رجاء إلى الله — عز وجل — كقوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزينه وما للظالمين من أنصار ، ربنا إنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفرنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾^(٣) .

من آيات الله الكونية

يقول العلامة ابن القيم : تأمل العبرة فى وضع العالم وتأليف أجزائه ، ونظمها على أحسن نظام ، وأدله على كمال قدرة خالقه ، وكمال حكمته ، وكمال لطفه ، فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع آلاته ، ومصالحه ، وكل ما يحتاج إليه ، فالسماء مسقفة المرفوع عليه والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه ، والنجوم مصابيح له وزينة ، وأدلة للمنتقل فى طرق هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونة فيه ، كالذخائر والحواصل المعدة للمهيئة كل شيء منها لشأنه ، الذى يصلح له وضروب النبات مهيئة لما ربه وصنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والأمتعة ، والآلات ، ومنها الحرس الذى وكل بحرس الإنسان يحرسه ، وهو نائم ، وقاعد مما هو مستعد لا هلاكه وأذاه فلولا ما سلط عليه من ضده لم

(١) سورة الذاريات الآية ٤٩

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٩

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩٤

يقر للإنسان قرار بينهم ، وجعل الإنسان كالمملك المخول في ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ، ففي هذا : أعظم دلالة ، وأوضحها على أن العالم مخلوق خالق حكيم قدير عليم ، قدره أحسن تقدير ، ونظمه أحسن نظام ، وإن الخالق يستحيل أن يكون اثنين ، بل الإله واحد لا إله إلا هو — تعالى — عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، وأنه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما ، واختل نظامهما ، وتعطلت مصالحهما ، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدير له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع إمكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال في أوائل العقول ، وبداية الفطر فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا — ف سبحانه الله — رب العرش عما يصفون ، ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾^(١) .

— فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها ، وارتفاعها ، وسعتها ، وقرارها ، بحيث لا تصعد علواً كالنار ، ولا تهبط نازلة كالأجسام . الثقيلة ، ولا عمد تحتها ، ولا علاقة فوقها ، بل هي : ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ، ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ، ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان ، وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى أن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد ، وقال الأطباء إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى أجانة خضراء مملوءة ماء . فتأمل كيف جعل اديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكسأ فيها بطول مباشرتها له . هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك .

— وتأمل الحكمة البعيدة في تيسيره — سبحانه — على عباده ما هم أحوج إليه وتوسيعه وبذله ، فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع ، وكلما استغنوا عنه كان أقل ، وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده ، فلم يكن بالعام ولا بالغادر على مراتب الحاجات ، وتفاوتها فاعتبر هذا بالأصول الأربعة التراب والماء والهواء والنار ، وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق في البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده في أقطار العالم لا ختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد فتأمل حكمة ربك في أن سخر له الريح فإذا تصاعد إلى الجو أحالته سحاباً ، أو ضباباً فأذهبت عن العالم شره واذاه فسل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير ، وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك ويقلبوه سحاباً ، أو ضباباً ، أو يذهبوه عن الناس ، ويكشفوه عنهم ولو شاء

ربه — تعالى — لحبس عنه الرياح فاجتئق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .
 — ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ولولا ذلك لضاقت عن مساكن الإنس والحيوان ، وعن مزارعهم ،
 ومراعيتهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم ، فإن قلت : فما حكمة هذه القفار الخالية ، والفلوات الفارغة
 الموحشة ، فاعلم أن فيها معاش لا يحصيه إلا الله من الوحوش والدواب ، وعليها أرزاقهم ، وفيها مطردهم
 ومنزلهم كالمدين والمساكن للإنس ، وفيها مجاهم ومرعاهم ومصيفهم وشتاهم ، ثم فيها بعد متسع ومتنفس
 للناس ، ومضطرب إذا احتاجوا إلى الانتقال ، والبدو والاستبدال بالأوطان ، فكم من بيداء سماق صارت
 قصورا وجنانا ، ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها ، لكان أهلها كالحصوريين والمحبوسين . في أماكنهم
 لا يجدون عنها إنتقالا إذا فدحهم ما يزعجهم عنها ، ويضطربهم إلى النقلة منها ، وكذلك الماء لولا كثرتة ،
 وتدفقه في الأودية والأنهار ، لضاق عن حاجة الناس إليه ، ولغلب القوى الضعيف ، واستبد به دونه
 فيحصل الضرر ، وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان إليه من الطير والوحوش والسباع ، فاقتضت
 الحكمة ، إن كان بهذه الكثرة والسعة ، في كل وقت ، وأما النار فقد تقدم أن الحكمة : اقتضت كمونها
 متى شاء العبد ، أوراها عند الحاجة ، فهي وإن لم تكن ماثوثة في كل مكان فإنها عتيدة حاصلة ، متى
 احتيج إليها واسعة لكل ما يحتاج إليه منها غير أنها مودعة في أجسام جعلت معادن لها ، فإنها لو كانت
 ظاهرة أبداً كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لاتظهر
 أبداً لفات المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم إن جعلها مخزنة في الأجسام يخرجها
 ويقيها الرجل عند حاجته إليها .. »

— ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها ، وفيها
 من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها .. فمن منافعها : أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قلالها حاصلا
 لشراب الناس ، إلى حين نفاذه ، وجعل فيها ليزوب أولاً فأولاً فتجىء منه السيول الغريرة ، وتسيل
 منه الأنهار والأودية فينبت في المروج ، والوهاد والرُّبَا ضروب النبات ، والفواكه والأدوية ، التي لا يكون
 مثلها في السهل والرمل ، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فأنحل جملة ، وساح دفعة فعدم
 وقت الحاجة إليه ، وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت عليه فيضر بالناس ضررا لا يمكن
 تلافيه ولا دفعه لأذيته . (ومن منافعها) ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف ، والمعازل
 التي بمنزلة الحصون والقلاع ، وهي أيضا : أكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من أحجارها
 للأبنية على اختلاف أصنافها ، والإرصية وغيرها . ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف
 أصنافها من الذهب والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، والزبرجد ، والزمرد وأضعاف ذلك
 من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى : أن فيها ما يكون الشيء اليسير
 منه تزيد قيمته ، ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة ، وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها
 ومبدعها — سبحانه — (ومن منافعها) أيضا : أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حداثها فلا تدعها تصدم

ما تحتها ولهذا : فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية . (ومن منافعها) أيضا : أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول في بحارها ما مرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن ، (ومن منافعها) أنها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاما فقال : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾^(١) فالجوارى : السفن وأعلام الجبال ، وأحدها علم .. فسمى الجبل علماً من العلامة والظهور . (ومن منافعها) أيضا : ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول ، والرمال ، كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم . (ومن منافعها) أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير القلاع والمدن ، (ومن منافعها) ما ذكره الله — تعالى — في كتابه أن جعلها للأرض أوتاداً تنبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن أعظم بها من منفعة ، وحكمة هذا وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها ، والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ، ولو بسطت على وجه الأرض لضيق عليهم المزارع والمساكن ، ولملأت السهل ، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن ، والمغارات والأكنان ، ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الإنتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة ، هذا الشكل الذي نصبت عليه ، ولقد دعانا الله — سبحانه وتعالى — في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها فقال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾^(٢) فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها ، وفاطرها ، وعلمه ، وحكمته ، ووحدانيته هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له ، وتسجد ، وتشقق ، وتهبط من خشيته . ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾^(٣) . أهـ

قوله تعالى : ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

أى : ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع ، إذ أنبتنا به جنات غناء ، وحدائق فيحاء ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالشعير والقمح وغيرهما ، وأنبتنا به النخل الطوال التى لها طلع منضود متراكم بعضه فوق بعض ، لأقوات العباد وأرزاقهم .

(١) سورة الشورى الآية ٣٢

(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧ — ٢٠

(٣) سورة لقمان الآية رقم ١١

وقوله — تعالى — : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أى : وأحيينا بذلك الماء الأرض المجدبة التى لا نبات فيها فتربو وتنبت من كل زوج بهيج ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أى : ومثل هذه الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور ، وفى التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالاحياء ، وعن احياء الموتى بالخروج تضخيم لشأن الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، وتحقيق للمماثلة ، بين إخراج النبات ، وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس ، وتقريبه لأفهام الناس ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾^(١) ، وكقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَخَي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢) ، وكقوله تعالى : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَخَي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٣) .

يقول العلامة ابن القيم فى كتابه « مفتاح دار السعادة » :

ثم تأمل الحكمة البالغة فى نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها ، وتلوها ، وظرابها ، وآكامها ، ومنخفضها ، ومرتفعها ، ولو كان ربها تعالى : إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أقى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع فى السفلى وكثر وفى ذلك فساد ، فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشئ — سبحانه — السحاب ، وهى روايا الأرض ثم : يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر ، وتلقحها به كما يلحق الفحل الأنثى ، ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار ، وإذا بعدت من البحر قل مطرها .. ثم تأمل الحكمة البالغة فى إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما أعنى الصحو ، والغيم يعتقان على العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام أحدهما كان فيه فساد فلو توالى الأمطار لأهلك ما على الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب ، والثمار ، وعفنت الزرع ، والخضروات وأرخت الأبدان ، وحشرت الهواء فحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر المآكل ، وتقطعت المسالك ، والسبل ولو دام الصحو لجفت الأبدان ، وغيض الماء ، وانقطع معين العيون والآبار والأنهار ، والأودية ، وعظم الضرر واحتدم الهواء فبيس ما على الأرض وجفت الأبدان ، وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبا من الأمراض عسرة الزوال فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو ، والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر ، وصح الهواء ، ودفع كل واحد منهما عادية الآخر ، واستقام أمر العالم وصلاح .

(١) سورة الحج الآيات ٥ ، ٦ ، ٧

(٢) سورة فصلت الآية ٣٩

(٣) سورة الروم الآية ٥٠

ثم تأمل الحكمة الإلهية في إخراج الأقوات ، والثمار ، والحبوب والفواكه متلاحقة شيئاً بعد شيء ، متتابعة ، ولم يخلقها كلها جملة واحدة فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ، ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي رتبت على تلاحقها وتتابعها ، فإن لكل فصل أوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر ، فهذا حار ، وهذا بارد ، وهذا معتدل ، وكل في فصله موافق المصلحة ، لا يليق به غير ما خلق فيه . ثم إنه — سبحانه — خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع آخر من العصف ، والخشب ، والورق ، والنور ، والسعف ، والكرب وغيرها من منافع النبات ، والشجر غير الأقوات كعلف البهائم وأداة الأبنية ، والسفن والرحال ، والأواني وغيرها ، ومنافع النور من الأدوية ، والمنظر البهيج الذى يشوق الناظرين وحسن مرأى الشجر ، وخلقتها البديعة الشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللفظ . ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهى من نفس ذلك الحطب ، ثم الورق الأخضر ، ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها ، وأشكالها ، ومقاديرها وألوانها وطعومها ، ورائحتها ومنافعها ، وما يراد منها . ثم تأمل أين كانت مستودعة في تلك الخشبة ، وهاتيك العيدان ، وجعلت الشجرة لها كالأم فهل كان في قدرة الأب العاجز الضعيف إبراز هذا التصوير العجيب ، وهذا التقدير المحكم ، وهذه الأصباغ الفائقة ، وهذه الطعوم اللذيذة ، والروائح الطيبة ، وهذه المناظر العجيبة . فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره ، وإبرازه وترتيبه شيئاً فشيئاً ، وسوق الغذاء إليه في تلك العروق اللطاف التي يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجارى الدقاق فمن الذى تولى ذلك كله ، ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح ، وأنزل عليها المطر ، ودفع عنها الآفات وتأمل تقدير اللطيف الخبير فإن الأشجار لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة في الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها ، فتؤديه الأغصان إلى الأوراق والثمر ، كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه في مجارى وطرق قد أحكمت غاية الأحكام فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطى كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيد على قدر حاجته ، فسل الجاحد من أعطى هذا ، ومن هداها إليه ، ووضعها فيها ، فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة أو صناعة ، أو حيلة ، أو مزاولة ؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ؟ ودلت عليه آياته ؟ كما قيل :

فواجبا كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريك قوة	وتسكينه أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد

ويقول العلامة ابن القيم في الكلام على خلق النخلة وما فيها من العجائب :

ثم تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات الله ، تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك ، فإنه لما قدر أن يكون فيه إناث تحتاج إلى اللقاح ، جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثة ، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان خصوصاً بالمؤمن كما مثله النبي — ﷺ — وذلك من وجوه كثيرة ، (أحدها) : ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

(الثاني) : طيب ثمرها وحلاوتها وعموم المنفعة بها ، كذلك المؤمن طيب الكلام ، طيب العمل ، فيه المنفعة لنفسه ولغيره .

(الثالث) : دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاء ، كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه — تعالى — .

(الرابع) : سهولة تناول ثمرتها وتيسره ، أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها ، وأما باسقتها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها ، فتراها كأنها قد هيئت منها المراق والدرج إلى أعلاها ، وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله وما هو بالغر ولا بالليث .

(الخامس) : أن ثمرتها من أنفع ثمار العام فإنه يؤكل رطبة فاكهة وحلاوة ، ويابسها يكون قوتاً وأدماً وفاكهة ، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ، ويدخل في الأدوية والأشربة ، وعموم المنفعة به وبالغيب فوق كل الثمار .

(السادس) : من وجوه التشبيه : أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد ، وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة ، وتقلعها تارة ، وتقصف أفنانها ، ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة ، فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح .

(السابع) : أن النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة ، فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع ما لا يحجل للأبنية والسقوف وغير ذلك ، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ، ويستر به الفرج والخلل ، وخصوصها يتخذ منه المكاتل والزنايل وأنواع الآنية والحصر وغيرها ، وليفها وكرها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس ، وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها ، فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور ، فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك ، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة وليناً . ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾^(١) .

(الثامن) : أنها كلما طال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها ، وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله .

(التاسع) : أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاها ، وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر ، وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب .

(العاشر) : أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبداً ، بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع آخر ، حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس في سعتها ، وخصوصها ، وليفها وكرها منافع ، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط ، إن أجذب منه جانب من الخير أخصب منه جانب ، فلا يزال خيره مأمولاً وشره مأموناً . وفي الترمذى مرفوعاً إلى النبي ﷺ — (خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره)^(١) فهذا فصل معترض ذكرناه استطراداً للحكمة في خلق النخلة وهيئتها فلنرجع إليه ، فتأمل خلقة الجذع الذي لها كيف هو تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا ، وأخرى معترضة كاللحمة ، كنحو المنسوج باليد وذلك لتشدد وتصلب فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ، ولبثها في السقوف ، والجسور ، والأواني ، وغير ذلك مما يتخذ منها ، وهكذا سائر الخشب ، وغيرها إذا تأملته . شبه النسيج ولا تراه مصمتاً كاللحجر الصلب بل ترى بعضه كأنه دخل بعضاً طويلاً وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم بعضها في بعض فإن ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه ، فإنه لو كان مصمتاً كاللحجارة لم يمكن أن يستعمل في الآلات والأبواب والأواني والأمتعة والأسرة والتواييت ، وما أشبهها ، ومن بديع الحكمة في الخشب أن جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة العظيمة ، والأمتعة الكثيرة ، ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المؤنة في نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم ﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾^(٢) . قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ، أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ .

بعد أن ذكر — سبحانه — تكذيب المشركين للرسول ﷺ — في صدر السورة ذكر المكذبين للرسول من قبله وبيان ما آل إليه أمرهم ، تسلياً لرسوله ﷺ — وعبرة لهم . ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ أى : كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب . ﴿ كل كذب

(١) الحديث في سنن الترمذى (أبواب الوصايا) باب ٦٣ ج ٣ ص ٣٥٩ رقم ٢٣٦٢ عن أبى هريرة وقال الترمذى : هذا حديث صحيح .

(٢) سورة إبراهيم من الآية ٣٤

الرسول ﴿ من هذه الأمم المكذبة ﴾ ﴿ فحق وعيد ﴾ أى : فحق عليهم وعيدي وعقابي . كقوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿ أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ أى : أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة ؟ ، ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ أى : في حيرة من البعث منهم مصدق ومنهم مكذب . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف بدأ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شيء قدير ﴾^(٢) ، وفي مسند الامام أحمد : من حديث بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ — بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : « قال الله تعالى : يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة »^(٣) .

المبدأ والمعاد وصفات التوحيد جمعت في سورة ق

يقول العلامة ابن القيم في فوائده

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفى ويشفى ويغنى عن كلام أهل الكلام ، ومعقول أهل المعقول ، فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة وانقسام الناس إلى هالك شقى ، وفائز سعيد وأوصاف هؤلاء ، وهؤلاء ، وتضمنت اثبات صفات الكمال لله ، وتنزيهه عما يضاد كما له من النقائص والعيوب وذكر فيها القيامتين : الصغرى والكبرى ، والعالمين : الأكبر ، وهو عالم الآخرة ، والأصغر ، وهو عالم الدنيا وذكر فيها خلق الإنسان ، ووفاته ، واعادته ، وحاله عند وفاته ويوم معاده ، واحاطته — سبحانه — به من كل وجه ، حتى علمه بوساوس نفسه ، واقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها ، وإنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه ، وشاهد

(٢) العنكبوت الآيتان : ١٩ ، ٢٠

(١) سورة غافر الآيات ٤ ، ٥

(٣) الحديث في مسند الامام أحمد ج ٤ ص ٢١٠ (حديث بشر بن جحاش عن النبي ﷺ والحديث في تحاف السادة المدعين ج ٤ ص ٣٤٨ وقال العراقى : رواه ابن ماجه والحاكم وصححه اسناده من حديث بشر بن جحاش : قلت ورواه أيضا أحمد وابن سعد والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم ولفظهم جميعاً بقول الله : يا ابن آدم أنى تعجزنى .. الخ .

يشهد عليه ، فإذا أحضره السائق قال : (هذا ما لدى عتيد) أى : هذا الذى أمرت بإحضاره قد أحضرته ، فيقال عند إحضاره (ألقيا فى جهنم كل كفار عتيد) كما يحضر الجانى إلى حضرة السلطان فيقال : هذا فلان قد أحضرته ، فيقول : أذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه .

(المعاد للجسد ذاته)

وتأمل كيف دلت السورة صريحاً على أن الله — سبحانه — يعيد هذا الجسد بعينه الذى أطاع وعصى ، فينعمه ، ويعذبه كما ينعم الروح التى آمنت بعينها ويعذب التى كفرت بعينها ، لا أنه — سبحانه — يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذى أخبر به الرسل ، حيث زعم أن الله — سبحانه — يخلق بدنًا غير هذا البدن ، من كل وجه ، عليه يقع النعيم والعذاب ، والروح عنده عرض من أعراض البدن ، فيخلق روحاً غير هذه الروح ، وبدناً غير هذا البدن ، من كل وجه ، عليه يقع النعيم والعذاب ، والروح عنده عرض من أعراض البدن ، فيخلق روحاً غير هذه الروح ، وبدناً غير هذا البدن ، وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ، ودل عليه القرآن والسنة ، وسائر كتب الله تعالى ، وهذا فى الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول من أنكره من المكذبين ، فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام آخر غير هذه الأجسام يعذبها ، وينعمها كيف وهم يشهدون النوع الإنسانى يخلق شيئاً بعد شيء ! فكل وقت يخلق الله — سبحانه — أجساماً وأرواحاً غير الأجسام التى فئت ، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عياناً ؟ ، وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم ، بعد أن مزقهم البلى ، وصاروا عظاماً ورفاتا ، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ، ولهذا قالوا : (أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) .

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه ، لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً ، بل يكون ابتداء ، ولم يكن لقوله (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) كبير معنى .

فإنه — سبحانه — جعل هذا جواباً لسؤال مقدر ، وهو : إنه يميز تلك الأجزاء التى اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز ، فأخبر — سبحانه — أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم ، وعظامهم ، وأشعارهم ، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء ، فهو قادر على تحصيلها ، وجمعها بعد تفرقها ، وتأليفها خلقاً جديداً ، وهو : — سبحانه — يقرر المعاد بذكر كمال علمه ، وكمال قدرته ، وكمال حكمته فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع :

شبه المنكرين للمعاد :

أحدها : اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ، ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص .

الثانى : إن القدرة لا تتعلق بذلك .

الثالث : إن ذلك أمر لا فائدة فيه ، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنسانى شيئاً بعد شيء ، هكذا أبداً ، كلما مات جيل خلفه جيل آخر . فأما أن يميت النوع الإنسانى كله ، ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة فى ذلك ، فجاءت براهين المعاد فى القرآن مبنية على ثلاثة أصول :

براهين المعاد

أحدها : تقرير كمال علم الرب - سبحانه - وتعالى كما قال فى جواب من قال : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ^(١) ، وقال : ﴿ وإن الساعة لآتية فاصفع الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ ^(٢) .

والثانى : تقرير كمال قدرته ، كقوله (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ^(٣)) ، وقوله : ﴿ بلى قادرين على أن نسوى بنانه ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾ ^(٥) .

ويجمع - سبحانه - بين الأمرين كما فى قوله : ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

والثالث : كمال حكمته ، كقوله : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ ^(٦) ، وقوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ﴾ ^(٧) ، وقوله : ﴿ أيعسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ ^(٨) ، وقوله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ﴾ ^(٩) ، وقوله : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ^(١٠) .

(١) سورة (يس) الآيتان ٧٨ ، ٧٩

(٢) سورة الحجر الآيتان ٨٥ ، ٨٦

(٣) سورة (يس) من الآية ٨١

(٤) سورة القيامة الآية ٤

(٥) سورة الحج الآية ٦

(٦) سورة الدخان الآية ٣٨

(٧) سورة (ص) الآية ٢٧

(٨) سورة القيامة ٣٦

(٩) سورة المؤمنون الآيتان ١١٥ ، ١١٦

(١٠) سورة الجاثية الآيتان ٢١ ، ٢٢

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب — تعالى — وكمال اسمائه ، وصفاته تقتضيه وتوجيه ، وأنه منزّه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص .
ثم أخبر — سبحانه — أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم (فهم في أمر مريج) مختلط لا يحصلون منه على شيء ، ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوى وبنائه ، وارتفاعه ، واستوائه وحسنه ، والثمامه ، ثم إلى العالم السفلى وهو الأرض ، وكيف بسطها وهياها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته ، وإن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب ، وتبصر بها ، تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ، فالناظر فيها يتبصر أولاً ، ثم يتذكر ثانياً ، وإن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه .

ثم دعاهم إلى التفكير في مادة أرزاقهم وأقواتهم ، وملابسهم ومراكبهم وجناتهم ، وهو الماء الذى أنزله من السماء وبارك فيه ، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ما بين أبيض ، وأسود ، وأحمر ، وأصفر ، وحلو ، وحامض ، وبين ذلك مع اختلاف منابعتها ، وتنوع أجناسها ، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها ، واختلاف منافعها ، وصفاتها وأشكالها ، ومقاديرها . ثم ، أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التى لا تخفى على المتأمل ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾^(١) ، ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوج ﴾ أى : مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمار ، والأقوات ، والحبوب خروجكم من الأرض بعد ما غيبت فيها .

ثم انتقل — سبحانه — : إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير ، وأوجز لفظ ، وأبعده عن كل شبهة وشك ، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط وقوم فرعون رسلاً فكذبوهم فأهلكهم بأنواع الهلاك ، وصدق فيهم وعيده الذى أوعدهم به رسله إن لم يؤمنوا ، وهذا تقرير لنبوتهم من أخبر بذلك عنهم ، من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه فى كتاب ، بل أخبر به أخباراً مفصلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب ، ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شيء من ذلك ، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم ، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان ، وتناقضته القرون قرناً بعد قرن ، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية .

ثم عاد — سبحانه — إلى تقرير المعاد بقوله : ﴿ أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّل ﴾ يقال : لكل من عجز عن شيء : عيى به ، وعيى فلان بهذا الأمر ، قال الشاعر :
عيوا بأمرهم — كما عييت يبيضتها الحمامة

ومن قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَالِغٌ مِنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ ﴾ قال ابن عباس : يريد أفعجزنا ، وكذلك قال مقاتل : قلت : هذا تفسير يلزم اللفظة ، وحقيقتها أعم من ذلك ، فإن العرب تقول : أعياني أن أعرف كذا وعييت به إذا لم تهتد لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله فتقول : أعياني دواؤك إذا لم تهتد له ولم تقف عليه .

ولازم هذا المعنى : العجز عنه ، والبيت الذى استشهدوا به شاهد لهذا المعنى ، فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها ، ولكن أعيائها إذا أرادت أن تبيض أين ترمى بالبيضة ، فهى تدور وتجول حتى ترمى بها ، فإذا باضت أعيائها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال ، فهى تنقلها من مكان إلى مكان ، وتحار أين تجعل مقرها كما هو حال من عيى بأمره فلم يدر من أين يقصد له ، ومن أين يأتيه ، وليس المراد بالاعياء : فى هذه الآية : التعب ، كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن ، بل هذا المعنى : هو الذى نفاه — سبحانه — عن نفسه فى آخر السورة بقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ . ثم أخبر — سبحانه — أنهم ﴿ فِي لِبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : أنهم الملبس عليهم إعادة الخلق خلقاً جديداً ، ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته ، وشواهد ربوبيته ، وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان ، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد .

وأى دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها ، وقواها وصفاتها ، وما فيها من اللحم ، والعظم والعروق ، والأعصاب والرباطات ، والناقد والآلات ، والعلوم ، والإدارات ، والصناعات .. كل ذلك من نطفة ماء . فلو أنصف العبد ربه لا كفى بفكره فى نفسه ، واستدل بوجوده على جميع ما أخبر به الرسل عن الله وأسمائه ، وصفاته ، ثم أخبر — سبحانه — عن أحاطة علمه به ، حتى علم وساوس نفسه ، ثم أخبر عن قربيه إليه بالعلم والإحاطة وإن ذلك أدنى إليه من العرق الذى هو داخل بدنه ، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه ، والعلم به من ذلك العرق .. أ هـ .

الموت والبعث والجزاء

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٥٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٥٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٥٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٥٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ ﴿١٦٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿١٦١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ

﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٢٣﴾ الْقِيَامَ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ

معاني المفردات

- ﴿الوسوسة﴾ : الصوت الخفى ، ومنه وسواس الحلى ، والمراد بها هنا : حديث النفس ، وما يخطر بالبال .
- ﴿جعل الوريد﴾ : عرق كبير فى العنق ، وللإنسان وريدان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمها متصلان بالوتين يروان من الرأس إليه .
- ﴿قعيد﴾ : بمعنى مقاعد ، كالجلس بمعنى مجالس .
- ﴿والرقيب﴾ : ملك يرقب قوله ويكتبه ، فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين ، وإن كان شرا فهو صاحب الشمال .
- ﴿عتيد﴾ : أى : مهيا لكتابة ما يؤمر به من الخير والشر .
- ﴿سكرة الموت﴾ : شدته ، ﴿بالحق﴾ : أى : بحقيقة الحال .
- ﴿تحيد﴾ : أى : تميل وتعديل . ﴿يوم الوعيد﴾ : يوم إنجاز الوعد ، ﴿السائق والشهيد﴾ : ملكان أحدهما يسوق النفس إلى أمر الله والآخر يشهد عليها بعملها . ﴿الغطاء﴾ : الحجاب المغطى لأمر المعاد ، وهو : الغفلة والانهماك فى اللذات ، وقصر النظر عليها ، ﴿حديد﴾ : أى : نافذ لروال المانع للإبصار .
- ﴿القرين﴾ : هو : الملك الموكل بالمرء . ﴿عتيد﴾ : أى : معد محضر . ﴿عنيد﴾ : أى : مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحق . ﴿مناع للخير﴾ : أى : كثير المنع للمال فى الحقوق المفروضة عليه . ﴿معتد﴾ : أى : متجاوز للحق ظالم . ﴿مريب﴾ : أى : شاك فى الله وفى دينه ، ﴿القرين﴾ : هنا : الشيطان المقيض له ، ﴿بعيد﴾ : أى : من الحق ، ﴿لا تختصموا لى﴾ : أى : لا يجادل بعضكم بعضا عندى ، ﴿بالوعيد﴾ : أى : على الطغيان فى دار الدنيا فى كتبى وعلى السنة رسلى .

﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ أى : لا يقع فيه الخلف والتغير فلا تطمعوا أن أبدل وعيدى .
 ﴿ مزيد ﴾ : زيادة . ﴿ أزلقت ﴾ أى : أدنيت وقربت . ﴿ غير بعيد ﴾ أى : فى مكان غير بعيد
 منهم بل هو بمرأى منهم . ﴿ هذا ما توعدون ﴾ أى : هذا هو الثواب الذى وعدتم به على السنة الرسل .
 ﴿ أوأب ﴾ أى : رجّاع عن المعصية إلى الطاعة . ﴿ حفيظ ﴾ أى : حافظ لحدود الله وشرائعه .
 ﴿ خشى الرحمن بالغيب ﴾ أى : خاف عقاب ربه وهو غائب عن الأعين حين لا يراه أحد
 ﴿ منيب ﴾ أى : مخلص مقبل على طاعة الله . ﴿ بسلام ﴾ أى : سالمين من العذاب وزوال النعم ،
 ﴿ الخلود ﴾ أى : فى الجنة إذ لا موت فيها . ﴿ مزيد ﴾ أى : مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر
 على قلب بشر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن استدل — سبحانه — على إمكان البعث بقوله : أفبعينا بالخلق الأول . أردف ذلك دليلاً
 آخر على إمكانه ، وهو علمه بما فى صدورهم ، وعدم خفاء شيء من أمرهم عليه ، فإن من كان كذلك
 لا يبعد أن يعيدهم كرة أخرى ، ثم أخبر بأنهم سيعلمون بعد الموت أن ما جاء به الدين حق لا شك
 فيه ، وأنه يوم القيامة تأتى كل نفس ومعها ملكان أحدهما سائق لها إلى المحشر والثانى شهيد عليها .
 ثم ذكر — سبحانه — الحوار الذى دار بين الكافر وقرينه من الشياطين ، واعتذار الكافر ورد القرين
 عليه ، وأن الله — سبحانه — نهاهم عن الاختصام لديه ، لأنه لا فائدة فيه بعد أن أوعدهم على السنة
 رسله ، ثم أردف هذا ذكر حال المتقين ، فذكر أن الجنة تكون قرية منهم بحيث يرونها رأى العين ،
 فتطمئن إليها نفوسهم وتثلج لمآها صدورهم ، ويقال لهم هذا هو الثواب الذى وعدتم به على السنة
 الأنبياء . والرسل ، وهو دائم لانفاد له ولا حصر ، فكل ما يريدون من لذة ، ونعيم فهو حاضر ، ولهم
 فوق هذا رضوان من ربهم ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾^(١) .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ . إذ يتلقى
 المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . وجاءت سكرة الموت
 بالحق ذلك ما كنت منه تحيد .

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ .
 يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه ، وعلمه محيط بجميع أموره حتى أنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر ، كما قال تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ ^(١) ، وكما قال جل في علاه : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ ^(٢) ، وكما قال جل ذكره : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ ^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ ، قال ابن كثير يعنى : ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العليم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل وأنا أقرب إليه من حبل الوريد ، وإنما قال : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ ، كما قال فى المحتضر : ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ يعنى : ملائكته وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ^(٤) فالملائكة نزلت بالذكر — وهو : القرآن — بإذن الله — عز وجل — وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه باقتدار الله — جل وعلا — لهم على ذلك ، فللملك لمة من الإنسان ، كما أن للشيطان لمة وكذلك : « الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ، ولهذا قال : تعالى : مهنا ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ يعنى : الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان . أ هـ .
 وقال ابن القيم — رحمه الله — قال شيخنا — ابن تيمية — المراد : بقول : ﴿ نحن ﴾ أى : ملائكتنا ، قال : ويدل عليه قوله : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ .
 فقيد المذكور يتلقى الملكين .. أ هـ .

قال الإمام ابن تيمية « وهو — سبحانه — فوق العرش ، رقيب على خلقه ، مهيم عليهم ، مطلع إليهم ، فدخل فى ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » .
 قوله تعالى : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

(١) سورة (طه) الآيات ٦ — ٨

(٢) سورة (الملك) الآيات ١٣ ، ١٤

(٣) سورة التوبة الآية ٧٨

(٤) سورة (الحجر) الآية ٩

(٥) من الحديث الموجود فى البخارى كتاب الأحكام (باب الشهادة تكون عند الحاكم فى ولاية القضاء) ج ٩ ص ٨٧ .

— وفى سند الامام أحمد ج ٣ ص ١٥٦

— وفى سنن أبى داود (كتاب الصوم) باب المعتكف يدخل البيت عند الحاجة ج ٢ ص ٨٣٥ رقم ٢٤٧٠ .

﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ يعنى : الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ، ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ أى : مترصد كقوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾^(١) . وكقوله تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ أى : ما يتكلم بكلمة ﴿ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ أى : إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة قال ابن كثير : وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام ؟ وهو قول الحسن وقتادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب ، وعقاب كما هو قول ابن عباس — رضى الله عنهما — ؟ على قولين : الأظهر الأول لعموم قوله تبارك وتعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد بسنده ، عن بلال بن الحارث المزنى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله — تعالى — ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله — عز وجل — له بها رضوانه إلى يوم يلقاه »^(٣) قال : فكان علقمة — الذى روى الحديث عن بلال بن الحارث — يقول : كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث ، ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، وله شاهد فى الصحيح . وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك فإن استغفر الله — تعالى — نجاه أن يكتبها وإن أبى كتبها ، رواه ابن حاتم وقال : الحسن البصرى ، وتلا هذه الآية ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقل ، أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك ، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾^(٤) ، ثم يقول : عدل ، والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وذكر الإمام أحمد أنه كان يثن فى مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يثن أحمد حتى مات — رحمه الله — .

(١) سورة الانفطار الآيات ١٠ — ١٢

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٠

(٣) الحديث فى سند الامام أحمد ج ٣ ص ٤٦٩ ورد الحديث بلفظه عن بلال بن الحارث المزنى .

— وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (أبواب الزهد) باب ما جاء فى قلة الكلام رقم ٢٤٢١ .

— وفى سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب كف اللسان فى الفتنة ج ٢ ص ١٣١٢ ، ١٣١٣ رقم ٣٩٦٩ .

(٤) سورة الإسراء الآيتان ١٣ ، ١٤

قوله تبارك — وتعالى — : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ يقول : — عز وجل — وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق أي : كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه ، ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ أي : هذا هو الذي كنت تفر منه ، قد جاءك فلا تحيد ولا مناص ، ولا فكاك ، ولا خلاص . قال تعالى : ﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾^(٢) ، وقال جل في علاه : ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾^(٣) .

يا خاطب الدنيا إلى نفسه تنخ عن خطبتها تسلم
إن التلى تخطب غرارة قريبة العرس من المأتم
قال لقمان لابنه : إن الدنيا بحر عريض ، قد هلك فيه الأولون والآخرون ، فإن استطعت فاجعل سفينتك تقوى الله ، وعدتك التوكل على الله ، وزادك العمل الصالح ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن هلكت فبذنوبك .

وقال الحسن البصري : ابن آدم ، إنما أنت عدد ، فإذا مضى يومك فقد مضى بعضك .
وقال أبو العتاهية :

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن
ومادون دائرة الردى حصن لمن يتحصن
وقال آخر :

زينت بيتك جاهلاً وتحمرته ولعل غيرك صاحب البيت
من كانت الأيام سائرة به فكأنه قد حلّ بالموت
والمرء مرتهن بسوف وليتنى وهلاكه في السوف والليت
لله در فتى تدبر أمره فغدا وراح مبادر الفوت
وكان عمر بن عبد العزيز — رضى الله — عنه يقول في خطبته : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى . وإن لكم معاداً يجمعكم الله — عز وجل — من رحمته التى وسعت كل شيء ، وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله — تعالى — واتقى ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباقي ، وشقاوة بسعادة ، ألا تروا أنكم فى أصلاب الهالكين ، وسيخلفه

(١) سورة الجمعة الآية ٨

(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٧

(٣) سورة الرحمن الآيتان ٢٦ ، ٢٧

بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غادياً راثحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟ .

وقال الحسن : يا ابن آدم ، بع دنياك بآخرتك تُربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، يا ابن آدم ، إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الثواء هنا قليل ، والبقاء هناك طويل . أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون ؟ المعاناة ؟ فكأن قد . هيهات هيهات ، ذهبت الدنيا بحاليها ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم ، فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس ، والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً — ﷺ — فقد رآه غادياً راثحاً ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، رُفع له علم فشمر إليه . فالوحاء الوحاء ، والنجاء النجاء . علام تتعرجون . أتيتم ورب الكعبة . قد أسرع بخياركم وأنتم كل يوم تزدلون ، فماذا تنتظرون . إن الله — تعالى — بعث محمداً — عليه السلام — على علم منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان صفوته من خلقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض ، وآتاه منها قوتا وبلغته ثم قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾^(١) فرغب أقوام عن عيشه ، وسخطوا ما رضى له ربه ، فأبعدهم الله وأسحقهم ، يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظرت ففكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . فقد أبصر أقوام فلم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم ، ولم يدركوا ما طلبوا ، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا . يا ابن آدم أذكر قوله : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنْقِهِ وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾^(٢) عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذرّوا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدرا ، ولا الكدر ما عاد صفوا ، دعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم . ظهر الجفاء ، وقلت العلماء ، وعفت السنة ، وشاعت البدعة . لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرّة العين وجلاء الصدر . ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق من أن ترد عليهم ، منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها . ما لي أسمع حسيباً ولا أرى أنيساً . ذهب الناس

(١) سورة الأحزاب من الآية ٢١

(٢) سورة الاسراء الآيتان ١٣ ، ١٤

وبقى النسناس . لو تكاشفت ما تدافنتم . تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح . قال ابن الخطاب : رحم الله أمراً أهدى إلينا مساوينا . أعدوا الجواب فإنكم مسئولون . المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكن أخذه من قبل ربه . إن هذا الحق قد جهد أهله ، وحال بينهم ، وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله ، ورجا عاقبته . فمن حمد الدنيا ذم الآخرة ، وليس يكره لقاء الله إلا مقيم على سخطه . يا ابن آدم ، ليس الإيمان بالتحلى ، ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقر في القلب ، وصدقته الأعمال .

تذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة

باب : ذكر الموت والاستعداد له

يقول العلامة القرطبي في كتابه (التذكرة) ما ملخصه .

روى النسائي عن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ — « أكثروا ذكر هادم اللذات »^(١) يعني الموت .

وروى الترمذي : عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ — « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله »^(٢) .

وقال السدي في قوله تعالى : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾^(٣) أى : أكثركم للموت ذكراً ، وله أحسن استعداداً ومنه أشد خوفاً محذراً .

﴿ فصل ﴾ : قال : علماؤنا — رحمة الله عليهم — قوله : عليه الصلاة والسلام : « أكثروا ذكر هادم اللذات الموت »^(٤) كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة ، وأبلغ في الموعظة فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره غص عليه لذته الحاضرة ، ومنعه من تمنى في المستقبل ، وزهده فيما كان منها يؤمل ، ولكن النفوس الراكدة ، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ ، وتزويق الألفاظ ، وإلا ففى قوله : عليه — الصلاة والسلام — : « أكثروا ذكر هادم اللذات الموت »^(٥) مع قوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾^(٦) ما يكفى السامع له ، ويشغل الناظر فيه وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

(١) الحديث في سنن النسائي ج ٤ ص ٤ كتاب الجنائز باب كثرة ذكر الموت

(٢) الحديث في سنن الترمذي ج ٤ ص ٥٥٠ رقم ٢٤٥٩ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن (كتاب صفحة القيامة) باب ذكر الموت .

وفي سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٦٠ .

(٣) سورة تبارك من الآية ٢

(٤) الحديث في رقم ١ من هذه الصفحة

(٥) الحديث في رقم ١ في هذه الصفحة

(٦) سورة آل عمران الآية ٨٥ وفي سورة العنكبوت من الآية ٥٧

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له والإنس والجن فيما بينهما ترد
أين الملوك التي كانت لعزتها من كل أوب إليها وافد يفد؟
حوض هنالك مورود بلا كذب لابد من ورده يوماً كما وردوا

﴿ فصل ﴾ : إذا ثبت ما ذكرناه . فاعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية ، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية ، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتى ضيق وسعة ، ونعمة ومحنة ، فإن كان فى حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه ، فإنه لا يدوم . والموت أصعب منه ، أو فى حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها والسكون إليها لقطعه عنها . ولقد أحسن من قال :

اذكر الموت هادم اللذات ، وتجهز لمصرع سوف يأتى .

وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم ، ولا زمن معلوم ، ولا مرض معلوم . وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك ، مستعداً لذلك . وكان بعض الصالحين ينادى بليل على سور المدينة : الرحيل . الرحيل . فلما توفى فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه . فقيل : إنه قد مات فقال :

ما زال يلهج بالرحيل وذكره حتى أناخ بيابه الجمال
فأصابه متيقظاً متشمراً ذا أهبة لم تلهه الآمال

وكان يزيد الرقاشى يقول لنفسه : ويحك يا يزيد ، من ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟ ثم : يقول : أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم ؟ من الموت طالبه ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه . وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله ؟ ثم يبكى حتى يسقط مغشياً عليه .

وكان عمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه - يجمع العلماء فيتذاكرون الموت ، والقيامة والآخرة ، فيكون حتى كان بين أيديهم جنازة .

وقال الدقاق : من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة ، وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل فى العبادة ، فتفكر يا مغرور فى الموت وسكرته ، وصعوبة كأسه ومرارته ، فيا للموت من وعد ما أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله ، كفى بالموت مقرحاً للقلوب ومبكياً للعيون ، ومفرقاً للجماعات ، وهادماً للذات ، وقاطعاً للأمنيات ، فهل تفكرت يا ابن آدم فى يوم مصرعك ، وانتقالك من موضعك ، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق ، وخانك الصاحب والرفيق ، وهجرك الأخ والصديق ، وأخذت من فراشك ، وغطائك إلى عرى ، وغطوك من بعد لين لحافك بتواب ومدر ، فيا جامع المال ، والمجتهد

في البنيان ليس لك والله من مال إلا الأكفان ، بل هي والله للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب .
فأين الذي جمعته من المال ؟ فهل أنقذك من الأهوال ؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمذك ، وقدمت
بأوزارك على من لا يعذرك . ولقد أحسن من قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار
الآخرة ﴾^(١) أى : أطلب فيما أعطاك الله من الدنيا ، الدار الآخرة وهي الجنة ، فإن حق المؤمن أن
يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة ، لا في الطين والماء والتجبر والبغى ، فكأنهم قالوا : لا تنس أنك
تترك جميع مالك إلا نصيبك الذي هو الكفن ، ونحو هذا قول الشاعر :

نصيبك مما تجمع الدهر كله رداءان تلوى فيهما ، وحنوط
وقال آخر :

هي القناعة لا تبغى بها بدلاً فيها النعيم وفيها راحة البدن

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

﴿ فصل ﴾ وقوله — ﷺ — : « الكيس من دان نفسه »^(٢) ، دان : حاسب . وقيل ذل . قال

أبو عبيدة : دان نفسه : أى : أذلها واستعبدها . يقال : دنته أدنيه ، إذا ذلته فيذل نفسه في عبادة

الله — سبحانه — وتعالى ، عملاً يعدّه لما بدع الموت ، ولقاء الله — تعالى — ، وكذلك يحاسب نفسه

على ما فرط من عمره ، ويستعد لعاقبة أمره ، بصالح عمله ، والتنصل من سالف زلله ، وذكر الله —

تعالى — وطاعته في جميع أحواله . فهذا هو الزاد ليوم المعاد ، والعاجز ضد الكيس . والكيس : العاقل ،

والعاجز : المقصر في الأمور ، فهو مع تقصيره في طاعة ربه ، واتباع شهوات نفسه متمن على الله

أن يغفر له ، وهذا هو الاغترار فإن الله — تعالى — أمره ونهاه ، وقال الحسن البصري : « إن قوماً

آلهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ويقول أحدهم : إني أحسن الظن برى . وكذب

لو أحسن الظن لأحسن العمل » وتلا قوله تعالى : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم فأصبحتم

من الخاسرين ﴾^(٣) .

(١) سورة القصص الآية ٧٧

(٢) الحديث في سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٥٠ رقم ٢٤٥٩ (كتاب حفة القيامة) باب ذكر الموت : وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

وفي مسنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٦٠ .

(٣) سورة فصلت الآية ٢٣

باب ما يذكر الموت والآخرة ويزهد في الدنيا

روى مسلم عن أبي هريرة قال : زار النبي ﷺ — قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال : « استأذنت ربي أن استغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت »^(١) .

فصل (: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء ، يختلف فيه للنساء . أما الشواهد فحرام عليهن الخروج ، وأما القواعد فمباح لمن ذلك ، وجائز ذلك لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال ، ولا يختلف في هذا إن شاء الله — تعالى — وعلى هذا المعنى يكون قوله عليه — الصلاة والسلام — : « زوروا القبور » عاماً . وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يجوز ولا يحل ..

وروى عن علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — أنه خرج إلى المقبرة فلما أشرف عليها قال : يا أهل القبور أخبرونا عنكم ، أو نخبركم أما خبر من قبلنا : فالمال قد اقتسم ، والنساء قد تزوجن ، والمساكن قد سكنها قوم غيركم ، ثم قال : أما والله لو استطاعوا لقالوا : لم نر زاداً خيراً من التقوى . ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول :

يا عجباً للناس لو فكروا	وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها	فلانما الدنيا لهم مـ
لا فخر إلا فخر أهل التقى	غداً إذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن التقى	والبر كانوا خير ما يدخر
عجبت للإنسان في فخره	وهو غداً في قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة	وجيفة آخره يفجر
أصبح لا يملك تقديم ما	يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره	في كل ما يقضى وما يقدر

(١) الحديث في صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب استئذان النبي ﷺ — ربه عز وجل — في زيارة قبر أمه ج ٢ ص ٦٧١ رقم ٩٧٦ / ١٠٨ ورد بلفظه عن أبي هريرة .

وفي سنن ابن ماجه (كتاب الجنائز) باب ما جاء في زيارة قبور المشركين ج ١ ص ٥٠١ رقم ١٥٧٢ .

علاج قسوة القلب

(فصل) قال العلماء : — رحمة الله عليهم — : ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور ، وخاصة إن كانت قاسية فعلى أصحابها أن يعالجوها بأربعة أمور :

أحدها : الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكر والتخويف والترغيب ، وأخبار الصالحين ، فإن ذلك مما يلين القلوب وينجع فيها .

الثاني : ذكر الموت فيكثر من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات وميمم البنين ، والبنات كما تقدم في الباب قبل ، قال العلماء : تذكر الموت يردع عن المعاصي ، ويلين القلب القاسي ، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب فيها .

الثالث : مشاهدة المحتضرين ، فإن في النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته ، وتأمل صورته بعد مماته ، ما يقطع عن النفوس لذاتها ، ويطرده عن القلوب مسراتها ، ويمنع الأجفان عن النوم والأبدان من الراحة ، ويبعث على العمل ، ويزيد في الاجتهاد والتعب .

فهذه ثلاثة أمور ينبغي لمن قسا قلبه ، ولزمه ذنبه ، أن يستعين بها على دواء دائه ، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وإغوائه ، فإن انتفع بها فذاك ، وإن عظم عليه ران القلب واستحكمت فيه دواعي الذنب ، فزيارة قبور الموتى تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول ، والثاني ، والثالث . ولذلك قال : عليه الصلاة والسلام — : « زوروا القبور فإنها تذكر الموت والآخرة ، وتزهد في الدنيا »^(١) ، فالأول : سماع بالأذن ، والثاني : إخبار للقلب بما إليه المصير وقائم له مقام التخويف والتحذير في مشاهدة من احتضر ، وزيارة قبر من مات من المسلمين معانية ، فلذلك كانا أبلغ من الأول والثاني . إلا أن الاعتبار بحال المحتضرين غير ممكن في كل الأوقات . وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات ، وأما زيارة القبور : فوجودها أسرع ، والانتفاع بها أليق وأجدر ، فينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بآدابها ، ويحضر قلبه في إتيانها ، ولا يكون حظه منها الطواف على الأجداد فقط ، فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة ، ونعوذ بالله من ذلك . بل يقصد بزيارته . وجه الله — تعالى — وإصلاح فساد قلبه ، أو نفع الميت مما يتلوه عنده من القرآن ، ويجتنب المشي على المقابر ، والجلوس عليها إذا دخل المقابر ، ويخلع نعليه كما جاء في أحاديث ، ويسلم إذا دخل المقابر ، ويخاطبهم خطاب الحاضرين فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين »^(٢) كذلك كان عليه — الصلاة والسلام — يقول : —

(١) الحديث في سنن ابن ماجه (كتاب الجنائز) باب ما جاء في زيارة القبور ج ١ ص ٥٠٠ ، ٥٠١ رقم ١٥٦٩ ، ١٥٧١ .

(٢) الحديث في سنن ابن ماجه كتاب الجنائز (باب ما يقال في إذ دخل المقابر ج ١ ص ٤٩٣ رقم ١٥٤٦ من رواية عائشة — رضى الله عنها —

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراقي ﴾^(١)

روى البخارى عن عائشة — رضى الله عنها — : أن رسول الله — ﷺ — كانت بين يديه ركوة ، أو علبة فيها ماء . فجعل يدخل يديه فيمسح بهما وجهه ويقول : « لا إله إلا الله إن للموت سكرات » ثم نصب يديه فجعل يقول : « في الرفيق الأعلى » حتى قبض ومالت يده^(٢) .
وروى أبو هدية ابراهيم بن هدية قال : حدثنا أنس بن مالك عن النبي — ﷺ — قال : « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة »^(٣) .

وفي الخبر من حديث حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، عن النبي — ﷺ — « إن الملائكة تكتنف العبد ، وتحبسه ولولا ذلك لكان يعدو في الصحارى والبرارى من شدة سكرات الموت »^(٤) وجاءت الرواية بأن ملك الموت — عليه السلام — إذا تولى الله قبض نفسه بعد موت الخلائق يقول : « وعزتك لو علمت من سكرة الموت ما أعلم ما قبضت نفس مؤمن » ذكره القاضى أبو بكر بن العربى .
(فصل) : قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : فإذا كان هذا الأمر قد أصاب الأنبياء والمرسلين والأولياء والمتقين فما لنا عن ذكره مشغولين ؟ وعن الاستعداد له متخلفين ؟ ﴿ قل هو نأ عظيم . أنتم عنه معرضون ﴾^(٥) قالوا : وما جرى على الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — من شدائد الموت وسبكراته ، فله فائدتان .

أحدهما : أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة ولا قلقاً ويرى سهولة خروج روحه ، فيغلب على ظنه سهولة أمر الموت ولا يعرف ما الميت فيه ؟ فلما ذكر الأنبياء الصادقون في خيرهم : شدة ألمه ، مع كرامتهم على الله — تعالى — وتهوينه على بعضهم ، قطع الخلق بشدة الموت الذى يعانیه ، ويقاسيه الميت مطلقاً لإخبار الصادقين عنه ، ما خلا الشهيد قتيل الكفار على ما يأتى ذكره .

الثانية : وبما خطر لبعض الناس أن هؤلاء : أحباب الله ، وأنبياءه ورسله ، فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة ؟ وهو — سبحانه — قادر أن يخفف عنهم أجمعين ، كما قال : فى قصة ابراهيم : « أما

(١) سورة القيامة الآية ٢٦

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٨ ص ١٣٣ (كتاب الرفاق) باب سكرات الموت

(٣) الحديث فى تفسير القرطبى ج ١٧ ص ١٣ (وجاءت سكرة الموت بالحق) سورة (ق)

(٤) الحديث فى تحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٢٧١ عن أنس بن مالك .

(٥) سورة (ص) (الآيتان ٦٧ ، ٦٨)

روى أبو داود ، عن بريدة بن خصيب قال : قال رسول الله ﷺ : « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن في زيارتها تذكرا »^(١) وذكر النسائي عن بريدة أيضا ، عن النبي ﷺ قال : ﷺ من أراد أن يزور قبرا فليزوره ، ولا تقولوا هجرا »^(٢) بمعنى سوءا ، وذكر أبو عمر من حديث ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « مامن رجل يمر بقبر أخيه المؤمن الذي كان يعرفه فيسلم عليه ، إلا رد عليه السلام »^(٣) روى هكذا موقوفا عن ابن هريرة - رضى الله عنه - قال : « فإن لم يعرفه وسلم : رد عليه السلام » .

وروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها - قالت : قلت يا رسول الله : كيف أقول : إذا دخلت المقابر ؟ قال : « قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين ، وإنا ، إن شاء الله ، بكم لاحقون »^(٤) .

وفى الصحيحين أنه عليه - الصلاة والسلام - مرّ بامرأة تبكى عند قبر لها فقال لها : « اتقى الله واصبرى »^(٥) الحديث

باب ما جاء أن للموت سكرات وفى تسليم الأعضاء بعضها على بعض وفيما يصير الإنسان إليه

وصف الله - سبحانه - وتعالى - شدة الموت فى أربع آيات :
الأولى : قوله الحق : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾^(١)
الثانية : قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ﴾^(٢)
الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾^(٣)

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه (كتاب الجنائز) باب ما جاء فى زيارة القبور ج ١ ص ٥٠١ رقم ١٥٧١ .

(٢) الحديث فى سنن النسائي ج ٤ ص ٨٩ (كتاب الجنائز) باب زيارة القبور .

(٣) الحديث فى تاريخ الخطيب ج ٦ ص ١٣٧ رقم ٣١٧٥

وانظر كنز العمال ج ١٥ ص ٦٥٧ رقم ٤٦٠٢

(٤) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور ج ٢ ص ٦٧١ رقم ١٠٣ / ٩٧٤

(٥) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب فى الصبر فعلى المصيبة عند الصدمة الأولى ج ٢ ص ٦٣٧ رقم ١٥ / ٦٢٦ .

وفى صحيح البخارى ج ٩ ص ٨١ (كتاب الأحكام) باب ما ذكر ان النبي ﷺ (لم يكن له يواب) .

(٦) سورة (ق) الآية ١٩

(٨) سورة الواقعة الآية ٨٣

(٧) سورة الأنعام الآية ٩٣

إنا قد هونا عليك » فالجواب : « إن أشد الناس بلاء في الدنيا الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »^(١) كما قال نبينا — عليه الصلاة والسلام . خرج البخاري وغيره ، فأحب الله أن يتليهم تكميلاً لفضائلهم لديه ، ورفعة لدرجاتهم عنده ، وليس ذلك في حقهم نقصاً ، ولا عذاباً ، بل هو كمال قال : كمال رفعة ، مع رضاهم بجميل ما يجري الله عليهم ، فأراد الحق — سبحانه وتعالى — أن يختم لهم بهذه الشدائد ، مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم ، ليرفع منازلهم ، ويعظم أجورهم قبل موتهم . كما ابتلى إبراهيم بالنار ، وموسى بالخوف والأسفار ، وعيسى بالصحارى والقفار ، ونبينا محمداً — ﷺ — بالفقر في الدنيا ومقاتلة الكفار ، كل ذلك لرفعة في أحوالهم ، وكمال في درجاتهم ، ولا يفهم من هذا أن الله شدد عليهم أكثر مما شدد على العصاة المخلطين فإن ذلك عقوبة لهم ، ومؤاخذه على إجرامهم فلا نسبة بينه وبين هذا .

باب الموت كفارة لكل مسلم

أخرج أبو نعيم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله — ﷺ — « الموت كفارة لكل مسلم »^(٢) ، ذكره القاضي أبو بكر ابن العربي في سراج المريدين له ، وقال فيه : حديث صحيح حسن .

(فصل) : إنما كان الموت كفارة ، لكل ما يلقاه الميت في مرضه من الآلام والأوجاع ، وقد قال — ﷺ — : « ما من مسلم يصيبه أذى ، من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها »^(٣) . أخرجه مسلم .

وعن زيد بن أسلم : مولى عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — قال : « إذا بقى على المؤمن من ذنوبه شيء لم يبلغه بعمله شدد عليه الموت ليبلغ به كرات الموت وشدائده درجته من الجنة ، وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفًا في الدنيا ، هون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه في الدنيا ثم : يصير إلى النار » ذكره أبو محمد عبد الحق .

(١) الحديث في سنن الترمذي ج ٤ ص ٢٨ رقم ٢٥٠٩ (أبواب الزهد) من رواية سعد بن أبيه .

— وفي سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٣٤ رقم ٤٠٢٣ من رواية سعد بن أبي وقاص (كتاب الفتن) باب الصبر على البلاء .
وفي صحيح البخاري : (كتاب الطب) باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول من رواية عبد الله ولفظه « الأمثل فالأمثل بهامشه » .

وفي سند الامام أحمد : ج ١ ص ٧٢ عن رواية مصعب بن سعد بن أبي وقاص : بلفظه

(٢) الحديث في حلية الأولياء ج ٣ ص ١٢١

(٣) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩١ رقم ٤٥ / ٢٥٧١ (كتاب البر والصلة)

باب لا يموت أحد إلا وهو يحسن بالله الظن وفي الخوف من الله تعالى

روى مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ — يقول : قبل وفاته بثلاثة أيام : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن »^(١) وذكر الترمذى الحكيم عن الحسن أنه قال : بلغنى عن رسول الله ﷺ — أنه قال : قال ربكم — عز وجل — : « لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمين ، فمن خافنى فى الدنيا ، أمنتته فى الآخرة ، ومن أمنتنى فى الدنيا ، أخفته فى الآخرة »^(٢) .

(فصل) : حسن الظن بالله — تعالى — ، ينبغى أن يكون أغلب على العبد عند الموت منه فى حال الصحة ، وهو أن الله — تعالى — يرحمه ويتجاوز عنه ، ويغفر له ، وينبغى لجلسائه ، أن يذكروه بذلك حتى يدخل فى قوله تعالى فى الحديث : « أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى ما يشاء »^(٣) . وقال الفضيل بن عياض : « الخوف أفضل من الرجاء . ما كان العبد صحيحاً فإذا نزل به الموت ، فالرجاء أفضل من الخوف » .

وذكر ابن أبى الدنيا بسنده عن حصين عن إبراهيم قال : « كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند الموت ، حتى يحسن ظنه بربه عز وجل » . وفى التنزيل قال : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾^(٤) .

باب تلقين الميت : لا إله إلا الله

روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى : قال : قال رسول الله ﷺ — « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله »^(٥) .

قال علماؤنا : تلقين الموتى هذه الكلمة سنة مأثورة عمل به المسلمون . وذلك ليكون آخر كلامهم لا إله إلا الله فيختم له بالسعادة ، وليدخل فى عموم قوله — عليه السلام — « من كان آخر كلامه

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٨٢ / ٢٨٧٧ (كتاب الجنة وصفة نعيمها)

(٢) الحديث فى كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب السنة (كتاب المواعظ) باب الخوف من الله ص ٧٤ .

(٣) الحديث فى المستدرک على الصحيحين للحاكم « كتاب التوبة والإنابة » ج ٤ ص ٢٤٠ فقد ورد الحديث بلفظه وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

(٤) سورة الحجر الآية ٥٦

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٣١ رقم ١ ، ٢ / ٩١٦ (كتاب الجنائز) عن أبى سعيد

وفى سنن أبى داود (كتاب الجنائز) باب فى التلقين ج ٣ ص ٤٨٧ رقم ٣١١٧ من رواية أبى سعيد الخدرى .

لا إله إلا الله دخل الجنة»^(١) أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن جبل ، وصححه أبو محمد عبد الحق ، ولينبه المتحضر على ما يدفع به الشيطان ، فإنه يتعرض للمحتضر ليفسد عقيدته ، (نسأل الله السلامة) .

فإذا تلقى المحتضر ، وقالها مرة واحدة فلا تعاد عليه لئلا يضجر ، وقد كره أهل العلم الإكثار من التلقين ، والإلحاح عليه إذا هو تلقى ، أو فهم ذلك عنه . قال أبو محمد عبد الحق : وإنما ذلك لأنه يخاف عليه إذا لُح عليه بها أن يتبرم ، ويضجر ، ويثقلها الشيطان عليه فيكون سبباً لسوء الخاتمة ، وكذلك أمر ابن المبارك أن يفعل به . قال الحسن بن عيسى : قال : لى ابن المبارك لقنى — يعنى الشهادة — ولا تعد على إلا أن أتكلم بكلام ثان ، والمقصود أن يموت الرجل ، وليس في قلبه إلا الله — عز وجل — لأن المدار على القلب ، وعمل القلب هو الذى ينظر فيه وتكون النجاة به ، وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما في القلب فلا فائدة فيها ، ولا عبر عندها .

ولابد من تلقين الميت ، وتذكيره الشهادة ، وإن كان على غاية من التيقظ . فقد ذكر أبو نعيم الحافظ ، من حديث مكحول ، عن وائلة بن الأسقع ، عن النبى — ﷺ — « احضروا موتاكم ولقنوهم : لا إله إلا الله ، وبشروهم بالجنة ، فإن الحكيم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع ، وإن الشيطان أقرب من ابن آدم عند ذلك المصرع والذى نفسى بيده لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف ، والذى نفسى بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كل عضو منه على حياله »^(٢) .

باب من حضر الميت فلا يلغو وليتكلم بخير

وكيف الدعاء للميت إذا مات وفي تغميضة

روى مسلم عن أم سلمة — رضى الله عنها — قالت : قال : رسول الله — ﷺ — : « إذا حضرتم المريض ، أو الميت فقولوا : خيراً فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » . قالت : فلما مات أبو سلمة أتيت النبى — ﷺ — فقلت يا رسول الله : إن أبا سلمة قد مات فقال : قولى : « اللهم اغفر لى وله وأعقبنى منه عقبى حسنة »^(٣) قالت : فقلت . فأعقبنى الله من هو خير منه رسول الله — ﷺ —

(١) الحديث فى سنن أبى داود ج ٣ ص ٤٨٦ رقم ٣١١٦ (كتاب الجنائز) باب فى التلقين عن معاذ بن جبل .

(٢) الحديث انظر حلية الأولياء ج ٥ ص ١٨٦

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنائز) ج ٢ ص ٦٣٣ رقم ٩١٩ / ٦ ورد بلفظه عن أم سلمة .

وعنها قالت : دخل رسول الله ﷺ — على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ، ثم قال : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر ، فضج ناس من أهله ، فقال : « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » ثم قال : « اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين ، واخلفه في عقبه في الغابرين ، واغفر لنا وله يا رب العالمين ، وافسح له في قبره ، ونور له فيه »^(١) .

(فصل) : قال علماؤنا : قوله : عليه الصلاة والسلام — : « إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خیر »^(٢) أمر ندب ، وتعليم بما يقال عند المريض ، أو الميت ، واخبار بتأمين الملائكة على دعاء من هناك ولهذا استحب العلماء : أن يحضر الميت الصالحون ، وأهل الخير حالة موته ليذكروه ، ويدعوا له ولمن يخلفه ، ويقولوا خيراً فيجتمع دعائهم وتأمين الملائكة فينتفع بذلك الميت ومن يصاب به ، ومن يخلفه .

باب ما جاء في سوء الخاتمة وما جاء في أن الأعمال بالخواتيم

روى مسلم عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ — قال : « إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة »^(٣) .

وفي البخارى : عن سهل بن سعد ، عن النبى ﷺ — قال : « إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنما الأعمال بالخواتيم »^(٤) .

قال أبو محمد عبد الحق : اعلم أن سوء الخاتمة — أعاذنا الله منها — لا تكون لمن استقام ظاهرة وصلاح باطنه ، ما سمع بهذا ولا علم به — والحمد لله — وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل ، أو إصرار على الكبائر ، وإقدام على العظائم . فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة ، والعياذ بالله ، ثم العياذ بالله ، أو يكون ممن كان مستقيماً ، ثم يتغير عن حاله ، ويخرج عن سنته ، ويأخذ فى طريقه ، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته ، وشؤم عاقبته .

(١) الحديث وفى مسلم ج ٢ ص ٦٣٤ رقم ٩٢٠ / ٧ (كتاب الجنائز)

(٢) الحديث فى صحيح مسلم فى رقم ١ فى (كتاب الجنائز) ج ٢ ص ٦٣٣ رقم ٩١٩ / ٦

(٣) الحديث فى مسنن (كتاب القدر) باب القدر ج ٤ ص ٤٠٤٢ رقم ٢٦٥١ / ١١ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٤) الحديث فى البخارى ج ٨ ص ١٥٥ (كتاب القدر) باب العمل بالخواتيم ورد بلفظه عن أبى هريرة .

(قال العلماء) : وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة ، والاستقامة على مشيئته موقوفة ، والعاقبة مغيبة ، والإرادة غير مغالبة ، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك ، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدار عليك وخيره ، فمهما افتخرت بذلك ، كنت كالمفتخر بمتاع غيره ، وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير ، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم . فأصبحت وزهرها يابس هشيم ، إذ هبت عليها الريح العقيم . كذلك العبد يسمى وقلبه بطاعة الله مشرق سليم ، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم . ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم .

باب ما جاء في رسل ملك الموت قبل الوفاة

ورد في الخبر : أن بعض الأنبياء — عليهم السلام — قال لملك الموت — عليه السلام — : أما لك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك ؟ قال : نعم لى والله رسل كثيرة من الإللال والامراض والشيب والهموم ، وتغير السمع والبصر فإذا لم يتذكر من نزل به ذلك ولم يتب ، فإذا قبضته ناديته : ألم أقدم إليك رسولا بعد رسول ونذيراً بعد نذير ؟ فأنا الرسول الذى ليس بعدى رسول ، وأنا النذير الذى ليس بعدى نذير .. فما من يوم تطلع فيه شمس ، ولا تغرب إلا وملك الموت ينادى : يا أبناء الأربعين ، هذا وقت أخذ الزاد ، أذهانكم حاضرة ، وأعضاؤكم قوية شداد . يا أبناء الخمسين قد دنا وقت الأخذ والحصاد ، ويا أبناء الستين نسيت العقاب وغفلتم عن رد الجواب فما لكم من نصير ﴿١﴾ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴿٢﴾ . ذكره ابن الجوزى فى كتاب روضة المشتاق ، والطريق إلى الملك الخلاق .

وفى البخارى ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغ ستين سنة » (٣) .

يقال : أعذر فى الأمر أى : بالغ فيه أى : أعذر غاية الأعذار بعبده وأكبر الأعذار إلى بنى آدم بعثة الرسل إليهم ليم حجته عليهم . ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٤)

وللفقيه أبى عبد الله محمد بن أبى ذمىن — رحمه الله تعالى آمين — :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا ونحن فى غفلة عما يداوينا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها وإن توشحت من أثوابها الحسنات

(١) سورة فاطر من الآية ٣٧

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٨ ص ١١١ كتاب الرقائق ورد الحديث بلفظه .

(٣) الآية سورة الأسراء الآية رقم ١٥

أَيْنَ الْأَحْبَةِ وَالْجِيرَانِ مَا فَعَلُوا أَيْنَ الَّذِينَ هُمُ كَانُوا لَنَا سَكْنَا
سَقَاهُمُ الْمَوْتَ كَأْساً غَيْرَ صَافِيَةٍ فَصِيرْهُمْ لِأَطْبَاقِ الثَّرَى رَهْنَا
وَرَوَى أَنَّ مَلِكَ الْمَوْتِ دَخَلَ عَلَى دَاوُدَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فَقَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : مَنْ لَا يَهَابُ
الْمُلُوكَ ، وَلَا تَمْنَعُ مِنْهُ الْقُصُورُ ، وَلَا يَقْبَلُ الرِّشَا ، قَالَ : فَإِذَا أَنْتَ مَلِكَ الْمَوْتِ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : أَتَيْتَنِي
وَلَمْ أَسْتَعِدْ بَعْدَ ؟ قَالَ : يَا دَاوُدُ أَيْنَ فُلَانٌ قَرِيْبُكَ ؟ أَيْنَ فُلَانٌ جَارُكَ ؟ قَالَ : مَاتَ ، قَالَ : أَمَا كَانَ
لَكَ فِي هَؤُلَاءِ عِبْرَةٌ لَتَسْتَعِدَّ . وَقِيلَ : النَّذِيرُ الْحَمِي . وَمِنْهُ قَوْلُهُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « الْحَمِي نَذِيرُ الْمَوْتِ »^(١)
أَيَ : رَائِدُ الْمَوْتِ .

قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : مَعْنَاهُ أَنَّ الْحَمِيَّ رَسُولُ الْمَوْتِ أَيَ : كَأَنَّهَا تَشْعُرُ بِقُدُومِهِ ، وَتَنْذِرُ بِمَجِيئِهِ ، وَقِيلَ :
مَوْتَ الْأَهْلِ وَالْأَقْرَابِ وَالْأَصْحَابِ وَالْإِخْوَانِ ، وَذَلِكَ إِنْذَارُ الرِّحِيلِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانٍ وَحِينَ وَزَمَانٍ .

باب لا تخرج روح عبد مؤمن أو كافر حتى ييشر وأنه يصعد بها

أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَةَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — عَنِ النَّبِيِّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — قَالَ : « تَخْضُرُ
الْمَلَائِكَةُ . فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحاً قَالُوا : أَخْرِجِي أَيْتَهَا النَّفْسَ الطَّيِّبَةَ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ .. أَخْرِجِي
حَمِيدَةً وَأَبْشَرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ . فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ، ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ
يَعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ، فَيَفْتَحُ لَهَا فَيَقَالُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ . فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ فَيَقَالُ : مَرْحَباً بِالنَّفْسِ
الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ . ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشَرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ . فَلَا
يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ تَعَالَى . فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءَ قَالَ : أَخْرِجِي
أَيْتَهَا النَّفْسَ الْخَبِيثَةَ ! كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ . أَخْرِجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشَرِي بِجَحِيمٍ وَغَسَاقٍ . وَآخِرُ مَنْ شَكَلَهُ
أَزْوَاجٌ . فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ يَعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يَفْتَحُ لَهَا فَيَقَالُ : مَنْ هَذَا ؟
فَيَقَالُ : فُلَانٌ . فَيَقَالُ : لَا مَرْحَباً بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ . ارجعي ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تَفْتَحُ
لَكَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تُصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ »^(٢) . أَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ .
وَذَكَرَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ
تَلْقَاهَا مَلَكَانِ يَصْعَدَانِ بِهَا »^(٣) الْحَدِيثُ .

(١) الْحَدِيثُ فِي كَشْفِ الْخَفَاءِ ج ١ ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ ج ١ / صلب

(٢) الْحَدِيثُ فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ (كِتَابُ الزُّهْدِ) بَابُ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَالْإِسْتِعْدَادِ لَهُ ج ٢ ص ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ رَقْمٌ ٤٢٦٢ خَرَجَهُ أَبُو
بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .

(٣) الْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (كِتَابُ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا) ج ٤ ص ٢٢٠٢ رَقْمٌ ٢٨٧٢ / ٧٥ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِلَفْظِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .

قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك : قال : ويقول أهل السماء . روح طيبة جاءت من قبل الأرض — صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمريه . فينطلق بها إلى ربه ثم يقول : انطلقوا بها إلى آخر الأجل ، وإن الكافر إذا خرجت روحه قال حماد : وذكر من نتنها وذكر لعناً . ويقول : أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض . قال : فيقال : انطلقوا بها إلى آخر الأجل قال أبو هريرة : فرد رسول الله — ﷺ — ربطة كانت عليّة على أنفه هكذا .

وروى البخارى ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبى — ﷺ — قال : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » ، فقالت عائشة — أو بعض أزواجه : انا لنكره الموت فقال : « ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب لقاءه ، وإن الكافر إذا حضره الموت بُشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه »^(١) أخرجه مسلم وابن ماجه من حديث عائشة وابن المبارك من حديث أنس بن مالك .

وخرج الترمذى فى أبواب القدر عن أنس قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً استعمله ، فقيل : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت »^(٢) قال أبو عيسى هذا حديث صحيح .

وعن قتادة : فى تفسير قوله تعالى : ﴿ روح وريحان ﴾ قال : الروح : الرحمة ، والريحان : تتلقاه به الملائكة عند الموت .

باب ما جاء فى كيفية التوفى للموتى ؟

واختلاف أحوالهم فى ذلك

ذكر الله تعالى : التوفى فى كتابه محملاً ومفصلاً : فقال الله — تعالى — : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾^(٣)

وقال : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾^(٤) ، وقال : ﴿ توفته رسلنا وهم

(١) الحديث فى البخارى (كتاب الإيمان) ج ٢ ص ١٣٥ طبعه دار السعادة فى هدايه البارى لترتيب أحاديث البخارى بلفظه . — وانظر صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب من أحب لقاء الله .

(٢) أحب الله لقاءه ج ٤ ص ٢٠٦٥ ، ٢٠٦٦ حديث رقم ١٥ / ٢٦٨٤ ، فعد ورد الحديث بلفظه من رواية عائشة .

الحديث فى سنن الترمذى : أبواب القدر باب ما جاء إن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار ج ٣ ص ٣٠٥ رقم ٢٢٢٩ عن أنس وورد الحديث بلفظه وقال : هذا حديث صحيح .

(٣) الآية سورة النحل من الآية ٣٢

(٤) سورة المسجد من الآية ١١

لا يفرطون ﴿١﴾ ، وقال : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ ﴿٢﴾ فهذا كله مجمل ، وقد بينه رسول الله — ﷺ — على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، وقال : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ ﴿٣﴾ ، وقال : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ ﴿٤﴾ وهذا مخصوص بمن قتل من الكفار يوم بدر بإتفاق أهل التأويل ، فيما قاله : بعض علمائنا ، وقد ذكر المهدوى وغيره : فى ذلك اختلافاً ، وأن الكفار حتى الآن يتوفون بالضرب ، والهوان والله أعلم .

فصل : إن قال : قائل : كيف : الجمع بين هذه الآى وكيف : يقبض ملك الموت فى زمن واحد أرواح من يموت بالشرق والمغرب ؟ قيل له : اعلم أن التوفى مأخوذ من توفيت الذين ولستوفيته إذا قبضته ولم يدع منه شيئاً ، فتارة يضاف إلى ملك الموت لمباشرته ذلك ، وتارة إلى أعوانه من الملائكة ، لأنهم قد يتولون ذلك أيضاً ، وتارة إلى الله — تعالى — وهو المتوفى على الحقيقة كما قال سبحانه : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ ﴿٥﴾ ، وقال ﴿ وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ﴾ ﴿٦﴾ ، وقال : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ﴾ ﴿٧﴾ فكل مأمور من الملائكة فإنما يفعل ما يفعل بأمره .

وقال الكلبي : يقبض ملك الموت الروح من الجسد ، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمناً ، وإلى ملائكة العذاب إن كان كافراً ، وهذا المعنى منصوص فى حديث البراء ، وسيأتى ان شاء الله .

باب ما جاء إن ملك الموت — عليه السلام — هو القابض لأرواح الخلق وانه يقف على كل بيت فى كل يوم خمس مرات

قال الله تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾
وروى جعفر بن محمد ، عن أبيه قال : نظر رسول الله — ﷺ — إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال : له النبى — ﷺ — : « إرفق بصاحبى فإنه مؤمن » ﴿٨﴾ فقال : ملك

(١) سورة الأنعام من الآية ٦١

(٢) سورة النحل من الآية ٢٨

(٣) سورة الأنفال الآية ٥٠

(٤) سورة (محمد) من آية ٢٧

(٥) سورة الزمر من الآية ٤٢

(٦) سورة الحج من الآية ٦٦

(٧) سورة الملك من الآية ٢

(٨) الحديث فى تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٩٣ عن رواية جعفر بن محمد عن أبيه ورد هذا الحديث بلفظه (تفسير سورة السجدة)

فى قوله تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ .

الموت — عليه السلام — : يا محمد طب نفسا ، وقر عينا فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر ، إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم ، وكبيرهم منهم لأنفسهم ، والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها .

قال جعفر بن محمد : بلغنى أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ذكره الماوردى .
قال الشيخ المؤلف — رحمه الله — وفى هذا الخبر ما يدل على أن ملك الموت هو الموكل بقبض كل ذى روح ، وأن تصرفه كله بأمر الله — عز وجل — وبخلقه واختراعه .

باب ما يتبع الميت إلى قبره ، وبعد موته وما يبقى معه فيه

روى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يتبع الميت ثلاث . فيرجع اثنان ويبقى واحد : يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله »^(١) .
وقال اسماعيل بن رافع : ما من ذى رحم أوصل لذى رحمه ، من رجل أتبع ذا رحم بحج أو عتق أو صدقة .

باب ما جاء فى هول المطلع

قال أبو الدرداء — رضى الله عنه — : « أضحكنى ثلاث وأبكاني ثلاث : أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه ، وضاحك ملء فيه لا يدرى أأرضى الله أم أسخطه ؟ وأبكاني ثلاث : فراق الأحبة محمد — ﷺ — وحزبه ، وأحزنتنى هول المطلع عند غمرات الموت ، والوقوف بين يدى الله يوم تبدو السريرة علانية ثم لا يدرى إلى الجنة أو إلى النار » أخرج ابن المبارك .
قال وأخبرنا محمد ، بلغ به أنس بن مالك قال : ألا أحدثكم بيومين ولييتين لم تسمع الخلائق بمثلهن : أول يوم يجيئك البشير من الله — تعالى — إما برضاه ، وإما بسخطه ، ويوم تعرض فيه على ربك أخذاً كتابك ، إما يمينك وإما بشمالك . وليلة تستأنف فيها المبيت فى القبور ولم تبت فيها قط . وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة .

(١) الحديث فى مسلم « كتاب الزهد والرقائق » ج ٤ ص ٢٢٧٣ حديث رقم ٥ / ٢٩٦٠ فقد الحديث بلفظه من رواية لأنس .

باب ما جاء أن القبر أول منازل الآخرة وفي البكاء عنده ، وفي حكمه والاستعداد له

روى ابن ماجه عن هانيء بن عثمان قال : كان عثمان — رضى الله عنه — إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فليل له . تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكي من هذا ؟ قال : إن رسول الله — ﷺ — قال : « إن القبر أول منازل الآخرة . فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » . قال ما رأيت منظراً قط إلا ، والقبر أفظع منه ^(١) .

وروى ابن ماجه عن البراء ، قال : كنا مع رسول الله — ﷺ — في جنازة . فجلس على شفير القبر فبكى وأبكى حتى بلّ الثرى ثم قال : « يا إخواني لمثل هذا فاعدوا » ^(٢) .
وروى مسلم عن جابر ، قال : نهى رسول الله — ﷺ — « أن يخصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه » ^(٣) .

قال علماؤنا — رحمهم — : وكره مالك تخصيص القبور ، لأن ذلك من المباهاة وزينة الحياة الدنيا ، وتلك منازل الآخرة ، وليس بموضع المباهاة ، وإنما يزين الميت في قبره عمله . وأنشدوا :
وإذا وليت أمور قوم ليلة فاعلم بأنك بعدها مسؤول
وإذا حُمِلت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول
يا صاحب القبر المنقش سطحه ولعله من تحته مغلول
وفي صحيح سلم ، عن أبي الهياج الأسدي ، قال : قال لي علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — :
« ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله — ﷺ — ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » ^(٤) .

وقال أبو داود في المراسيل ، عن عاصم بن أبي صالح : رأيت قبر النبي — ﷺ — شبراً ، أو نحواً من شبر ، يعنى : فى الارتفاع .

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٢٦ كتاب الزهد — باب ذكر القبر والبل

(٢) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٠٣ رقم ٤٩١٥ عن البراء

(٣) الحديث انظر صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب النهى عن تخصيص القبر والبناء عليه فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر ج ٢

ص ٦٦٧ حديث رقم ٩٤ / ٩٧٠

(٤) الحديث انظر صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب الأمر بتسوية القبر ج ٢ ص ٦٦٦ حديث رقم ٩٣ / ٩٦٩ فقد ورد الحديث

بلفظه عن أبى الهياج الأسرى .

قال علماءنا : — رحمة الله عليهم — يسمن القبر ليعرف كى يحترم ويمنع من الارتفاع الكثير الذى كانت الجاهلية تفعله ، فإنها كانت تعلو عليها . وتبنى فوقها تفخيماً لها وتعظيماً ، وأنشدوا :

أرى أهل القصور إذا أميتوا بنوا فوق المقابر بالصخور
أبنوا إلا مباهاة وفخراً على الفقراء حتى فى القبور
لعمرك لو كشفت التربة عنهم فما تدرى الغنى من الفقير
ولا الجلد المباشر ثوب صوف من الجلد المباشر للحريـر
إذا أكل الثرى هذا وهذا فما فضل الغنى على الفقير ؟

يا هذا ، أين الذى جمعه من الأموال ، وأعدده للشدائد والأهوال ، لقد أصبحت كفك منه عند الموت خالية صفراً ، وبدلت من بعد غناك ، وعزك ذلاً وفقراً ، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره ويا من سلب من أهله ودياره ؟ ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد ، وأقل اهتمامك لحمل الزاد ، إلى سفرك البعيد ، وموقفك الصعب الشديد ، أو ما علمت يا مغرور : أن لا بد من الارتحال ، إلى يوم شديد الأهوال ، وليس ينفعك ثم قيل ولا قال ، بل يعد عليك بين يدي الملك الديان ، ما بطشت اليدان ، ومشيت القدمان ، ونطق به اللسان ، وعملت الجوارح والأركان ، فإن رحمك فألى الجنان ، وإن كانت الأخرى فألى النيران ، يا غافلاً عن هذه الأحوال . إلى كم هذه الغفلة والتوان ، أتحسب أن الأمر صغير ، وترغم أن الخطب يسير ؟ وتظن أن سينفعك حالك ، إذ آن إرتحالك ، أو ينقذك مالك ، حين توبقك أعمالك ، أو يغنى عنك ندمك ، إذ زلت بك قدمك أو يعطف عليك معشرك ، حين يضمك محشرك ، كلا والله ساء ماتتوهم ، ولا بد لك أن ستعلم . لا بالكفاف تقنع ، ولا من الحرام تشبع ، ولا لللغات تستمع ، ولا بالوعيد ترتدع دأبك أن تنقلب مع الأهواء ، وتخط خطب العشواء ، يعجبك التكاثر بما لديك ولا تذكر ما بين يديك ، يا نائماً فى غفلة وفى خبطه يقظان ، إلى كم هذه الغفلة والتوان أتزعم أن ستترك سدى ، وأن لا تحاسب غداً ، أم تحسب أن الموت يقبل الرشا ، أم تميز بين الأشد والرشا ، كلا والله لن يدفع عن الموت مال ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبور إلا العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى وحقق ما ادعى ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الفائز من ارعوى ﴿١﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ﴿٢﴾ فانتبه من هذه الرقدة واجعل العمل الصالح لك عدة ، ولا تتمن منازل الأبرار ، وأنت مقيم على الأوزار عامل بعمل الفجار ، بل أكثر من الأعمال الصالحات ، وراقب الله فى الخلوات ، رب الأرض والسماوات ، ولا يغرنك الأمل ، فتزهد عن العمل ، أو ما سمعت الرسول حيث يقول : « لما جلس على القبور . يا أخوانى ، لمثل هذا فأعدوا » ﴿٣﴾ أو ما سمعت الذى

(١) سورة النجم الآيتان ٣٩ ، ٤٠

(٢) الحديث فى سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) ج ٢ ص ١٤٠٣ رقم ٤١٩٥

خلقك فسواك يقول : ﴿ وتزودوا ، فإن خير الزاد التقوى ﴾^(١) .
وأنشدوا :

تزود من معاشك للمعاد وقم لله وأعمل خيراً زاد
ولا تجمع من الدنيا كثيراً فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد
وقال آخر :

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً والقوم حولك يضحكون سروراً
فأمل ليوم أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسروراً
وروى عن محمد القرشي أنه قال : سمعت شيخنا يقول : أيها الناس : إني لكم ناصح ، وعليكم
شفيق ، فاعملوا في ظلمة الليل لظلمة القبور ، وصوموا في الحر قبل يوم النشور ، وحجوا يحط عنكم
عظائم الأمور ، وتصدقوا مخافة يوم عسير .

باب ذكر حديث البراء المشهور الجامع لأحوال الموتي عند قبض أرواحهم وفي قبورهم

أخرجه أبو داود الطيالسي ، وعند بن حميد في مسنديهما ، وعلى بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية ،
وهناد بن السري في زهده . وأحمد بن حنبل في مسنده وغيرهم .. وحديث أبي عوانه أتمهما قال البراء :
خرجنا مع رسول الله ﷺ — في جنازة رجل من الأنصار فأنتهينا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس
رسول الله ﷺ — : « وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير » قال عمر بن ثابت : (وقع)
ولم يقله أبو عوانة ، فجعل يرفع بصره ، وينظر إلى السماء ، ويخفض بصره ، وينظر إلى الأرض ،
ثم قال : « أعوذ بالله من عذاب القبر » قالها مراراً ثم : قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من
الآخرة وانقطاع من الدنيا ، جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فيقول اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى
مغفرة من الله ، ورضوان فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقا » قال : عمرو في حديثه : ولم
يقله أبو عوانة « وإن كنتم ترون غير ذلك . وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه ، كأن وجوههم
الشمس معهم أكفان من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوطها فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك
لم يدعوها في يده طرفة عين » قال : فلذلك قوله تعالى : ﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ قال :

فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت ، فتخرج الملائكة فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا : ما هذه الروح ؟ فيقال : فلان ، بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به أبواب السماء الدنيا فيفتح له ، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى إلى السماء السابعة ، فيقال : اكتبوا كتابه في عليين ﴿ وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾ فيكتب كتابه في عليين ثم يقال : ردوه إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها نعيدهم ، ومنها نخرجهم تارة أخرى ، قال : فرد إلى الأرض ، وتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان شديدا الانتهاز فينتهرانه ويجلسانه ، فيقولان من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول ربي الله ، ودينى الإسلام ، فيقولان : فما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان : وما يدريك ؟ فيقول : جاءنا بالبينات من ربنا فأمنت به وصدقت قال : وذلك قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ قال : وينادى منادى السماء أن قد صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وأروه منزله منها ويفسح له مد بصره ، ويمثل عمله له فى صورة رجل حسن الوجه : طيب الرائحة ، حسن الثياب فيقول : أبشر بما أعد الله لك ، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم فيقول : بشرك الله بخير ، من أنت فوجهك الوجه الذى جاء بالخير ؟ فيقول : هذا يومك الذى كنت توعده ، أو الأمر الذى كنت توعده أنا عملك الصالح فو الله ما علمتك إلا كنت سريعاً فى طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً . فيقول : يارب أقم الساعة كى أرجع إلى أهلى ومالى .. قال : « فإن كان فاجراً وكان فى إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة جاء ملك الموت فجلس عند رأسه فقال : أخرجى أيتها النفس الخبيثة ، أبشرى بسخط من الله وغضبه فتزل الملائكة سود الوجوه معهم مسوح من نار فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها فى يده طرفة عين ، قال : فتفرق فى جسده فيستخرجها ، تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب فى الصوف المبتل ، فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجُدت ، فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض ، إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا فلا يفتح لهم فيقولون ردوه إلى الأرض إني وعدتهم انى منها خلقتهم وفيها نعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى قال : فيرمى به من السماء قال وتلا هذه الآية : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ قال : فيعاد إلى الأرض وتعاد فيه روحه ، ويأتيه ملكان شديداً الانتهاز فينتهرانه ، ويجلسانه ، فيقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدري ، فيقولان فما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فلا يهتدى لاسمه فيقال محمد ، فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون ذلك قال : فيقال : لا دريت ، فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويمثل له عمله فى صورة رجل قبيح الوجه متن الریح ، قبيح الثياب ، فيقول : أبشر بعذاب الله وسخطه ، فيقول : من أنت فوجهك الذى جاء بالشر ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث فو الله ما علمتك إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله سريعاً إلى معصية الله ، قال عمرو فى حديثه عن المنهال

عن زاذان عن البراء عن النبي ﷺ — : « فيقيض له أصم أبكم بيده مرزبة لو ضرب بها جبل صار تراباً » ، أو قال : رميماً فيضربه به ضربة تسمعه الخلائق إلا الثقلين ، ثم تعاد فيه الروح فيضرب ضربة أخرى ^(١) ، وفي رواية على بن معبد ثم يقال : افرشوا له لو حين من نار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيفرش له لوحان من نار ، ويفتح له باب إلى النار . أ هـ .

الموت بحر طافح موج — تذهب فيه حيلة السابح
يا نفس إني قائل فاسمعي مقالة من مشفق ناصح
لا ينفذ الإنسان في قبره غير التقى والعمل الصالح
قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور ، ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور ﴾ وهى : النفخة الآخرة للبعث ، ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ ، قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : سائق : يسوقها إلى الله تعالى ، وشاهد يشهد عليها بما عملت ، وقال مطرف عن أبى جعفر مولى أشجع عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال السائق الملك والشهيد العمل . وقال ابن جرير « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » ، أى : ملك يسوقه إلى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله وهذا هو الظاهر من الآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ ، أى : لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن هذا الذى عانيت من الأهوال والشدائد ، فجلبنا ذلك لك ، وأظهرناه لعينيك حتى رأيت وعانيت فزال غطاءك عنك هذه الغفلة . ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ أى : قوى نافذ يرى ما كان محجوباً عنه . وقال مجاهد : ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ يعنى : نظرك إلى لسان ميزانك حين

(١) الحديث انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ فقد ورد الحديث عن البراء بن عازب وهو حديث طويل وهو مختلف في ترتيب جملة عما هو مدون هنا مع الاتحاد في المعنى والمراد .

وانظر مسند أبى داود الطيالسى ج ٣ ص ١٠٢ حديث رقم ٧٥٣ الحديث الطويل المروى عن أبى عوانة .

(٢) سورة (يس) الآيات ٥١ — ٥٣

توزن سيئاتك وحسناتك . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً ﴾^(١) .

النفخ في الصور

قال القرطبي — رحمه الله — :

« قال : علماؤنا — رحمهم الله — فالنفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور وغيرهم ، فيعيد الله الرفات من أبدان الأموات ويجمع ما تفرق منها في البحار وبطون السباع وغيرها ، حتى تصير كهياتها الأولى ، ثم يجعل فيها الأرواح فتقوم الناس كلهم أحياء .

اخرج الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعرابي إلى النبي — ﷺ — فقال : « ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه »^(٢) قال هذا حديث حسن .

وعن أبى سعيد الحذرى قال : قال رسول الله — ﷺ — : « وكيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن ، وحنا الجبهة ، وأصغى السمع ينتظر متى يؤمر بالنفخ ؟ فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي — ﷺ — فقال : لهم : قولوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل »^(٣) قال حديث حسن .

ومعنى التقم أى وضع طرفه فى فمه

وأخرج أبو داود الطيالسى ، والبيهقى ، وغيرهما ، عن أبى رزين العقيلي قال : قلت : يا رسول الله : كيف يعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادى قومك جذباً ، ثم مررت به يهتز خضراً ؟ قال : نعم قال : « فلك آية الله فى خلقه »^(٤) .

وهذا الحديث : موافق لقوله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى

(١) سورة النبأ من الآية ٤٠

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (أبواب صفة القيامة — باب ما جاء فى الصور ج ٤ ص ٤١ حديث رقم ٢٥٤٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو بن العاص . وقال حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى « أبواب صفة القيامة باب ما جاء فى الصور ج ٤ ص ٤٢ حديث رقم ٢٥٤٨ فقد ورد الحديث من رواية أبى سعيد ولفظه : وكيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي — ﷺ — فقال لهم : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

وقد روى من غير هذا وجه هذا الحديث عن عطية عن أبى سعيد عن النبي — ﷺ — نحوه .

(٤) الحديث فى مسند أبى داود الذيل ج ٤ ص ١٤٧ . من رواية أبى رزين العقيلي .

وانظر مسند أحمد ج ٤ ص ١١ ، ١٢ فقد وردت أحاديث متعددة بهذا المعنى .

لعلكم تذكرون ﴿١﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ ﴿٢﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة .

باب : يبعث كل عبد على ما مات عليه

روى مسلم : عن جابر بن عبد الله ، قال : سمعت النبي — ﷺ — يقول : « يبعث كل عبد على ما مات عليه » ﴿٣﴾ .

وروى البخارى عن عبد الله ، بن عمر قال : قال رسول الله — ﷺ — « إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم » ﴿٤﴾ .

وروى مالك عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « والذي نفسى بيده لا يُكَلِّم أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يُكَلِّم في سبيله ، إلا جاء يوم القيامة ، وجرحه يشعب دماً اللون لون الدم ، والعرف عرف المسك » ﴿٥﴾ واخرجه أيضا البخارى ومسلم .

وروى أبو هذيل بن هذيل : حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله — ﷺ — : من مات سكران فإنه يعاين ملك الموت سكران ، ويعاين منكرًا ونكيرًا سكران ويبعث يوم القيامة سكران إلى خندق في سوط جهنم يسمى السكران ، فيه عين يجرى ماؤها دماً ، لا يكون له طعام ولا شراب إلا منه » .

وروى مسلم عن ابن عباس أن رجلاً كان مع رسول الله — ﷺ — محرماً فوقصته ناقته فمات فقال رسول الله — ﷺ — « اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه في ثوبه ، ولا تمسوه بطيب ، ولا تخمروا رأسه ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً » واخرجه البخارى أيضا .

قوله تعالى : ﴿ وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ، ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلهاً آخر فآلقيه في العذاب الشديد ﴾ قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ﴾ .

(١) سورة الاعراف الآية ٥٧

(٢) سورة فاطر الآية ٩

(٣) الحديث في صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٢٨٧٨ / ٨٣ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٢٨٧٩ / ٨٤ — وفي البخارى (كتاب الفتن) باب إذا أنزل الله بقوم عذاباً — ج ٩ ص ٧١ .

(٥) الحديث : وفي الموطأ للإمام مالك ج ٢ ص ٤٦١ عن أبى هريرة بلفظه (كتاب الجهاد) وباب الشهداء في سبيل الله .

والحديث في البخارى (كتاب الجهاد) باب من يحرم في سبيل الله — عز وجل — ج ٤ ص ٢٢ عن أبى هريرة .

والحديث في مسلم (كتاب الامارة) باب — فضل الجهاد والخروج في سبيل الله ج ٣ ص ١٩٩٦ رقم ١٠٣ ، ١٠٥ / ١٨٧٦ .

قال ابن القيم — رحمه الله — في هذه الآيات : أخبر سبحانه أنه قرينه ، وهو الذى قرن به فى الدنيا من الملائكة ، يكتب عمله وقوله ، يقول لما يحضره ! هذا الذى كنت وكلتني به فى الدنيا قد أحضرته وأتيتك به ، هذا قول مجاهد ، وقال ابن قتيبة : المعنى : هذا ما كتبه عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي والتحقيق أن الآية : تتضمن الأمرين ، أى : هذا الشخص الذى وكلت به ، وهذا عمله الذى أحصيته عليه فحينئذ يقال : ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد **مريب الذى جعل مع الله ألهاً آخر فإلغياه فى العذاب الشديد** ﴾ وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد ، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وإن كان واحداً ، وهو مذهب معروف من مذاهب العرب فى خطابها ، أو تكون الألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، ثم ذكر — سبحانه — صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات :

أحدها : أنه كفار لنعم الله وحقوقه ، كفار برسله وملائكته ، كفار بكتبه ولقائه .

الثانية : أنه معاند للحق بدفعه جحداً وعناداً .

الثالثة : أنه مناع للخير ، وهذا يعم منعه للخير الذى هو احسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله ، والخير الذى هو احسان إلى الناس ، فليس فيه خير لنفسه ولا لبنى جنسه كما هو حال أكثر الخلق .

الرابعة : أنه مع منعه للخير ، معتد على الناس ، ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه .

الخامسة : أنه مريب ، أى : صاحب ريب وشك ، ومع هذا فهو آت لكل ريبة .

السادسة : أنه مع ذلك مشرك بالله ، قد اتخذ مع الله ألهاً آخر يعبد ، ويحبه . ويغضب له ، ويرضى

له ، ويخلف باسمه ، وينذر له ، ويوالى فيه ، ويعادى فيه : فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل

الأمر عليه ، وأنه هو الذى أطغاه أضله . فيقول قرينه : لم يكن لى قوة أن أضله وأطغيه ولكن كان

فى ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحق ، كما قال إبليس لأهل النار : ﴿ وما كان لى عليكم من

سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾^(١) .

وعلى هذا ، فالقرين هنا فى قوله تعالى : ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد ﴾

هو شيطانه يختصمان عند الله .

وقالت طائفة : بل قرينه ههنا هو : الملك فيدعى عليه أنه راد عليه فيما كتبه عليه وطغى . وأنه

لم يفعل ذلك كله ، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهل حتى يتوب ، فيقول الملك : ما زدت

فى الكتابة على ما عمل ولا أعجلته عن التوبة ، ﴿ ولكن كان فى ضلال بعيد ﴾ فيقول : الرب تعالى :

﴿ لا تختصموا لى ﴾ ، وقد أخبر — سبحانه — عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه فى سورتي

الصفات والأعراف ، وأخبر عن اختصاص الناس بين يديه في سورة الزمر ، وأخبر عن اختصاص أهل النار فيها في سورة (الشعراء) وسورة (ص) .

ثم أخبر — سبحانه — أنه لا يبدل القول لديه ، فقيل : المراد بذلك قوله : ﴿ **لَأْمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ ^(١) ووعدته لأهل الإيمان بالجنة وأن هذا لا يبدل ولا تخلف . قال ابن عباس : يريد ما لوعدى خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي . قال مجاهد : قد قضيت ما أنا قاض . وهذا أصح القولين في الآية .. وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَنَا بِظِلَامٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ من تمام قوله : ﴿ **مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدِي** ﴾ في المعنى ، أى : ما قلته ووعدت به لا بد من فعله . ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور . قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لَجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ** ، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد . ﴾

يخبر — تعالى — أنه يقول لجهنم يوم القيامة : هل امتلأت ؟ وذلك لأنه — تبارك وتعالى — وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين ، فهو — سبحانه — وتعالى — يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى وهى تقول : هل من مزيد : أى : هل بقى شيء تزيدنى ؟ قال ابن كثير هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث . قال البخارى : عند تفسير هذه الآية : بسنده عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — « يلقى فى النار وتقول هل من مزيد ؟ يضع قدمه فيها فتقول قط قط » ^(٢) .

وهناك طريق آخر للحديث قال البخارى : بسنده عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « **تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ** ، فقالت : النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم قال الله : — عز وجل — للجنة : أنت رحمتى ، أرحم بك من أشياء من عبادى ، وقال للنار : إنما أنت عذاب ، أعذب بك من أشياء من عبادى ، ولكل واحدة منكما ، ملؤها ، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله ، فتقول : قط قط فهناك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله — عز وجل — من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله — عز وجل — ينشئ لها خلقاً آخر » ^(٣) . وكذلك عند الإمام مسلم وأحمد ، وقال : الحافظ أبو يعلى فى

(١) سورة السجدة من الآية ١٣

(٢) انظر الحديث فى صحيح البخارى تفسير سورة « ق » ج ٦ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس .

(٣) الحديث : انظر صحيح البخارى تفسير سورة « ق » ج ٦ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

— وفى صحيح مسلم (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء رقم ٢٨٤٦ / ٣٤ ورد الحديث عن أبى هريرة .

— وفى سند الامام أحمد ج ٢ ص ٣١٤ ورد الحديث بلفظه .

مسنده : عن أبي بن كعب — رضى الله عنه قال : أن رسول الله ﷺ — قال : « يعرفني ﷺ — تعالى — نفسه يوم القيامة ، فأسجد سجدة يرضى بها عني ، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي في الكلام ، ثم تمر أمتي على الصراط — مضروب بين ظهراي جهنم ، فيمرون أسرع من الطرف والسهم ، وأسرع من أجود الخيل ، حتى يخرج الرجل منها يحبو ، وهي الأعمال . وجهنم تسأل المزيدي ، حتى يضع فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط ، وأنا على الحوض » : قيل : وما الحوض يا رسول الله ؟ قال — ﷺ — : « والذي نفسي بيده ، إن شرابه أبيض من اللبن وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك ، وآنيته أكثر من عدد النجوم ، لا يشرب منه إنسان فيظماً أبداً ، ولا يصرف فيروى أبداً » (١) .

وهذا القول : هو اختيار ابن جرير ، وقد قال : ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس — رضى الله عنهما — في قوله تعالى : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ قال : ما امتلأت قال : تقول : وهل فئ من مكان يزداد فئ . وكذا رواه الحكم بن أبان عن إعرمة . ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ ، وهل فئ مدخل واحد ، قد امتلأت .

وكذا روى عن مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فعند هؤلاء أن قوله تعالى : ﴿ هل امتلأت ﴾ إنما هو بعد ما يضع قدمه عليها قدمه ، فتزوي وتقول : حينئذ : هل بقي فئ ﴿ مزيد ﴾ يسع شيئاً ؟ قال العوفي : عن ابن عباس — رضى الله عنهما — وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾ أى : وادنيت وقربت الجنة وذلك يوم القيامة وليس يبعد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب كقوله تعالى : ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ (٢) ، وكقوله تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

قال ابن القيم : — رحمة الله — : أخبر عن تقرب الجنة للمتقين ، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

(١) سورة التكوين الآية ١٣

(٢) الحديث في سند الامام احمد ج ٢ ص ٥٠٧

وفي الدر المنثور في التفسير ج ٧ ص ٦٠٣ في تفسير سورة « ق » عن أبي بن كعب .

وانظر ابن كثير تفسير سورة « ق » ج ٧ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ ط / الشعب

وانظر كثر العمال ج ١٤ ص ٤٣٦ (باب الشفاعة) رقم ٣٩١٩٦ .

أحدها : أن يكون أوّاباً ، أى : رجّاعاً إلى الله من معصيته إلى طاعته ، ومن الغفلة إلى ذكره قال عبيد بن عمير : الآواب الذى يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها ، وقال سعيد بن المسيب : هو الذى يذنب ، ثم يتوب ، ثم يذنب ، ثم يتوب .

الثانية : أن يكون حفيظاً ، قال ابن عباس : لما ائتمنه الله عليه وافترضه ، وقال قتادة : حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته ، ولما كانت النفس لها قوتان : قوة الطلب وقوة الإمساك كان الآواب مستعملاً لقوة الطلب فى رجوعه إلى الله ومرضاته ، وطاعته ، والحفيظ مستعملاً : الممسك نفسه عما حرم عليه ، والآواب : المقبل على الله بطاعته .

الثالثة : قوله : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب ﴾ يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته ، وقدرته ، وعلمه ، وإطلاعه على تفاصيل أحوال العبد ، ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله ، وأمره ونهيه ، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ، ولقائه فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله .

الرابعة : قوله : ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ قال ابن عباس : راجع عن معاصى الله ، مقبل على طاعة الله ، وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبة والاقبال عليه ، ثم ذكر — سبحانه — جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله تعالى : ﴿ ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ . أى : وتقول لهم الملائكة تكرمة لهم . ادخلوا الجنة سالمين من العذاب والهموم والأكدار ، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أى : الذى لا موت بعده ولا ظعن ولا رحيل . وقوله : ﴿ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ أى : لهم إجابة لسؤالهم كل ما يشتهون ، ثم نزيدهم فوق ما سألوا مما لم تره أعينهم ولم يدر بخلدهم . كقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾^(٢) .

روى مسلم فى صحيحه من حديث صهيب : قال : قرأ رسول الله — ﷺ — (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ويزحزحنا من النار ؟ ! فيكشف الحجاب ، فينظرون الله فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة^(٣) فالحسنى : هى الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله — عز وجل — كذلك فسرّها رسول الله — ﷺ — .

(١) سورة (يس) الآية ٥٨

(٢) سورة (يونس) الآية ٢٦

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الايمان) باب اثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى — ج ١ ص ١٦٣ رقم ٢٩٧ / ١٨١ عن صهيب .

وعن أنس — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن فى الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال ، فتحشو فى وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهلهم ، وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلهم : والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً ! فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً »^(١) . رواه مسلم .

وعن سهل بن سعد — رضى الله عنه — قال : شهدت من النبى — ﷺ — مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال : فى آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ إلى قوله : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ »^(٢) .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة — رضى الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى مناد : إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا ، فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا ، فلا تبأسوا أبداً »^(٣) . رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن الله عز وجل يقول : لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك . ربنا وسعديك ، والخير فى يدك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى ؟ يا ربنا وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك : فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى : شئ أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً »^(٤) متفق عليه .

فحى على جنات عدن فإنها	منازلنا الأولى وفيها الخيم
ولكننا سبى العدو فهل ترى	نعود إلى أوطاننا ونسلم
وحى على يوم الميزد الذى به	زيارة رب العرش فاليوم موسم
وحى على وادٍ هنالك أنيح	وتربته من إذفر المسك أعظم
منابر من نور هناك وفضة	ومن خالص القيان لا تنقصم
وكثبان مسك قد جعلن مقاعدا	لمن دون أصحاب المنابر يعلم

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢١٧٨ رقم ٢٨٣٣ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) عن سهل بن سعد الساعدى ج ٤ ص ٢١٥٧ رقم ٢٨٢٥ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢١٨٢ رقم ٢٨٣٧ من رواية أبى سعيد وأبى هريرة .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم : (كتاب الجنة ونعيمها) باب إحلال الرضوان على أهل الجنة .. ج ٤ ص ٢١٧٦ رقم ٢٨٢٩ .

وفى صحيح البخارى : (كتاب الرقاق) باب صفة الجنة والنار ج ٨ ص ١٤٢ من رواية أبى سعيد الخدرى .

فبينا هموفى عيشهم وسرورهم إذا هم بنور ساطع أشرقت له تجلى لهم رب السموات جهرة سلام عليكم يسمعون جميعهم يقول سلونى ما اشتهيتم فكل ما فقالوا جميعاً نحن نسألك الرضا فيعطيتهم هذا ويشهد جمعهم فيلبائعاً هذا يخس معجل فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبة وأرزاقهم تجرى عليهم وتقسم بأفطار الجنات لا يتوهم فيضحك فوق العرش ثم يكلم بأذانهم تسليمه إذ يسلم تريدون عندى أننى أنا أرحم فأنت الذى تولى الجميل وترحم عليه تعالى الله فالله أكرم كأنك لا تدرى ، بلى سوف تعلم وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

مواعظ وآداب

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدِ ﴿٤٥﴾

معانى المفردات

﴿ القرن ﴾ الجيل من الناس ، ﴿ بطشاً ﴾ أى : قوة ، ﴿ فنقبوا في البلاد ﴾ أى : ساروا فيها يتتغون الأرزاق والمكاسب . ﴿ محيص ﴾ مهرب ، ﴿ لذكرى ﴾ أى : لعبرة ، ﴿ قلب ﴾ أى : لب يعى به ، ﴿ أو ألقى السمع ﴾ أى : أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحي ، ﴿ شهيد ﴾ أى : حاضر فهو من الشهود بمعنى الحضور . ﴿ لغوب ﴾ أى : تعب ، ﴿ سبح بحمد ربك ﴾ أى : نزهه عن كل نقص وأثبت له كل كمال ، ﴿ أدبار السجود ﴾ أى : أعقاب الصلوات ، ﴿ يوم ينادى المنادى ﴾

أى : يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى . ﴿ من مكان قريب ﴾ أى : بحيث لا يخفى الصوت على أحد . ﴿ الصيحة ﴾ النفخة النائية ، ﴿ بالحق ﴾ أى : بالبعث والجزاء ، ﴿ يوم الخروج ﴾ أى : من القبور ، ﴿ تشقق ﴾ أى : تتصدع ، ﴿ بجبار ﴾ أى : بمسيطر ومسلط . إنما أنت منذر وداع .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أُنذَرهم — سبحانه — بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم — أُنذَرهم بما يعجل لهم في الدنيا من ضروب العذاب سنة الله فيمن تقدمهم من المكذبين قبلهم ، ووسط بين ذلك المتقين ومايلا قوته من النعيم ، ليكون أمرهم بين الخوف والطمع ، ومن ثم ذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد ، ثم ذكر أن هذا عظة وذكرى لكل ذى لب وع سميع لما يلقي إليه ، ثم أعاد الدليل مرة أخرى على إمكان البعث ، فأبان أنه قد خلق السموات والأرض في ستة أيام وما أصابه — سبحانه — أدنى تعب ولا لغوب كما قال — سبحانه — ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ ثم أمره بالصبر على ما يقولون ، وتنزيه الله عن كل نقص آناء الليل وأطراف النهار ، فها هو ذا قد اقترب يوم البعث والنشور وسُمع صوت الداعي لذلك بعد النفخ في الصور ، وتشققت الأرض سراعاً وخرج الناس من القبور ، وإنا لنعلم ما يقول المشركون في البعث والنشور ، فدعهم في غيهم يعمهون ، فما أنت عليهم بجبار تلزمهم الإيمان بعد اليوم ، وما فيه من هول ، إن أنت إلا نذير ، ولا يؤمن بك إلا من يخاف عقابى ، وشديد وعيدى ، ولا تنفع الذكرى إلا المؤمنين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيى ﴾ .
أى : وكثير من الأمم قبلهم أهلكناهم وكانوا أشد من قومك بطشاً ، وأكثر منهم قوة : كعاد وثمود وتبع ، فنقبوا في البلاد وسلکوا كل طريق ابتغاء الرزق ، ولم يجدوا لهم من أمر الله مهرباً ولا ملجأً حين حُم القضاء ، وهكذا حالكم ، فحذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب العاجل في الدنيا ، والآجل يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ ، أى :
إن فيما تقدم لتذكرة وعبرة (لمن كان له قلب) ، أى : لمن كان له قلب واع يتدبر به الحقائق ، ويعى ما يقال له . ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ أى : استمع القرآن وهو شاهد القلب . وقد ورد في هذه الآية شروط الانتفاع بالقرآن الكريم .

قال ابن القيم رحمه الله :

« إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به — سبحانه — منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى : ﴿ **إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ ، وذلك إن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضى ومحل قابل وشرط لحصول الأثر ، وانتفاء المانع الذى يمنع منه ، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد .. فقله : ﴿ **إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى** ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا ، وهذا هو المؤثر ، وقوله : ﴿ **لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ** ﴾ فهذا هو المحل القابل . والمراد به : القلب الحى الذى يعقل عن الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ . لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا** ﴾^(١) أى : حى القلب .

وقوله : ﴿ **أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ** ﴾ ، أى : وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، وهذا شرط التأثير بالكلام .

وقوله : ﴿ **وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ أى : شاهد القلب حاضر غير عائب .

قال ابن قتيبه : استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب وغيبته ، عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله ، فإذا حصل المؤثر : وهو القرآن ، والمحل القابل : وهو القلب الحى ، ووجد الشرط ، وهو الإصغاء ، وانتقى وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب ، وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ، فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ** ﴾ .

أخبر — سبحانه وتعالى — أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا اعياء ، تكذيب لأعدائه من اليهود حيث قالوا : إنه استراح في اليوم السابع تعالى الله عما يقولون ، بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ﴿ **فاصبر على ما يقولون** ﴾ ثم أمر — سبحانه — نبيه بالتأسي به — سبحانه — في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه ، كما أنه — سبحانه — صبر على قول اليهود أنه استراح . ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه — سبحانه — ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ ثم أمره — سبحانه — بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وبالليل وأدبار السجود .

قال ابن عباس (أدبار السجود) هو الوتر ، وقال عمر وعلى وأبو هريرة وابن عباس في رواية أخرى هما الركتان بعد المغرب وعن ابن عباس رواية ثالثة أنه التسييح باللسان ادبار الصلوات المكتوبات . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾^(١)

وكقوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن أنأى الليل فسبح وأظراف النهار لعلك ترضى ﴾^(٢) . قوله تعالى : ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ واستمع ﴾ يا محمد ، ﴿ يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ قال قتادة : قال كعب : الأحبار يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادى على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ ، يعنى النفخة في الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون . ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ أى : من القبور ، ﴿ إنا نحن ونميت وإلينا المصير ﴾ أى : هو — سبحانه — الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلائق كلهم فيجازى كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ﴾ ، وذلك أن الله — تعالى — ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها ، كما ينبت الحب في الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله — تعالى — [اسرافيل ينفخ في الصور ، وقد أودعت الأرواح في ثقب الصور ، فإذا نفخ] إسرائيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله — عز وجل — وعزتي وجلالى لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمه ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ — وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعا مبادرين إلى أمر الله — عز وجل — ، ﴿ مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون : هذا يوم عسر ﴾^(٣)

﴿ قالوا يا ويلينا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾^(٤) .

(١) سورة الحجر الآيات ٩٧ — ٩٩

(٣) سورة القمر الآية ٨

(٤) سورة (يس) الآيات ٥٢ — ٥٤

(٢) سورة (طه) الآية ١٣٠

وفى صحيح مسلم عن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — : « أنا أول من تنشق عنه الأرض »^(١).

وقوله عز وجل : ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أى : تلك إعادة سهلة علينا يسيرة لدينا كما قال جل جلاله : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ ، وقال — سبحانه وتعالى — : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾^(٢).

بيان الحشر إلى الموقف كيف هو وفى أرض المحشر وذكر الصخرة

قال العلامة القرطبي فى « التذكرة » ما ملخصه :

قوله تعالى : « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ، إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير » . قال قتادة : المنادى : هو صاحب الصور ينادى من الصخرة من بيت المقدس . قال كعب : وهى أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً . وقيل : باثنى عشر ميلاً ذكره القشيري والأول ذكره الماوردي ، وقيل : إن المنادى جبريل والله أعلم قال عكرمة : ينادى منادى الرحمن فكأنما ينادى فى آذانهم يوم يسمعون الصيحة بالحق يريد : النفخ فى الصور . ﴿ ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ﴾ إلى المنادى صاحب الصور إلى بيت المقدس أرض المحشر ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أى : هين سهل .

فإن قيل : فإذا كانت الصيحة للخروج فكيف يسمعونها وهم أموات ؟ قيل له : إن نفخة الإحياء تمتد وتطول ، فتكون أوائلها للإحياء وما بعدها للإزعاج ، ويحتمل أن تتناول تلك النفخة والناس يحيون منها أولاً فأولاً ، وكلما حى واحد سمع ما يحيى به من بعده إلى أن يتكامل الجميع للخروج ، وقد تقدم أن الأرواح فى الصور ، فإذا نفخ فيه النفخة الثانية ذهب كل روح إلى جسده ﴿ فإذا هم من الأجداث ﴾ أى : القبور ، ﴿ إلى ربهم ينسلون ﴾ وهذا يبين لك ما ذكرنا وبالله توفيقنا . ورى مسلم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ — : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفرا كقرصة النقى ليس فيه علم لأحد »^(٣).

(١) الحديث فى صحيح مسلم : كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا ﷺ — على جميع الخلائق ج ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٢٢٧٨ / ٣ عن أنس هريرة .

(٢) سورة (لقمان) الآية ٢٨

(٣) الحديث فى صحيح مسلم : (كتاب صفات المنافين) باب فى البعث والنشور ج ٤ ص ٢١٥٠ رقم ٢٨ / ٢٧٩٠ عن سهل بن سعد .

وقوله : ﴿ أول من يكسى من إبراهيم ﴾ فضيلة عظيمة لإبراهيم وخصوص له ، كما خص موسى — عليه السلام — بأن النبي — ﷺ — يجده معلقاً بساق العرش مع أن النبي — ﷺ — أول من تنشق عنه الأرض ، ولا يلزم من هذا أن يكون أفضل منه مطلقاً ، بل هو أفضل من وافى القيامة — ﷺ — بيان قوله (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) .

روى مسلم عن عائشة : — رضى الله عنها — قالت : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » قلت : يا رسول الله : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة الأمر أشد من ينظر بعضهم إلى بعض ^(١) .

واخرج الترمذى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : أن النبي — ﷺ — قال : « تحشرون حفاة عراة غرلاً » فقالت امرأة : أيبصر بعضنا ، أو يرى بعضنا غورة بعض ؟ قال : « يا فلانة لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » ^(٢) قال : حديث حسن صحيح .

فصل : قلت : هذا الباب ، والذي قبله يدل على أن الناس يحشرون حفاة عراة غرلاً أى : غير محتونين كما بدأنا أول خلق نعيده . قال العلماء : يحشر العبد غداً ، وله من الأعضاء ما كان له يوم ولد ، فمن قطع منه عضو يرد فى القيامة عليه حتى الحتان . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ . أخبر سبحانه : أنه — ﷺ — ليس بمسلط عليهم ، ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ، ويكرهم عليه ، إنما أنت مبلغ كقوله تعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا آياتهم ثم إن علينا حسابهم ﴾ ^(٣) . ثم أمره — سبحانه — أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده فهو الذى ينتفع بالتذكير كما قال سبحانه : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ ^(٤) وأما من لا يؤمن ببلقائه ، ولا يخاف وعيده ، ولا يرجو ثوابه ، فلا ينتفع بالتذكير كما قال سبحانه : ﴿ ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ﴾ .

كان قتاد : بعد ما يقرأ هذه الآية يقول : اللهم ، اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا بار يا رحيم .. آمين .

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب صفة الجنة — باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ج ٤ ص ١١٩٤ رقم ٥٦ / ٢٨٥٩ .

وفى البخارى كتاب الرفاق والأدب باب كيف الحشر ج ٨ ص ١٣٦

(٢) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم (كتاب التفسير) ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس مع اختلاف يسر فى بعض ألفاظه .

وانظر سنن الترمذى « أبواب صفة القيامة » باب ما جاء فى شأن الحشر ج ٢ ص ٣٨ فقد جاء فى الحديث ٢٥٣٩ المروى عن ابن عباس الشق الأول وهو « يحشر الناس يوماً القيامة حفاة عراة غرلاً كما خلقوا » .

(٣) سورة الغاشية الآيات ٢١ — ٢٦

(٤) سورة الأعلى الآية ١٠

(٥) سورة الأعلى لآيتان ١١ ، ١٢

واخرج أبو بكر أحمد بن علي الخطيب ، عن عبد الله بن سعود : « يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط ، وأظماً ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، وأنصب ما كانوا ، فمن أطعم لله أطعمه ، ومن سقا لله سقاه ، ومن كسا لله كساه ، ومن عمل لله كفاه ، ومن نصر الله أراحه الله في ذلك اليوم » .

باب ما جاء في حشر الناس إلى الله تعالى حفاة عراة غرلاً ، وفي أول من يكسى منهم وفي أول ما يتكلم من الإنسان .

روى مسلم عن ابن عباس — رضى الله عنه — قال : قام فينا رسول الله — ﷺ — بموعظة فقال : أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ، ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ ألا وإن أول الناس يكسى يوم القيامة إبراهيم — عليه السلام — ألا وإنه يؤتى برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب : أصحابي فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وكنت عليهم شهيداً مادم فيهم ﴾ إلى قوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ . قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم مذ فارقتهم ﴿^(١)﴾ .

أخرجه البخارى أيضاً : والترمذى ، عن معاوية بن حيدة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — فى حديث ذكره قال : وأشار بيده إلى الشام فقال : « ههنا إلى ههنا تحشرون ركبناً ومشاة وتجرون على وجوهكم يوم القيامة أفواهكم الفدام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم على الله وأكرمهم على الله ، وأن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه »^(٢) ، وفى رواية أخرى ذكرها ابن أبى شيبه « وإن أول ما يتكلم من الإنسان فخذه وكفه » .

فصل : قوله : ﴿ غرلاً ﴾ أى : غير مختونين ، ﴿ النقى ﴾ الحوارى وهو : الدرملق من الدقيق ، ﴿ والعصر ﴾ بياض ليس بخالص يضرب إلى الحمرة قليلاً ، ﴿ والفدام ﴾ مصفاة الكوز والابريق . قاله الليث : قال أبو عبيدة : يعنى : أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفدام الذى يجعل على الإبريق .

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها) باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ج ٤ ص ٢١٩٤ ، ٢١٩٥ رقم ٥٨ / ٢٨٦٠ عن ابن عباس وفى سنن الترمذى (أبواب صفة القيامة) باب ما جاء فى شأن الحشر ج ٤ ص ٣٨ رقم ٢٥٣٩ وفى البخارى (كتاب الأدب والرفاق) باب كيف الحشر ج ٨ ص ١٣٦

(٢) الحديث فى صحيح البخارى :

وفى سنن الترمذى (كتاب صفة القيامة) باب ما جاء فى صفة الحشر ج ٤ ص ٣٩ رقم ٢٥٤١ وقال : أبو عيسى : هذا حديث حسن .

تفسير سورة الذاريات

مقدمة :

السورة : مكية ، عدد آياتها : ستون
 وعدد كلماتها : ثلثمائة وستون
 وحروفها : ألف ومائتان وسبع وثمانون .
 مجموع فواصل آياتها : (قفاك معن) .
 وسميت بالذاريات : لمفتتحها

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : ذكر القسم : حقية البعث والقيامة ، والإشارة إلى عذاب أهل الضلالة ،
 وثواب أرباب الهداية ، وحجة الواحدانية ، وكرامة إبراهيم في باب الضيافة ، وفي إسحاق له بالبشارة ،
 ولقوم لوط بالهلاكة ، ولفرعون وأهله من الملامة ، ولعاد ، وثمود ، وقوم نوح من الدمار والخسارة ،
 وخلق السماء والأرض للنفع والإفادة ، وزوجية المخلوقات ، لإجل الدلالة ، وتكذيب المشركين لما فيه
 للرسول ﷺ — من التسليّة ، وتخليق الخلق لإجل العبادة ، وتعجيل المنكرين بالعذاب والعقوبة
 في قوله ﴿ فلا يستعجلون ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون آخذين ﴾ وفي الطور ، ﴿ في جنات ونعيم فاكهين ﴾
 ليس بتكرار ، لأن ما في هذه السورة متصل بذكر ما به يصل الإنسان إليها ، وهو قوله : ﴿ إنهم
 كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ ، وفي الطور متصل بما ينال الإنسان فيها إذا وصل إليها ، وهو قوله :
 ﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا ﴾ الآيات .

قوله ﴿ إني لكم نذير مبين ﴾ وبعده : ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ ليس بتكرار ، لأن كل
 واحد منهما متعلق بغير ما يتعلق به الآخر . فالأول متعلق بترك الطاعة إلى المعصية ، والثاني متعلق
 بالشرك بالله — تعالى — أ هـ .

مناسبتها لما قبلها

(١) إنه قد ذكر في السورة السابقة البعث والجزاء ، والجنة والنار وافتتح هذه بالقسم بأن ما وعدوا
 من ذلك صدق وأن الجزاء واقع .

(٢) إنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال وهنا ذكر ذلك على وجه التفصيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعُ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ قُتْلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿٩﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١٠﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الَّذِينَ ﴿١١﴾ يَوْمُ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٢﴾ ذُوقُوا فَتَنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤﴾ يَتْلُونَ مَا أُنزِلَ بِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ ﴿١٥﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٦﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٧﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٨﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿١٩﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢١﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٢﴾

معاني المفردات

﴿الذاريات﴾ : الرياح تذرو التراب وغيره أى : تفرقه ، ﴿وقراً﴾ : الوقر : حمل البعير وجمعه أوقار ، أى : أثقال . ﴿والحاملات وقرًا﴾ : هى الرياح الحاملات للسحاب المشبع ببخار الماء ، ﴿والجاريات يسرا﴾ : قيل : هى النجوم ، وقيل : هى السفن ، ﴿فالمقسمات أمراً﴾ : المراد : الملائكة تقسم المقدرات الربانية . ﴿إنما توعدون﴾ : من البعث ، ﴿جواب القسم﴾ ، ﴿إن الدين﴾ : الجزء بعد الحساب ، ﴿ذات الحبك﴾ : الطرق التى تسير فيها الكواكب . واحدها حبيكة ، ﴿قول مختلف﴾ : متناقض مضطرب ، ﴿يؤفك عنه﴾ : أى : يصرف عن الحق الآتى به الرسول ، ﴿قتل الخراصون﴾ : لعن وقبح الكذابون ، ﴿غمرة﴾ : جهالة غامرة بأمور الآخرة ، ﴿سَاهُونَ﴾ : غافلون عما أمروا به ، ﴿آيان يوم الدين﴾ : أى : متى يوم الجزاء ، ﴿يفتنون﴾ : يحرقون ويعذبون . ﴿يهجعون﴾ : الهجوع النوم ليلاً ، والهجة النوم الخفيفة ، ﴿الأسحار﴾ : واحدها سحر وهو : السدس الأخير من الليل . ﴿حق﴾ : نصيب وافر يوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى ربهم واشفاقاً على عباده ، ﴿السائل﴾ : هو المستجدى الطالب العطاء ، ﴿المحروم﴾ : هو المتعفف الذى يحسبه الجاهل غنياً فيحرم الصدقة من أكثر الناس ، ﴿آيات﴾ : أى : دلائل على قدرته — تعالى — . ﴿للموقنين﴾

أى : للموحددين الذين سلكوا الطريق الموصل إلى معرفة الله ، ﴿ وما تواعدون ﴾ أى : والذي تواعدونه من خير أو شر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرأ ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمراً ، إنما تواعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ﴾ .

أقسم — سبحانه وتعالى — بالذاريات وهى : الرياح تذر والمطر ، وتذرو التراب ، وتذرو النبات إذا تهشم . كما قال — تعالى — ﴿ فأصبح هشيما تذروه الرياح ﴾^(١) أى : تفرقه ، وتنشره . ثم أقسم — سبحانه — بما فوق ذلك وحى : ﴿ الجاريات يسرا ﴾ وهى : النجوم التى من فوق القمام ، ﴿ ويسراً ﴾ أى : مسخرة مذلة منقادة .

وقال جماعة من المفسرين : انها السفن تجرى ميسرة فى الماء جرياً سهلاً — ومنهم من لم يذكر غيره وأختار ابن تيميه — رحمه الله — القول الأول . وقال : هو أحسن فى الترتيب والانتقال من السافل إلى العالى ، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذى أمرت به بين خلقه ، وذلك قوله — تعالى : ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ وهم : المدبرات أمراً .

قال ابن القيم : — رحمه الله — وأقسم — سبحانه — بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية . والدلالة الباهرة على ربوبيته ، ووحدانيته ، وعظم قدرته . ففى الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها ، وصفاتها ومهابها وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة إليها فللمطر خمسة رياح : ريح ينشر سحابه ، وريح يؤلف بينه وريح تلقجه ، وريح تسوقه حيث يريد الله ، وريح تذرو أمامه وتفرقه ، وللنبات ريح وللسفن ريح ، وللرحمة ريح وللعذاب ريح إلى غير ذلك من أنواع الرياح ، وذلك تقضى بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاء ، ويجعلها رخاء تارة وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذاباً تارة ، فتارة يحيى بها الزرع والثمار وتارة ، ينجى بها السفن ، وتارة يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان ، وتارة تذيبها ، وتارة وتارة عقيما وتارة لافحة وتارة جنوبا وتارة دبوراً ، وتارة صبا ، وتارة شمالاً ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهى مع غاية قوتها ألطف شيء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثير والتأثير لطيفة المسارق بين السماء والأرض . إذا قطع من الحيوان الذى على وجه الأرض هلك كبحر الماء الذى إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يجبسها الله —

سبحانه — إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ، تحمل الأصوات والآذان ، والرائحة إلى الأنف والسحاب إلى الأرض الجزر ، وهى من روح الله تأتى بالرحمة ، ومن عقوبته تأتى بالعذاب ، وهى أقوى خلق الله .. والمقصود أن الرياح أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته .

ثم : أقسم — سبحانه — بالسحاب ، وهو من أعظم آيات الله فى الجو . فى غاية الخفة ، ثم يحمل الماء والبرد ، فيصير أثقل شئ . فيأمر الرياح ، فتحمله على متونها ، وتسير به حيث أمرت ، فهو مسخر بين السماء والأرض . حامل لأرزاق العباد ، والحيوان ، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله ، فإنه لو بقى لأضر النبات ، والحيوان فأنشأه — سبحانه — فى زمن يصلح إنشاؤه فيه وحمله من الماء ما يحمله ، وشاقه إلى بلد شديد الحاجة إليه .

فهل السحاب من أنشأه بعد عدمه ؟ وحمله الماء ، والثلج والبرد ؟ ومن حمله على ظهور الرياح ؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد ؟ ومن أغاث بقطره العباد وأحيا به البلاد وصرفه بين خلقه كما أراد ، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم ، وأنزله منه ، وأفناه بعد الاستغناء عنه ، ولو شاء لآدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا ، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولا ... — فسبحان — من شهدت الموجودات بربوبيته ، وأقرت المصنوعات بوحدانيته ، بيده النفع والضرر . وله الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وسل الجاريات يسرا من السفن . من أمسكها على وجه الماء . وسخر لها البحر ؟ ومن أرسل لها الرياح تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح ؟ ومن حفظها فى مجراها ومرساها من طغيان الماء ، وطغيان الرياح ؟ فمن الذى جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنه لعاقها ؟ ومن الذى أجرى لها ريحاً واحدة تسير بها . ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ، ويقاومها . فتموج فى البحر يميناً وشمالاً . تتلاعب بها الريح ؟ ومن الذى علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم الذى يمشى على الماء . فيقطع المسافة البعيدة . ويعود إلى بلده يشق الماء ويمخره . مقبلاً ومدبراً بريح واحدة تجرى فى موج كالجبال ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ﴾^(١) ومن الذى حمل فى هذا البيت نبيه ، وأولياءه خاصة وأغرق جميع أهل الأرض سواهم ؟

وسل الجاريات يسرا من الكواكب ، والشمس والقمر : من الذى خلقها وأحسن خلقها ، ورفع مكانها ، وزين بها قبة العالم ، وفادت بين أشكالها . ومقاديرها ، وألوانها وحركاتها ، وأماكنها من السماء ، فمنها الكبير ، ومنها الصغير ، والمتوسط والأبيض ، والأحمر والزجاجى اللون والدرى اللون ،

والمتوسط في قبة الفلك ، والمتطرف في جوانبها ، وبين ذلك ؟ ومنها ما يقطع الفلك في شهر ، ومنها ما يقطعه في عام ، ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاماً ، ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك . ومنها ما لا يزال ظاهراً لا يغيب بحال ، فهو أبدي ، ومنها أبدي الخفاء ، ومنها ما له حالتان ظهور واختفاء ، ومنها ما له حركتان حركة عرضية من المشرق إلى المغرب ، وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق فحالما يأخذ الكوكب في الغروب فإذا كوكب آخر في مقابلته ، وكوكب آخر قد طلع وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر في الربع الشرقي وكوكب آخر في وسط السماء ، وكوكب آخر قد مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب ، وكأنه رقية ينتظر بطلوعه غيبته .

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وحدتها تدل على المصار كما تدل على المبدأ ، وتدل على وجود الخالق وصفات كما له ، وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة . وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله . فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر ، فهي هداية في طرق العلم بالخالق — سبحانه — وقدرته وعلمه ، وحكمته ، والمبدأ والمعاد ، والنبوة ، ودلالاتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر ، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية ، فهي هداية في هذا وهذا وأما دلالة (المقسمات أمراً) وهم الملائكة ، فلأن ما يشاهد مد تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة ، فالرب — تعالى — يدبر بهم أمر العالم ، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم ، فوكل بالشمس والقمر ، والنجوم ، والأفلاك طائفة منهم ، ووكل بالقطر والسحاب طائفة ، ووكل بالنبات طائفة ، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة ، ووكل بالموت طائفة ، وبحفظ بني آدم طائفة وبإحصار أعمالهم وكتابتها طائفة ، وبالوحي طائفة ، وبالجبال طائفة ، وبكل شئون العالم طائفة . هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء ، والحسن وما فيهم من القوة والشدة ، ولطاقة الجسم ، وحسن الخلقة ، وكمال الانقياد لأمره ، والقيام في خدمته ، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم .

ثم أقسم — سبحانه — بهذه الأمور على صدق وعده ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أى : ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن ، وهو وعد صدق لا كذب ، ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ أى : إن الجزاء لكائن لا محالة . ويجوز أن تكون (ما) موصولة ، والعائد محذوف . والمعنى : أن الذى توعدونه لصادق ، أى : كائن وثابت . وأن تكون مصدرية ، أى : إن وعدكم لحق وصدق .

وإذا تأملت هذا التناسب والأرتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدله والأعلى عليه ، مرشداً إليه . قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ أَفْكَ قَتْلِ الْخِرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فَتَنَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

ثم أقسم — سبحانه — ﴿ بالسماوات الحبك ﴾ قال ابن عباس : يريد الخلق الحسن وروى سعيد بن جبير عنه قال : الحبك : حسنهما واستوائهما ، وقال قتادة : ذات الخلق الشديد ، وقال أبو عبيدة والمبرد : الحبك : الطريق وقال : شمر : المحبوك في اللغة ما أجيد عمله والمقصود بهذا كله : ما أفصح به ابن عباس ، فقال : يريد الخلق الحسن .

ثم ذكر — سبحانه — المقسم عليه فقال : ﴿ إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك ﴾ فالقول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي — ﷺ — وهو خرص كله فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم ، وآراؤهم ، وطرائقهم ، وأقوالهم فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم ، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب ، كما قال تعالى : ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ﴾ ^(١) أى : مختلط ملتبس وفي ضمن هذا الجواب : انكم في أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضاً ، بسبب تكذيبهم بالحق .

وقوله تعالى : ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ ، أخبر — سبحانه — أنه يصدف بسبب ذلك القول المختلف من صدف . فعن ههنا فيها طرف من معنى التسبيب كقوله تعالى : ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ من أفك ﴾ ، أى : من سبق في علم الله أنه يضل ويؤفك وقالت طائفة : الضمير يرجع إلى القرآن ، وقيل : إلى الإيمان ، وقيل : إلى الرسول . والمعنى : يصرف عنه من صرف حتى يكذب به .

ولما كان هذا القول المختلف خرساً وباطلاً قال : ﴿ قتل الخراصون ﴾ أى : المكذبون : ﴿ الذين هم في غمرة ساهون ﴾ ، وجهالة قد غمرت قلوبهم أى : غطتها وغشتها ، كغمرة الماء ، وغمرة الموت ، فالغمرات ما غطاها من جهل ، أو هوى ، أو سكر ، أو غفلة ، أو حب ، أو بغض ، أو خوف أو غم ، ونحو ذلك قال تعالى : ﴿ بل قلوبهم في غمرة من هذا ﴾ ^(٣) أى : غفلة وقيل جهالة .

ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم ، والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه ، والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة ، والسهو لا يستلزم ذلك .

(١) سورة (ق) الآية ٥

(٢) سورة (هود) من الآية ٥٣

(٣) سورة المؤمنون من الآية ٦٣

قوله تعالى : ﴿ يسألون أيا ن يوم الدين ﴾ ، استبعاداً للوقوع وجحداً . فأخبر — تعالى — أن ذلك ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ والمشهور في تفسير هذا الحرف : أنه بمعنى يحرقون ولكن لفظة (على) تعطى معنى زائداً على ما ذكره ، ولو كان المراد نفس الحرق لقل يومهم في النار يفتنون . ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم : على بمعنى في كما تكون (في) بمعنى (على) . والظاهر : أن فنتهم على النار ، قيل : فنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها ، ووقوفهم عليها فتنة ، وعند دخولهم ، والتعذيب بها فتنة أشد منها ، ومن جعل الفتنة ههنا من الحريق أخذه من قوله — تعالى — : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾^(١) واستشهد على ذلك أيضاً بهذه اللفظة التي في الذاريات . وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه ، ولهذا سمي الله الكفر فتنة . فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمي جزاءهم فتنة . ولهذا قال : ﴿ ذوقوا فنتكم ﴾ وكان ووقوفهم على النار ، وعرضهم عليها من أعظم فنتهم ، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها ، ففتنوا أولاً بأسباب الدنيا وزينتها ، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم ، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم ، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ، ثم فتنوا بعذاب الدنيا ، ثم فتنوا بعذاب الموت ، ثم يفتنون في موقف القيامة ، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها ، وذلك من أعظم فنتهم ، ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها ﴿ ذوقوا فنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ . يقال : لهم ذلك تقريباً ، وتوبيخاً ، وتحقيراً وتصغيراً . قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

يقول تعالى : مخبراً عن المتقين لله — عز وجل — أنهم يوم معادهم يكونون في جنات ، وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال .

وقوله تعالى ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ أى : عاملين بما آتاهم الله من الفرائض ، ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ أى : في الدار الدنيا ، ﴿ محسنين ﴾ بالفرائض كانوا يعبدون الله كأنهم يرونه .

قال ابن القيم : « ذكر — سبحانه — جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى ، وهو الجنات والعيون وأنهم ﴾ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ من الخير والكرامة .

وفي ذلك دليل على أمور : منها قبولهم له . ومنها رضاهم به ، ومنها وصولهم إليه بلا مانع ولا

عائق . ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم . فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم ، وانشرح الصدر ، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك . ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك ، وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له ، والقيام بحقوقه ، وحقوق عباده ، ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه .

قوله تعالى : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ أى : كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ، ونومهم ، وقال الحسن البصرى : كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر ، وقال قتادة : قال الأصنف ابن قيس ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ كانوا لا ينامون إلا قليلاً ثم يقول : لست من أهل هذه الآية . وقال عبد الرحمن ، بن زيد ، بن أسلم . قال : رجل من بنى تميم لأبى : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا . ذكر الله — تعالى — قوماً فقال : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم فقال له : أبى — — رضى الله عنه — طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ .

فضل قيام الليل من الكتاب والسنة

قال تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ (١) . وهذا الأمر وإن كان خاصاً برسول الله — ﷺ — إلا أن عامة المسلمين يدخلون فيه بحكم أنهم مطالبون بالافتداء به — ﷺ — . وقال تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ (٢) .

قال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً . وقال تعالى : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم

(١) سورة الاسراء الآية ٧٩

(٢) سورة الفرقان الآيتان ٦٣ ، ٦٤

نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴿١﴾ .

قال الحسن البصري : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر .
وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَاب ﴾ ﴿٢﴾ .

ففض — سبحانه — التسوية بينهم وبين غيرهم ممن لم يتصف بوصفهم .
هذا بعض ما جاء في كتاب الله ، أما ما جاء في سنة رسول الله — ﷺ — فهناك بعضه :
عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » ﴿٣﴾ رواه مسلم .

وعن عائشة — رضي الله عنها — أن رسول الله — ﷺ — « كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه » ، فقلت له : « لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ »
قال : « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً » ﴿٤﴾ متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضي الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوماً ، ويفطر يوماً » ﴿٥﴾ متفق عليه .

وعن جابر — رضي الله عنه — قال : « سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة » ﴿٦﴾ رواه مسلم .

وعن عبد الله — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » ﴿٧﴾ رواه الطبراني بإسناد حسن .

(١) سورة السجدة الآيات ١٥ — ١٧

(٢) سورة الزمر الآية ٩

(٣) الحديث في صحيح مسلم (كتاب الصيام) باب فصل صوم المحرم ج ٢ ص ٨٢١ رقم ٢٠٢ / ١٦٦٣ عن أبي هريرة .

(٤) الحديث في صحيح البخاري : ج ٢ ص ٦٣ (كتاب المجد) باب قيام النبي ﷺ حتى قوم قده .

— وفي مسلم في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٧١ رقم ٧٩ / ٢٨١٩ (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم) باب أكثر الأعمال والاجتهاد في العبادة .

(٥) انظر البخاري (كتاب بدء الخلق) باب من أحب الصلاة إلى الله ، صلاة داود .. الخ ج ٤ ص ١٥٦ عند عبد الله بن عمرو .
وفي صحيح مسلم (كتاب الصيام) ج ٢ ص ٨١٦ رقم ١٨٩ / ١١٥٩ .

(٦) الحديث في صحيح مسلم : انظر صحيح مسلم (كتاب الصلاة) باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء عن جابر : ج ١ ص ٥٢١ رقم ١٦٦ / ٧٥٧ والرقم الذي يليه .

(٧) الحديث في صحيح مسلم (كتاب الصلاة) باب في صلاة الليل ج ٢ ص ٢٥١ ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات .

وعن سهل بن سعد — رضى الله عنه — قال : « جاء جبريل إلى رسول الله — ﷺ — فقال : « يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس »^(١) (رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن واخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي) .

وعن عمرو بن عبسة — رضى الله عنه — أنه سمع النبي — ﷺ — يقول : « أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن »^(٢) رواه الترمذى وصححه والنسائى وصححه وابن خزيمة .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — ﷺ — « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين »^(٣) رواه أبو داود وصححه وابن خزيمة . قال الحافظ المنذرى : أى : له قنطار من الأجر ، ومن أول تبارك إلى آخر القرآن ألف آية والله أعلم .

وعن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار »^(٤) رواه مسلم .

وعن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — قال : أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، فقال : أبو موسى الأشعرى لمن هي يا رسول الله ؟ قال : — ﷺ — « لمن آلاان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائماً والناس نيام »^(٥) رواه أحمد .

وفي الحديث الذى رواه الترمذى وقال حسن صحيح عن معاذ بن جبل وفيه « .. ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل » .. ثم تلا « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » حتى بلغ (يعملون) الحديث^(٦) .

(١) الحديث فى مجمع الزوائد ج ١ ص ٢١٩ باب الانجار فى الموعظة ورد الحديث بلفظه عن سهل بن سعد — رضى الله عنه — وفى الترغيب والترهيب ج ١ ص ٤٣١ رقم ٢٦ ورد بلفظه عن سهل بن سعد .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى : (كتاب الدعوات) ج ٥ ص ٢٢٩ رقم ٣٦٥٠ عن عمر بن عبسة وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٣) الحديث انظر سس أبى داود (كتاب الصلاة) باب تحزيب القرآن ج ٢ ص ١١٨ رقم ١٣٩٨ عن عمر بن العاص .

(٤) الحديث انظر صحيح مسلم (كتاب صلاة المسافرين) باب فضل من يقوم بالقرآن .. ج ١ ص ٥٥٩ رقم ٢٦٨ / ٨١٦ .

(٥) الحديث انظر مسند الأمام أحمد ج ٢ ص ١٨٣ عن عبد الله بن عمر .

(٦) الحديث انظر سنن الترمذى (كتاب الايمان) باب ما جاء فى حرمة الصلاة ج ٤ ص ١٢٤ رقم ٢٧٤٩ عن معاذ بن جبل وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقال الحسن البصرى — رحمه الله — : لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة في جوف الليل ،
فقليل له : ما بال المهجدين أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره .
وأنشدوا في صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما واذر الدموع على الخدود سجاما
واعلم بأنك ميت ومحاسب يا من على سخط الجليل أقاما
قوم أخلصوا في حبه فرضى بهم واختصهم خداما
قوم إذا جن الظلام عليهم باتوا هنالك سجداً وقياما
خمس البطون من التعفف خمرا لا يعرفون سوى الحلال طعاما

قوله تعالى : ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ أخبر عنهم — سبحانه — بأنهم مع صلاتهم بالليل
كانوا يستغفرون الله عند السحر مختوما صلاتهم بالاستغفار والتوبة ، فباتوا لربهم سجداً وقياماً ، ثم
تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك كما قال تعالى : في وصفهم في سورة آل عمران ﴿ الصابرين والصادقين
والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾^(١) .

قال ابن القيم : « وكان النبي — ﷺ — إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً ، وأمره الله — سبحانه —
أن يختم عمره بالاستغفار . وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار ، وشرع — ﷺ —
للمتوضيء أن يختم وضوءه بالتوبة . فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار .
وعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : قال الله
تعالى : يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك
لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، لأتيتك بقرابها مغفرة »^(٢) (رواه الترمذى
وقال حديث حسن) .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : « ينزل ربنا تبارك وتعالى
كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني
فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له »^(٣) (متفق عليه) .

(١) سورة آل عمران الآية ١٧

(٢) الحديث في سنن الترمذى (كتاب الدعوات) ج ٥ ص ٢٠٨ رقم ٣٦٠٨ عن أنس ابن مالك : وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٣) الحديث في صحيح البخارى : (كتاب الجمعة) باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ج ٢ ص ٦٦ عن أبى هريرة .
وفي صحيح مسلم : كتاب صلاة المسافرين وقصرهم — باب الترغيب والذكر في آخر الليل والاجابة فيه ج ١ ص ٥٢١ رقم
١٦٨ / ٧٥٨ عن رواية أبى هريرة .

وفي رواية أخرى عند مسلم عن أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ — قال : « ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وتنزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » (١) .

وقال : « إن الله يمهّل حتى إذا كان ثلث الليل الآخر نزل إلى هذه السماء الدنيا ، فنادى ، فقال : هل من مذنّب يتوب ؟ هل من مستغفر ؟ هل من داع ؟ هل من سائل ؟ إلى الفجر » (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ هذا مدح ثالث لهم . قال محمد بن مسيرين وقتادة : الحق : هنا الزكاة المفروضة . وقيل : إنه حق سوى الزكاة يصل به رحماً ، أو يقرى به حنيفاً ، أو يحمل به كلاً ، أو يغنى به محروماً .

﴿ والسائل ﴾ الذى يسأل الناس لفاقته ، قاله ابن عباس وغيره ، ﴿ والمحروم ﴾ الذى حُرِمَ المال . وقال قتادة ، والزهرى : ﴿ المحروم ﴾ المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئاً ، ولا يعلم بحاجته . وفي الأثر « ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضت لنا عليهم فيقول الله : — تعالى — وعزتى وجلالى — لأقربنكم ولأبعدنهم » .

ويقول ابن القيم فى هذه الآية : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ أخبر — سبحانه — عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم . فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ، ضد (الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) وأكد إخلاصهم فى هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم ، الذى لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور ، والمحروم المتعفف الذى لا يسأل . وتأمل حكمة الرب تعالى فى كونه حرمه بقضائه ، وشرع لأصحاب الجدة اعطاءه ، وهو أغنى الأغنياء ، وأجود الأجودين ، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر ، والشرع ، شرع عطاءه بأمره وحرمة بقدره ، فلم يجمع عليه حرمانين . قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ لما ذكر — سبحانه — أمر الفريقين بين أن فى الأرض علامات تدل على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات ، والحيوانات ، والمهاد ، والجبال ، والقفار والأنهار ، والبحار ، واختلاف ألْسنة الناس ، وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات ، والقوى ، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم ، والحركات ، والسعادة والشقاوة ، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه . قاله ابن كثير .

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء — باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ج ٤ ص ٢٠٧٤ رقم ٢٧٠٠ / ٣٩

وفى سنن الترمذى عن أبى هريرة وأبى سعيد ج ٥ ص ١٢٨ أبواب الدعوات وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . (٢) - انظر مسلم : (كتاب صلاة المسافرين) باب الترغيب فى الدعاء والذكر ج ١ ص ٥٢٣ رقم ٢٧٢ / ٧٥٨ .

وقال العلامة ابن القيم في هذه الآية : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ ، قال : « فآيات الأرض أنواع كثيرة ، منها خلقها وحدوثها بعد عدمها وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد . فإنها شواهد قائمة بها . ومنها بروز هذا الجانب فيها عن الماء ، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به . ومنها سعتها وكبر خلقها . ومنها تسطيحها ، كما قال تعالى : ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ ^(١) ولا ينافي ذلك كونها كروية . فهي كرة في الحقيقة لها سطح يستقر عليه الحيوان . ومنها أنه جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومساكنه ، وجعلها قراراً ، وجعلها مهاداً ذلولاً توطأ بالأقدام ، وتضرب بالمعاول والفتوس وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال . فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها ، وجعلها بساطاً ، وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على ظهرها ، وللأموات تضمهم في بطنها ، وطحها فمدها وبسطها ، ووسعها ودحاها ، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها ، وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل والنجاح . ونبه بجعلها مهاداً وفراشاً على حكمته في جعلها ساكنة . وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها ، ولا علاقة فوقها ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفاً فيه كما تكفاً السفينة فاقتضت العناية الأزلية ، والحكمة الإلهية أن وضع عليها رواسي يثبتها بها . لئلا تميد ، وليستقر عليها الأنام ، وجعلها ذلولاً على الحكمة في أن لم تكن في غاية الصلابة والشدّة كالحديد ، فيمتنع حفرها ، وشقها . والبناء فيها ، والغرس ، والزرع ، وبعث النوم عليها ، والمشي فيها ، ونبه بكونها قراراً على الحكمة في أنه لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدمائة . فلا تمسك بناء ، ولا يستقر عليها الحيوان ، ولا الأجسام الثقيلة . بل جعلها بين الصلابة والدمائة . وأشرف الجواهر عند الإنسان ، الذهب ، والفضة ، والياقوت ، والزمرد ، فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها ، وتعطلت المنافع المقصودة منها ، وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر ، وأنفع ، وأبرك وإن كانت تلك أعلى وأعز ، فغلاؤها ، وعزتها لقاتها . وإلا فالتراب أنفع منها ، وأبرك ، وأنفس ، وكذلك لم يجعلها شفافة ، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور . وما كان كذلك لم يقبل السخونة . فيبقى في غاية البرد ، فلا يستقر عليه الحيوان ، ولا يتأق في النبات ، وكذلك لم يجعلها صقيلة براقية ، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس ، كما يشاهد من احتراق القطن ، ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف فاقتضت حكمته — سبحانه — أن جعلها كثيفة غبراء ، فصلحت أن تكون مستقراً للحيوان ، والأنام والنبات .

ولما كان الحيوان الهوائى لا يمكنه أن يعيش في الماء كالحيوان المائى أبرز له جانبها كما تقدم ، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه وأنشأ منها طعامه وقوته ، وكذلك خلق منها النوع الإنسانى ، وأعاده إليها ويخرجه منها ..

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس ، والصفات والمنافع مع أنها قطع متجاورات ، متلاصقة فهذه سهلة ، وهذه حزنه ، تجاورها وتلاصقها . وهذه طيبة تنبت ، وتلاصقها أرض لا تنبت ، وهذه تربة ، وتلاصقها رمال ، وهذه صلبة ، ويلاصقها ويلبها رخوة ، وهذه سوداء ، ويلبها أرض بيضاء ، وهذه حصى كلها ، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر ، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا ، وهذه لا تصلح له ، بل تصلح لغيره ، وهذه سبخة مالحة ، وهذه بضدها ، وهذه ليس فيها جبل ولا معلم ، وهذه مسجرة بالجبال ، وهذه لا تصلح إلا على المطر ، وهذه لا ينفعها المطر ، بل لا تصلح إلا على سقى الأنهار ، فيمطر الله — سبحانه — الماء على الأرض البعيدة ، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض .

فلو سألتها من نوعها هذا التنوع ؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق ؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ؟ ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ؟ ومن أمسكها من الزوال ؟ ومن بارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها . ومنافعها ؟ ومن هياها مسكناً ومستقراً للأنام ؟ ومن يبدأ الخلق منها ، ثم يعيده إليها ، ثم يخرجها منها ؟ ومن جعلها ذلولاً غير مستعصية ولا ممتنعة ؟ ومن وطأ مناكبها ، وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبث أشجارها ، وأخرج ثمارها ؟ ومن صدعها عن النبات ، وأودع فيها جميع الأقوات ؟ ومن بطنها ؟ وفرشها ومهداها وذللها ، وطماها ، ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها ؟ ومن الذى يمسكها أن تتحرك فتزلزل ، فيسقط ما عليها من بناء ومعلم ، أو يخسفها بمن عليها فإذا هى تمور ؟ ومن الذى أنشأ منها النوع الإنسانى الذى هو أبداع المخلوقات ، وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ، ونوحاً ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمداً — ﷺ — وأنشأ منها أوليائه وأحباءه وعباده الصالحين ؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق ، والمعادن والحيوان ؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثيرها بحرارة الشمس ونور القمر ، فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت فى القرب لاشتدت الحرارة والسخونة — كما نشاهده فى الصيف — فاحترقت أبدان الحيوان والنبات وبالجمل فكانت تفوت هذه الحكمة ، التى بها انتظام العالم ؟ ومن الذى جعل فيها الجنات والحدائق والعيون ؟ ومن الذى جعل باطنها بيوتاً للأموات وظاهرها بيوتاً للأحياء ؟ ومن الذى يحييها بعد موتها ، فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ، ويطلع عليها الشمس ، فتأخذ فى الجبل ، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع ، واهتزت وأنبثت من كل زوج بهيج .

فسبحان من جعل السماء كالأب ، والأرض كالأم ، والقطر كالماء الذى ينعقد منه الولد ، فإذا حصل الحب فى الأرض ، ووقع عليه الماء ، أثرت نداوة الطين فيه ، وأعانتها السخونة المختفية فى باطن

الأرض ، فوصلت الندادة والحرارة إلى باطن الحبة ، فاتسعت الحبة وربت ، وانتفخت ، وانفلقت عن ساقين : ساق من فوقها وهو الشجرة ، وساق من تحتها وهو العرق ، ثم عظم ذلك الولد ، حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه ، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلاف مؤلفة . كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية ، وذلك من البركة ، التي وضعها الله — سبحانه — في هذه الأم ، فيما لها من آية ، تكفى وحدها في الدلالة على وجود الخالق ، وصفات كماله ، وأفعاله ، وعلى صدق رسله ، فيما أخبروا به عنه ، بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور ..

فهذا بعض آيات الأرض ، ومن الآيات التي فيها وقائعه سبحانه ، التي أوقعها بالأأم المكذبين لرسولهم ، المخالفين لأمره ، وأبقى آثارهم دالة عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾^(١) وقال في قوم لوط : ﴿ وإنكم تمرون عليهم مصحين وبالليل أفلأ تعقلون ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسيّل مقيم ﴾^(٣) أى : بطريق ثابت لا يزول عن حاله وقال تعالى : ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم وإني لبإمام مبين ﴾^(٤) أى : ديارهاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون . وقال تعالى : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾^(٥) وقال عن رجل يخرج وحده ، لا عدة له ولا عدد ، ولا مال ، فيدعوا الأمة العظيمة ، إلى توحيد الله ، والإيمان به وطاعته ، ويحذرونهم من بأسه ونقمته ، فتتفرق كلمتهم ، أو أكثرهم على تكذيبه ، ومعاداته ، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر ، فيفرق المكذبين كلهم تارة ، ويخسف بغيرهم الأرض تارة ، ويهلك آخرين بالريح وآخرين بالصيحة ، وآخرين بالمسخ ، وآخرين بالصواعق ، وآخرين بأنواع العقوبات ، وينجو داعيهم ومن معه ، والهالكون أضعاف أضعافهم عوداً وقوة ، ومتعة وأموالاً :

فيالك من آيات حق لو اهدى بهن مريد الحق ، كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة فليست وإن أصغت تجيب المناديا
فهلا امتنعوا — إن كانوا على الحق وهم أكثرهم عدداً وأقوى شوكة — بقوتهم وعددهم من بأسه
وسلطانه ، وهلا اعتصموا من عقوبته ، كما اعتصم من أضعف منهم من اتباع الرسل ؟

(١) المنكوت آية : ٣٨

(٢) الصافات الآيات : ١٣٧

(٣) الحجر الآيات : ٧٣ — ٧٦

(٤) الحجر الآيات : ٧٨ ، ٧٩

(٥) إبراهيم آية : ٤٥

ومن الآيات التي في الأرض ، مما يحدثه الله فيها كل وقت ، ما يصدق به رسله فيما أخبرت به ، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم ، يحدثها الله — سبحانه وتعالى — في الأرض ، إقامة للحجة ، على من لم يشاهد تلك الآيات ، التي قاربت عصر الرسل ، حتى كأن أهل كل قرن ، يشاهدون ما يشاهده الأولون ، أو نظيره ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن ، بل لا بد أن يرى الله — سبحانه — أهل كل قرن من الآيات ، ما يبين لهم أنه الله ، الذي لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، وآيات الأرض أعظم مما يذكر ، وأكثر ، فنبه باليسير منها على الكثير .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قيل : التقدير وفي الأرض وفي أنفسهم آياتي للموقنين . وقيل : المعنى : وفي خلق أنفسكم من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، ولحم ، وعظم ، إلى نفخ الروح ، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصور ، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة الدالة على كمال قدرته ، والشاهدة على وحدانيته (أفلا تبصرون) يعني بصر القلب ، ليعرفوا كمال القدرة لله — سبحانه وتعالى —

قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ يقول : أو لم ينظروا في ذلك نظر تفكر وتدبر ، حتى يستدلوا بكونها محلاً للحوادث والتغيرات ، على أنها محدثات ، والمحدث لا يستغنى عن صانع يصنعه ، وأن ذلك الصانع حكيم عالم ، قدير سميع ، بصير متكلم ؛ لأنه لو لم يكن بهذه الصفات ، لكان الإنسان أكمل منه ، وذلك محال قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِيتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (٢) فلإنسان إذا تفكر بهذا التنبيه بما جعل له من العقل في نفسه رآها مدبرة وعلى أحوال شتى مصرفه . كان نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغة ، ثم لحماً وعظاماً ، فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال ؛ لأنه لا يقدر على أن يحدث لنفسه في الحال الأفضل ، التي هي كمال عقله ، وبلوغ أشده ، عضواً من الأعضاء ، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جراحة ، فيدله ذلك على أنه في حاله نقصه ، وأوان ضعفه ، عن فعل ذلك أعجز ، وقد يرى نفسه شاباً ، ثم كهلاً ، ثم شيخاً ، وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة ، إلى حال الشيخوخة والهرم ، ولا اختاره

لنفسه ، ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ، ويراجع قوة الشباب ؛ فيعلم بذلك ، أنه ليس هو الذى فعل تلك الأفعال بنفسه ، وأن له صانعاً صنعه ، وناقلاً نقله من حال إلى حال ؛ ولولا ذلك ، لم تتبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبر .

وقال الحكماء : إن كل شئ في العالم الكبير ، له نظير في العالم الصغير ، الذى هو بدون الإنسان ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . فحواس الإنسان ، أشرف من الكواكب المضيئة ، والسمع والبصر منها ، بمنزلة الشمس والقمر في إدارك المدركات بها ، وأعضاؤه تصير عند البلى تراباً من جنس الأرض ، وفيه من جنس الماء العرق ، وسائر رطوبات البدن . ومن جنس الهواء فيه الروح والنفس ، ومن جنس النار فيه المرة الصفراء . وعروقه بمنزلة الأنهار في الأرض ، وكبدته بمنزلة العيون التى تستمد منها الأنهار ، لأن العروق تستمد من الكبد ، ومثانته بمنزلة البحر ، لا نصاب ما في أوعية البدن إليها ، كما تنصب الأنهار إلى البحر ، وعظامه بمنزلة الجبال ، التى هى أوتاد الأرض ، وأعضاؤه كالأشجار ، كما أن لكل شجر ورقاً أو ثمراً ، فكذلك لكل عضو فعل أو أثر والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض ، ثم إن الإنسان يحكى بلسانه كل صوت حيوان ، ويحاكى بأعضائه صنيع كل حيوان ؛ فهو العالم الصغير مع العالم الكبير ، مخلوق محدث لصانع واحد لا إله إلا هو .

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود على وجودك شاهد
يا حي يا قيوم أنت المرتجى	وإلى علاك عنا الجبين الساجد
ما في الوجود سواك رب يُعبد	كلأ ولا مولى هناك فيقصد
أنت الأله الواحد الحق الذى	كل الوجود له يقر ويشهد

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله في هذه الآية : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه ، دعاه خالقه وبارئه ، ومصوره ، وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر ، والفكر في نفسه ، فإذا تفكر الإنسان في نفسه ، استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل ، فإنه إذا نظر في نفسه ، وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدة لمديره ، داله عليه ، مرشدة إليه ، إذا يجده مكوناً من قطرة ماء : لحوماً منضدة وعظاماً مركبة ، وأوصالاً متعددة ، مأسورة مشددة بحبال

للعروق والأعصاب ، قد قمطت وشدت ، وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلاً ، ما بين كبير وصغير ، وتخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم ومنحن ، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقاً ، للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، والصنایع والكتابة .

وجعل فيه تسعة أبواب : فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج الفضلات ، التي يؤذيه احتباسها . وجعل داخل بابي السمع مرأً قائلاً ، لئلا تلج فيها دابة ، تخلص إلى الدماغ فتؤذيه ، وجعل داخل بابي البصر مالحاً ، لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم ، وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً ، ليسيغ به ما يأكله ويشربه ، فلا يتنغص به لو كان مرأً أو مالحاً ،

وجعل له مصباحين ، من نور كالسراج المضيء ، مركبين في أعلى مكان منه ، وفي أشرف عضو من أعضائه ، طليعة له ، وركب هذا النور في جزء صغير جداً ، يبصر به السماء والأرض ، وما بينهما ، وغشاه بسبع طبقات ، وثلاث رطوبات ، بعضها فوق بعض ، حماية له وصيانة وحراسة ، وجعل على محله علقاً بمصراعين أعلى وأسفل ، وركب في ذيل المصراعين ، أهذاً من الشعر وقاية للعين ، وزينة وجمالاً ، وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر ، يحجبان العين من العرق النازل ، ويتلقيان عنهما ما ينصب من هناك ، وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين ، شغلاً مخصوصاً ، ولكل واحد من الرطوبات مقداراً مخصوصاً ، لو زاد على ذلك أو نقص منه ، لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة ، وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة ، ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والنجوم والجبال ، والعالم العلوي والسفلي ، مع اتساع أطرافه ، وتباعد أقطاره ، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل فيها بياضاً وسواداً ، وجعل القوة الباصرة في السواد ، وجعل البياض مستقراً لها وسكناً ، وزين كلاً منهما بالآخر ، وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدم ، والحواجب بالأهداب ، وجعلها إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر ، فضعف الإدراك ، فإن السواد يجمع البصر . ويمنع من تفرق النور الباصر . وخلق سبحانه لتحريك الحدقة ، وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة . لو نقصت عضلة واحدة ، لاختل أمر العين .

ولما كانت العين كالمرآة ، التي إنما تنطبع فيها الصور ، إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء ، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جداً بالطبع إلى الانطباق ، من غير تكلف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية ، من جميع الكدورات ، ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً ، فإنها لاتزال تراها تنظف عينها بيدها ، من آثار الغبار والكدورات ، وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه ، فيوصلانه إليه ، كما ترياه جعلها مرأتين للقلب ، يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض ، والخير والشر ، والبلادة

والفطنة ، والزيف والاستقامة ، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة ، وهى فراسة العين ، وفراسة الأذن ، وفراسة القلب ، فالعين مرآة القلب ، وطلية ورسوله ، ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء ، وأبعدها تأثيراً بالحر والبرد ، على أن الأذن على صلابتها وغلظها لتتأثر بهما ، أكثر من تأثر العين على لطافتها ، وليس ذلك بسبب الغطاء الذى عليها من الأجفان ، فإنها لو كانت مفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة .

ومن ذلك الأذنان ، شقهما تبارك وتعالى فى جانبى الوجه وأودعهما من الرطوبة ما يكون معيناً على إدراك السمع . وأودعهما القوة السمعية . وجعل سبحانه فى هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات ، لتطول المسافة قليلاً ، فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته فلا يصدمها وهلة واحدة ، فيؤذيها ، وأيضاً لئلا يفجأها الداخل إليها من الدبيب والحشرات ، بل إذا دخل إلى عوجة من تلك الإنعطافات وقف هناك ، فسهل إخراجه .

وكانت العينان فى وسط الوجه والأذنان فى جانبيه ، لأن العينين محل الملاحظة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور الذى يمشى بين يدى الانسان ، وأما الأذنان جعلهما فى الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان ، وأمامه ، وعن يمينه ، وعن شماله سواء فتأتى المسموعات إليهما على نسبة واحدة . وخلقت العينان بغطاء ، والأذنان بغير غطاء ، وهذا فى غاية الحكمة . إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء ، والصوت عرضى لاثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء ، بخلاف ما تراه العين ، فإنه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين . وجعل سبحانه الأذن عضواً غضروفياً ليس بلحم مسترخ ، ولا عظم صلب ، بل هى بين الصلابة واللين ، فتقبل بليتها ، وتحفظ بصلابتها ، ولا تتصدع انصداع العظام ، ولا تتأثر بالحر والبرد ، والشمس والنجوم تأثر اللحم إذ المصلحة فى بروزها لتلقى ما يرد عليها من الأصوات والأخبار .

ومن ذلك الأنف . نصبه سبحانه فى وسط الوجه قائماً معتدلاً ، فى أحسن شكل وأوفقه للمنفعة ، وأودعه حاسة الشم التى يدرك بها الروائح وأنواعها ، وكيفياتها ومنافعها ومضارها ، ويستدل بها على مضار الأغذية والأدوية ومنافعها . وأيضاً فإنه يستنشق بالمنخرين الهواء البارد الرطب ، فيؤديه إلى القلب ، فيتروح به ، فيستغنى بذلك عن فتح الفم أبداً . وجعل تجويفه بقدر الحاجة ، فلم يوسعه عن ذلك . فيدخله هواء كبير . ولم يضيقه فلا يدخله من الهواء ما يكيّفه وجعل ذلك التجويف مستطيلاً . لينحصر فيه الهواء ، وينكسر برده وحدته قبل أن يصل إلى الدماغ فلولا ذلك لصدمه بحدته وقوته . والهواء الذى يستنشقه الأنف ينقسم شطرين : شطراً يصعد إلى الدماغ ، وشطراً ينزل إلى الرئة ، وهو من آلات النطق . فإن له إعانة على تقطيع الحروف . وكما أن تجويفه جعل لاستنشاق الهواء ، فإنه جعل

مصباً لفضلات الدماغ ، تنحدر منه في تلك القصبة ، فيخرج . فيستريح الدماغ ، ولذلك جعل عليها ستراً ، ولم يجعلها بارزة فتستقلها العيون . وجعل فيها تجويفاً . فإنه قد ينسد أحدهما ، أو يعرض له آفه تمنعه من الإدراك والاستنشاق . فيبقى التجويف الثاني نائباً عنه يعمل عمله ، كما اقتضت الحكمة ، مثل ذلك في العينين .

ثم تأمل الهواء الذى يستنشقه الأنف ، كيف يدخله أولاً من المنخرين ، وينكسر برده هناك ، ثم يصل إلى الحلق ، فيعتدل مزاجه هناك . ثم يصل إلى الرئة ألطف ما يكون . ثم تبعثه الرئة إلى القلب ، فيروح عن الحرارة الغريزية فيه . ثم ينفذ من القلب إلى العروق المتحركة ، ويبلغ إلى أقاصى أطراف البدن . ثم إذا سخن في الباطن وخرج عن حد الانتفاع خرج عن تلك الأقاصى إلى البدن ، ثم إلى الرئة . ثم إلى الحلقوم ، ثم إلى المنخرين خارجاً ، فيخرج منهما ويعود عوضه هواء بارد نافع . والنفس الواحد من أنفاس العبد إنما يتم بمجموع هذه الأمور والقوى والأفعال . وهو له في اليوم والليلة ، أربعة وعشرون ألف نفس ، لله في كل نفس عدة نعم ، قد وقفت على القليل منها ، فما ظنك بما وراء النفس من الأعضاء ، والقوى ومنافعها وتمام النعمة بها ؟

وأما الفم فمحل العجائب ، وباب الطعام والشراب والنفس والكلام ويمكن اللسان الناطق الذى هو آلة العلوم ، وترجمان القلب ورسوله المؤدى عنه .

ولما كان القلب ملك البدن ، ومعدناً للحرارة الغريزية ، فإذا دخل الهواء البارد وصل إليه فاعتدلت حرارته ، وبقي هنالك ساعة فسخن واحترق . فاحتاج القلب إلى دفعه وإخراجه فجعل أحكم الحاكمين إخراجه سبباً لحدوث الصوت في الحنجرة والحنك ، واللسان ، والشفيتين . والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة ، وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف ليؤدى بها عن القلب ما يأمر به .

فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه ذلك النفس المستغنى عن المحتاج إلى دفعه وإخراجه ، بل جعل فيه إذا استغنى عنه منفعة ومصلحة هي من أكمل المنافع والمصالح . فإن المقصود الأصل من النفس هو اتصال الريح البارد إلى القلب . فأما إخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة . فصرف ذلك سبحانه إلى رعاية مصلحة ، ومنفعة أخرى . وجعله سبباً للأصوات والحروف والكلام .

ثم أنه سبحانه جعل الحناجر مختلفة الأشكال : في الضيق ، والسعة والخشونة والملاسة ، لتختلف الأصوات باختلافها ، فلا يتشابه صوتان ، كما لا تتشابه صورتان . وهذا من أظهر الأدلة . فإن هذا

الاختلاف — الذى بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددتها — فقلما يشته صوتان أو صورتان — ليس فى الطبيعة ما يقتضيه . وإنما هو صنع الله الذى اتقن كل شئ وأحسن كل شئ خلقه . فتبارك الله أحسن الخالقين وتبارك الله رب العالمين . فميز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السمع والبصر

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنى الجبين الساجد

وأودع اللسان من المنافع منفعة الكلام — وهى أعظمها — ومنفعة الذوق والإدراك وجعله دليلاً على اعتدال مزاج القلب وانحرافه ، كما جعله دليلاً على استقامته واعوجاجه . فترى الطبيب يستدل بما يبدو للبصر على اللسان من الخشونة ، والملاسة والبياض والحمرة ، والتشقق وغيره ، على حال القلب والمزاج وهو دليل قوى على أحوال المعدة والأمعاء ، كما يستدل السامع بما يبدو عليه من الكلام على ما فى القلب ، فيبدو عليه صحة القلب وفساده معنى وصورة .

وجعل سبحانه اللسان عضواً لحمياً ، لا عظم فيه ولا عصب ، لتسهل حركته ولهذا لا تجد فى الأعضاء من لا يكثرث بكثرة الحركة سواه فإن أى عضو من الأعضاء إذا حركته كما تحرك اللسان لم يطق ذلك ، ولم يلبث أن يكل ويخلد إلى السكون ، إلا اللسان . وأيضاً فإنه من أعدل الأعضاء وألطفها ، وهو فى الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه . فمزاجه من أعدل أمزجه البدن ويحتاج إلى قيض وبسط . وحركة فى أقاصى الفم وجوانبه . فلو كان فيه عظام لم يتهياً منه ذلك ، ولم يتهي منه الكلام التام ولا الذوق التام . فكونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلى والغائى والله أعلم .

وجعل سبحانه على اللسان غلقين : أحدهما الأسنان ، والثانى الفم ، وجعل حركته اختيارية . وجعل على العين غطاء واحداً ولم يجعل على الأذن غطاء . ذلك لخطر اللسان وشرفه وخطر حركاته ، وكونه فى الفم بمنزلة القلب فى الصدر . وذلك من اللطائف . فإن آفة الكلام أكثر من آفة النظر وآفة النظر أكثر من آفة السمع . فجعل للأكثر آفات طبقتين وللمتوسط طبقة ، وجعل الأقل آفة بلا طبق .

وجعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة ، والريق يتحلل إليه دائماً لا يفارقه . وجعله حلواً لا مالحاً كماء العين ، ولا مرّاً كالذى فى الأذن ، ولا عفناً كالذى فى الأنف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها — حكمة بالغة — فإن الطعام والشراب يخالطه بل هو الذى يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء . فلولا أنه حلو لما التذ الإنسان بل ولا الحيوان ، بطعام ولا شراب ، ولا ساغه إلا بعد

طبخه ، جعل الرب تعالى له آلة للتقطيع والتفصيل وآلة للطحن ، فجعل آلة القطع — وهى الثنايا وما يليها — حادة الرأس ليسهل بها القطع . وجعل لنواجذ وما يليها من الأضراس مسطحة الرأس ، عريضة ، ليتأنى بها الطحن . ونظمها أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم فى سلك وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل ، ليتأنى بها القطع والطحن وجعلها من الجانب الأيمن والأيسر . إذ ربما كلت إحدى الآتين أو تعطلت أو عرض لها عارض . فينتقل إلى الآلة الأخرى . وأيضاً لو كان العمل على جانب واحد دائماً أو شك أن يعطل ويضعف وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم ، وتخرج من خلاله نابتة كما ينبت الزرع فى الأرض . ولم يكسها سبحانه لحماً ، كسائر العظام سواها . إذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة ولما كانت العظام محتاجة إلى لحم يكسوها ويحفظها ويتلقى عنها الحرارة والبرد ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكمل مصلحة الحيوان إلا بهذه الكسوة . ولما كانت عظام الإنسان محتاجة إلى ذلك من وجه . مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها وجعلت هى المكتسبة العارية لتتمام المنفعة بذلك . ولما كانت آلة القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته — كسائر عظامه — لعدم الحاجة إليها — عطل عنها وقت استغنائه عنها بالرضاع ، وأعطى وقت حاجته إليها . وفيه حكمة أخرى وهى أنه لو نشأت معه حين يولد لأضرت بحلمه الثدى . إذ لا عقل له يحرزه عن عضها فكانت الأم تمتنع من إرضاعه .

فكانت عجيب أمرها الاتفاق والموالة التى بينهما وبين المعدة . فإنه يسلم إليها الشئ اليابس والصلب فتطحنه ثم تسلمه إلى اللسان فيعجنه . ثم اللسان يسلمه إلى الحلق فيوصله إلى المعدة فتنضجه وتطبخه . ثم يرسل إليها منه معلومها المقدر لها . فإذا عجزت عن قطع شئ وطحنه عجزت المعدة عن إنضاجه وطبخه . فإذا كَلَّت الأسنان كلت المعدة ، وإذا ضعفت ضعفت . وهى تصحب الإنسان وتخدمه ما لم يرها ، فإذا وقعت عينه عليها فارقت الأبد وهى سلاح ومنشار ، وسكين وروح وزينة وفيها منافع ومصالح غير هذه .

ثم تأمل حال الشعر ومنبته وسببه . فإن البدن لما كان حاراً رطباً . والحرارة إذا عملت فى الرطوبة فلا بد أن تثير بخاراً وتلك الأبخرة تتصاعد من عمق البدن إلى سطحه ، وتريد الانفصال من هناك ، فلا بد أن تحدث مساماً ومنافذ فى ظاهر الجلد . وتلك الأبخرة إما أن تكون رطبة لطيفة . فحينئذ تنفصل من المسام ولا تحدث شيئاً . وإما أن تكون دخانية يابسة غليظة فالجلد حينئذ إما أن يكون فى نهاية النعومة والنضارة كجلد الصبيان ، أو فى غاية اليبس والقشف ، أو يكون معتدلاً فإذا ذاك لا يتولد فيه الشعر . لأن البخار إذا شق سطح الجلد وانفصل عاد الجلد فى الحال إلى اتصاله الأول ، بسبب كثرة رطوبته ونعومته . مثاله السمك إذا رفع رأسه من الماء انشق له الماء ، فإذا عاد إلى الماء عاد الماء إلى اتصاله الأول فإذا كان الجلد فى غاية اليبس لم يتولد الشعر ، لأن الجلد اليابس إذا انثقب بقيت

تلك الثقب مفتوحة ليس الجلد . فيفرق أجزاءه البخار ولا يجتمع بعضه إلى بعض فإن الجلد متوسط بين النعومة والكثافة ، فإنه ينفتح فيه المسام بسبب تلك الأبخرة ولا يعود ينسد بعد خروج البخار ، ولكن لا تبقى المسام شديدة الإنفتاح ، وحينئذ يبقى ذلك البخار الدخاني في تلك الثقب لا يزال يمدد بخار آخر يدفعه أولاً فأولاً الى خارج ، من غير أن ينقطع أصله فيبقى بعضه مركزاً في الجلد ، منزلة منزلة أصل النبات وبعضه يطلع إلى خارج ، منزلة منزلة ساق النبات . وكذلك الشعر . فمادة الشعر هي البخار الدخاني اليابس وسببه هو الحرارة الطبيعية المحرقة لذلك البخار . والآلة التي بها يتم أمره هي المسام التي ارتكن فيها البخار فتلبد هناك فصار شعراً بإذن الله .

والغاية التي من أجلها وجد نثيان عام ، وهو تنقية البدن من الفضول الدخانية الغليظة ، والآخر خاص . وهو إما للزينة . وإما للوقاية .

وإذا بان أن الشعر إنما يتولد مع الحرارة واليبس المعتدل بقيت ثلاثة أقسام . أحدهما حرارة غالية على اليبس . كالعيان . الثاني عكسه . وهو يبس غالب على الحرارة كالمشايع . الثالث حرارة ضعيفة ويبس ضعيف . كأبدان النساء . ففي هذه الأقسام يقل الشعر . وأما الشباب فإن حرارة أبدانهم ويبسهم معتدل ينتوى تولد الشعر فيهم .

وفي شعر الرأس منافع ومصالح : منها وقايته عن الحر والبرد والمرض . ومنها الزينة والحسن . والسبب الذي صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن هو أن البخار شأنه أن يصعد من جميع البدن الى الدماغ ، ومن الدماغ الى فوق ، وكان هذا الشعر نتمياً على الدوام ، لأن البخار يتصاعد الى الرأس أبداً ، وهو مادة الشعر فبناء الشعر ينمو البخار . وكان فيه تخلص للبدن من تلك المواد وتكثير لوقايته وغطائه .

وأما شعر الحاجبين فقيه - مع الحس والزينة والجمال - وقاية العين مما ينحدر من الرأس ، وجعل على هذا المقدار لأنه لو نقص عنه لزال منفعة الجمال والوقاية . ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها وحال بينها وبين ما تدركه وقد ذكرنا منفعة شعر الهدب . ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب قائماً منتصباً وأن يكون باقياً على حال واحد في مقدار واحد ، جعل منبت هذا الشعر في جرم صلب شبيه بالغضروف يمتد في طول الجفن لئلا يطول وينمو ..

وأما شعر اللحية ففيه منافع : منها الزينة ، والوقار ، الهيبة . لهذا لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على ذوى اللحي ومنها التميز بين الرجال والنساء .

وأما شعر العانة ، والإبط ، والأنف فمنفعته تنقية البدن من الفضلة . ولهذا إذا أزيل من هذا الموضع وجد البدن خفة ونشاطا . وإذا وفر وجد ثقلا وكسلا وغماً . ولهذا جاءت الشريعة بحلق العانة ، ونتف الإبط . وكان حلق العانة أولى من نتفها لصلابة الشعر وتأذى صاحبها بنتفه ، وكان نتف الإبط أولى من حلقه لضعف الشعر هناك وشدته وتعجل نباته بالحلق . فجاءت الشريعة بالأنفع في هذا وهذا .

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه أدخل الكفين والجبهة والأخصيين من الشعر ، فإن الكفين خلقا حاكمين على الملموسات فلو حصل الشعر فيهما لأخل بذلك ، وخلقاً للقبض ، وإصاق اللحم على المقبوض أعون على جودته من التصاق الشعر به . وأيضاً فإنهما آلة الأخذ والعطاء ، والأكل ، ووجود الشعر فيهما يخل بتمام هذه المنفعة . وأما الأخصيان فلو نبت الشعر فيهما لأضر بالماشي وأعاقه في المشي كثيراً مما يعلق شعره من على الأرض ، ويتعلق بما عليها أيضاً . هذا مع أن أكثر الأوتار والأغشية في الكفين مانع من نفوذ الأبخرة فيها . وأما الأخصيين فإن الأبخرة تتصاعد إلى علو ، وكلما تصاعد كان الشعر أكثر . وأيضاً فإن كثرة وطء الأرض بالأخصيين يصلبهما ويجعل سطحيهما أملس لا ينبت شيئاً ، كما أن الأرض التي توطأ كثيراً لا تنبت شيئاً .

وأما الجبهة فلو نبت الشعر عليها لستر محاسنها ، وأظلم الوجه وتدلى على العين . وكان يحتاج إلى حلقه دائماً ، ومنع العينين من كمال الإدراك ، والسبب المؤدى لذلك أن الذي تحت عظم الجبهة هو مقدم الدماغ ، وهو بارد رطب ، والبخار لا يتحرك منحرفاً إلى الجبهة . بل صاعداً إلى فوق ..

ثم يقول العلامة ابن القيم :

فاستقبل الآن النظر في نفسك ، وانظر إلى المبدأ الأول . وهو النطفة التي هي قطرة مهينة ضعيفة ، لو تركت ساعة لبطلت وفسدت كيف أخرجها الرب تعالى من بين الصلب والترائب ؟ وكيف أوقع المحبة والألفة بين الذكور والإناث . ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع . ثم استخرج النطفة من الذكر بحركة الوقاع من أعماق العروق ، وجمعها في الرحم في قرار مكين لا تناله يد ، ولا تطلع عليه شمس ، ولا يصيبه هواء ، ثم صرف تلك النطفة طوراً بعد طور ، وطبقاً بعد طبق ، وغذاها بماء الحيض وكيف جعل سبحانه النطفة — وهي بيضاء مسترقة — علقه حمراء ، ثم جعلها مضغة ، ثم قسم أجزاء المضغة إلى العظام والأعصاب والعروق ، والأوتار ، واللحم في داخل الرحم في الظلمات الثلاث ، ولو كشف لك الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر في تلك النطفة شيئاً بعد شيء ، من غير أن ترى المصور ولا آله ولا قلمه . فهل رأيت مصوراً لا تحصى آله ولا تلاقيها ؟

ثم تأمل هذه القبة العظيمة التى قد ركبت على المنكبين وما أودع فيها من العجائب . وما ركب فيها من الخزائن ، وما أودع فى تلك الخزائن من المنافع ، وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الأشكال ، والمصنفات ، والمنافع ، ومن الرطوبات والأعصاب والطرق ، والمجارى ، والدماغ ، والمنافذ والقوى الباطنة من الذكر والفكر ، والتخيل وقوة الحفظ ، ففيه القوة المفكرة مسخرة لمصالحها ، يستعملها ، ويستخدمها كيف أراد .

فتأمل كيف دور سبحانه الرأس ، وشق سمعه وبصره وأنفه وفمه ؟ وكيف ركب كرتة فى بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظماً ، وخلق تلك العظام على كيفيات مختلفة .

وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفة إلى العظام الصلبة الشديدة ؟

ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص بحيث حصل من مجموعها ما لو كان على خلافه لبطلت المنفعة وفات الغرض . ثم ركب بعضها مع بعض بحيث حصل من مجموعها كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة .

ولما كان الرأس أشرف الأعضاء الإنسانية وأجمعها للقوى ، والمنافع والآلات والخزائن اقتضت العناية الإلهية بأن صين بأنواع من الصيانات . وذلك أن الدماغ يخطه غشاء رقيق وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر ، يقال له : السمحاق . ثم فوق ذلك الغشاء طبقة لحمية . وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد ثم فوق الجلد الشعر فخلق سبحانه فوق دماغك سبع طبقات كما خلق فوق الأرض سبع سموات طباقاً . والمقصود من تخليقها الإحتياط فى صون الدماغ من الآفات . والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن .

وهو سبحانه قسمه فى طوله ثلاثة أقسام ، وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل والبطن الأوسط محل التأمل والتفكير ، والبطن الأخير محل التذكر والاسترجاع لما كان قد نسيه ولكل واحدة من هذه الأمور الثلاثة أمر مهم للإنسان . لا بد له منه ، وأنه محتاج إلى التفهم والتفهم ، ولو لم يكن حافظاً لمعانى التصورات وصورها بعد غيبتها لكان إذا سمع كلمة وفهمها شذت عنه عند مجئ الأخرى ، فلم يحصل المقصود من الفهم والإفهام ، فجعل له ربه وفاطره خزانة تحفظ له صور المعلومات حتى تجتمع له ، وتسمى القوة التى فيها القوة الحافظة ، ولا تتم مصلحة الإنسان إلا بها .. فذلك من أعظم آيات الله وأدلتة وقدرته وحكمته . كيف ترسم صورة السموات والأرض والبحار والشمس والقمر والأقاليم

والممالك والأمم في هذا المحل الصغير ؟ والإنسان يحفظ كتباً كثيرة جداً وعلوماً شتى متعددة ، وصنائع مختلفة ، فترتسم كلها في هذا الجزء الصغير ، من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض ، بل كل صورة منهم بنفسها محصلة في هذا المحل . وأنت لو ذهبت تنقش صوراً وأشكالاً كثيرة في محل صغير لا تختلط بعضها ببعض ، وتلمس بعضها بعضاً . وهذا الجزء الصغير تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة ، والمتضادة ، ولا يبطل منها صورة صورة .

ومن أعجب الأشياء أن القوة العاقلة تقبل ما تؤديه إليها الحواس فتجتمع فيها ، ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الأخرى .

مثاله : أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان ، وتسمع صوته فتعلم أنه هو ، وتلمس الشيء فتعرفه ، وتشمه فتعرف أنه هو ، ثم تستدل بما تسمعه من صوته على أنه هو الذي رأيته ، فيغنيك سماع صوته عن رؤيته ، ويقوم لك مقام مشاهدته . ولهذا جوز أكثر الفقهاء شهادة الأعمى وبيعه وشراؤه . وأجمعوا على جواز وطئه امرأته ، وهو لم يرها قط ، اعتماداً منه على الصوت . بل لو كانت خرساء أيضاً وهو أطرش جاز له الوطء .

وقد جعل الله — سبحانه — بين السمع والبصر والفؤاد علاقة وارتباطاً ونفوذاً يقوم به بعضها مقام بعض . ولهذا يقرن سبحانه بينهما كثيراً في كتابه كقوله : ﴿ إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾^(٢) وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾^(٣) وهذا من عناية الخالق سبحانه بكمال هذه الصورة البشرية لتقوم كل حاسة منها مقام الحاسة الأخرى . وتفيد فائدتها في الجملة . لا في كل شيء .

ثم أودع سبحانه قوة التفكير وأمره باستعمالها فيما يجدى عليه النفع في الدنيا والآخرة ، فركب القوة المفكرة عن شيئين من الأشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيباً خاصاً ، فيتولد من بين هذين الشيئين شيء وثالث جديد لم يكن للعقل شعور به . كانت مواده عنده لكن بسبب التركيب حصل له الأمر الثالث . ومن هاهنا حصل استخراج الصنائع والحرف والعلوم وبناء المدن والمساكن ، وأمور

١ — سورة الإسراء الآية : ٣٦

٢ — سورة الأحقاف الآية : ٢٦

٣ — سورة الأعراف الآية : ١٧٩

الزراعة والفلاحة وغير ذلك . فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك ، واستحسنته سلمته إلى القوة الإرادية العلمية . فنقلته من ديوان الأذهان إلى ديوان الأعيان فكان أمراً ذهنياً ، ثم صار وجودياً خارجياً . ولولا الفكرة لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع المفاسد ، وذلك من أعظم النعم ، وتمام العناية الإلهية . ولهذا لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا مما تكن منه أرباب الفكر كان استخراج الطلوب بهذه الطريقة يتضمن فكراً وتقديراً فيفكر في استخراج المادة أولاً ، ثم يقدرها ويفصلها ثانياً كما — يصنع الخياط يحصل الثوب ثم يقدره ويفصله ثانياً قال تعالى عن الوليد : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ﴾ (١) فكرر سبحانه التقدير دون التفكير وذمه عليه دونه . وهذا منزل على مقتضى حال سواه . فإنه بالفكر طالب لاستخراج المجهول . وذلك غير مذموم . فلما استخرجه قدر له تقديرين : تقديراً كلياً وتقديراً جزئياً . فالتقدير الكلي أن الساحر هو الذي يفرق بين المرء وزوجه . والتقدير الجزئي أن الذي يفرق بين المرء وزوجه مذموم . فهنا تقدير بعد تقدير . فلهذا كرره سبحانه وذمه عليه . وأما التفكير فإن الفكر طالب لمعرفة الشيء . فلا يذم ، بخلاف من قدر بعد تفكيره ما يوصله إلى تحقيق الباطل وإبطال الحق . فتأمل .

ثم أنزل إلى العين . وتأمل عجائبها ، وشكلها ، وخلقها ، وإيداع النور الباصر فيها . وتركيبها من عشر طبقات . وثلاث رطوبات ولكل واحد من هذه الطبقات والرطوبات شكل مخصوص ومقدار مخصوص لو لم يكن عليه لاختلت المصلحة المقصودة وجعل سبحانه موضع الإبصار في قدر العدسة . ثم أظهر في تلك العدسة قدر السماء والأرض والجبال والبحار والشمس والقمر . فانظر كيف اتسعت تلك العدسة أن يرتسم فيها ما لانسبة لها إليه البتة ؟ وجعل تلك القوة الباصرة في جزء أسود . فتأمل كيف قام الباصر بهذا الجزء الأسود ؟

وجعل سبحانه الحدقة مصونة بالأجفان ، لتسترها ، وتحفظها ، وتصلقها وتدفع الاقذاء عنها . وجعل شعر الأجفان أسود ليكون سواده سبباً لاجتماع النور الذي به الإبصار ، ويكون مانعاً من تفرقه ، ويكون أبلغ في الحسن والجمال .

وخلق سبحانه لتحرك الحدقة أربعة وعشرين عضلة ، لو نقصت واحدة منهن لاختل أمر العين .

ولما كانت العين شبيهة بالمرآة — التي إنما ينتفع بها إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء — جعل سبحانه الأجفان متحركة إلى الانفتاح والإطباق أبداً باختيار الإنسان وغير اختيار ، لتبقى الحدقة نقية صافية عن جميع الكدورات . وجعل العينين بمنزلة المرآتين الصقيلتين اللتين تنطبع فيهما صور الأشياء الخارجية . فيتأثر القلب ، ثم يظهر ما فيه عليهما فيتأثران به . فهما مرآة لما في القلب يظهر فيهما ، ومرآة لما في الخارج تنطبع صورته فيهما . فالعينان على القلب كالزجاجتين الموضوعتين في المرآة ، ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب من رضاه وغضبه ، وحبه ، وبغضه ، ونفرته فسبحان الله العليم الحكيم .

ثم اعدل إلى الأذنين ، وتأمل شقيهما ، وخلقهما ، وإيداع الرطوبة فيهما ليكونا عوناً على إدراك السمع ، وجعلها مرة لتمتنع الهواء عن الدخول في الأذن ، وحوطهما سبحانه بصدفتين يجمعان الصوت ويؤديانه إلى الصماخ ، وجعل في الصدفتين تعريجات لتطول المسافة فتكسر حدة الصوت ولا تلج الهوام دفعة بل تكثر حركاتها فينتبه لها فيخرجها . وجعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين لأن العينين بمنزلة الطليعة والكاشف والرائد ، الذي يتقدم القوم ليكشف لهم وبمنزلة السراج الذي يضيء للسالك ما أمامه . وأما الأذنان فيدركان المعاني الغائبة التي ترد على العبد من أمامه ومن خلفه وعن جانبيه فكان جعلهما في الجانبين أعدل الأمور . فسبحان من بهرت حكمته العقول .

ثم انزل إلى الأنف ، وتأمل شكله وخلقه ، وكيف رفعه سبحانه في وسط الوجنة بأحسن شكل ، وفتح فيه بابين ، وأودع فيهما حاسة الشم ، وجعله آلة استنشاق الهواء وإدراك الروائح على اختلافها .. وجعل سبحانه تجويفه واسعاً لينحصر فيه الهواء وينكسر برده قبل الوصول إلى الدماغ ، فإن الهواء المستنشق ينقسم قسمين : شطراً منه — وهو أكثره — ينفذ إلى الرئة ، وشطراً ينفذ إلى الدماغ . ولذلك يضر المزكوم استنشاق الهواء البارد . وجعل في الأنف أيضاً إعانة على تقطيع الحروف . وجعل بين المنخرين حاجزاً . وذلك أبلغ في حصول المنفعة المقصودة ، حتى كأنهما أنفان بمنزلة العينين ، والأذنين ، واليدين والرجلين . وقد يصيب أحد المنخرين آفة فيبقى الآخر سليماً ، وجعل تجويفه نازلاً إلى أسفل ، ليكون مصباً للفضلات النازلة من الدماغ . وستره بسائر أبدى ، لئلا تبدو تلك الفضلات في عين الرائي ..

ثم انزل إلى الصدر تر معدن العلم ؟ والحلم والوقار ؟ والسكينة ، والبر وأضدادها ، فتجد صدور العلية تعلو بالبر والخير والعلم والإحسان ، وصدور السفلة تغل بالفجور والشرور والإساءة والحسد والمكر .

ثم انفذ من ساحة الصدر إلى شاهدة القلب تجد ملكاً عظيماً جالساً على سرير مملكته ، يأمر ، وينهى ، ويولى ، ويعزل ، وقد حف به الأمراء والوزراء والجند . كلهم فى خدمته ، إن استقام استقاموا ، وإن زاغ زاغوا ، وإن صح صحوا ، وإن فسد فسدوا فعليه المعول ، وهو محل نظر الرب تعالى ، ومحل معرفته ، ومحبه ومشيتته والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والرضى به ، وعنه والعبودية عليه أولاً وعلى رعيته وجنده تبعاً . فأشرف ما فى الإنسان قلبه . فهو العالم بالله ، الساعى إليه ، المحب له ، وهو محل الإيمان والعرفان ، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل ، المخصوص بأشرف العطايا ، من الإيمان والعقل ، وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها إلى الجوارح من الطاعات والمعاصى ، إنما هى آثاره ، فإن أظلم أظلمت الجوارح ، وإن استنار استنارت ، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن — عز وجل — .

فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب الذى يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته ودينه مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد . أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبل إلى ، فبادرت وقامت بين يدى رب العالمين . وكره عز وجل انبعاث آخرين فثبطهم وقيل اقعدها مع القاعدين كانت أكثر يمين رسول الله — ﷺ — « لا ومقلب القلوب »^(١) وكان من دعائه « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك »^(٢) قال بعض السلف . القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غليانها . وقال آخر : القلب أشد تقلباً من الريشة بأرض فلاة فى يوم ربح عاصف .

ويطلق القلب على معنيين : أحدهما أمر حى وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل ، المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وفى باطنه تجويف ، وفى التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح ، والثانى أمر معنوى ، وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص . وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسانية .

وللقلب جندان : جندى يرى بالأبصار ، وجند يرى بالبصائر . فأما جنده المشاهد فالأعضاء الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافاً ، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت . وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم . وإذا أمر اليد بالبطش بطشت . وإذا أمر الرجل بالسعى سعت . وكذا جميع الأعضاء ذلت له تذليلاً .

١ — صحيح البخارى — كتاب التوحيد — باب قوله تعالى : ونا الرزاق ذو القوة المتين ٩/ ١٤٥ وأبو داود — كتاب الإيمان والنذور — باب ما جاء فى يمين النبى — ﷺ — ما كانت ٣/ ٥٧٧ رقم ٣٢٦٣ والترمذى فى الإيمان والنذور حديث رقم ١٥٤٠

ولما خلق القلب للسفر إلى الله والدار الآخرة وحصل في هذا العالم ليتذود منه افتقر إلى المركب والزاد لسفره الذي خلق لأجله . فأعين بالأعضاء والقوى ، وسخرت له ، وأقيمت له في خدمته لتجلبب له ما يوافقه من الغذاء والمنافع ويدفع عنه ما يضره ويهلكه ، فافتقر إلى جنديين : باطن ، وهو الإرادة والشهوة ، والقوى . وظاهر وهو الأعضاء . فخلق في القلب من الإرادات والشهوات ما احتاج إليه . وخلقت له الأعضاء التي هي آلة الإرادة ، واحتاج في دفع المضار إلى جنديين : باطن ، وهو الغضب الذي يدفع المهلكات . وينتقم به من الأعداء وظاهر وهو الأعضاء التي ينفذ بها غضبه ، كالأسلحة للقتال ولا يتم ذلك إلا بمعرفته ما يجلب وما يدفع ، فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره .

ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من الملائكة وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته ، وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه ، فما ابتلى بصفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفاً ومحلاً ينفذها فيه ، فجعل لقوة الحسد فيه مصرفاً وهو المنافسة في فعل الخير ، والغبطة عليه ، والمسابقة إليه ، ولقوة الكبر مصرفاً وهو الحرص على ما ينفع كما قال — ﷺ — : « احرص على ما ينفعك »^(١) ، ولقوة الشهوة مصرفاً وهو الزوج بأربع والتسرى بما شاء ، ولقوة حب المال مصرفاً ، وهو إنفاقه في مرضاته تعالى ، والتزود منه لمعاده ، فمحبته المال على هذا الوجه لا تدم ، ولحبة الجاه مصرفاً ، وهو استعماله في تنفيذ أوامره وإقامة دينه ، ونصر المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة الضعيف وقمع أعداء الله . فمحبته الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة . وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفاً ، وهو لهوه مع امرأته ، أو بقوسه وسهمه ، أو تأديبه فرسه . وكل ما أعان على الحق . وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفاً ، وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل . وهكذا جميع القوى التي ركبت فيه جعل لها مصرفاً وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته ولا يطلب تعطيلها ، وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل ، ومن موضع إلى موضع ، ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه ، عليم شدة الحاجة إليه ، وعظم الانتفاع به ...

قوله تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾

قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق .

وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم .

وقال ابن كيسان : يعنى وعلى رب السماء رزقكم كقوله تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾^(١) .

وقيل : المعنى وفى السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب فى أم الكتاب . وفى الحديث الصحيح « إن أحدهم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد — الحديث

وقوله تعالى : ﴿ وما تواعدون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : ﴿ وما تواعدون ﴾ الجنة . وقال الضحاك : ﴿ وما تواعدون ﴾ من الجنة والنار . وقال ابن سيرين والربيع : ﴿ وما تواعدون ﴾ من أمر الساعة .

هكذا يحدد المنهج الربانى بوضوح ويقين مصدر الرزق وتوزيع الأرزاق حتى يكد المسلم ويجتهد فى الحياة بدون قلق أو خوف لأنه على يقين أن رزقه سيأتيه من خالق السموات والأرض ، فدستور المسلم وهو القرآن العظيم حافل بما يؤكد هذا اليقين قال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾^(٣) ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ﴾^(٤) ﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور ﴾^(٥) .

إذن فليس هناك أدنى شك عند المؤمن الواثق بربه أن الرزق بيد الله ، فلا داعى للخوف ولا داعى للانقياد لتلك النفس الأمارة بالسوء بل عليه السعى لذكر الله والمشى فى مناكب الأرض والتوكل على

١ — سورة هود الآية : ٦

٢ — صحيح مسلم — كتاب القدر — باب كيفية الخلق آدمى فى بطن أمه ٤ / ٢٠٣٦ رقم ٢٦٤٣

٣ — سورة يونس الآية : ٣١

٤ — سورة النمل الآية : ٦٤

٥ — سورة سبأ الآية : ٢٤

٦ — سورة فاطر الآية : ٤

٧ — سورة الملك الآية : ٢١

الله قال الصادق المعصوم : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماسا وتروح بطانا »^(١) .

فليطمئن المؤمن نفسه وليقل لها دائما :

لا تعجلن فليس الرزق بالعمل

الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل

فلو جهدنا لكان الرزق يطلبنا

لكنه خلق الإنسان من عجل .

قوله تعالى : ﴿ فُورَب السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ يقسم سبحانه بذاته العلية أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكو فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون ، وكان معاذ — رضى الله عنه — إذا حدث بالشئ يقول لصاحبه : إن هذا الحق كما أنك ههنا .

قال العلامة ابن القيم في قوله تعالى : ﴿ فُورَب السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به ، على أجل مقسم عليه ، وأكد الأخبار بهذا القسم ، ثم أكد بتشبيهه بالأمر المحقق الذى لا يشك فيه ذو حاسة سليمة . فقال : فُورَب السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ واقع ، كما أنكم تنطقون وقال الفراء : إنه لحق كما أن آدمى ناطق . وقال الزجاج : هذا كما تقول في الكلام : إن هذا الحق كما أنك ههنا .

قلت : وفي الحديث « إنه لحق كما أنك ههنا »^(٢) فشبّه سبحانه تحقيق ما أخبر به بتحقيق نطق آدمى ووجوده ، والواحد منا يعرف أنه ناطق ضرورة ، ولا يحتاج نطقه إلى استدلال على وجوده ولا خالجه شك في أنه ناطق . فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، وأسمائه ، وصفاته حق ثابت في نفس الأمر ، يشبه بثبوت نطقكم ووجوده . وهذا باب يعرفه الناس في كلامهم يقول أحدهم : هذا حق مثل الشمس .

١ — سنن الترمذى — كتاب الزهد — باب ما جاء في الزهادة في الدنيا ٤ / ٤ رقم ٢٤٤٧ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب التوكل واليقين ٢ / ١٣٩٤ رقم ٤١٦٤ ومسند أحمد ١ / ٣٠

٢ — انظر تفسير ابن كثير — سورة الذاريات ٧ / ٣٩٧ آية ٢٣

وههنا أمر ينبغى التفطن له ، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به ، وهو أصدق الصادقين ، وأقسم عليه ، وهو أبر المقسمين وأكدته بتشبيهه بالواقع الذى لا يقبل الشك بوجه . وأقام عليه من الأدلة العيانة والبرهانية ما جعله معانياً مشاهداً بالبصائر . وإن لم يعاين بالأبصار . ومع ذلك فأكثر النفوس فى غفلة عنه لا تستعد له ، ولا تأخذ له أهمية . والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه منهم إلا الفرد بعد الفرد . فأكثر الخلق لا ينظرون فى المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار ، ولا يتفكرون فى قلة مقامهم فى دار الغرور . ولا فى رحليهم وانتقالهم عنها ، ولا إلى أين يرحلون ؟ وأين يستقرون ؟ قد ملكهم الحس وقل نصيبهم من العقل ، وشملتهم الغفلة ، وغرتهم الأمانى التى هى كالسراب ، وخدعهم طول الأمل ، وكان المقيم لا يرحل ، وكان أحدهم لا يبعث ولا يسأل ، وكان مع كل مقيم توقيع من الله : لفلان ابن فلان بالأمان من عذابه ، والفوز بجزيل ثوابه . فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما حصلت فإنهم حصلوها ، ومن أى وجه لاحت أخذوها ، غاقلين عن المطالبة ، آمنين من العقابة . يسعون لما يدركون . ويتركون ما هم به مطالبون ويعمرون ما هم عنه منتقلون . ويخربون ما هم إليه صائرون . وهم عن الآخرة هم غافلون . ألهتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون فى مصالحها ، ولا يأخذون فى جمع زادها فى سفرها ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته ، وتحصى عليه أنفاسه ، ومطايا الليل والنهار تسرع به ، ولا يتفكر إلى أين يحمل ، ولا إلى أى منزل ينقل ؟

وكيف تنام العين وهى قريرة ولم تدر فى أى المحلين تنزل ؟ وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته ، وذهاب لذاته ، لا لما سبق من جناياته ، ولا لسوء منقلبه بعد مماته ، فإن خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة ، وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولا بد . فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله وسار بفكره ، وأمعن النظر . وتأمل الآيات . لفهم المراد من إيجاده . ولنظرت عين الراحل إلى الطريق . ولأخذ المسافر فى التزود والمريض فى التداوى . والحازم ما يجوز أن يأتى . فما الظن بأمر متيقن . كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم . وكأنهم يعانيون الأمر . فأظلمت ربوع الإيمان من أهلها خالية . ومعالمه على عروشها خاوية . قال ابن وهب : أخبرنى مسلم بن على . عن الأوزاعى قال : كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤوسهم الطير مقبلين على أنفسهم ، حتى لو أن حبيباً لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم لما التفت إليه ، فلا يزالون كذلك إلى طلوع الشمس . ثم يقوم بعضهم إلى بعض . فيتخلفون بأول ما يقضون فيه من أمر معاده وما هم صائرون إليه . ثم يأخذون فى الفقه .

من قصص الأنبياء مع أقوامهم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَحَرًا أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَعَصِّرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾

تفسير المفردات

(الضيف) لفظ يستعمل للواحد والكثير (المكرمين) أى : عند إبراهيم إذ خدمهم هو وزوجه وعجل لهم القرى وأجلهم فى أكرم موضع . (قوم منكرون) أى : قوم لا عهد لنا بكم من قبل . (فراغ) إلى أهله) أى : ذهب إليهم خفية من ضيفه ، (سمين) أى : ممتلئ بالشحم واللحم . (فقربه إليهم) أى : وضعه لديهم ، (فأوجس منهم خيفة) أى : أحضر فى نفسه الخوف منهم (امرأته) هى سارة لما سمعت بشارتهم له (صرّة) أى : صيحة ، (فصكت وجهها) أى : ضربت يديها على جبهتها وقالت : يا ويلتنا ، (عجوز عقيم) أى : أنا كبيرة السن لا ألد . (وفى موسى) وجعلنا فى قصة موسى آية . (فتولى بركنه) فأعرض فرعون بقوته وسلطانه عن الإيمان . (وهو ملهم) آت بما يلام عليه من الكفر .

(الريح العقيم) المهلكة لهم ، القاطعة لتسلمهم .
 (كالرميم) كالشيء البالي المفتت الهالك .
 (ففتوا) فاستكبروا وطفغوا . (فأخذهم الصاعقة) فأهلكتهم صيحة أو نار من السماء . (وما كانوا منتصرين) أى : ما كان لهم ناصر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه إنكار قومه للبعث والنشور حتى أقسم لهم بعزته أنه كائن لا محالة — سلى رسوله فأبان له أنه ليس ببدع فى الرسل ، وأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، وأنهم إن تمادوا فى غيهم وأصروا على كفرهم ولم يقلعوا عما هم عليه فسيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية . كقوم لوط وفرعون وعاد وثمود وقوم نوح من قبل .

وذكر إبراهيم من بين الأنبياء لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبى — ﷺ — مجلى سنته ، ولأن العرب كانت تجله وتحترمه وتدعى أنها على دينه .

وأق بالقصص بأسلوب الاستفهام تفخيماً لشأن الحديث كما تقول لمخاطبك : هل بلغك كذا وكذا ، وأنت تعلم أنه لم يبلغه توجيهها لأنظاره حتى يصفى إليه ويهتم بأمره وتنبيهها إلى أن الرسول — ﷺ — لم يعلم به إلا من طريق الوحي .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشره بغلام عليم فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ قضت مشيئة الله بأن يهلك قوم لوط الذين فعلوا الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من عالم زمانهم ، فقد كان الرجال مصابين بالشذوذ الجنسى مما حكى الله عنهم : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ (١) ولهذا حق عليهم العذاب من الله فأرسل سبحانه ملائكة لإنزال الهلاك بهم ، ولكنهم أمروا قبل ذلك أن ينزلوا ضيوفاً على إبراهيم بصورة فتيان

تصويب أخطاء المجلد السادس

الجزء الخامس والعشرون

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٢٥٠	٨	لا إله رب السموات السبع	لا إله إلا الله رب السموات السبع
٥٢٧٥	٢	ثم لا يجاورنك	ثم لا يحاورونك

الجزء السادس والعشرون

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٥٨٧	٥	لحمر	عمر
٥٥٩٣	١٣	نشدم	نقدم
٥٥٩٥	٢٣	اليمكال	المكيال
٥٥٩٧	١٩	دتارا	ونارا
٥٦٠١	٢٢	جر	جد
٥٦٠٩	٨	هم	هما
٥٦٤٢	٦	حكيم بم	حكيم بن
٥٦٤٧	١٣	يفش	يفشى
٥٦٦٢	٨	إنى	أنى
٥٦٧١	١٥	وما يجدون	وما يحدون
٥٦٧١	٢٠	وعزته	وعترته
٥٧٠٥	٨	سوف	سوق
٥٧٠٦	١٠	قلبي	قلب
٥٧٠٨	٢٥	فأحرروا	فأخروا
٥٧٦٢	٥	الحار	الحارث
٥٧٦٤	٤	الظيم	القيم
٥٨٠٣	٢	مخلوق خالق	مخلوق لخالق
٥٨٠٤	١	ترك	فاختنق من
٥٨٠٥	١٠	تنبتها	تثبتها
٥٨٠٧	٢٦	فواجبا	فواعجبا
٥٨١٧	٢٠	تمبه	تيميه
٥٨٢١	٩	عن أبا	عن أبي
٥٨٢٣	١٣	لما بدع	لما بعد
٥٨٣٩	٨	فأعل	فاعمل
٥٨٥٤	١	زيادة (عن)	ابراهيم

محتويات المجلد السادس

الجزء الرابع والعشرون

آخر سورة الزمر (٣٢ - ٧٥) ، سورة غافر (١ - ٨٥)

سورة فصلت (١ - ٤٦)

الصفحة

* سورة الزمر

٤٩٣٨	الآيات ٣٢ - ٤٦ - أحكام صادقة لا مرية فيها
٤٩٤٦	الآيات ٤٧ - ٥٢ - عاقبة الظالمين
٤٩٤٨	الآيات ٥٣ - ٦١ - رحمة وتوجيه
٤٩٨٢	الآيات ٦٢ - ٧٥ - من مشاهد القيامة في القرآن الكريم

* سورة غافر

٤٩٩٣	مقدمة السورة
٤٩٩٤	الآيات ١ - ٦ - أول سورة غافر
٤٩٩٨	الآيات ٧ - ٩ - منزلة المؤمنين عند الله تعالى
٥٠٠١	الآيات ١٠ - ٢٢ - أحكام تخشع لها القلوب
٥٠٠٩	الآيات ٢٣ - ٥٠ - قصص موسى عليه السلام مع فرعون
٥٠٦٧	الآيات ٥١ - ٦٠ - الوعد الحق
٥٠٨٤	الآيات ٦١ - ٦٨ - من سورة غافر
٥٠٨٨	الآيات ٦٩ - ٨٥ - حال أهل النار

* سورة فصلت

٥٠٩٤	مقدمة السورة
٥٠٩٥	الآيات ١ - ٨ - أول سورة فصلت
٥٠٩٩	الآيات ٩ - ١٢ - من آيات التوحيد
٥١٠٢	الآيات ١٣ - ١٨ - قصص عاد وثمود
٥١١٧	الآيات ١٩ - ٣٦ - أحوال أعداء الله وتوجيهات إلى أولياء الله
٥١٤٧	الآيات ٣٧ - ٤٦ - من آيات التوحيد

الجزء الخامس والعشرون

آخر سورة فصلت (٤٧ - ٥٤) ، سورة الشورى (١ - ٥٣)

سورة الزخرف (١ - ٨٩) ، سورة الدخان (١ - ٥٩)

سورة الجاثية (١ - ٣٧)

* سورة فصلت

٥١٥٥	الآيات ٤٧ - ٥٤ - من أحوال الإنسان
------	-------	-----------------------------------

* سورة الشورى

٥١٥٩	- مقدمة السورة
٥١٦٠	- أول سورة الشورى
٥٢١٤	- الآيات ١ - ١٢
٥٢٣٣	- الآيات ١٣ - ٢٦
٥٢٣٩	- الآيات ٢٧ - ٣٥
٥٢٩٣	- الآيات ٣٦ - ٤٣
٥٢٩٧	- الآيات ٤٤ - ٥٠
	- الآيات ٥١ - ٥٣

* سورة الزخرف

٥٣٦٣	- مقدمة السورة
٥٣٦٤	- أول سورة الزخرف
٥٣٧٤	- الآيات ١ - ٢٥
٥٣٨٢	- الآيات ٢٦ - ٤٥
٥٣٨٧	- الآيات ٤٦ - ٥٦
٥٤١٤	- الآيات ٥٧ - ٦٥
	- الآيات ٦٦ - ٨٩

* سورة الدخان

٥٤٣٣	- مقدمة السورة
٥٤٣٤	- أول سورة الدخان
٥٤٤١	- الآيات ١ - ١٦
٥٤٤٥	- الآيات ١٧ - ٣٣
	- الآيات ٣٤ - ٥٠

* سورة الجاثية

٥٥٠٠	- مقدمة السورة
٥٥٠١	- أول سورة الجاثية
٥٥٠٤	- الآيات ١ - ١١
٥٥٣٥	- الآيات ١٢ - ٢٦
	- الآيات ٢٧ - ٣٧

الجزء السادس والعشرون

- سورة الأحقاف (١ - ٣٥) ، سورة محمد (١ - ٣٨)
 سورة الفتح (١ - ٢٩) ، سورة الحجرات (١ - ١٨)
 سورة ق (١ - ٤٥) ، سورة الذاريات (١ - ٤٦)

* سورة الأحقاف

٥٥٤١	- أول سورة الأحقاف
٥٥٤٧	- الآيات ١ - ١٤
٥٥٦٤	- الآيات ١٥ - ٢٠
	- الآيات ٢١ - ٢٨

* سورة محمد

٥٥٧٥	- مقدمة السورة
٥٥٧٦	- أول سورة محمد
٥٦٣٨	- دروس وعبر
٥٦٤٥	- من أحوال المنافقين
٥٦٥٢	- أحكام قاطعة الثبوت

* سورة الفتح

٥٦٦٣	- مقدمة السورة
٥٦٦٥	- أول سورة الفتح
٥٦٦٩	- بيعة الرضوان
٥٦٧٤	- مواقف لبعض الأعراب
٥٦٧٨	- بيعة الرضوان وصلح الحديبية
٥٦٨٥	- الرسول وصحبه

* سورة الحجرات

٥٧٥٥	- مقدمة السورة
٥٧٥٦	- أول سورة الحجرات
٥٧٦٠	- إرشادات إلهية
٥٧٧٨	- من الآداب الإسلامية
٥٧٩٣	- حقيقة الإيمان والإسلام

* سورة ق

٥٧٩٧	- مقدمة السورة
٥٧٩٩	- أول سورة ق
٥٨١٤	- الموت والبعث والجزاء
٥٨٤٩	- مواعظ وآداب

* سورة الذاريات

٥٨٥٦	- مقدمة السورة
٥٨٥٧	- أول سورة الذاريات
٥٨٨٩	- من قصص الأنبياء مع أقوامهم